



إبراهيم أحمد

قيثارة أجاثا كريستي

رواية

ألف ياس
Alf Yaa

قيثارة أجاثا كريستي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المؤلف: إبراهيم أحمد
الكتاب: قيثارة أجاثا كريستي (رواية)
صدرت النسخة الرقمية: تموز/يوليو 2026
الطبعة الأولى حزيران 2016، الدار العربية للعلوم ناشرون.

- الناشر: «ألف ياء AlfYaa»
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، Mobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر) محفوظة لـ «ألف ياء AlfYaa»
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- «ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب



- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

إبراهيم أحمد

قيثارة أجاثا كريستي

رواية

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

(1) اختفت أجاثا كريستي في بغداد، وما زال اللقلق في برج القشلة!

استيقظ عالم الآثار الإنجليزي ماكس مالوان صباحاً. لم يجد زوجته أجاثا كريستي بجانبه، أو أمام آلتها الكاتبة في زاوية من حجرتهما في الفندق. هرع متلهفاً إلى الشرفة؛ فلم يجدها. قدر إنها سبقته إلى المطعم؛ فقد طال نومه. هي على الأغلب لا تهبط إلى المطعم دون أن يرافقها فيجلسان إلى مائدة الطعام غير متقابلين، بل متجاورين ليتبادلا لقمة أو لقمتين باليد على طريقة العراقيين، فهما قد عاشا بينهما طويلاً، وأخذوا بعض ما وجداه جميلاً من عاداتهم.

لكنها حين تقدر أنه سيستيقظ متأخراً، تهرع وحدها لتجول على شاطئ النهر، ثم حين تعود لآلتها الكاتبة لتفضي لها بما دار في رأسها، من أحداث روائية في جولاتها الصباحية في شوارع بغداد تخشى أن توقظه تكات حروفها المسرعة! فتضرب عليها بهدوء ورقة، مستعملة كعادتها أصابع ثلاثة فقط، أو تحملها إلى منضدة صغيرة في الشرفة، وقد تنزل بها لتجلس في زاوية من المطعم قريباً من شباك كبير تتدفق منه شلالات نور من فوق النهر، فتستغرق في الكتابة، لا تتوقف حتى ينقطع سيل أفكارها. عند الكتابة تنسى كل شيء حتى ماكس، لا تكثر له أن يكون قد نزل وجلس على مائدتهما المفضلة، محاذراً الاقتراب منها! فهو كثيراً ما يفتح عينيه في فراشه من حلم جميل ليدخل معها حلاًماً آخر حين يجد وجهها وهي ترمقه بعينين حانيتين تلمع فيهما عاطفة الأمومة والعشق الزوجي. كانت تكبره بثلاث عشرة سنة تقريباً، كان يفكر وبكلمات مختلفة في كل مرة: هي لا تهبط إليه درجات عمرها بل تأخذه، إلى قمة

المرتقى العالي من عمرها كأم حل لها المحرم، فتحتضنه كطفل يحتاج دفئها الجسدي والروحي معا، وتجعله يطل على الزمن الفسيح من برج عمرها المتقدم، وهو عليه أن يرتقي درجات الزمن من شبابه الفج المتعثر بحجارة السفح وحشائشه إلى ذروة عمرها الغني بالتجارب، كشجرة باسقة ثرية بالزهر والثمر تحلق بين الغيوم.

- هكذا أنت يا حبيبتي أجاثا، قمة الروح في تألق الجسد، ذروة التجربة في خضم النهر المتدفق، جمر متوهج دائما حين يحاصرنا الزمن بالرماد!
وترد عليه ضاحكة:

- أخشى أن تكون قد أخذت كلماتك هذه من ألواح الموتى!
ويرد ضاحكا:

- إنها من قلبي! وحتى لو اقتبسناها من ألواح الموتى؛ فإنها معك ستدخل أوراق العشاق الأحياء المراهقين والمسنين!
كانت أجاثا تقول: "إن أجمل ما ينبغي أن يتحقق بين الزوجين، هي الرفقة الحميمة، أن يضع أحدهما يده بيد الآخر، ويسيران في الحقول الخضراء على أرصفة شوارع المدن حتى لو كانت مهجورة، فيها يلتقي قلباهما في عناق ساحر أبدي يتلاشى أمامه الموت، والنسيان".

لم تكن أجاثا تغادر الحجرة لوحدها إلا حين تتأكد إنه لا يستطيع مشاركتها جولتها الصباحية المبكرة المعتادة على شاطئ دجلة، أو شوارع بغداد قبل أن تزدهم بالمارة والبضائع، ولم تتبدد منها رائحة خبز الأفران المشتعلة مع الفجر. وما تزال بائعات القيمر والروبة والباقلاء المسلوقة جالسات قريبا من أبواب المخابز. لكنها أرادت أن يستمتع بنومة طويلة مقدرة إنه متعب لما بذله من جهد طويل، ليس في التنقيب وحسب، بل في

جرد المحصول الأثاري الكبير وتحليل سماته، ووضع فهارسه، وتحديد قيمته التاريخية. بدا صباح بغداد متأقلاً يغري بالتجوال، حاول تهدئة قلقه، ومع ذلك لم يستغرق طويلاً في استحمامه، فهاجس غيابها راح يلح عليه، ويقلقه رغما عنه. فاقم شكوكه إنه وجد غطاء آلتها الكاتبة محكم الإغلاق. حين تستعملها صباحا تبقّيها غير مغطاة بإحكام؛ فهي ستعود للكتابة عليها بعد قليل. جفف شعره الطويل الأشقر، وبسرعة ارتدى ثيابه الربيعية الأنيقة، بنطلون وقميص وبلوزة خفيفة. وسارع إلى الدرج! هما في الفندق لأنهما ملا السكن في بيت الآثار. أحبا هذا الفندق كثيرا، وصار لهما عشا لأيام عسل متجددة، اختطا فيه عادات وطقوسا سعيدة، بعد عودتهما من تجوالهما الصباحي على دجلة أو في شارع الرشيد، تأتي أجاثا محملة بالأفكار فتهرع إلى الآلة الكاتبة، لتجري أناملها الثلاثة الرشيقة على مفاتيحها مدونة الأسطر الأولى، أو الأخيرة من روايتها خشية أن تهرب من ذهنها. هي تعتقد أن أهم وأخطر الأفكار، بوليسية كانت، أو فلسفية تهل مع الخيوط الأولى للشمس، وحين يكون الرأس خفيفا لا تنقله معدة ممثلة. لم يجدها في صالة الطعام، سأل جبرائيل عامل المطعم عنها فأبدى دهشته، قال أنه كان ينتظر هبوطهما فقد أعدوا لهما فطورا شهيا خاصا؛ أوصت عليه ليلة أمس. جبرائيل شاب كلداني يحب أجاثا ويتلهف لتقديم أية خدمة لها فهو مغرم برواياتها المترجمة؛ يعيد قراءتها. ماكس يلمح في نظراته هياما بوجهها وقامتها الممشوقة ويضحك في سره، سألته:

- هل رأيتهما تخرج من الفندق؟

هز رأسه باستغراب :

- لا، لم أرها هذا اليوم!

راح يحدق به، أين تكون أجاثا الآن؟ هل طارت من الشرفة

وراء أحد أبطال روايتها المجنونة المستغرقة بوضع تفاصيلها في رأسها، وترفض أن تحدثني عن تفاصيلها مكثفية بالقول ستكون مفاجأة لك، ستهزك كما لو خابية أثرية قديمة مملوءة بحلي وأخبار ملوك آشور وسومر؛ شعر بشي من الغضب منها أنها تركت الفندق، دون أن تعلمه.

عرض عليه جبرائيل أن يعد له الفطور:

- لا تقلق ربما هي خرجت تتسوق بعض الأشياء!

كان من عادة أجاثا، كلما جاءت بغداد، أن تدخل مكتبة مكنزي، القريبة من الفندق، كل يوم، تتصفح الكتب الجديدة، تشتري كتابا أو كتابين، تسأل عن مدى الإقبال على رواياتها بالإنجليزية، وتتتسم أخبار الكتب ورواياتها في لندن وأوربا، ثم تذهب إلى الشورجة تشتري شيئا من التوابل، تعد منها كؤوسا تحتسيها دافئة عند شعورها بالبرد أو التعب، لكنها عادة تعلمه أنها ستخرج، تتركه يتصفح كتبه التاريخية أو سجلاته التي لا يكف عن التمعن بها. أجاثا تتحدث عن أن بعض التوابل تنشط الذهن، بل وتثير الأخيلة الروائية، البوليسية! كيف للزهور أن تبعث رؤى الجريمة؟ تقول أنها حين تكون حادة الطعم غامضة تدغدغ مناطق سرية في النفس فتوقظ نوازعها الشريرة! طفق يفتش في كل مكان قريب يعتقد أنها قد تكون ذهبت إليه، ربما هي في جولتها الصباحية على النهر أو الشارع الطويل تتفقد أزقته وحواريه في دنيا آمنة لم يسمع حتى الآن عن تعد على الأجانب فيها. أكثر من ثلاث ساعات وهو بين انتظار وتطلع، وعودة للبحث، مع عمال الفندق الذين قلقوا وجدوا في البحث معه دون أن تلوح أية بارقة أو إشارة تهدي إليها، كلما مر الوقت يتفاقم قلقه ويغدو مأخوذا مشدوها. وجد نفسه في يأس، وإعياء شديدين. داخله هاجس رهيب أن زوجته قد اختفت تماما، وعليه أن يسارع لإعلام السلطات العراقية، والسفارة البريطانية

بذلك، ودون إبطاء آخر، ولكنه فجأة أزاح هذا الخاطر الرهيب عن ذهنه، لا ! هي بخير، وثمة التباس ما قد حصل لها جعلها تتأخر، وستعود، ما عليه سوى أن ينتظر!

حل ماكس مالوان وزوجته في فندق تاكر بالاس، منذ ليلتين، كانا قد نزلا فيه مرارا على مدى سنوات، كلما جاء إلى بغداد يقصدانه كأنه بيتهما الآخر. يعد الفندق من أرقى فنادق العاصمة، فهو جميل وآمن وخدماته جيدة وممتازة، يقع في شارع الرشيد، قلب بغداد، والذي يضج نهارا وليلا بخطى وأصوات المتزاحمين على غاياتهم الكثيرة المتلاحقة!

فتح الوالي العثماني خليل باشا، هذا الشارع لينطلق الجيش منه لمواجهة الجيش الإنجليزي القادم من الجنوب، لكن بعد فترة كان الإنجليز يدخلون منه إلى بغداد، شيدوا فيه سفارتهم وشجعوا على بناء الفنادق ومقرات الشركات فيه! وبسرعة صارت تعج بالإنجليز وأصدقائهم من الدول الأخرى الذين وجدوا في البلد الكثير مما يغري للاستثمار، ومقايضة مصنوعاتهم من السيارات والنسيج والساعات والأدوات الكهربائية والمشروبات الكحولية والحلوى، بالكثير من الحبوب والجلود والتمر. وبعد بدء الشركات الإنجليزية استثمارها للنفط صارت أضواء هذه الفنادق لا تتطفئ إلا حين يغمرها ضوء الشمس. وأن تختفي امرأة إنجليزية فجأة من هذا الفندق المحاط بعساكر الإنجليز ودبلوماسيهم ورجال مخابراتهم، فهو تحدٍ سافر لهيبة بريطانيا وضربة موجعة لنشاطها الاقتصادي وطموحاتها في هذا البلد! كان فندق تاكر بالاص ضخما، يأخذ الجانب المحاذي للنهر من شارع الرشيد، بنته دائرة السكك الحديدية، المشاركة بقطار الشرق السريع بعناية فائقة وسخاء على النمط الإنجليزي، يصعد إليه بأدراج رخامية عريضة، أبوابه المزدوجة الفخمة تأخذ معظم واجهته، حجراته واسعة بسقوف

عالية، وشرفات واسعة تطل على دجلة. بأسرة فخمة وفرش وستائر مخملية راقية. طابقه السفلي يشغله البهو، ومطعم كبير، وبار يضاوي بارات فنادق أوربا برفوفه المكتظة بزجاجات الخمر الفاخرة، والسجائر المتنوعة، مما يوحي إنه قد أفلح في انتزاع نفسه من جاذبية هذه الأرض المزدانة بالقباب والمآذن! زبائنه عادة خليط من الجنسسين، موظفون وجواسيس وضباط إنجليز، تجار، مهندسون ورجال مخابرات واستكشاف. منح الفندق لمستثمر عراقي، لكنه ظل يحمل نقش التاج الملكي الذهبي على أطباقه وكؤوسه وملاعقه!

آخر مرة رأى ماكس فيها زوجته أجاثا حين كانت واقفة في شرفة حجرتهما في الطابق الثاني والمطلة على النهر، بثوب النوم الوردي الرقيق؛ تستمتع بفجر ربيعي يصعد سماء بغداد محتضناً قرص الشمس؛ متوهجاً ببطء، وثمة ضباب خفيف يتصاعد من الماء، وصفوف النخيل تمتد كأذرع طويلة تبتهل بخشوع للسماء، وفرح أنها تحلق كما في كل فجر مع سعادتها الشرقية الغامرة. هي كما تقول تقرأ في سماء بغداد تاريخ الشرق، وتستلهم منه أطياف وأشباح رواياتها، تلك متعتها العميقة. كانت تقول له دائماً: "أعظم متعة يجنيها الكاتب هي ابتداع حكايات رواياته ومسرحياته، وحتى أحلامه الليلية" عندما رآها ماكس في الشرفة؛ كان خارجاً من الحمام شاعراً أنه لا يزال مرهقاً ناعساً؛ فعاود النوم مسرعاً. يتذكر إن ذلك كان في الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف، كانت مولية ظهرها المتين الطويل لباب الحجرة المفضي إلى الشرفة، لم تشعر بحركته، أو أنها قدرت أنها عادية، وتتعلق بحاجة إلى الحمام، وسيعاود النوم، فبقيت على وقفها ساهمة، مستغرقة في تطلعها السماوي. كانت تعرف أنه في الليلة الفائتة قد آوى إلى فراشه متأخراً، بعد يوم عمل طويل جداً، هو يريد تسليم كل شيء

وتبرئة ذمته من تراب الآثار، ورائحة الموتى القدامى، والذهاب معها في سفرة إلى أعالي الفرات قد تستغرق يومين، قبل سفرهما إلى حلب. حيث سيبدأن حملة تنقيب طويلة في أرضها الغنية بالكنوز الهامة. هما في كل موسم يحلان فيه يؤجران سيارة خاصة تنطلق بهما إلى بلدة أيس في أعالي الفرات، أخذت تحس وهي على دجلة برداذ نواكيرها الناعم البارد يغسل وجهها وروحها، يصعدان إلى سور قلعتها القديمة، يجتازان السباخ، حيث معمل الفخاريات، ومسبك دبس التمر. يسلمان نفسيهما للصبيان المتضاحكين يقودونهم ويخدمونهم مجاناً، يشعلون لهما عيون القار فوق الماء. تمد أجاثا ساقها في مائها الكبرى الدافئ لتشفى مما قد يكون بين أصابعها من فطريات أو جفاف. يأكلان في مطعم حمد الكردي "ألد كباب في العالم" كما وصفته أجاثا كريستي. يواصلان رحلتهما إلى سوريا. في العام الماضي، وبدعوة من صديقهما الرحالة المغامر ولفريد ثيسجر، قضيا أياماً جميلة من الشتاء في الأهوار، تلك البحار الأليفة الخفيفة الغور، تطفو عليها بيوت فقراء، على وجوههم مسحة حزن وعذاب طويلين، يطوفون بقواربهم النحيلة الرشيقة بين تجمعات الطيور والبردي والأسماك والجواميس المكتنزة ضروعها باللبن الدسم، تنبعث أصواتهم الجميلة بغناء شجي تحس أجاثا كأنه ينبعث من القيثارة السومرية الأثيرة لديها. استمعا كثيراً لحكايات وشرح لولفريد المهووس بالأهوار، والمدله بغرام عجيب لفتاة جميلة تدعى بنت المعيدي لم يلقها ولم يرها، شاهد صورتها فقط مصادفة في أحد المقاهي فتعلق بها وغير من أجل بحثه عنها مشاريع كثيرة في حياته، بل حياته كلها على ما يبدو، "بحث غريب مضحك، ورجل مجنون لكنه ظريف وجذاب حق". كم في هذه البلاد من مناطق جميلة تمنحني النشوة، وأهلها الريفيون يذكرونني بالناس الذين ترعرت بينهم في جنوب إنجلترا، ماكس محق حين يقول لي:

"أنت مهما طفت بلاد الدنيا، تظلين ريفية فطرية تحبين الناس القانعين بحياتهم المنعزلة في أعماق الريف. ماكس بقامته الممتلئة الفارعة، وجهه الأشقر المدور الوسيم، يصير أكثر حورا حين يجوس بنشاط بين تلال وأطلال هذه المدن؛ تغمره أشعة شمس الشتاء الخفيفة، قائلا:

- أجاثا هذه مدن موعلة في القدم، هي امتداد لحضارة بابل، تحت أرضها تهجع اليوم حلقات هامة مثيرة من تاريخ العالم وكم أتمنى لو أجد مؤسسة دولية سخية تدعنا للتنقيب فيها، كنا وجدنا الكثير من الحلقات التاريخية الضائعة.

قرر ماكس أن يذهب إلى بيت الآثار عليها تكون هناك، نسيت بعضا من أوراقها أو كتبها، أو لج بها شوق إليه رغم أنهما لما يغادراه سوى قبل يومين، فأحمد الحارس ما زال هناك ولم تبدأ إجازته بعد. قال لجبرائيل:

- سأذهب إلى بيتنا في الكرادة، إذا عادت أجاثا لا تدعها تخرج في اثري، قل لها أن تنتظرنني!

ماكس يسمي بيت ومخزن الآثار "بيتنا". هو بيت قديم مكون من طابقين على الضفة الثانية من النهر، يطل على دجلة في الكرادة، خصص لإقامة الآثاريين الأجانب، وهو أجاثا وزملاؤهما يستعملونه للاستراحة أيضا، كلما قدما من الموصل، كما إن إدارة المتحف الوطني جعلت جانبا منه مخزنا لما يأتي من لقي وألواح أثرية تستخرجها فرق التنقيب في وادي نينوى، أو بابل وأور. يقيم فيه ماكس وأجاثا أحيانا حفلات شاي لزملائهما، أجاثا تكره المشروبات الكحولية، وأحيانا تمنع تناولها في البيت. ورغم إن البيت واسع ومريح ولا يكلفهما شيئا، إلا إنهما أحيانا ينتقلان إلى فندق تايرك بالاص أو ريجينت، أو فندق زيا ليقوما بعيدا عن رائحة الآثار ويعيشان أجواء سياحية يختلطان فيها بمسافرين رائحين غادين من بلدان

العالم. أراد قضاء استراحة قصيرة في الفندق ينقطعان فيها عن أجواء العمل، ريثما يتوجهان إلى حلب لبدء حملة تنقيب أخرى، في وادي الرافدين! الفندق يجعلهما يشعران أنهما في إجازة، لكنه عاد يتمتم "أوراق الكشوفات التي حملتها معي لم تجعلني أشعر بالإجازة، وجعلتني أغفل عن أجاثا، ولا أدري ماذا حصل لها!" كان ماكس الدقيق في شئونه متأكدا أنهم حملوا من البيت كل مقتنياتهم الشخصية. ومع ذلك فكر ربما لأجاثا حاجات صغيرة نسيتهما هناك، خرج مسرعا. سار في شارع الرشيد متلفتا، متطلعا في الوجوه. كان الشارع قد بدأ يزدهم، أغلب المحلات فتحت أبوابها، عرج على مكتبة مكنزي، وجد الشاب فريد، وهو كردي فيلي كان يعمل مساعدا في المكتبة ثم آلت إليه بعد موت صاحبها الاسكتلندي دون وريث، وقد أتقن مهنة الكتبي، ويود ماكس وأجاثا. قال انه لم ير أجاثا هذا اليوم، مضيفا:

- وصلتني روايات جديدة لها، مساء أمس!

- هي ستسر كثيرا بذلك.

قالها ماكس كأنه يهدئ نفسه. مضى سائرا إلى الشورجة. تجول قليلا، لم يجدها، قرر عبور الجسر مشيا عله يصادفها في الطريق، فهي مولعة بالتجوال مشيا في أمكنة بغداد القديمة تتأمل الجدران السميكة القديمة، قباب المساجد والحوانيت والحمامات العامة الواطئة، الأسواق المكتظة، تنتسم مولهة رائحة العطور والخضر والفاكهة. تجد بدخان الشواء المتصاعد من أسياخ لحم الضأن على الجمر كما تقول (رائحة الطعام الأول الذي أعده الإنسان دون تزويق ولا تعقيد). رأى ماكس أن ملامح الفاقة والحزن في وجوه الناس توحى بطمأنينة، لم ير فيها سمات وحشية أو عدااء قد تكون أدت أجاثا، أو غيبتها. نزل إلى الشاطئ. طالعه المجرى ممثلاً عكرا لكنه غير خطر،

كان دعبول وقاربه الرشيق أمامه، إنه نوتي ماهر يعبران معه دجلة عادة، يسليهما بحكاياته وغناؤه الشجي، رغم فقدته لولده قبل عام، وهو أيضا من المغرمين بأجاثا، (ومن يرى أجاثا؛ ولا يغرم بها؟) هي رغم بلوغها التاسعة والخمسين هذا العام، لكنها تبدو في الأربعين، امرأة ناضجة شهية مثيرة، كان ماكس يقول لها كلما رأيت رسومات وأيقونات آلهات وادي الرافدين أتخيلهن وقد اجتمعن في جسدك، لا فرق سوى أنهن سمراوات أو خمريات، لوحتهن الشمس، بينما جسدك أشقر يميل للوردي، حرارته تجعلني أكذب من يقول أن ثلوج أوربا تنتج نساء باردات!

- حتى في غزلك تبقى رجل أثار!

ويعود ليقول لها ضاحكا:

- اسمعي هذا الغزل المعاصر: ألا تلاحظين أن حصاني العربية حين نستقلها يبدآن بالعراك؟ إنهما يتنافسان على حبك! فتضحك سعيدة. كان دعبول يغني مثبتا عينيه على وجه أجاثا، يغني لها وحدها، وماكس يضحك في سره من هذا الرجل الخمسيني، الأسمر الطويل النحيف. وينفحه أجرا مجزيا. كأنه اليوم في انتظاره، سأله:

- هل عبرت أجاثا معك اليوم؟

- لم أرها هذا اليوم، أنت تدري، رؤيتي لها تعني صيدا وفيرا، وزبائن أكثر، رغم إنهم لا يعطونني شيئا، السمك يعطيني نقودا أكثر من الناس! انطلق تارة يلقي نكات، وتارة يغني، يريد أن يؤنسه. لم يكن لخياله مهما اشتط أن يتوقع ما يعانيه ماكس الآن. ماكس درس العربية، ويتكلمها بلهجة عراقية، لكنه لم يكن في مزاج يستطيع به مجارة دعبول في ثرثرته اللطيفة، لا يوجد يوم يحتاج فيه هذه اللغة مثل هذا

اليوم، حتى لتبدو له أجاثا مختبئة داخل هذه اللغة التي مهما تعلمها فهو لا يجيدها تماماً ولا يعرف كيف تصوير طلاس على أفواه أهلها، ودارا سميكا بينه وبينهم! أيمن للغة أن تختطف امرأة غريبة وتغيبها داخلها؟ وأية امرأة؟ أجاثا كريستي؟ التي طالما اختطفت هي نفسها أناسا كثيرين وطحنهم وعجنهم برواياتها داخل مصائب شتى، ثم تكشف الحقيقة بعد طول معاناة وترقب! ارتقى جانب النهر مسرعا. وتلقفته الصدمة من باب البيت الكبير! كان موصدا من الخارج بقضيب حديدي طويل كالسيف، وبمقابض متينة ما يؤكد أنه أقفل من قبل الحارس، ولا أحد في داخله. الباب الخشبي الكبير المرصع برؤوس مسامير ثقيلة يقف أمامه كأول أمل يتهاوى ويوحى أن اختفاء أجاثا أصعب مما تصور. خرج عليه رجل أشيب من البيت المجاور كان يعرفه، قال:

- الحارس سافر إلى أهله في الشرقا!

- متى؟

- ظهر أمس، أعلمني إنه سيسافر صباح هذا اليوم لقضاء إجازته مع عائلته!

مضيفاً وهو يتلمس معه صفيحة الحديد الطويلة التي تزخر الباب من الخارج:

- هو الذي قفله، ولا أحد في البيت طبعاً!

- ألم تر أجاثا؟

هز الرجل رأسه نافيا، متطلعا في وجهه مستغرباً. عاد ماكس إلى الشاطئ، شاحبا، ظل دعبول في انتظاره: أفضى له ماكس:

- أجاثا اختفت يا دعبول!

ضحك دعبول مطمئنا:

- لا تخف بلدنا آمن ،أنظر هناك إلى اللقلق فوق برج القشلة، متى ما رأيته يغادرنا تكون أجانا قد اختفت حقا.

بناية القشلة في الجانب الثاني ، الرصافة، قلعة تركية قديمة، أضحت اليوم تضم دواوين وزارات، ابتنى على برجها وفوق ساعتها الكبيرة لقلق عشاء يرى من بعيد: كان اللقلق واقفا في عشه كالأمير، حاول ماكس أن يطمئن. ركض باتجاه الفندق عل أجانا تكون قد عادت. وجد أمامه نظرات جبرائيل الفارغة المتسائلة!هرع إلى تلفون الاستعلامات، اتصل بمسكن صديقتهما عائشة السلام، متوقعا أن تكون عندها، دهشت حين أبلغها الخبر، قالت:

- لا أدري أنكما في بغداد، كيف تأتيان ولا تخبرانني!

لم يمض ماكس معها في عتبها، وجده ثقيلًا، بينما أجانا قد اختفت، عائشة تتصوره مجرد غياب قصير وتفاوت بينهما . حين أكد لها جدية اختفائها قالت:

- سأقلب الدنيا حتى أجدها،أجانا ليست للإنجليز وحسب ،هي لنا نحن العراقيين وللإنسانية كلها!

كلما أراد أن يطمئن أحس بشيء ثقيل غامض يطعنه. أدار رقم المغنية الحسنا عفيفة اسكندر، كانا قد ترددا على صالونها، استمعا لغنائها، ولغناء وموسيقى عراقية قديمة وحديثة ، من مغنين معروفين. أحد الملحنين ويدعى ناظم نعيم كان يعزف على آلة يقول أنها مستوحاة من القيثارة السومرية، وشعوبي يعزف على آلة يسميها الجوزة يقول أنها تركيب من آلة هندية قديمة وأخرى بابلية. طال رنين الجرس لكنه ظل ممسكا السماعه لا يدري لماذا خيل إليه أن أجانا عند عفيفة ربما لأن بيتها لا يبعد عن الفندق كثيرا، أو لأنها أحبت صالونها كثيرا، وأنها كانت تحاور فيه أدباء وشعراء يتحدثون الإنجليزية. كانت عفيفة يونانية الأصل؛ محبوبة من العراقيين، مقربة من رجال

كبار في الدولة، تحب أجاثا ومعجبة برواياتها و تناقشها حولها.
سمع صوت عفيفة تعتذر أنها كانت في الحديقة تسقي زهورها
وتطعم قطتها،تغير صوتها و شهقت حين سمعت ما قاله ماكس
،لكن صوتها عاد ببحته الدافئة:

- أين تكون ذهبت؟ إنها في بغداد، دار السلام ، اطمئن،
سأتصل بمعارفي من المسؤولين وسنجدها حتما، لا تقلق!

(2) هناك في بغداد أوراق الحكاية كلها، هل سأجدها يوماً؟ هل سأجد بغداد؟ هل سأجد نفسي؟ أم سيكون كل شيء هباءً؟

عدت إلى بغداد ربيع عام 2008، بعد إقامة موحشة باردة في السويد امتدت لثلاثين عاماً تقريباً! كان معي هذا الفصل من الرواية، لم أمض في كتابتها هناك؛ توقفت؛ قلت " يجب أن أحصل على تلك المعلومات والوثائق المتعلقة باختفاء أجاثا كريستي". كنت قد تركت أوراقى وديعة في بغداد لدى أحد أصدقائي عندما هربت بجلدي من العراق عام 1979. هجرت عملي في الرواية لأكثر من ربع قرن، حتى كدت أنساها، تذكرتها حين أخذت أحضر نفسي للعودة. واليوم وأنا في بغداد علي أن أجد أوراقى، وأرى إن كنت أستطيع مواصلة كتابتها.

صديقي حميد الذي أودعت لديه الأوراق عثروا على جثته قبل سنتين ملقاة في شارع حديقة عامة بين عشرات الجثث، حيث كانوا يجدون كل يوم ما يزيد على مئة جثة ملقاة في شتى الأماكن من بغداد، قتلوه وقد بلغ القتل الطائفي ذروته الشنيعة. حتى الآن ما يزال القتل والاعتقالات والتفجيرات في الشوارع والأماكن العامة متواصلاً، أشخاص يتحولون فجأة إلى جثث وأرقام باردة متعفنة مخيفة، في برادات المستشفيات وتبتلعهم المدينة بصمت دون غصة أو سوء هضم. لكن ليس هذا ما يجعلني أتردد وأؤجل الذهاب إلى بيت حميد، السبب الأقوى هو إنني لا أحتمل أن أجد بيته قد خلا منه، ماذا سأقول لزوجته وأبنائه؟ "جئت لأسلم عليكم، وأخذ أوراقى" كم هي كلمات بائسة أنانية ثقيلة بعد موت صديقي العزيز الطيب. كنت بشكل ما،

أحس بالذنب أنني من المسؤولين عن قتله، ألم أكن قد شاركت في العمل السياسي الذي قاد في نهاية المطاف إلى هذا الحال المريع؟ لماذا التهرب من الحقائق؟ هل بقيت أوراقي كما تركتها لديه؟ ما تزال كلمات حميد بصوته الواثق الحزين تتردد في سمعي "راح أضمرها لك بقلبي ، فقط لا تتأخر علينا؟" هل أنا الذي تأخرت ثلاثين عاما؟ أم الدنيا والسماء وقد نسيانا طويلا؟ عدت إلى البيت الذي كنت أسكنه قبل خروجي من العراق، وأنا في الخارج حرصت أن أرسل لوالدتي إيجاره، توفيت الوالدة بعد سنتين من فراقنا، والآن شقيقتي ليلي أضحت عجوزا، وقبل أن أسألها عن أوراقي الأخرى وكتبي حدثتني :

- أيام حملات التفتيش، واقتحام البيوت فجرا، أحرق الناس صور وأوراق أبنائهم المهاجرين والمختفين، أو الموتى، ومع ذلك كان من يسمونهم رجال الأمن؛ لا يصدقونهم ويتهمونهم بالتستر على متآمرين مجرمين، ويؤذونهم كثيرا!

لم يكف رجال الأمن عن التردد على البيت يبحثون عني، فتولت أختي حرق صوري وأوراقي، قالت الأم لا أطيق أن أرى صورته تحترق! منذ سنوات المنفى الأولى كنت أسمع من كثيرين يتحدثون عن صورهم وأوراقهم وقد تلاشت في النار بأيدي أحببتهم! كيف أريد لأوراقي لدى حميد أن تبقى؟ وهل ألومه وقد مات لو عرفت إنه كان قد أحرقها؟ ولماذا أنا مهتم هكذا بكتابة رواية عن اختفاء أجانا؟ أليس موضوعها بعيد عن هموم الناس في هذه الأيام الدامية الحالكة؟ لماذا أكتب عن روائية مهووسة بالقتل كأن شبعا ينفث دما يلاحقها، ولا أكتب عن حميد الذي وجدوا جثته في كومة جثث تحفها زهور وأشجار حديقة عامة؟ كثيرون كتبوا عن هذا الموت، وعن الزهور المتعفنة تحت الجثث، حسنا فعلوا ، ولكن من قال أن ثمة طريقا واحدا إلى الجثة البريئة المنتهكة، والأزهار التي لن

تنبت بذورها أبداً، بعد أن اختنقت بالدم البشري؟ في روايات أجاثا ، شخص واحد يقتل، ويستنفر المحققون والمفتشون للبحث عن الجاني، وهنا آلاف يقتلون وتسجل ضد مجهول، هنا حدثوني بما هز بدني: لا القاتل يعرف لماذا يقتل، ولا الضحية تعرف لماذا قتلت، ولا الناس تريد أن تعرف! هل ثمة زمن تعيس كهذا في أي مكان آخر من العالم؟ روايتي عن أجاثا كريستي قد تحدث صدمة مفارقة تدعو لصحوة ما. أو نزهة مستحيلة ومستراحا في ذلك الزمن الذي صرنا نراها جميلا بعد زواله؟ أو نفحة من القلب لصديقي وللقتلى الآخرين الذين رقدوا على العشب ليال دون عابر سبيل يأخذ بأيديهم، ربما ستكون في صلب هموم هذه الأيام إذ ليس الحاضر سوى طفل شرعي أو غير شرعي للماضي! الكتابة الحقيقية تنشد الإنصاف، والعدل، حتى لو كانت عن الفراشات الهائمة! انتفاضة روح ولا تدري كيف تكون خلجاتها ولا علي أي شاطئ تستكين. لكن كيف سأجد أوراقا تحت هذا الركام والأنقاض والرماد الهائل الذي آلت إليه بغداد، بعد الحروب والصراعات الدموية بين الطوائف والأعراق؟ يبدو ذلك مستحيلا!

من بين أوائل الأماكن التي أردت الوقوف عندها كان بيت الأثاريين، لي فيه ذكريات غالية! يقع في الكرادة، كان فخما وجميلا مطلا على النهر. استأجروه من ثري يهودي في الثلاثينات!

كان نزلا للمتقبين وعلماء الآثار الأجانب، ومخزنا لآثار ووثائق وأضابير قديمة للمتحف الوطني! سنوات السبعينات، لم يعد ينزل فيه خبراء أجانب. صاروا يفضلون عليه طبعاً الفنادق الفخمة التي نهضت بطوابق عالية حول النهر. فصار مخزنا لبعض الآثار. أردت التجوال في شارع الرشيد، ومحاولة الدخول إلى فندق تايكر بالأص مسرح الرواية. دخلت بيت

الآثاريين أول مرة عام 1970 حين تعرفت على حارسه أحمد ناصر الجبوري الذي صار مدير البيت، وحارس محتوياته التي لا تقدر بثمن. تعرفت عليه مصادفة في مقهى شعبي يقع خلف البيت، نشأت بيننا بسرعة صداقة ومودة، كان أحمد يكبرني بأكثر من عشرين سنة، انجذبت إليه حين قال لي أنه في حقة الأربعينيات اشتغل عاملاً مقرباً من أجاثا كريستي وزوجها عالم الآثار ماكس مالوان في نينوى، خلال عمليات التنقيب عن آثارها الشهيرة! وكان يرافقهما في زيارتهما إلى بغداد ويعيش معهما في هذا البيت، يسهر على خدمتهما، وكانت أجاثا تفرح حين يناديها (ماما)!

كنت مهتما بروايات أجاثا كريستي، أعيد قراءتها وأتمعن أسرارها، وأراها قصص حياة عميقة أسرة، بل بفحوى فلسفي أكثر مما هي قصص بوليسية. فلم أصدق أنني ألتقي برجل كان قد عمل معها، وعرف الكثير من تفاصيل حياتها! حصل بيننا شيء من تبادل المصالح الصغيرة، فأحمد قد انشُد لي حين عرف أنني صحفي أعمل في جريدة كان يرسل لها قصائده الشعبية فلا تنشر، استطعت أن أنشر له بعضها بعد بعض التعديلات، حققت له حلماً ظل يراوده لسنوات طويلة. أن يرى قصيدة له منشورة مع صورته في صحيفة، بالمقابل حصلت منه على نافذة أو بوابة أطل منها على أجاثا كريستي وزوجها عالم الآثار، وهما يجوسان ماضٍ جميل كانت تتكشف فيه شواهد وآثار من حضارتنا القديمة! لسنوات بقينا نلتقي في حجرة أحمد في البيت الكبير كل أسبوعين أو كل شهر، نقضي أمسيات هادئة نحتسي فيها الشاي، أو العرق أحياناً، يقرأ أحمد قصائده البدوية المتداولة بين عشائر الموصل، ونتحدث حولها، كنت أجدها تحمل خبرة المبدعين الفطريين المفعمة بالشجن. كان يسمعي قصائده بصوت مغن بدوي مغمور يغنيها بحرقة.

طاف بي كثيرا في أرجاء البيت، يريني محتوياته ويحدثني
بحنين: هنا على هذه الأريكة كانت تجلس أجاتا كريستي تحوك
جوارب لزوجها ماكس، هنا كانت تجلس لتكتب. ويمضى بي
إلى حجرة متربة يعلو سريرها العريض فراش تراكم عليه
الغبار، وهنا كانا ينمان. ينزل بي إلى المطبخ؛ بهذه القدور
طبخنا الأكلات العراقية لأجاتا وزوجها وضيوفاهما، خاصة
ولفريد ثيسجر الذي كان يأتي أحيانا معه السمك وطيور
الخضيري من الهور، بهذه الصحن أكلوا، هذا طبق أجاتا
كريستي مع السكين والشوكة. ويشير بصمت إلى آثار متربة
موزعة على الزوايا والأركان، وقد أهملت أو نسيت، أو لم يحن
الوقت لدراستها لكثرة ما يكتشف من آثار كل يوم! كان يؤلمني
أن أرى ألواح ورقما في حديقة المتحف الحديث في الصالحية
أخذت تتهشم وتتفسخ تحت المطر والشمس بينما كان يجب أن
تحفظ بطريقة صحيحة. كتبت أكثر من عمود في الجريدة عن
ذلك ولم أجد استجابة. كنت أحس أن الدولة تدير ظهرها لتاريخ
البلاد القديم مهووسة بشعارات قومية براقعة عن أمة عائمة على
الرمال، أرى نفسي في هذا البيت كأُنني في معبد سومري أو
بابلي، قريبا من جذور شجرة الذاكرة! فأحس بسعادة وقلق معا!
في كل لقاء كنت أدفع الحديث إلى ذكريات أحمد عن ماضيه
البعيد مع أجاتا كريستي والمنقبين الأجانب، لأعرف المزيد مما
عاشه معهم ورآه من حياتهم وتجاربهم في نينوى وبغداد وما
سمع منهم أو عنهم، فوجئت عندما سألني أحمد، في جلسة
مسائية صيفية في حديقة البيت وأمامنا زجاجات بيرة:

- أسمعت بحادثة اختفاء أجاتا كريستي من فندق تايكر بالاص
في بغداد؟

- لا ، أبداً، متى كان ذلك؟ أعرف أنها اختفت في لندن أيام
شبابها!

- كان ذلك ربيع عام 1949، كيف لم تعرف، لقد هزت
حادثة اختفائها في حينها بغداد كلها!

ضحكت ، كنت طفلا ، أبحث عن أعشاش العصافير لا أخبار
الجرائم، مضيت أصغى له وهو يحدثني عن تلك الواقعة التي
تحولت في حينها إلى لغز ، وأحمد يجيبني مقترأ مقتصدا
ويتحول إلى شهرزاد، وجاء الصباح فسكتت عن الكلام المباح ،
في كل أمسية، صرت أسأله: كيف اختفت؟ هل خطفت؟ من
الذي خطفها؟ ماذا حدث لها تماما؟ ويجب أحمد؛ جادا تارة:

- جنون الكتاب يا عزيزي!

مازحا ضاحكا تارة:

- نزوة عاطفية، غرامية يا أخي!

حزينا تارة أخرى:

- أيام راحت! ولن تعود، كنا نخالط الأجانب دون خوف أن
نعدم بتهمة التجسس أو العمالة، كما يحدث هذه الأيام!

من كل كلامه الطويل الشيق، لم أضع يدي على التفاصيل
الجوهرية لما حدث لأجاثا! فأعود أنبش وأستحثه على الكلام
فيجيبني منتشيا بحكاياته كعاداته، كنا في حجرته، سكت ليقول
ضاحكا، "والله نشفت ريقى"، بدا أنه الآن فقط تذكر شيئا مهما:

- ولماذا أتعبك وتتعبني؟ ثمة أوراق، تركتها أجاثا وزوجها،
ربما نسيها في البيت عندما سافرا، احتفظت بها للذكرى!..

وضع كأسه ونهض، رفع سريره قليلا، وسحب من تحته
صندوقا خشبيا، فتحه وأخرج رزمة أوراق وصورا، سلمها لي
قائلا:

- أنا لا أقرأ الإنجليزية، تحدثت بها مع أجاثا وزوجها بالقدر
الذي كنت نحتاجه أو أستطيعه في العمل والمسائل اليومية.

أتمنى أن تجد في هذه الأوراق ما تنتشده عن اختفاء أجاتا وما حدث لها وزوجها فترة وجودهما في نينوى وبغداد، وهاهي، لتكن من نصيبك!

شكرته كثيرا، ورحت أقلبها، لكن أحمد طلب مني أن أكف عن ذلك الآن، وأن أستمع منه لقصيدة جديدة. يتغزل فيها بامرأة غريبة أحبها.

- هل أحببت يوما أجنبية من الجميلات اللواتي كن يعملن في التنقيب، أو يأتين إليكم سائحات عندما كان العراق قبلة السياح!

- لا، لم تأت للتنقيب فتاة جميلة، حتى الجميلة منهن تصير فورا حفارة قبور، ويعلو وجهها وشعرها غبار الموتى! كانت لي علاقات عابرة مع سائحات بين الأطلال! الأجنبية ما أن تنتهي منها حتى تدير وجهها مشيخة عنك كأنك قد صرت إناء فارغا من طعام شهى التهمته بشراهة وأصيبت بالسأم! وأحيانا لا ترد عليك السلام في اليوم التالي! كانت لي مغامرات لطيفة وسعيدة مع فتيات عربيات وكرديات وآشوريات. كن ساخنات وحنونات!

حاولت استفزازه ليعود للحديث عن أجاتا:

- ولكن أجاتا كانت جميلة!

- نعم، ومهيبة أيضاً، مهما تبسطت معك تبقي بينك وبينها مسافة محددة، وكنت أناديها: ماما!

ونمضي في الحديث عن الحب وذكرياته وما لدينا من ذكرياته، فأنا غير متزوج، وكنت غارقا بحب فتاة جميلة جدا من أسرة غنية، بينما أنا من أسرة فقيرة، وأكاد أكون بلا أمل في الزواج منها، لكن بنفس الوقت لا أستطيع تصور حياتي بدونها، واثقا من حبها لي، كنت أغرق نفسي بالقراءة والكتابة والكحول والتدخين والثرثرة بالسياسة. وأحمد فارق زوجته في

الشرقاط، وأبناءؤه كبروا، وصارت له في بغداد نزوات وأشواق
وذكريات!

لم أجد صعوبة بقراءة الأوراق، فأنا خريج الآداب فرع
الإنجليزية، ثمة صفحات رقتها أجاثا على الآلة الكاتبة.
وأخرى كتبت باليد، بحروف ناعمة ممزوجة، متراسة تقتضي
قراءتها بتأن، وببطء، كانت موقعة باسم ولفريد ثيسجر، رحلته
في الربع الخالي. وإقامته الطويلة في الأهوار! أعادتني إلى
رحلة لي إلى الأهوار قبل سنوات! حملني قارب بخاري من
ناحية السلام إلى وسط هور الصحين. كان رذاذ ماء الأهوار
يغسل وجهي فيغمرني نشوة وحبورا. اقترب مني شاب
أهوارى وراح يحدثني بمسكنة، قال إنه عاطل عن العمل رغم
أن لديه شهادة دراسية، عائلته لا تجد ما تأكله، والده مريض ولا
يستطيع عرضه على طبيب، أو الحصول على دواء له، رثيت
لحاله واستغرقت معه في الحديث، وعدته بمساعدته لو جاء إلى
بغداد ليجد له عملا، وأعطيته رقم تلفوني. ما أن هبطنا من
القارب وصرنا على رصيف طيني حتى فوجئت بالشاب يشهر
مسدسا بوجهي ويأمرني بالسير أمامه إلى مركز شرطة
الصحين، لا أدري ماذا أقول، ارتبكت خطاي ثم استسلمت والألم
يعتصرني، الغريب إنني ضحكت قليلا، أن من بكيته لحاله هو
شرطي أمن! أجروا معي تحقيقا طويلا كاد ينتهي بإرسالني
مخفورا لمركز امن المحافظة حيث كان يمكن أن تتعقد القضية
كثيرا. فهذه المستنقعات الشاسعة المكتظة بأدغال القصب
والحلفاء كانت قد شهدت قبل سنوات نشاطا لبؤر ثورية يسارية
متطرفة، قادها مثقفون ماركسيون وفدوا إليها من بغداد ومدن
أخرى، وأحد قادتهم ويقال إنه كان سكرتيرا لبراتراند رسل جاء
من لندن ليثقف رعاة الجاموس بالماركسية، والثروتسكية،
والمالوية ويجعلهم ثوارا مثل كاسترو وجيفارا. والآن أنا

مشكوك بي كأحد هؤلاء وقد جئت لأعيد تنظيم صفوف الثوار
عليهم هذه المرة ينتصرون، بعد أن فشلوا وقتلوا في المرة
السابقة! سمح مفوض الشرطة لي بإجراء اتصال تلفوني مع
مسئول بعثي كبير في اتحاد الأدباء، كان متفتحاً فكرياً وبيننا
مودة، فأجرى اتصالاته بوزارة الداخلية وأطلقوا سراحي بعد
ساعات طويلة من التوقيف والترقب المريع! نزلت بضيافة
عائلة فقيرة طيبة، لم يكن لديهم ما يقدمونه لمنامي أكثر من حشية
قديمة مهترئة متعفنة، دامت جولتي يومين، اعتقدت إنني عدت
إلى بغداد سالماً، بعد يومين ظهرت على جلدي وتحت كل شعرة
على جسمي حبيبات حمر شخصها الطبيب أنها قراد جاموس
الهور، التقطته من الفراش المتسخ. خضعت لعلاج طويل،
واغتسال يومي بمطهرات، حتى تخلصت منها، سألت نفسي
آنذاك هل التحقيق الصحفي الذي عدت به طالباً بتحويل
الأهوار إلى منطقة سياحية كالبندقية في إيطاليا تبني فيها فنادق
ومنتجعات عالمية، ولم يلتفت إليه، يستحق كل هذا العناء؟
ذكريات بعيدة أضحت كما الغبار في الريح، أتذكر أن أوراق
أجاثا وماكس وئيسجر غنية بالخبرات والأفكار، رغم أن بينها
قصاصات تتعلق بأعمال تنقيب، وتعكس مسار
تنقلاتهما! وحساباتهما المالية مع صفحات من روايات لأجاثا
كنت قد قرأتها مترجمة إلى العربية، أخرى لم أقرأها من قبل،
رسائل وملاحظات حولها أو حول قضايا أخرى! وصفحات لم
أعرف شيئاً عم تتحدث. والأهم هي أوراق كثيرة تتحدث عن
حادثة اختفاء أجاثا! رسائل ولفريد ثيسجر زادت اختفاء أجاثا
غموضاً وإثارة!

(3) كثيرا ما نتحدث عن آلام الحب لدى آخرين؛ بينما نحن نتحدث عن ألما في حب غائر في الأعماق، شكريا ماكس، شكريا ثيسجر، ترجمتما أشجان قلبي!

وكيف أنسى ما حدث لي مع حبيبتي عواطف في بيت الآثار؟ ذلك الجرح الذي ظل ينزف في قلبي طيلة سنوات المنفى! كان أحمد يعاملني كابن له، يحنوا عليّ حقاً، يحرص أن يقدم لي شيئاً، كان قد عرف بحبي لعواطف، ورغبتني في الزواج منها لكنني ما كنت أستطيع ذلك لأسباب كثيرة، وتقتصر علاقتنا على مكالمات تلفونية ورسائل متباعدة ولا نجد مكاناً نختلي فيه كمحبين يريدان تدبر أمرهما عن قرب لا للمتعة العابرة! عرض علي أن أتي بها إلى بيت الآثاريين الخالي من النزلاء من وقت طويل، نجلس في حجرته القريبة من الباب الخارجي والمطلّة على الحديقة ونقضي فيها لوحداً وقتاً مناسباً، قائلاً:

– هنا الجيران أناس محترمون ولا ينظرون إلى ما يفعل جيرانهم، وأنت لا تفعل أمراً شائناً.

قالها كأنه يحذرني، مضيفاً وهو يضحك كعادته:

– الحجرة كما ترى صغيرة وأثاثها قديم!

أتذكر إنني تلعثمت وأنا أعرض ذلك على عواطف، قالت إنها تثق بي ومن المفيد أن نتحدث عن قرب حول مستقبلنا، رحب أحمد بها عند الباب الخارجي، كان الوقت صباحاً، سألتني إن كان الوقت من الآن وحتى العصر أو الغروب يكفيني، ليعود، فوافقته شاكراً، ومع ذلك ترك عندي المفاتيح، سألته:

– هل أستطيع أن أريها جوانب البيت وما فيه من آثار؟

- ثقتي بك كبيرة، هنا لا توجد أسرار، ولكن أشياء حساسة، لا تقبل اللمس!

أتذكر الآن، بعد أكثر من ثلاثين عاما، ما جرى بدقة، جلست "عواطف" بجانبى تتطلع إلي بلهفة، عطرها ملأ قلبي، كان رقيقا منعشا، عيناها تحومان كفراشتين ظامنتين، تحلقان دون مستقر، تحدثت همسا، كانت حزينة معذبة هي أيضا تشعر باليأس من وضعنا الصعب وقصتنا المستعصية دون أفق، كانت تريد أن ترتمي بأحضانى، ربما فقط لتبكي، وتستريح، كيف لم أفهم ذلك؟ فجأة ولا أدري ماذا حدث لي قطعت كل شيء قائلا:

- هيا لأريك ما في هذا البيت الغريب!

انكملت فجأة، صارت اصغر من حجمها، وكانت قد كبرت بجانبى، أنا حبيبها، أحنت رأسها صامتا ذاهلة، نهضت منكسرة، هل أحست بأنها أخطأت في شيء؟ هل فكرت أنني ترفعت عن لهفتها وشوقها لي؟ هل صارت تشك بنفسها وجمالها؟ لقد كانت عواطف باهرة الجمال، سمراء فارعة ممثلة دون ترهل، وجه ناعم باسم، يضاحك النسيم، عيان واسعتان مكحلتان دون كحل، شعر فاحم منسدل على كتفين مكتنزين عليهما نمش خفيف يزيدا فتنة، اعتنت بزینتها وثيابها الراقية الأنيقة. تعثرت عند باب الحجرة ولم أكن بجانبها لأسندها، استندت على ذراع مكنسة طويلة مركونة عند الباب، وأنا كالأهبل أركض أمامها لأريها ما كنت أسميه: تراث الأسلاف! تبعتنى شاردة الذهن، ببطء بدأت تشاركني رغبتى أن أريها شيئا مهما أو جميلا، ننهي منه بسرعة ونعود للحجرة لنخلو أنفسينا، وماذا لو أخذتها بأحضانى بعد طول حرمان، أو عانقتها أو قبلتها؟ لكنني مضيت أحدثها كدليل سياحي، أشرت لها إلى أريكة جميلة قديمة نصل طلاؤها وتقرأ حضنها القديفة:

- هنا كانت تجلس أجاثا كريستى كاتبة القصص البوليسية،

تحوك لزوجها ماكس مالوان جوارب صوفية، ألم تقرئي لها؟
لا يجوز الجهل بأجاثا، هي كاتبة عالمية عظيمة!

ربما كنت قد حدثتها سابقا، بما سمح به وقت ضيق، عن
إعجابي بأجاثا، لكنها الآن والوقت قصير وثمانين لا تريد أن
تضعه مع أجاثا، طرحت عليها سؤالاً أكثر غباء:

- هل ستحيكين لي يوما جوارب صوفية مثلها؟

ظلت صامتة، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة.
صعدت درجا رخامية، ملتوية، تبعثني إلى حجرة واسعة تطل
على النهر، أشرت إلى سرير عريض، عليه فراش وثير قديم،
بشرشف مورد:

- وهنا كانا ينامان!

رمقتني بنظرة سريعة غاضبة، ومدت يدها بحركة لا شعورية
تمسح الغبار عن الفراش، نظرت إليها مستفهما، أعادت النظر
إلي الآن وبعد ثلاثين عاما، أدرك أنها كانت توشك أن تجذبني
إلى الفراش لا لتعانقني؛ بل لتضربني على مؤخرتي كطفل لا
يكف عن بعثرة الأشياء! لكن أصواتا صاخبة جاءت من الطابق
الأرضي، وضجيج أشياء تسقط بقوة جعلتنا نجفل، ونخرج
مسرعين، نظرنا تحت مسند الدرج متحفزين، نزلنا مسرعين.
وجدنا قطة سوداء كبيرة أسقطت قدورا من على طاولة المطبخ،
قلت مواصلا حديثي:

- هنا كانت أجاثا كريستي وزوجها وصديقنا أحمد يطبخون
الطعام!

هزت رأسها، وضحكت! وتوقفت. إلى أين أريد بها؟ ربما
فكرت آنذاك أنها اختلقت أسبابا شتى لأمرها لتخرج من البيت
وتلقاني وها أنا وأنا أجول بها في هذا البيت القديم الساكن أريها
مقاعد وسرير نوم تعلوه العناكب، وقطة تعبت بقدور المطبخ!

اتجهت إلى الباب تريد العودة إلى حجرة الحارس التي صارت
عش حبنا الخائب وقد صار بأيدينا ولو لساعة، لكنني قلت لها:
- لم تنته بعد، تعالي أرجوك انظري هنا أشياء مهمة جداً،
هذه ألواح مهمة جداً، عثروا عليها في المقبرة الملكية في أور!
كنمت ضحكة حنق قائلة :

- لديك قبور أيضاً؟

لم أجبها كأني لم أسمع شيئاً، لكنها عادت إلي تريد أن تعرف
نهاية هذه الحكاية، أتذكر جيداً إنني أشرت إلى ألواح مركونة
على الجدار مهملّة ورحت أشكو لها:

- هم مهملون! منذ سنوات، وهذه الألواح الهامة هنا، لا
يكثرثون لهذا الطين الذي قيمته أثمن من الجواهر، لا يريدون
قراءة ما عليها من قوانين، وأخبار، وقصائد حب!

انبعث صوتها ساخراً:

- وماذا فعلنا بقصائد الحب في زماننا؟

نظرت إليها دون أن أدرك حينها معنى ما قالت، أردت
مواصلة الطواف بها بين ألواح وشواهد الآثار، فجأة انتفضت،
استدارت راجعة وخرجت، ذهبت إلى الحجرة، حملت حقيبتها
ووقفت عند الباب قائلة:

- أريد أن أعود إلى البيت، تأخرت، وعدت أمني أن أعود بعد
ساعة، وها قد مرت ساعات!

لم أستطع أقناعها للبقاء، رافقتها إلى الشارع العام، أخذت
تكسي لوحات لها مودعا ولم ترد علي، عدت إلى الحجرة لأنتظر
أكثر من خمس ساعات حتى عاد أحمد متأخراً. أراد أن يمنحنا
أطول وقت للسعادة، لم يدر أن الوقت صار لدي انتظاراً قاسياً!
كان يتطلع بوجهي لا شك إنه كان منطفئاً، لكنه لم يسألني عن

شيء، ولو سألني، لما تجرأت أن أقول له إنه كان لقاءً فاشلاً!
لم أكن أعلم أنها آخر مرة أرى فيها وجهها الحزين المقارب
للبيكاء وهي تصعد التاكسي. بعد أسبوعين طلبت منها أن نلتقي ،
رفضت، قالت كلاماً كم يبدو الآن صائبا:
- لو أردت أن أرى آثاراً، سأذهب إلى المتحف، هناك أجد
آثاراً أكثر وأجمل!

وانتهت علاقتنا، بالأحرى انقطع حديثنا المتباعد في التلفون
وساد بيننا صمت غامض.، ثمة شعور في قلبي أنها ظلت تكن
لي شيئاً من الحب الكبير الذي أكنه لها ولم استطع أن أحققه
بوضوح، ربما لشعوري أن أي لحظة حب سريعة لا تجدي ما
دمنا سنفترق على أي حال! ازدادت أيام البلاد اللاحقة توترا
وحلقة ورعباً. تفجرت صراع دموي في رأس السلطة بين الرئيس
ونائبه، وأعوانهما! تفاقم خوف السياسيين كثيراً،
صرت أرقاً، مشتت الذهن لا أستطيع التركيز، أتذكر عواطف
كل يوم ولا أجد جدوى في محاولة الاتصال بها. صرت عاجزاً
عن كتابة مقال، فكيف برواية؟ لم أكن منتمياً لأي حزب، أعد
نفسى يسارياً ديمقراطياً حراً، لكن البعثيين كانوا يحسبونني على
الشيوعيين رغم إن لدي اعتراضات كثيرة على الشيوعيين،
وكنتم أقول أنهم لا يختلفون عن البعثيين، في ضيق الأفق
والنهج الاستبدادي، كنت أردد أمام أصدقائي الموثوقين
"الشيوعيون يدينون بالولاء للسوفيت، والبعثيون يدينون بالولاء
للروليت!" فأولئك تبعيون خانعون، وهؤلاء مقامرون مغامرون،
شملني البعثيون بنقمتهم وملاحقتهم الضارية للشيوعيين التي
ألقت آلاف منهم في المعتقلات وزنازين الإعدام. ودفعت كثيرين
إلى المنافي. جاءني صديق، صحفي بعثي، بيننا مودة وثقة،
أخبرني أنهم سيلقون القبض عليّ قريباً فاسمي موضع تداول
بينهم! كنت أعيش مع والدتي وشقيقتي ليلي التي تقدمت في

السن، ولم يعد لها أمل في الزواج، وأوقفت حياتها على رعايتها أنا وأمّي! فراقى لهما كان الأكثر إيلا ما لي في حياتي، وانتزاعي لنفسي من منضدة الكتابة في مكاني الأليف أحسست به انتزاعاً لعضو من جسدي، وقد كاد يحطم جذوة الكتابة في نفسي نهائياً، لكنني رحت أستعيدّها ببطء شديد. اختفيت أياماً في بيت صديقي حميد، أقرب أصدقائي إلى قلبي وأكثرهم إخلاصاً واستعداداً للتضحية من أجلي. كان يشبهني بالكثير من الملامح حتى إن من يرانا يظننا شقيقين، تشابهنا في عيوننا وبشرتنا السمراء وتجاوزنا معاً الثلاثين، لكننا اختلفنا في طباعنا، فأنا يقال عني أنني بطبع يتردد بين البرود والغفلة والسذاجة، والدفء والنباهة والتوثب، بينما حميد هادئ رصين يميل للصمت والتكتم! اكتشفت أنني ممنوع من السفر، وجد حميد ضابطاً في دائرة الجوازات رفع المنع عني لقاء خمسمائة دولاراً. لكنني بقيت في شك وحذر، واحتمال أن يكون الضابط قد خدعني ولحظة الحساب ستكون في المطار، وإذا وجدوا معي أوراق أجاتاً قد يعدونها رسائل تجسس وتخاير مع أجانِب، هكذا يترجمون أوراق خصومهم. وستكون أدلة تكفي لإعدامي. تركت صوراً ورسائل ومخطوطات قليلة مع أوراق أجاتاً لدى حميد. وكنت أبقيت صوراً وأوراقاً ومسودات في البيت لدى شقيقتي. منفذا المثل الصيني "لا تضع بيضك كله في سلة واحدة". عندما استقرت في السويد وبدأت أستعيد قدرتي على الكتابة شيئاً فشيئاً، عاودني حلم كتابة رواية أجاتاً، قلت أنها ستكون أشبه بصلاة طويلة أستعيد بها أيامي القديمة، عطر عواطف الذي ما يزال يملأ أعماقي! وطني الذي صرت على قناعة إنني فقدته إلى الأبد! كتبت الفصل الأول مستعينة بذاكرة مكدودة بعد أن كانت قديماً متوهجة، طعم الذكريات المحترق في روحي يجعل ريقى مرا وعيني تغشيان! توقفت عن كتابتها، ورحت أشغل نفس بتلك الكتابات التي ما أن أقارب نهايتها حتى

ألقيا جانبا. ظل حلم سقوط النظام وعودتي إلى بغداد يعني في جانب منه حصولي على أوراقى وصوري القديمة، ومنها أوراق أجاثا وئيسجر. وزيارة بيت الآثار، واستعادة ذكرى ذلك اللقاء الأخير مع عواطف، الحبيبة التي لم أنسها يوما وظلت جرحا قلبي لا يندمل، واليوم، ثلاثون عاما مرت؟ كأنها البارحة!

ماذا لو لم أجد بيت حميد؟ بيوت كثيرة هدمت بقصف عشوائي أو مقصود، حين تحصن بها إرهابيون، أو مسلحو ميليشيات. أرقام التلفزيونات التي عندي لا أحد يرد عليها، يقولون أن بدالات المدينة مدمرة، قد أجد بيته، ولا أجد عائلته، تهجير العائلات خف قليلاً، لكنه لم ينته، والمهجرون ما زالوا لا يستطيعون العودة إلى بيوتهم، ومنطقته يسكنها شيعة وسنة، هذا يهجر ذاك، والمحرك قوة مجهولة أخذت تمتلك وجه القدر أو إرادة الله! لا بد من زيارة عائلة حميد، ليس من أجل وديعتي. بل من أجل رؤيتهم، أعرض عليهم مساعدتي لهم ماديا، إذا كان ذلك لا يزعجهم. هذا أقل ما ينبغي أن أفعله من اجلهم، لا مكافأة لحميد فما قدمه لي كبير جدا ويصعب إيجاد مقابل له، يكفي إنه آواني أيام الملاحقة، ولو عثروا علي عنده لسجنوه طويلا وربما أعدموه! أعرف منطقته لكنني لا أعرف موقع بيته بالضبط. التنقل مجازفة، في هذا الجنون المنفلت، الغابات والبراري جميعا أطلقت ذئابها وثعابينها في هذه المدينة! أم زيد زوجة حميد تتذكر الأوراق، في حينها تناولتها مني وذهبت مسرعة إلى إحدى الغرف، لإخفائها وكأنها مناشير حزبية. هي محقة كانت تخشى على طفليها، لحظتها فكرت أن كل أوراق المطارد السياسي، حتى لو كان رسائل حب قديمة أو وصولات كهرباء وتلفون تتحول إلى بيانات سياسية، هذا هو القانون عندهم هنا، ماذا لو لم أجد الأوراق، هل سأعدل عن كتابة

الرواية؟ هل سأكتبها من مخيلتي؟ وهل سأستطيع التعويض عن الأحداث والأقوال كما دونت؟ مزيج من الخيال والواقع هل سيكون أصلب من أوراقها؟ لماذا وقعت بحبائل هذه الذكرى لأنها ارتبطت بذاكراتي مع عواطف؟ استعادة الذكرى يعني الحرية. الوجود مرة أخرى. يجب أن اكتبها، إذا كان الزمن قد هراً ذاكرتي، وأتلف أوراقتي، هل أعود إلى أحمد، صديقي العزيز، حارس بيت الآثار القديم، أعتمر ذاكرته من جديد، لكن أين أجد؟ أيمكن أن يكون قد بقي حياً إلى اليوم؟ فارقه وقد قارب الخمسين وقد مضى زمن طويل على فراقنا، حتى إذا كان مقدر له أن يكون من المعمرين؛ كيف يستطيع البقاء سالماً تحت ما عاشه البلد من حروب وحصار وجوع وغزو. يكفي أن يقتل أحد أبنائه ليموت كمداً، فهو كما عهدته حساس، ضاحك الوجه، لا يطيق حزناً أو أذى! سألت عنه كثيراً، أشخاصاً التقيت بهم في أفواج الكبيرة من اللاجئين العراقيين الذين تدفقوا على السويد؛ فلم أجداً أحداً يعرفه. وحتى لو كان ما يزال حياً، واستطعت بعد بحث طويل أن ألقاه؛ بماذا سيفيدني في موضوع حدثني عنه، وطواه الزمن منذ عهد بعيد؟ سأجد أن ذاكرته قد خربت وجفت، من شيخوخة وفجائع! قد لا يستطيع التعرف علي، وإذا عرفني ألا يمكن أن يسألني :

- بعد كل هذه السنين، لم تجئ تسألني عما جرى لنا، بل لتسألني عن أجاثا كريستي واختفائها، ماذا فعلت أوربا بعقولكم؟

(4) عدت من المنفى، وجدت المنفى ينتظرني في وطني!

كنت قد تجولت في شارع الرشيد، لي فيه ذكريات كثيرة. كانت مقاهيه وباراته مسرحا لحكايات ومجادلات ومناكفات، وصارت بطلوها ومرها الجمر الذي أتدفاً به في ليالي الثلج الطويلة في السويد، شهد الشارع أحداث الرواية فهي تدور في أهم فنادقه. وجدت الأبنية على جانبيه ذات الشرفات الجميلة وأعمدته الشهيرة قد تحولت إلى خرائب وأنقاض، اختفت أرصفتها تحت أكوام النفايات والزبالا تقطعها الأسلاك الشائكة ومفارز الشرطة والجنود المدججين بالأسلحة. وحيثما تلفت تطل عليّ صور ملونة كبيرة لرجال بلحي وعمائم سود وخضر وعيون تنتظر بصرامة، تلوح من بعضها سيوف، أو خناجر طويلة، يتحرك تحتها شبان بثياب سود، ونظرات قاسية، متوعدة، في مواضع أخرى بسطات الباعة المتجولين، وبضائع أصحاب الدكاكين التي ما تزال مفتوحة. مساء تبرز أكوام زبالا ونفايات تجوس بينها كلاب وقطط، أحقا هذا هو الشارع الذي كان أجمل شوارع البلاد كلها؟ بحثت عن الفندق الذي كانت قد نزلت فيه أجاثا وماكس وئيسجر ودارت فيه تلك الأحداث فلم أجده، عرفت إنه هدم عندما بني جسر قريبا منه! ضاعت عليّ معالم الشارع، اختلط خرابه ببنائيات حديثة قليلة تداخلت تشوهاتة بأوساخه. هربت منه مسرعا، متجها إلى الجسر، متحاشيا النظر إلى النهر وقد استحال إلى ساقية آسنة، شحنت بقوة غضب وحنين مربكة. وأخيرا وصلت بيت الأثاريين! تلكأت خطواتي، وقفت أمامه صافنا، كان مهجورا متصدعا رثا، تمسك أبوابه وشبابيكه بجدرانه بقوة غامضة لكي لا يغدو مأوى

للقطط والكلاب ومكبا للنفايات! لم أجد أحداً لأسأله عما جرى له، البيوت المجاورة صامتة ساكنة، لا أحد يقف عند أبوابها أو يسير في الشارع المحاذي للنهر أمامها كما عهدت سابقاً، يبدو أن ساكنيها قد غادروها، أو هم رحلوا عن دنيانا، كما هو الأمر دائماً، ثم إن الحال كان واضحاً، والوضع المتوتر والمتفجر لا يسمح بأسئلة، واستفسارات عن مصائر الناس أو بيوتهم وأشياءهم! بقيت واقفاً أمامه مولياً ظهري للنهر، يخيل إلي أنني أسمع أصوات صيادين ومغنين سكارى أو عاشقين، لا أدري هل تأتيني من الماضي الغابر، أم من الحاضر الذي تمزقه أحيانا أصوات انفجارات، وإطلاقات. لا أستطيع أن أرى من البيت سوى واجهته المطلّة على النهر فهو بين بيوت متراسة، ليتني لم أعد ولم أر هذه الأمكنة، كانت قد ظلت في ذاكرتي كما فارقتها، ما كنت أحتاج أن أراها لأكتب عنها، فأنا سأصفها كما كانت آنذاك، لا كما هي الآن، ولكن لا.. لا يجب أن أراها كما هي الآن؛ لأكتب عنها في وضعها آنذاك، بشكل دقيق وصحيح، كل شيء يحمل ما سيؤول إليه منذ بدايته، وإن نرى الشيء في بدايته، فقط لن نراه على حقيقته، النهاية هي التي ترينا البداية كما هي حقاً، فلسفت الأمر لنفسى، اقتربت من البيت أكثر، غرقت في لجة الحنين مرة أخرى، تذكرت أحمد وجلساتنا معاً، عواطف التي اختفت معتقدة أنني لا أصلح للحب، ولم أنسها أبداً! احتويت البيت بجوارحي، تركت قلبي يحاول النفاذ من شروخ وشقوق الجدران إلى داخله! همست لنفسى "ثمّة طير جاء متعباً من بعيد ويريد أن يحط على غصن شجرة، على تمثال قديم فيه، يتشبّث بالواح ورسومات مهجورة" أجدادنا أحسنوا الوقوف على الأطلال، كهذه الدار، بغداد التي كانت تزهو بحاضرها وماضيها، أضحت أطلالاً، أين قصيدتك؟ وأزداد تصميمي على كتابة الرواية! فجأة وجدت ما يكفي من الشجاعة لأنعطف إلى الشارع العام، فأوقف سيارة أجرة،

أعطيت للسائق العجوز عنوان بيت حميد في المنصور! رغم إن أمني بالوصول للبيت ، وأن تكون عائلته في البيت إذا وجدته، كان ضعيفا. قطعت السيارة نصف الشارع تقريبا وتوقفت، قال السائق ، "اختناق مروري". سارت قليلا وتوقفت "موكب مسئول"، قاربت بناية المتحف الوطني، توقفت، "حاجز تفتيش" مصطلحات أسمعها هنا لأول مرة، نهاية شارع جمال عبد الناصر، رحت أتأمل قباب وأعمدة وواجهات المتحف، السيارة تنتظر أن تمر أمام جهاز يحمله جندي، مشكوك بقدرته على كشف المتفجرات، داهمتني على الفور مشاهد اقتحام المتحف من لصوص مسلحين سرقوا محتوياته الهائلة التي لا تقدر بثمن، الضباط والجنود الأمريكان كانوا يتفرجون عليهم وهم يخرجون بحمولاتهم ضاحكين مستمتعين بفلم مثير. هل حقا أنهم ما كانوا يستطيعون حماية المتحف؟ أحمد بمسدس صغير صدي كان يحمي بيت الآثاريين الأشبه بمتحف صغير، ملئ بالتحف، تحركت السيارة وشعرت بالراحة فقد جثمت الدبابات والأحذية الثقيلة على قلبي، مضت السيارة صاعدة إلى شارع الزيتون! وظلت تدور في المنصور دون أن نهتدي إلى البيت، كانت ثمة بيوت قد هدمت وأعيد بناؤها، أجزاء من الشوارع ما تزال خرائب، أسس بنايات لم يبن عليها، بيوت فخمة بأعمدة عالية ضخمة لا عهد لي بها في بغداد، تتداخل مع بعضها وتضيع عليّ معالم المكان القديم، وقفت السيارة مرات وسألت مع السائق هنا وهناك، مهما تخيلت من تغيير في المكان وفي صعوبة الوصول إلى البيت لكنني لم أكن أتوقع أن ذلك سيكون عصيا إلى هذا الحد. كنت على وشك أن أقر بياسي من العثور على البيت، عندما أعلمنا صاحب كشك على الطريق إنه يعرف زيد ابن حميد، "صلينا العصر معا قبل قليل" وأشار إلى المسجد الذي قبالاته! وطلب من صبي بجانبه مرافقتنا إليه! ذهلت أم زيد حين رأيته، وذهلت أنا أيضا، كانت محببة،

تركبتها حاسرة الرأس ، طليقة الوجه، ترتدي أحدث الملابس،
رحبت بي وسلمت علي ويدها على صدرها، ولم تصافحني ،
فهمت ما طرأ على عائلة صديقي، زيد، هو وزوجته وأطفاله
في البيت، كان ملتحيا، سلم علي بهدوء، تركته صيبا، زوجته
كما توقعت كانت محجبة أيضا ، لم تأت ولم تسلم علي لكنني
لمحتها تدخل المطبخ، لم تمض سوى دقائق حتى وضع زيد
أمامي صينية الشاي! لم يشجعني الجو الصامت الواجم على
المزيد من الحديث بغير التحية والسؤال المكرر عن الأحوال، لم
يكن حميد متدينا، كان متحررا دون تطرف أو ابتذال، يحتمي
العرق أحيانا ، يعشق أغاني أم كلثوم وعبد الحليم وأغاني فريد
الأطرش بل حين تدب الخمر في عروقه يرفع عقيرته مقلدا
فريد. كان أقرب لتفكير، قليل الكلام ، لا يجاهر بأرائه. فنجا
من ملاحقة السلطة. شعرت بحرقة في صدري، أدركت اللحظة
فقط أن حميد قد مات ، ولكن لا .. لا هو لا زال حيا متفتحا كما
فارقته، ورحلت أغالب دموعي ولذت بالصمت أيضا، نصف
ساعة تقريبا ونهضت مودعا، دون أن أسأل عن الأوراق، "جئت
فقط لأسلم، وأطمئن عليكم ، أنا في الخدمة إذا تأمرونني بشيء"
شكرتني أم زيد "مستورة والحمد لله!" طلبت وابنها، مني البقاء
لأتعشى معهم، اعتذرت ،كررت " جئت لأسلم عليكم فقط؟"
فوجئت بها تقول :

- أوراقك لا تزال محفوظة

ارتجت روحي، طلبت مني أن أجلس قليلا، راحت تتحدث،
وأنا أصغي لها بقلب متوجس ، ما أن بدأت باللازمة المعروفة:

- بعد سفرك شاعت ما سماه الناس هنا حمى حرق الأوراق
والصور والكتب، انتشرت بالعدوى بينهم ، في تلك الأيام حرق
حميد الكثير من كتبه وأوراقه...

هبط قلبي ، عرفت أن أوراقني قد اختفت تماما، لكن صوتها

الهادئ تواصل:

- حميد حافظ على أوراقك، وضعها في صفيحة معدنية،
ودفنها في الحديقة، انتظر لنخرجها!

وجدت نفسي على الشاطئ، هذا عهدي بحميد، شهم عند
كلمته، تجرأت وطلبت من زيد:
- كأس ماء من فضلك!

تبدد الكثير من حزني، وأنا أتبعها وزيد إلى الحديقة، لا أدري،
هل لأنني أحسست بالطمأنينة بعد أن قلق كثيرا أن هذه العائلة
قد تنكرت لفكر الأب البعيد عن التزمت الديني، وجدت الدموع
ملأت عيني، أخذ زيد يحفر في المكان الذي أشارت إليه أمه
تحت النخلة الوحيدة، هممت بمساعدته لكن زيد قال " الأمر
سهل يا عمي أرجو أن ترتاح فقط!" رحت ارقبهما، زيد يحفر
بهذوء وحذر، والأم توجهه، لحظات ووجدت رزمة أوراق
تخرج من الصفيحة المعدنية ملفوفة بأكياس النايلون، لم أصدق،
ضممتها إلى صدري كتلميذ يذهب بدفاتره إلى المدرسة لأول
مرة، تبادلت مع زيد العناوين وأرقام الهواتف النقالة وطلبت منه
أن نبقي على تواصل قدر الإمكان! استقبلتني ليلي عند باب
البيت شاحبة الوجه: "أقلقتني عليك، كيف تتأخر والأجواء هنا
كما تعرف مجنونة مجنونة " نظرت إلى ساعتني كيف صارت
الساعة الثامنة مساء في بغداد، ساعة متأخرة من الليل؟ سنوات
شبابي؛ كنت أخرج من هذا البيت بمثل هذه الساعة إلى السينما
أو للسهر في أحد البارات، أو لزيارة صديق والعودة بتكسي مع
إطالة الفجر. ماذا جرى لبغداد؟ أجبته بما لا أدري من
الكلمات، ولذت بحجرتي! بعد ثلاثين عاما تعود الأوراق
والصور الحميمية إلى يدي وفي الحجرة التي كانت فيها، كم هي
دورة الدنيا سريعة، وهائلة الاتساع أيضا؟ والآن هل استطيع
المضي في كتابة الرواية؟ نعم قلتها على الفور، رحت أفرد

الأوراق، أصنفها حسب محتوياتها، وجدت بعضها قد تسلل إليها شيء من الرطوبة والتآكل ولكن فيها رائحة أعماق الأرض وعلى العموم يمكن قراءتها، رائحتها المعتقة الأولى؛ بعثت في نفسي الذكرى الجارحة، وأنا في السويد عرفت أن عواطف تزوجت من ضابط في الجيش يسكن قريبا من بيتهم، لا أدري الآن ماذا حل بها، أحيانا أتوقع أنها الآن أضحت أرملة بعد الحروب، وربما تتذكرني، وقد نلتقي بصمت، هذا مجرد أحلام وأوهام! أحيانا، حين أتذكر ذلك اللقاء الأول والأخير، أتمنى لو إن كل ما عشته في أوربا وما منحني من أفكار وخبرات كانت لدي آنذاك، هذا مستحيل طبعاً، لسبب بسيط وساذج: المستقبل لا يأتي قبل الماضي، ولكن ما ليس مستحيلاً، هو أن أناساً من جبلي لا يعرفون أي شيء من أفكار العالم تصرفوا مع حبيباتهم بما ينبغي، حتى لو التقوا بهن في ما هو أتعس من حجرة حارس بيت الآثار! ربما كانت عواطف محقة في هجري، وربما كنت محقة في تصرفي معها آنذاك حيث كنت موقناً أننا سنفترق، ولا نحقق الزواج المنشود لأسباب أخرى قوية وحاسمة. خارجة عن إرادتنا، فلم نزيد عذابنا بمشاعر وأحاسيس ملتهبة؟ لقد أحببتها حقاً، لكن هذا ليس هو سبب عدم زواجي وبقائي وحيداً طيلة هذه السنين! فأنا أنست وحدتي وخلواتي، ملأتها بالقراءة والتأمل والموسيقى والنزهات بين الغابات والبحر! واليوم أنظر إلى أختي ليلي، التي لم تتزوج لسبب خارج عن إرادتها أيضاً فأجدها عجوزاً مهجورة منذ أمد طويل، فأحزن لها وأحزن أكثر لأنني لا أستطيع أن أقرب من روحها الطيبة وهمومها الكثيرة، هي الآن تغمرني بالكثير من حنانها ورعايتها، ولكني أخشى عليها، ماذا لو لسبب قاهر عدت إلى السويد فجأة؟ ماذا لو قتلت بانفجار، أو بمرض مفاجئ؟ كيف صار التفكير بنهاياتنا واجبا يومياً! هي وأقارب لنا نصحوني بالزواج "هنا الكثير من الأرامل والعوانس" فكنت أضحك، نصحوني أن لا أكثر من

الخروج درءاً لمخاطر كثيرة! هم محقون خاصة وإن ما في بغداد لا يسر ولا يغزي بتحمل العناء والخطر من أجله! نزلت إلى وسط المدينة مرات عديدة، تجولت في شارع المتنبي حيث المكتبات وأرصفة الكتب، وجلست في مقاه كنا نلتقي فيها نحن الأدباء والصحفيين ولا زال أدباء وصحفيون غيرنا يلتقون بها، فرحت في البداية ثم أخذت المزعجات والآلام تتوالى، ثمّة بعضهم أصدقائي، وجدتهم قد تغيروا، كثيرون يكرهوننا، يقولون إننا عشنا نعم ومباهج الخارج، بعيداً عن معاناتهم الطويلة والمؤلمة، ثم جننا لننافسهم في مهنتهم وعلى حياتهم هنا. على ماذا ننافسهم؟ ماذا لديهم نحسدهم عليه؟ واقع معقد مريع وصعب الحل، لا ينبغي لأحد أن يزايد على أحد بالثورية أو الوطنية. لم أشأ الدخول معهم في نقاش مريع، لا أريد أن أتحدث كغيري عن الخنوع والتدليس والسكوت عن الظلم، والمنفى الذي كان احتضار طويلاً وليس فندقاً بعشرة نجوم، كما اعتقدوا، أو روجوا. لم أجادل ولم أرد حتى على من حاول استفزازي وتجريحي بفظاظة فأنا أعرف أننا جميعاً ظلمنا، وانتهينا إلى مصير لم يكن بمعزل عن تقصيرنا وعجزنا جميعاً. عدت من المنفى ووجدت المنفى هنا أيضاً! صرت أشعر أن لا شيء يقنعني سوى الصمت والكتابة، قررت أن أمكث في البيت لا أخرج منه إلا لضرورة، حتى رياضة المشي التي احتاجها لمعاناتي من السكر وارتفاع ضغط الدم، لم تعد هنا ممكنة. ولكي اضمن عزلة هادئة قطعت الانترنت عن الكمبيوتر، ما زلت أجد في الذكريات ما يمنحني شيئاً من الفرح والأمل، أحس الآن ويدي على الأوراق بتيار غامض يسري منها إلى قلبي، أهو شعاع يأتي من الماضي إلى الحاضر، أهو شعاع كدر قاس ينطلق من الحاضر إلى الماضي يستحثه للنهوض في أعماقي من جديد، شيء أعمق من الحنين، وأقرب للأمل. يبدو كلما تحطم شيء في الحياة، ثمّة شيء آخر مهما كان صغيراً وكانوا

ينهض مكانه، ويكفي لشدنا إلى المستقبل! علني أستطيع
المضي في كتابة الرواية، وترتيب هذه الأوراق داخلها، وإذا
وجدتها لا تكفي أو لا تنبئ بأحداثها سأقتدي بعلماء الآثار حين
يسدون ثغرات وتخرم النصوص من تحليلاتهم ومخيلتهم
وتوقعاتهم ثم يمضون دون كلل يفكون شفرات الماضي.
سأحاول استخراج ما حدث لأجاثا، أين ذهبت وماذا لقيت، حين
اختفت، ومن يدري قد تكون أجاثا لم تختف أصلا، وإن الأمر
كله لعبة ذكريات مريرة طاحنة، وإن صديقي حارس الآثار أراد
إشعال خيالي برواية مؤثرة آنذاك، أو هو ابتغال خاص بعواطف
وقد شهدت الآثار لحظات حينا الأخيرة؟ أو إنني في بحثي عن
أجاثا أبحث عن روعي المعذبة وقد صارت تحت كل هذا الركام
من الحجارة والأنقاض، وعن بغداد المهدمة موطنها مهما تبدلت
عليها الأوطان؟ إنها لعبة أحزان على كل حال، لا أستطيع أن
أجزم بشيء سوى بالكتابة نفسها وهي ستشق طريقا لنفسها كما
يشق السيل طريقه ولا ينتظر من يحفر أمامه، لا شيء تبقى
الآن سوى الكلمات!

(5) هل قتلت أجاثا؟ أم ذهبت بعيدا؛ تبحث عن القتلة الكبار؟

صعد ماكس درجات السلم متهاكاً، يكاد ينهار. دخل حجرة النوم، وتداعى على الفراش. انتفض فجأة وراح يرفع الأغطية؛ عل أجاثا تكون نائمة تحتها، ضحك من نفسه بمرارة كيف يختفي جسدها الضخم الجميل تحت هذه الأغطية الربيعية الخفيفة؟ هل سافرت إلى الشام واستقرت في فندقها المفضل في حلب؟ أم ركبت قطارها المفضل، الشرق السريع الذي تبتدع فيه حكايات رواياتها، عائدة إلى لندن؟ ولكن لم يحدث بيننا أي خلاف أو شجار أو حتى تعكر مزاج، لتتركني، حياتنا غاية في الصفاء والانسجام! ثم كيف تغادر الفندق دون أن تأخذ معها حقيبتها؟ فهي ما زالت مركونة في الزاوية وملابسها معلقة داخل الدواليب. والأهم من هذا كله كيف ترحل دون أن تأخذ معها الآلة الكاتبة، مذبذبة العيش معا كنت أراها تحملها قبل أن تهتم بأمر حقيبة ثيابها، أكثر من مرة قالت لي: " أنا أتنفس هواء العالم من خلال الآلة الكاتبة، ومهما كان ولعي بالبيانو عظيما لكن تكتكات الآلة الكاتبة عندي أعظم من نعماته الساحرة! عليها أعزف سيمفونياتي الصامتة، حتى أنني صرت اسمي آلتها الكاتبة بيانو أجاثا. كل رواياتها كتبتها بثلاثة أصابع تنقر عليها كمناكير عصافير الحب. مادامت الآلة هنا، فهي هنا أيضا. وجد أيضا قارورة العطر الصغيرة التي فيها فتات تساقطت من ألواح النسخة الآشورية لملمة لجاش، حفظتها كأنها تعويذة ، تحملها معها أينما ارتحلت بقاء القارورة هنا يعني أن غيابها لم يكن بإرادتها أو رضاها ، هي تعرضت لضغط أو عنف على الأغلب! والمصيبة هل هي الآن حية أم

ميتة؟ نهض وقد داخلته قوة مضطربة. اخذ يتفحص الشرفة أدار نظره تحتها متفحصا رغم إنه مر في المكان قبل قليل، راوده هاجس رهيب أن تكون قد ألفت نفسها منها منتحرة. ولكن، هذا ليس مكان مضمون للانتحار، فهو ليس مرتفع كثيرا، سقطتها ستصيبها بكسور فقط، ولكن ما لذي يدعوها للانتحار؟ أليست هي سعيدة معي بعد زواجها الفاشل من الضابط الإنجليزي، ولم تكن هي السبب في فشله. كانت تقول دائما "أحس كأني مررت بكل هذا العذاب والرحيل، والقلق لكي ألقاك، كأني كنت أبحث عنك أنت بالذات، كلانا يبحث، أنت تبحث عن إله كبير تحت الأرض، ولم تجده حتى الآن، وأنا أبحث عن اله صغير فوق الأرض، ووجدته فيك!" كنت أعرف أنها قد قررت أن تجعل زواجنا سعيداً، لكنني كنت ألمس بين حين وآخر رغم سعادتها التي تبدو غامرة ثمة سحابة حزن تظلل وجهها تحت قبعة القش الشمسية، حين ننقب بين القبور، يعتريها ذهول مفاجئ، كنت أعزوه لإدراكها المصير القاسي للإنسان: كومة صغيرة من العظام المنخورة وكنت استغرب لماذا هي مولعة بحبكات الجريمة، القتل، والموت، الخطف والسرقة؟ ألا ينم هذا عن كونها هي أيضا خائفة من الموت، خائفة أن تخطف أو تسرق أو تتعرض لأذى ما؟ هل ترى في الإنسان وحشا كاسرا يتخفى خلف وجه رائق مزوق بحضارة ومدنية لم تصل إلى روحه، ولم تغير من حيوانيته؟ أحيانا أتصور أن أجاثا مهما ابتسمت بوجه الناس فهي في قرارة نفسها ترى أن الإنسان كائن زائف دعي كذاب؟ وأنا أأست أنسانا أيضا؟ ومن يخاف من شيء قد يقاربه على سبيل التحدي، أو للانصياع والاستسلام له. ولكنني أظلمها فهي تثق في الناس كثيرا وتتفانى في حبهم وخدمتهم. ما هذه الأفكار السوداء التي صارت تزحم رأسي، ما هذا الذي يحدث يا أجاثا؟ نهض من فراشه وألقى مرة أخرى نظرة من حاجز الشرفة على النهر، بين جدار الفندق و النهر حوالي

ثلاثين، أو أربعين مترا، شاطئ رملي تتخلله حشائش وأجمات من شجر الطرفة والأشواك الخضراء، نوارس تحلق في أسراب ترسل صيحاتها، لأول مرة يحس أنها حزينة كأنها معه تنادي على أجاثا، نداءات وأغاني الصيادين والبلامين الذين يعبرون الناس بقواربهم جعلته يشعر بشيء من الطمأنينة أن هذه المدينة وديعة مسالمة حنونة لا تقتل الغرباء، لا تخطفهم ولا تسرقهم ولا تعتدي عليهم، وإن أجاثا في لحظة ذهول عن نفسها، هي في شرود وتجوال طويل، وستعود. نزل درجات السلم مطمئنا بعض الشيء، وألقى نفسه على الأريكة الجلدية السوداء في بهو الفندق، عاد يفكر، هل أخذتها في لحظة ما روعة بغداد وجمالها، اجتذبتها إلى أعماقها فراحت تائهة غائبة عن نفسها هائمة بجمالها الفطري البسيط تتجول في أزقتها وحواريها تستدعي أطياف وجوه ماضيها الشهير، وسحرها القديم، ألم تكن تقول بين حين وآخر، "أحقا يا ماكس نحن الآن في أرض ألف ليلة وليلة؟ في مدينة كانت عاصمة الدنيا، تضج بأنوار الحضارة، قبست حضارتنا من نورها كما قبست من أنوار المصريين واليونانيين والصينيين وغيرهم؟ لقد انكفأت بغداد على نفسها قرونا، وعلينا أن نرد لها بعض فضلها علينا فنساعدها على النهوض من رقاد القرون الطويلة التي عاشتها غائبة عن العالم." لا، لا يمكن لامرأة تحب مدينة، أن تقابلها تلك المدينة بالغدر والعقوق فتقتلها، كما لا يمكن لأجاثا وهي تحب العالم بهذا القدر؛ أن تكره نفسها؛ وتنتحر! قر في نفسه كما لو كان يحلل لوحاً أثريا: لم يقع لأجاثا أي سوء، لقد استدعتها روح بغداد، اجتذبتها كالمغناطيس، فضاعت في أزقتها الملتوية المتشابكة كأغصان شجرة معمرة عتيقة. بعد قليل ستدخل علينا يقودها فقير درويش، أخرجها من خان أو نزل، أو تكية في مسجد قديم! قطع جبرائيل أفكاره، وهو يسأله فجأة:

- ألا أترى يا سيدي أن علينا إخبار الشرطة؟

أحس ماكس بصعقة، أعاده صوت عامل الفندق المشوب بقلق وخوف وواضحين إلى الحقيقة المرة، فأخذته رجفة في أطرافه، كان قد فكر بذلك قبل ساعة كيف تجاهل ذلك، لم يعد الأمر تحت قدرته لا بد من تدخل قوة أكبر، لقد تأخر كثيراً، هل حقاً أجاتاً قد اختفت؟ وهي الآن في وضع يستدعي تدخل الشرطة؟ هل قتلت أو خطفت أو انتحرت، واختفت إلى الأبد؟ لا هذا غير ممكن! لا أصدق أبداً. انبعث صوته واهنا، مع نفسه: قبل أن أخبر الشرطة علي أن أتصل بريتشارد، فهو أيضاً الموظف الذي يتابع عملنا رسمياً من السفارة البريطانية. هم بالنهاية، وجد جسده ثقيلًا، منكشاً لا يكاد يطاوعه، تحامل منهكاً، واتجه إلى تلفون الاستعلامات الأسود الثقيل، بدا له في تلك اللحظة حيواناً شرساً مخيفاً. ولكن لا بد له من استعماله. سمع صوت ريتشارد من مكتبه في السفارة يوقظه من شروده:

- ماذا هناك يا ماكس، أنت بخير؟

لم يطاوعه قلبه ولا لسانه للقول أن أجاتاً قد اختفت قال:

- لقد خرجت أجاتاً؛ دون أن تعلمني، وقد طال غيابها، وإنني قلق عليها بشكل جدي.

مضى يتحدث بصوت واهن جاف، ليرد على أسئلة ريتشارد. كان يتوقف، ليبلغ ريقه ثم يأخذه شهيق ويعاود الرد على أسئلة ريتشارد الذي فهم أن أجاتاً مختفية منذ ساعات دون أن تترك أثراً، ريتشارد الذي هو وزوجته صديقان لهما أيضاً، وبينهما علاقات عائلية حميمة، قال:

- كعادتك يا ماكس تهون الأمور، كأنك تتحدث، ونحن في لندن، ألا تعلم نحن نعيش في أرض أهلها يكرهوننا، ويناصبوننا العداء، كن يقظاً، سأخبر السفير، لنتحرك بسرعة، وعلى أعلى

مستوى. لا تترك الفندق، ساتصل بك، أو ساتيك بنفسى، الأمر
خطير يا ماكس، خطير للغاية!

كان جبرائيل يتابعه بقلق، حين وجده يعود للجلوس في أريكة
البهو، أسرع وجلب له قدحا من الماء، مع فنجان قهوة تركية،
احتسى ماكس جرعات صغيرة من الماء، شعر بكلمات ريتشارد
تدور برأسه، "أنت تهون الأمر" "الوضع خطير" سأخبر
السفير" هذا الذي يسمونه مستر بينج بونج لولعه بلعبة كرة
المنضدة، هل سيحول أجاثا إلى كرة على منضدته، ويتبادل بها
الضربات مع المسؤولين بهذا البلد؟ هل وصل الأمر إلى هذا
الحد، هو يعرفه، أخشى أن يتعد الأمر بدلا من أن يحل. ندم إنه
أخبر هؤلاء العاملين في السفارة، ليته أنتظر أكثر، أين تكون قد
ذهبت؟ ستأتى بعد قليل، أو حتى في اليوم التالي، ربما طراً
لديها أمر لا تريد أن تزعجني به. هي ذكية عاقلة وتتصرف هنا
كرجل، رغم جمالها الأخاذ، وجاذبيتها الطاغية، وانبهار الرجال
بها هنا، لكنهم لا يلبثون بعد دقائق من لقائها أن يتصرفوا معها
بتهييب واحترام، وحذر. الإنجليز هنا يهولون الأمور، هم تلقوا
ضربات موجعة من أهل هذه البلاد، نتيجة سياستهم
المتغترسة، كم نصحتهم بالرفق بهم ومعاملتهم بأسلوب أفضل،
حدثتهم عن تاريخهم القديم الراقى فلم يصدقوا، هم وادعون
مسالمون إذا لم تجرحوا كرامتهم، أنا وأجاثا لم نجرح كرامتهم
على العكس جئنا نخرج لهم تاريخهم العظيم من تحت التراب؛
ليعتزوا به، ويستعيدوا ثقتهم بأنفسهم، ولا يصدقوا ما يقال عنهم
من أنهم أقوام بدائية متوحشة، لا يرجى تقدمها! لا يعقل أنهم
سيقتلوننا لقاء ذلك، الذين يعملون في السفارة لديهم ضغائن
متراكمة مع أهل البلاد، لذلك يخافونهم ولا يتوقعون منهم غير
الشر، صار يهدئ نفسه. ظل لا يستقر، يجلس لحظات ثم
ينهض، يصعد إلى الحجرة يدور فيها، ثم يخرج إلى الشرفة؛

يتطلع إلى الأفق، لكنه هذه المرة راح ينظر إلى الأرض، صعد مرة أخرى وراح قلبه يخفق بقوة، انحنى قليلاً، ثم جثا متهاكاً، وجد قطرات دم أسفل الحاجز، حلق بها، مسها بطرف إصبعه، قدر أنها لم يمض عليها وقت طويل، بل وجدها نقاط متقطعة مكونة خيطاً أحمر قان يمتد حتى مخرج الشرفة، طمأن نفسه، هي قطرات صغيرة، قد تكون سقطت من طير جريح عابر، أو قطعة نطت من شرفة مجاورة. لا، إنه دم أجاثا، دم إنساني صاف، لا يمكن أن يكون دم طير أو حيوان، ماذا؟ أتكون قد طعنت؟ لكنه دم قليل، لا ينم عن طعنة دامية قاتلة! اقرب لجرح صغير،، هذا نذير شر كبير. انحنى محاولاً شم القطرات الجافة. أحس أنه يعرف رائحة دمها، وكيف لا يعرف رائحة دم هذه المرأة الجميلة التي أحبها من أعماقه، ووجد فيها الأم والحبوبة والصديقة؟ كيف لم أحس بما حدث؟ أكان نومي ثقیلاً إلى هذا الحد، كم كان مشغولاً عملي الطويل نهار أمس فأسلمني للنوم؟ ألم تصرخ أجاثا حين طعنت، أو اقتيدت لمكان ما، هل كمموا فمها؟ كيف أنزلوها؟ وخرجوا بها من الفندق وموظفو الاستعلامات كما عهدتهم يقظون حذرون، لا يتوانون عن تناوب مراقبتهم وحراستهم لمداخل ومخارج الفندق؟ هل شدها الخاطفون بوثاق وحبال وأنزلوها من الشرفة إلى الشاطئ، وهربوا بها بقارب، هل هذا معقول؟ ولكن إذا لم يكن هذا قد حدث، أين تكون قد ذهبت؟ امرأة تختفي فجأة ولا تترك خلفها سوى قطرات دم، لا بد أن من فعل هذه الجريمة هم جماعة منظمة، اختطفوها ليطلبوا فدية، ألم يحدثنا الراهب بهنام في نينوى: أن "المنقبين جاءوا يسرقون كنوز البلاد، ونهب ثرواتها" هذه ليست قناعته بقدر ما هي تحذير لنا وحرص علينا، سمعت من كثيرين هنا عراقيين وعرب وحتى أجانب، أن المنقبين الألمان تواطئوا مع الحكام العثمانيين على سرقة وتهريب آلاف القطع الأثرية الثمينة من آثار سومر وبابل إلى

برلين، أخذوا حمولات سفن كبيرة من أحجار وألواح العراقيين القدماء، كان الولاية ورجال البيت العالي قد باعوا الكثير من تاريخ العراق إلى الأجانب، أو في الأقل غضوا الطرف عن سرقاته، بحجة إنه تاريخ وثني قام قبل الإسلام! نحن اليوم متهمون بهذه الجريمة أيضا وعلينا أن ندفع الثمن. ولكن حتى الآن لم يصلني شيء من الخاطفين، هم يعرفون رقم تلفون الفندق حتماً. أم تراهم سيبعثون برسالة تتضمن مطالبهم؟ أم إنهم خطفوها انتقاماً من الإنجليز وسياساتهم التي تثير سخط الكثيرين من الأهالي هنا؟ رغم بعدنا أنا وأجاثا عن السياسة، والسياسيين وانهم اكنا في أعمالنا العلمية، تداهمنا السياسية ومصائب السياسيين، لكن قد لا يكون هذا الدم دمها، وكل ما أفكر به هو مجرد تهيوأت وأوهام، انحنى عليه مرة أخرى، إنه دمها، وهو يذكرني برحيق زهرة فواحة كبيرة تملأ الكون بعطرها وجمالها، لا هو ليس رائحة جسد يموت، إنه رائحة جسد حي معافى قوي يعصي على الموت، لكنه حين نهض وواجه الأفق الفسيح الفارغ العميق لهذه المدينة الموعلة في القدم أحس فجأة بالخوف، ووجد في هذه القطرات القليلة من الدم نذير شؤم وموت! زاده تفكيره عذاباً ولوعة! لا بد أن أجاثا تعرضت لشد ما، لأذى كبير، قتل أو تكميم لفمها، أو قبضة قوية على رقبتها حيث سحبها الجاني ليكتم أنفاسها ويخرج بها من الفندق إلى سيارة أو قارب في انتظاره، هكذا تراءى له مشهد ما جرى! لم يعد الأمر يحتمل انتظارا، تفجر قلقه، تأكد له أن شرا كبيرا قد وقع لأجاثا، راح يردد وبصوت يكاد يسمعه، "ريتشارد محق، الوضع خطير، والإنجليز مهما فعلوا من خير لأهل هذه البلاد هم مكروهون ومستهدفون منهم، لم يعد لدي شك في ذلك" هرع مسرعا غاضبا إلى إدارة الفندق، اعتقد أنهم لم يفتشوا كل حجرات الفندق حتى الآن، اكتفوا بالبحث عنها في المطعم والبار والممرات وبعض المرافق. وجد مدير الفندق أمامه، هو

أيضا كان قلقا يكاد يسحقه الهم والخوف، أن تفقد أو تختفي امرأة أجنبية من الفندق؛ تلك ضربة ساحقة له ولعمله، وقد تكون نهاية لمستقبله كله. سيتعرض لتحقيق طويل وسيستغل خصومه وضعه ويشنعون به، سيحكم هو بالسجن. في الأقل سيدان بتهمة الإهمال وعدم مراعاة قوانين العمل، فالسلطة هنا لا بد أن تخرج بشيء يرضي الأجانب، وهؤلاء الإنجليز لا يرحمون، استقبله صاحب الفندق ومديره باهتمام مكثرا من الانحناءات والابتسامات المرتجفة الحزينة وكلمات:

- اطمئن يا سيدي، هي بخير، ربما هي في ضيافة أسرة أجنبية أو عراقية، وليس لديهم تلفون ليعلمونا، لننتظر، يا سيدي!
قال ماكس بحزم:

- أنتم لم تفتشوا جميع حجرات وزوايا الفندق، أعتقد أن أجاثا قد تعرضت لاعتداء شنيع، خطف، أو قتل من يدري! وربما هي والحنة لا زالوا في الفندق.

- يا سيدي، جميع الغرف مشغولة من نزلاء محترمين، وحسب القانون لا يجوز تفتيش حجراتهم إلا من قبل سلطة مأذونة، ومع ذلك ففتشنا الكثير من الحجرات التي غاب عنها أصحابها لحاجة ما، كما ليست لدينا غرف خالية!
توقف ليبتلع ريقه الجاف مضيقاً:

- يا سيدي لقد فتشنا أرجاء الفندق، حتى المخازن والزوايا المغلقة، واستطلعنا السطوح المجاورة فلم نعثر على شيء، والأهم لم نجد أي أثر مقلق يدل على حدوث جريمة، اطمئن يا سيدي ستظهر السيدة أجاثا عما قريب!

لم يتحدث معه بشأن قطرات الدم، خشي أن تعبت بها الأيدي قبل أن تتفحصها الشرطة المختصة، تركه يتكلم لوحده وخرج مسرعاً، اتجه إلى خلف الفندق، المكان الذي يقع تحت شرفة

حجرتها حيث كانت أجاثا تقف، وحيث وجد قطرات الدم. راح يدور وحده متفحصا الأرض الرملية، وما حولها، لم يجد ما يدل على أن أحدا قد مر فيها، لا وجود لأثر أقدام أولئك الرجال الذين تخيلهم ينزلون أجاثا من الشرفة العالية لطابقين ويقتادونها إلى قاربهم، كانت الحشائش والنفايات القليلة المتناثرة فيها على وضعها العادي والطبيعي لم تمس، ولم يتعرض أي جانب منها لما يطمسه أو يهشمه، ومع ذلك حاذر ماكس أن يجوس فوقها، متفكرا أن تحقيقه الأثاري هو غير التحقيق الجنائي، أستطيع التحقيق في كسر بجمجمة قديمة لأحدد ما إذا ما كان قد حدث في ذلك الزمن أم نتيجة تحلل أو تفسخ لاحق، لكنني لا أستطيع التحقيق بما تتعرض له جمجمة في هذا الزمن. ولمن؟ لأجاثا أعز إنسانة في حياتي! كانت هي من يحقق في مقتل أبطال رواياتها، فتصير اليوم ضحية، أين المفتشون الذين ابتدعهم: هركيول بوارو والكولونيل برس ومس جين ماربل، والذين كانوا يحلون ألغاز وطلاسم جرائم رواياتها الغريبة ليساهموا اليوم في حل لغز اختفائها؟ كم أنا اليوم بحاجة لهم ولبراعتهم المذهلة في الكشف عن القتل، وأجاثا بحاجة لهم غير ناس أنها هي التي خلقتهم! لا، لا توجد جريمة. هي حية سليمة، معافاة، وستأتي بعد قليل هي فقط في شرود وغياب عن نفسها؟ ألم تختفي عام 1926 في لندن، ثم وجدت سالمة؟ ظلت ضائعة عشرة أيام لا يعرف أهلها وأصدقائها عنها شيئا، آنذاك اشترك الشعب البريطاني في البحث عنها، فهي كاتبهم المفضلة، أنيستهم في ليالي الوحدة والبرد والضباب، ولكنهم بحثوا عنها في بريطانيا وليس في العراق، بين هؤلاء الناس الغامضين الذين كلما قلت إنني عرفتهم حين عاشرتهم ونقبت في تاريخهم أجدني اليوم لا أعرفهم، ولا أدري ماذا كانوا يخبئون لي ولأجاثا. ماذا سيقول الإنجليز حين يسمعون باختفائها، أو خطفها، أو مقتلها؟ بالطبع ستكون صدمة كبيرة لهم، يغضبون

ويحزنون كثيرا، اليوم من غير المعقول أن يركبوا جميعهم قطار الشرق السريع ويأتون إلى بغداد للبحث عنها، ستتطلع أنظارهم إلينا، أنا وريتشارد والسفير بينج بونج للعثور عليها، ولكن الآن ما الذي يجعل أجاتا تصاب في بغداد بالذهول وتنسى نفسها ولا تعرف أين تكون؟ كل ما شئت ذهنها وأضاعها آنذاك قد ولى وانتهى، فالأم التي خافت أن تفقدها، قد توفيت، بكت عليها وحزنت كثيرا، ثم صمتت. والزواج الأول فشل وانتهى بطلاق قانوني ومعه طويت صفحة من الآلام والدموع والندم. والصدمة العاطفية التي قيل إنها السبب الحقيقي لشرودها، لم ألمس لها أثرا طيلة فترة زواجنا الذي كان كل يوم فيه كأسا مترعة بالسعادة! ورغم إنها تكبرني؛ لكنني أراها دوما يافعة شابة، وأتلقى منها حب الزوجة، وحنان الأم، كيف لا أعشقها وأعبدتها؟ لا أعتقد إنني قصرت معها في شيء أو أسأت إليها، لتصدم، أو تعيش لحظة كابة قاتلة. في ذلك الاختفاء تركت سيارتها على الطريق وقد فقدت الذاكرة، وكانت تسأل المارة؛ من أنا؟ أتعرفونني؟ حتى لقيها أحد أقاربها مصادفة وأتى بها إلى بيتها! اليوم لو كانت قد فقدت ذاكرتها وتاهت في شوارع بغداد ستسأل بعربية مكسرة، من أنا؟ أين أنا؟ من يقودني إلى مكاني؟ وسيفهم من تسأله وضعها وسيأتي بها إلى أي فندق يعتقد أن الأجانب ينزلون فيه، قد يكون فندقنا، وقد يكون آخر، وسيعرفونها! أو يمضي بها إلى السفارة البريطانية أو إلى أي مركز للشرطة، هذا إذا لم يكن يطمح بمكافأة. أو يخشى أن يصمه الناس بالخيانة لأنه اقتاد إنجليزية إلى سفارة بلاده. تجاذب ماكس خاطر آخر أ تكون أجاتا قد ذهبت إلى مصر؟ تذكر كلاما قالت في جلسة لهما قرب أطلال نمرود في الموصل: أتمنى أن أقوم برحلة أخرى إلى مصر، حتى أنت سأفاجئك بها يا ماكس! رائحة النيل ونخيله وقواربه وغناء الملاحين والصيادين ما يزال يملأ جوانحي سحرا وغموضا.

أريد أن أكتب المزيد عن شخصيات من تاريخه، اخناتون بعد أن كتبت عنه صار صديقاً قديماً لي، يطيب لي أن أتحدث معه دائماً، تعرف أنا لا أتناول قضايا أهل البلد الحاليين في رواياتي لكنني أجد في التاريخ القديم ينبوعاً ثراً لحبكات مثيرة، لا يبين من الأهرامات العظيمة سوى الثلث. ما تحت بحرها الرملي الثلثان، فيهما الكثير من حكمة البشر وآلامهم! سحرني العراق القديم فرأيتُه من داخله، ومنحني أقصى الخيال، أريد أن أراه من مصر، كما رأيت مصر من العراق، أريد أن أسافر إلى البلدان الذي بزغ منها فجر البشرية، إلى مصر، أدور حول الأهرامات، صروح وادي الملوك، إلى بقايا حضارة المايا في أمريكا اللاتينية، إلى سور الصين، وقصور الهند العتيقة، أحاول أن أشم كما الكلب البوليسي تلك الرائحة المنبعثة منذ آلاف السنين من الدم المسفوح ظلماً، والعرق النازف من أجساد الفقراء وهم يموتون جوعاً ليعبثوا قصوراً وقبوراً لملوكهم! وقتلتهم الكبار! يا عزيزي ماكس، الجرائم الصغرى لم تعد حبكاتاً تغريني، أرى كتابتي لها كمن يصيد الأسماك الصغيرة في البحر، خائفاً من مصارعة الحيتان والكواسج! أتطلع لروايات تكشف كم صنع جبابرة الماضي وطغائه، من مظالم وقسوة وعنف الحاضر. أتتبع خيط الشر منذ بدء البشرية حتى اليوم. شهدت حربين عالميتين، ملأت منهما حزناً وغضباً، جعلتني أرى أن الجريمة ليست فقط تلك التي يرتكبها أناس تعساء، ضحايا مجتمعاتهم وأقدارهم، ينفذونها بالأسلحة الصغيرة، بل هي تلك التي يرتكبها رجال كبار منحهم الناس ثقتهم واحترامهم وهم عادة لا يعرفون استعمال المسدسات، أو السم، بل يعرفون استعمال الطائرات والدبابات والغواصات، ويحملون ألقاباً كبيرة جداً، ملوكاً ورؤساء وزعماء! لذلك فإنني إذا أردت أن أكتب رواية الجريمة المعاصرة فإن علي أن أبحث عن القتلة الكبار المختبئين كالثعالب في شقوق

التأريخ وجحوره المظلمة، أطمح لرواياتي المقبلة أن تطيح
بكثير من الألقاب والتماثيل المقدسة! أأكون أجاثا قد ذهبت إلى
مصر؟ إلى الصين؟ إلى قصور المهرجات في الهند قاطعة
آلاف السنين إلى بدايات حضارات البشر، ترصد القضايا الكبرى
،باحثة عن المتجبرين، القتلة الكبار؟

(6) السفير البريطاني يقول للباشا نوري السعيد: حتى إذا وجدتموها ميتة، نريدها منكم حية!

استمع السفير البريطاني، الملقب بالمستر بينج بونك متحفزا، لريتشارد وهو يبلغه اختفاء أجاثا كريستي، ووجهه الغليظ يزداد حمرة مع كل كلمة ينطق بها، رفع سماعة التلفون على الفور، ليكلم الباشا نوري السعيد رئيس الوزراء، رجلهم في بغداد كما يقولون:

- حدث خطير وقع لمواطنتنا العزيزة أجاثا كريستي الكاتبة العظيمة، على أرضكم؛ خطفت من فندق تايكر بالاس، إنها إحدى درر التاج البريطاني يا باشا، أُملي بشجاعتكم وإخلاصكم لبريطانيا العظمى، أن تجدوها وبأسرع وقت!

وبما إنه مولع بلعبة البنج بونج فقد رد الكرة الوهمية لوحده:

- لا تقولوا لنا إنكم عجزتم عن العثور عليها، لا أريد القول جدوها لنا حية أو ميتة، أريدها حية يا باشا، حية. حتى إذا وجدتموها ميتة. هذه أجاثا كريستي فخر الإنجليز. شكسبير على هيئة امرأة معاصرة يا باشا!

انتفض الباشا:

- امرأة أجنبية تخطف في العراق؟ هذا غير ممكن، خطف الأجانب ليس من أخلاق العراقيين!

لكن السفير قال:

- هذا ما حدث يا باشا، قبل قليل أعلمنا زوجها المنقب الأثاري ماكس مالوان إنها منذ الصباح الباكر قد اختفت، وقد بحثوا عنها كثيرا، دون جدوى، وحتى الآن، ونحن في منتصف

النهار؛ لا أثر لها!

صمت الباشا متفكر محاولاً إخفاء انفعاله. أحس بأن ما حصل هو إهانة شخصية له وللدولة، الباشا الذي لا يفكر سوى في السياسة راح يفكر "لو حدث هذا حقاً فهو جريمة سياسية، المعارضة التي عجزت عن النيل من سطوة دولتنا أرادت أن تمرغ سمعتنا بالوحل، اختارت هدفاً كبيراً، ليس لأنها كاتبة فأنا لم أقرأ لها، حتى شكسبير لم أقرأ له سوى مسرحية "تاجر البندقية"، ومسرحية "وروميو وجوليت" لم أستطع إكمالها لميوعتها. الضحية كبيرة لأنها امرأة إنجليزية مشهورة في بلادها وأوروبا، هي صيد ثمين لمن يريد أن يساومنا عليها، قتلها أو إيذاؤها سيجعل الإنجليز والأوروبيين يتساءلون، كيف تقولون إننا صنعنا دولة قوية متحضرة اسمها العراق؟ أين رجلكم القوي في العراق المدعو نوري السعيد؟ هي ضربة سياسية محكمة لي شخصياً، سيظهرون بعد قليل يطالبون بثمان سياسي: افسخوا عقود شركات النفط لنطلق سراحها، أطلقوا سراح السجناء السياسيين لنطلق سراحها، الغوا سجن نقرة السلمان، أو من يدري يجعلونها قضية أكبر، ارفعوا أيديكم عن فلسطين، الغوا مشروع تقسيمها، اجعلوها كاملة للفلسطينيين لنطلق سراح أجاثا كريستي، هم يريدون تشويه سمعتنا في العالم، جرجرة سمعة الدولة والإنجليز في أحوال العراق! رفع سماعة التلفون، كان الوصي عبد الإله على الطرف الآخر، جلس لتوه على مكتبه بعد وعكة ألمت به في المساء، حدثه بما سمعه من السفير الإنجليزي، بعد صمت قصير، جاء صوته واهنا برما:

- هذه قضية خطيرة، ثقتي كبيرة أنك يا باشا ستواجهها بالحزم المعهود فيك! موفق إن شاء الله، أعلمني بما يتحقق أولاً بأول، دمت بخير، وأغلق التلفون.

صفن الباشا لحظة، خطر له أن يخاطر وزير الداخلية، تذكر إنه هو الباشا نفسه في هذه الأيام يحمل حقيبة وزير الداخلية أيضا، ريثما يعين وزيرا جديدا بعد أيام، وجد نفسه منفعلا مرتبكا على غير عادته، تذكر شيئا جعله يهدأ ويطمئن ويثق إنه سيتصدى لهذه القضية المحرجة، ويحلها خلال ساعات، كما حل قضية الدكتور موزي رئيس الاتحاد السويسري الأسبق الذي استدعته الحكومة العراقية للاستفادة من خبراته في بناء الدولة السويسرية التي يقولون أنها تعمل بدقة الساعة السويسرية عله يساعدهم في بناء الدولة العراقية لتكون كدولة سويسرا، حديثة أنيقة ساعة سويسرية، ولم لا ؟ أحلام الرجال يجب أن لا تقف عند حد! كانوا قد أعدوا للدكتور موزي جناحاً في فندق تاكر، نفس الفندق الذي اختفت منه أجاثا كريستي، في اليوم التالي لوصوله كان يتجول في شوارع بغداد كأنه يتفحص المدينة عمرانا وشوارع وساحات، محققا في جوه الناس وثيابهم وتصرفاتهم مثل خياط يتفحص جسدا ليخيط له بدلة أو دولة ثلاثمه، وعلى مقاسه، في لحظة تفكيره الفلسفي امتدت يد نشال بغدادي ماهر إلى جيبه ونشلت محفظته المحشوة بالعملات الصعبة. وصور زوجته وأبنائه، بل أن النشال استغل شروده العميق وقد تصوره يمشي وهو نائم، ومد يده في جيبه الآخر ونشل بخفة الساحر جواز سفره وقنينة عطر وحلقة زواجه الذهبية التي كان قد وضعها في جيبه بعد أن أحس أنها صارت ضيقة وقد أخذ جسده يسمن ويترهل، هرع الخبير السويسري إلى نوري السعيد الذي كان يتابع عمله مباشرة منتظرا منه دولة عراقية نظيفة نزيهة معلنا أمامه بهلع وخوف أن يتخلى عن مهمته "دولتكم التي شوارعها يسرح فيها نشالون يسرقون حتى حلقة زواجي لا تصلح أن تعمل كالساعة السويسرية، هي لا تصلح لها سوى ساعة رملية!" ضحك الباشا وراح يهدئه، قال له أذهب ونم ليلتك هانئا غدا ستكون المحفظة والحلقة والصور

كلها عندك. اتصل بمدير التحريات لجنائية، وطلب منه أن تكون المحفظة وكافة المسروقات من الضيف السويسري على مكتبه وخلال أربع وعشرين ساعة. اتصل العطية وعلى الفور بضابط الشرطة عبد الرحمن السامرائي المحقق الفذ المجرب في قضايا السرقات واللصوصية ومكافحتها، كان مأموراً لشرطة العبخانة! قال له العطية إنها مسألة تتعلق بسمعة البلد الخارجية والضحية ضيف عندنا وجاء ليساعدنا وهو شخصية دولية معروفة. الباشا يريد المسروقات على طاولته غدا، وإلا سيعاقب الجميع. كان السامرائي قد كشفت قضايا نشل كثيرة حدثت في بغداد فكيف بقضية تحدث في منطقة السنك الواقعة ضمن مسؤولية مركز شرطة العبخانة. استدعى إلى المركز عددا من قدامى النشالين في المنطقة وشرح لهم الأمر وهددهم بأسوأ العواقب إذا لم تأت المحفظة قبل الساعة الثانية عشرة ظهرا من اليوم التالي. وبعد صمتٍ طلب منه أحدهم (وهو كبير النشالين) أن يجمعه بالضيف السويسري ليفهم منه مكان الحادث والطريقة التي واجهها أثناء عملية النشل وبعض التفاصيل الأخرى اصطحبه إلى الفندق والتقى مع الضيف واخذ النشال يسأل والسويسري يجيب وأخيرا التفت النشال (المتقاعد) إليه وقال له:

- المحفظة يا سيدي عند (يوسف الأشرح) لأن الطريقة التي تم بها النشل هي طريقته الخاصة. انطلقوا للبحث عن يوسف الأشرح، علموا من أهله انه سافر إلى البصرة في قطار الساعة السادسة والرابع مساءً. وبعد أن أخذت أوصافه وأشكال لباسه، توجهت على الفور ثلة من الشرطة، بملابس مدنية ورسمية إلى المحطة الكائنة في علاوي الحلة قبيل موعد تحرك القطار بقليل، صعدوا إلي القطار الذي استقله النشال، كان مزدحما، وزعوا المهمات بينهم، راح الشرطة الذين يلبسون ملابس مدنية يدورون بين عرباته متأملين وجوه وهيئات الركاب متحاشين

إثارة شكوكهم، بينما جلس الشرطة الرسميون مع السامرائي في
عربة وسطية. استطاعوا تشخيص النشال وإلقاء القبض عليه في
محطة السماوة، فعادوا به مخفورا، في القطار الصاعد إلى بغداد
من البصرة، وفي الساعة التاسعة صباحا من اليوم التالي كانت
المحفظة والمسروقات الأخرى على طاولة الباشا رئيس
الوزراء....!! حين سلم الباشا بنفسه المسروقات للدكتور موزي
دهش وقال مبتسما فرحا:

- لماذا استدعيتوني إلى بلدكم لتنظيم شؤون دولتكم؟ إذا
كانت تعمل بكل هذه الدقة والحرص؟ لا تستغرب إذا قلت لك
إن البوليس السويسري لا يستطيع أن يحسم مثل هذه القضية قبل
خمسة عشر يوما أو ربما أكثر، وقد لا يستطيع الوصول إلى
الجاني!
أضاف ضاحكا:

- إذا سارت الأمور في دولتكم على هذا المنوال فإننا سنوعز
إلى صناع الساعات في سويسرا لأن يضبطوا الساعات
السويسرية على حركة دولتكم.

رد الباشا وقد ارتسم حزن على وجهه:

- لا تصيبنا بالغرور أيها الرئيس الكريم ما نزال نحتاج
لخبراتك، فلدينا بلاوي ومصايب الملائكة والشياطين معاً،
ونحتاج لماء البحر كله لنظهر دولتنا وبلادنا منها!

عندما تذكر الباشا قضية الدكتور موزي هدأ واطمأن قائلاً
في نفسه، لا يمكن لأحد أن يتجرأ في دولتنا على خطف محفظة
فكيف بامرأة، وكاتبة مشهورة؟ سنكشف ملابس هذه الجريمة
خلال ساعات أيضاً! تناول تلفونا آخر، طلب بهجت العطية
مدير التحريات الجنائية المسئول عن الأمن العام في
البلاد، إضافة لرئاسته الشعبة الخاصة المعنية بأنشطة السياسيين

المعارضين خاصة الشيوعيين، لم ينس الباشا كعاداته أن يقرعه؛ ولو بشكل خفي:

- كيف يا بهجت تختطف من تحت انفك سيدة إنجليزية؟
أتعرف كم يبعد فندق تاكر عن مكتبك في السنك؟ بضعة أمتار، فقط لا غير، هذه ضربة كبيرة لنا، كيف يطمئن الإنجليز الذين يعملون على استخراج النفط في كركوك والبصرة؟

كان بهجت العطية يعرف طريقة الباشا في تكليفه بالمهمات الخطيرة لذلك، فهو يظهره مقصرا أولاً، هو يصمت ويصبر عليه حتى يقول المفيد:

- لقد اختفت سيدة إنجليزية تدعى أجاثا كريستي، هي مشهورة يقولون إنها كاتبة كبيرة منذ الصباح الباكر من فندق تاكر ولا أحد يعرف عنها شيئاً، أريدك أن تجدها حتى لو كانت تحت الأرض أريدها حية معافاة يا بهجت، لا أريدها تصاب بأذى بأية مواجهات مسلحة. حتى إذا وجدتها ميتة؛ هاتها حية! لا تجعلونا نبدو ضعفاء أمام بريطانيا.

والعطية يقول بين جملة وأخرى:

- صار سيدي، تأمر سيدي!

سارع بهجة العطية واستدعى كبار مساعديه، اجتمعوا في حجرته، بعضهم لم يجد مكاناً على الأريكتين الجلديتين السوداوين المتقابلتين فضل واقفاً، سحابة من الدخان ملأت الحجرة، والهواء الربيعي كان ساكناً هذا اليوم، كأنه في وجوم معهم. التحق بهم مدير الشرطة. وممثل عن وزارة العدل، لم يطل اجتماعهم، شكلوا فريق عمل يمثل مختلف الاختصاصات والصلاحيات ليقوم بالتحقيق بدءاً من فندق تاكر. وبينما هم يهمون بالخروج جاءت سيارة السفارة تحمل ريتشارد، وبعض الموظفين الإنجليز والمترجمين العراقيين، فالتحقوا بهم وتوجهوا

بسياراتهم إلى الفندق.

سمع ماكس لغطا وهياجا، ظن أن أجاثا قد جاءت؛ وهم يستقبلونها في الفندق فرحين مبتهجين نزل السلم مسرعا مبتهجا، فواجهه على السلم جبرائيل ليقول له:

- جاءت الشرطة، ورجال من الحكومة، وهم يريدونك!

هبطت قواه، وصار لا يكاد يتوثق من موضع قدميه، وهو ينزل الدرج مترنحا، وجد أمامه مجموعة من الرجال بثياب مدنية تحف بهم شرطة برتب مختلفة، يتقدمهم ريتشارد، اقترب من ماكس ليقول له:

- لا تستهن بالأمر، لنتحرك بسرعة، يبدو أن أجاثا تصرفت بإهمال، أرايت؟ هذه هي مساوئ عدم الاهتمام بالسياسة!

خفق قلبه بوجع حتى إنه وضع لا شعوريا يده على صدره، امتعض من ريتشارد الذي لا يكف عن تقريره حتى في هذا الوقت. أخذ ثلاثة رجال يتناوبون على سؤاله: متى شاهدتها آخر مرة؟ ألم تسمع أصوات أو ضجيجا؟ ما هي طبيعة نومك؟ ثقيل، خفيف؟ بماذا حدثتك ليلة أمس؟ هل لكما خصوم أو أعداء، هل تلقيتما تهديدا؟ وبينما كان يجيب على أسئلتهم ويجاريهم في أية تفاصيل صغيرة يستفسرون عنها، كان ينتظر أن يطلبوا معاينة حجرتهما، وشرفتهما؛ ليدلهم على قطرات الدم، وحين وجدهم يستغرقون بأسئلة تفصيلية كثيرة قدر أنها بعيدة عن القضية قال:

- يبدو أننا لم نبدأ من المكان الصحيح، هناك قطرات دم وجدتتها حيث كانت تقف.

صمتوا وأخذوا ينظرون في وجوه بعضهم، نهضوا وراحوا يصعدون مسرعين سلم الفندق، اقتادهم إلى لشرفة، تفحصوا قطرات الدم ورسموها، بالقلم الرصاص، سجلوا شيئا، وراحوا

يرفعون البصمات من على الحاجز، وقد تفاقم قلقهم. حاولوا تتبع قطرات الدم؛ لكنهم وجدوها تنقطع باتجاه باب الحجرة، ولا تستمر سوى خطوات قليلة. خطر للمحقق إنه قد يكون من العادة الشهرية تداركته بالذهاب إلى الحمام، لكنهم حين دخلوا الحمام لم يجدوا دماً. فسأل المحقق: كم عمرها؟ رد ماكس: 58 سنة! هز المحقق رأسه قلقاً، هل رأيت أحدا يحوم حولها، ينظر إليها بطريقة مريبة أو غريبة؟ ظل ماكس يتفكر. يبدو أن المحققين جاءوا منذ البدء معبأين أن ما حدث لأجاثا هو جريمة سياسية. سأله أحد المحققين: هل شاهدت في الفندق من ينظر إليها بطريقة غريبة؟ تذكر إن جبرائيل ينظر إلى أجاثا نظرات طويلة أحياناً. كان ماكس آنذاك يفسرها على أنه هيام شاب مراهق بامرأة جميلة مثيرة رغم سنّها المتقدم، لكنه الآن وجد نفسه مضطراً لأن يفكر بها بشكل آخر؟ هو الآن محرج ويتمسك بقشة، من يدري؟ قد يكون هو من جذبها لإحدى حجرات الفندق ليقوم بعمل دنيء، وحين قاومته قتلها؟ أيعقل هذا؟ لكن هذا الشاب الوسيم الوديع ذا النظرات الحزينة كان بنفس الوقت يعاملهما بكل احترام وتهذيب، ولم يصدر منه أي تصرف ينم عن كونه متوحشاً، إلى هذا الحد! حدثهم عن نظرات جبرائيل وبما يشعر به حياله، سألوه هل لمست منه حركات أخرى مريبة؟

- لا، لم ألمس منه شيئاً آخر، علاقاتنا به عادية، وهو يعامل الأجانب باحترام، لم يبدر منه ولا من أي عمال الفندق ما يسئ لنا أو يؤذي.

أحس ماكس بالندم لشكوكه بجبرائيل فهو شاب لطيف ومهذب وخدم، ولا ينبغي أن يكون انبهاره بجمال أجاثا أو بشخصيتها ككاتبة، سبباً لتوجيه التهمة له بقتلها، أو خطفها، تذكر أن دعبول النوتي هو أيضاً كان معجبا بها، ويغني لها وأحياناً يرقص لها

ويهز وسطه نشوان في القارب، هل يكون هو قد خطفها أو قتلها؟ هل يخبر الشرطة عنه أيضا؟ كثيرون كانوا ينظرون إليها بإعجاب واشتهاء رغم إنها قاربت الستين. إذا احتسب كل من نظر إليها بإعجاب أو اشتهاه كم هو عدد المتهمين بخطفها وقتلها في هذا اليوم المشئوم؟ ألا يبدو هذا مضحكا؟ صار صمته ثقيلًا، طلبوا منه ملازمة الفندق وعدم الخروج، تركوا شرطيين في الفندق لحراسته. خرجوا مقتادين معهم جبرائيل، مع الموظف لمسئول عن الاستعلامات وباب الفندق، حيث أخبرهم إنه كان قد اضطر لترك مكانه في الاستعلامات صباحاً بين السادسة والسابعة حين أحس بوجع في بطنه، واضطر ليضطجع قليلاً في حجرة استراحة عمال الفندق. وهذا الوقت خطير حقاً، فهو الوقت المفترض لاختفائها، أو حدوث الجريمة المتوقعة التي راحت ضحيتها!

صعد ماكس إلى حجرته، شعر أنه بحاجة إلى هدوء واسترخاء ولو قليلاً، يستجمع فيه أفكاره وشتات نفسه. أحس أن روحه سحقت وتباعدت أكثر من أجزاء جرة جميلة قديمة صمدت تحت طبقات تراب الزمن الطويل الثقيل ثم فجأة وهم يستخرجونها سقط عليها حجر كبير فهشمها. اضطجع على فراشه الوثير، لا يدري ماذا يفعل غير الاستسلام لأفكاره وخيالاته وقد أحس أنها أضحت تعذبه كأن يدا من خارجه تسلطها عليه. أخذ لهدوء مغمضاً عينيه، لكنه لم يجد سوى الظلام وخطوط حمراء تمر تحت جفنيه كالبرق. راح ينبش وينقب في ذاكرته، هذه المرة، ترددت في ذهنه كلمته التي أعجبت بها أجاثا يوماً، وسربتها لإحدى رواياتها: التنقيب بين الحجارة والصخور والقبور أسهل وأكثر متعة من النباش والتنقيب في الذاكرة، هناك نجد أفراح القدامى وأحزانهم وقد استحال كلها إلى تراب وغبار متطاير، هموم منتهية، أوجاع لا

قلب يستقبل ضرباتها! في ذاكرتنا حتى الأفراح تحمل لنا الخوف أن نفقدها، أو الأسف على فقدها أو زوالها، يقولون إنني ماهر في النباش والتنقيب في القبور المجهولة والمنسية، هم لا يعلمون إنني سيئ، فاشل في التنقيب داخل رأسي وذاكرتي، كم هي كثيرة القبور والسراديب في أعماقنا، بينما نتصور أننا بعيدون عن القبور وفي مأمن من ظلالها المفترسة. كنت أقول لنفسي أنني أجهل أين تكون قبور أسلافي، أو حتى قبوري نفسه في أعماقي بينما أصل بسهولة إلى قبور الملوك والأباطرة الأقدمين. عاد ماكس يفكر باحتمال سفرها إلى مصر، بدونه فهو لم يكن متحمسا لمشروعها هذا، قال لها لننتهي من عملنا في حلب أولا.

شعر ماكس بالخوف، أ تكون أجاثا قد سافرت إلى مصر، ولم تخبره لكي لا يعترض أو يعيق سفرها ولو بصمته أو بدموعه فقط، هم بالنزول إلى تلفون الفندق لمكالمة ريتشارد في السفارة يرجوه أن يتصل بالمحققين العراقيين ويلفت نظرهم إلى هذا الاحتمال ليعيدوا البحث والتحري ويعرفوا إن كانت أجاثا قد عبرت الحدود باتجاه مصر، لكنه تذكر أنهم تأكدوا من المطار والنقاط الحدودية الأرضية والبحرية أن أجاثا لم تغادر الأراضي العراقية وإنهم كما قالوا أمروا نقاط الحدود لإيقافها عن العبور إذا ما جاءتهم ، دون تعريضها لأي أذى ريثما يصلوا إلى حل صحيح للبلاغ الذي تقدم به زوجها حول اختفائها. هل من المعقول أنها خرجت متخفية إلى وجهة أخرى مجهولة تماما ، غير متوقعة تماما، لتخفي وجودها ، وتحقق تلك الراحة العميقة في أن تكون في مكان لا يعرفها فيه أحد، بينما هي تعرف كل من حولها ، هذا بعض ما كانت تهذي به: "جميل يا ماكس أن تختفي عن العالمين، لا يعرفون أين تكون لا يستطيعون أن يصلوا إليك الكل يطرح احتماله عن مصيرك، مرة عن موتك، وأخرى عن حياتك حسب ما يتمنونه لك؛ هذا يقول ابتلعه البحر،

ذاك يقول غاص في رمال الصحراء، آخر يقول خطف، قتل، فقد ذاكرته وتاه على غير هدى، بينما أنت جالس في مأمن على الشاطئ تحتسي قهوتك تكتب أو ترسم أو تطالع كتابا أو تحقق بسكون في زرقة السماء والبحر، بهذه الغيوبة الجميلة تحقق راحتك!" أ تكون أجاتا قد ذهبت لبلد فيه شواطئ جميلة لتحقيق سعادتها هناك؟ ربما من يدري؟ ولكن ما الذي يدعوها لهذه المغامرة الصعبة وهي كما أعرف تحبني بعمق وقوة، كما أنا أحبها بعمق وقوة؟ أنا أعرف فعلا إن كثيرين من منقبين وعلماء آثار وتاريخ حاولوا إغراءها لتكون معهم؛ تعطي بكتابتها لأعمالهم وشخصياتهم قيمة ومنزلة بين قرائها، ويحصلوا على المزيد من الدعم المالي من جهات علمية ومصرفية أو سياسية في الغرب، لكنها رفضت، لا يمكن لأي كان أن يغريها بمال أو سعادة وهمية، هي لا تخضع للابتزاز! هذه قناعاتي العميقة عنها، ما يغريها ويجعلها تحب كطفلة نحو علبة حلوى هي موضوعات رواياتها والحبكات القصصية الجذابة، حلمها برواية جميلة ترفرف بغلافها الجميل كطائر غريب قادم من سماوات بعيدة هو الذي يستلب عقل أجاتا، ويجذبها لمغامرة تفقد فيها وقارها، حصافتها، وحياتها إذا اقتضى الأمر! كان الوقت قد قارب المساء، سيحل الليل، أول ليل يمر عليه في هذه البلاد وأجاتا ليست بجانبه مجهولة المصير. اكتشف أنها كانت هي شمس الحقيقة، كم كان وجودها يضئ حياته، شمس الشرق التي عشقاها وجاءا ليستخرجا التاريخ الذي صنعه على هذه الأرض. غابت الآن بغيابها. كم الزوجة الحنونة، غالية، لا يمكن لأي شيء في الدنيا يملأ الفراغ الذي تتركه. لقد كانت هي مركز الكون الحقيقي لي!

ظل مشتتا منكها، لا يدري ماذا يفعل وكيف مضت الساعات ثقيلة مريرة قاسية.

ها قد انقضى اليوم ولم تظهر أجاثا ، لم ينم طيلة الليل، ظل
يتقلب على الفراش محمومًا، تأخذه كوابيس، وتطلقه أخرى، كان
أطول ليل في حياته.

**(7) مدير الأمن العام يردد: لا أحد له
مصلحة في اختطاف أجاثا سوى
الشيوعيين، يخيفون الإنجليز،
ويمهدون للسوفيت، سالف جبل
المشنقة على عنق قائدهم فهد،
وأنسى إنه كان صديق طفولتي وصباي!**

هذا الصباح الثاني الذي يتوجب على ماكس أن يواجهه العالم
فيه وليست أجاثا معه، شعر بالخوف، لكنه تذكر كلماتها:
- هذه هي الحياة، تيار جارف، لا يتوقف لانتظار أحد، أو
الحزن عليه!

كأنها تتوقع هذا اليوم العصيب:

- إذا غبت عنك، لا تحزن عليّ، لا تتوقف، واصل عملك
واكتشفاك وحياتك، تزوج، أنجب الأطفال الذين حرمت منهم
لأجلي.

- كل أطفال العالم هم أطفالي، ابنتك هي ابنتي، تظلين مهما
كبرت طفلتي المدللة!

نزل إلى البهو، لم يكن هناك جبرائيل، شعر بذنب وألم
لغيابه، كان يحنو عليه ويخفف عنه من محنته، هو وزميله ما
زالا معتقلين. لا يعلم حتى الآن ما هي إفادتهما، ولا كيف يجري
التحقيق معهما، ندم إذ أفضى بانطباعاته عن جبرائيل للمحققين،
ما كان ينبغي أن أتحدث بمجرد أحاسيس وتصورات، جبرائيل
أطيب من أن يفعلها، كانت مجرد تهيؤات راودتني، وبماذا ستفيد
المحققين؟ لكن أسألتهم كانت محرجة: هل لاحظت من عمال
الفندق بادرة أو تصرفا ينم عن وجود شيء ما لديهم اتجاه أجاثا؟
كنت أيضا محرجا في وضعي وأتشبث بقشة! عامل

الاستعلامات أهمل في عمله وترك مكانه في مراقبة الفندق في ساعة يعتقد أن ما حدث لأجاثا قد وقع فيها! حزن لهما على أي حال، إنهما بريئان وما حدث يبدو أكبر، وأكثر تعقيداً من أي دور لهذين الشابين المسكينين. ظل السفير الإنجليزي على اتصال مستمر بالبasha نوري السعيد بين ساعة وأخرى يخبره، ثم وفي لحظة انفعال حادة سريعة استقل السفير سيارته الكاديلاك، ودخل على البasha ليقدّم له طلباً غريباً:

- أرجو يا باشا أن تضع الجيش العراقي كله في الإنذار (ج)، وتشره على الحدود، نخشى أن تكون ثمة عصابة دولية هي التي خطفت أجاثا وتريد أن تخرج بها إلى بلد ما لمساومتنا على أمور تتعلق بمصالح بلادنا العليا، مستغلة حب الإنجليز لأجاثا!

ظل البasha يتطلع في وجهه مندهشاً، تذكر قولاً كان يردده لأنصاره وخصومه معاً، وهو ملتزم به فعلاً "نجاري الإنجليز قدر استطاعتنا، ولكن هناك حداً يجب أن لا نسمح لهم بتجاوزه معنا مهما كلف الأمر" وكل ما نحتاجه هو أن نصمد في وجوههم وعيوننا تقدح شرراً، لذلك رد البasha بهدوء جاحظ العينين فوق جحوظهما الطبيعي:

- نكون في هذه الحالة كمن يتناول الحساء بمغرفة البئر! جيشنا يا سعادة السفير معد للقضايا الكبرى، وقضية أجاثا من اختصاص الشرطة، وسنجدّها، اطمئن!

ظل السفير يبخلق به ببلاهة. أطلع البasha على ما يقومون به من بحث وتحري عن أجاثا، وكيف أن الوصي يتابع معه التحقيقات بنفسه، وما أسفرت عنه هذه الجهود الحثيثة من نتائج، من المؤسف أن بعضها مقلقة، لكنهم لم يفقدوا الأمل في العثور عليها قريباً، حدثه كيف إنه يرى أن وراء اختفائها دوافع سياسية قائلاً:

- سنضرب رجالا من المعارضة العلنية والسرية، تفهموا موقفنا ووضعنا، لا تخرج علينا صحفكم وجمعياتكم الخيرية باعتراضات واحتجاجات من أننا ننتهك حقوق الإنسان، وعلينا أن نراعي تقاليد بريطانيا في التعامل مع السجناء السياسيين أو المعارضين.

كان الباشا يقصد تدخل الإنجليز في إجراءات محاكمة فهد سكرتير الحزب الشيوعي العراقي، ومطالبتهم للحكومة العراقية بأن تكون غير محرجة للإنجليز في المحافل الدولية. هز السفير رأسه موافقا:

- سنكون معكم في كل إجراءاتكم مهما كانت قاسية من أجل الوصول إلى مواطنتنا المهمة جدا؛ أجاا كريستي!
ونهض متوقفا عند باب الحجرة حيث رافقه الباشا :
- أنتظر النبأ السعيد منك يا باشا!

رغم رفض الباشا وضع الجيش العراقي في حالة إنذار (ج) من أجل أجاا كريستي إلا أنه أعطى أوامره لوزير الدفاع، ودوائر وزارة الداخلية لتشديد الرقابة على المخافر الحدودية، والمطار والموانئ حتى بدا وكأنهم يضعون الجيش والدولة كلها في حالة إنذار فعلا، دون إعلان رسمي! يجب أن تعثروا على أجاا كريستي، يجب أن تجدوها سالمة معافاة، كل المعلومات التي وصلتكم كانت تقول، "لم تعبر الحدود امرأة إنجليزية باسم أجاا كريستي"، هذا يعني أنها ما زالت داخل العراق. كانت إحدى التوجيهات التي وصلت للكثير من الدوائر " حتى لو عثرت عليها ميتة يجب تسليمها حية للسفارة البريطانية، فذلك أمر يتعلق بعلاقتنا ببريطانيا العظمى، ومصير العراق!" الكل صار يهتف "يجب العثور على أجاا كريستي حية أو ميتة وإذا

وجدت ميتة يجب أن تكون حية!" فيظل هؤلاء المسئولون يتطلعون بوجه بعضهم ماذا يستطيعون أن يفعلوا! كانوا يضحكون أحيانا. إحدى الصحف تسرب إليها الخبر علقت قبل غيرها في اليوم التالي "أيقصدون أن نعوضهم بامرأة أخرى، حتى لو وجدنا امرأة شقراء حسناء، بين نساننا السمرات والسوداوات، كيف نجعلها تتكلم الإنجليزية؟ وكيف نجعلها تكتب الروايات البوليسية المسلية للإنجليز؟" السفارة البريطانية لم تنف وصول تهديدات لطاقتها أو أصدقائها من أعلى الرتب في الدولة العراقية، ولرعاياها خاصة من العاملين في حقل النفط . وثمة من تحدث أن ماكس وزوجته وصلهما تهديد، عندما كانا يقيمان في منطقة نينوى ، البعض يقول أن أحدهم تسلل إلى المكان الذي يسكنان فيه قريبا من مخزن أسلحة سنحاريب، وكتب على جدار ثور مجنح: "ننذركما أننا سنخطفكما أنت وأجاثا إذا لم ترفع حكومتكم يدها عن نفطنا، وأذاك ستسمعون مطلبنا هذا وأنتم في قبضتنا" "تعيدون لنا براميل النفط، نعيد لكم ماكس وأجاثا كريستي" أليس هذا هو العدل؟ ولكن ماكس ينفي أنه وأجاثا قد هددوا لا على جناح ثور ولا، على جناح بعوضة، ويقول إنه لم يسمع بهكذا تهديد سوى الآن. وأنه وأجاثا لم يتعرضا إيذاء طيلة عملهما هنا لسنوات طويلة. كان في غاية النشوة واللهفة في عمله منقبا عن آثار الحضارة الإمبراطورية الآشورية التي قامت على هذه الأرض هاضمة زبدة الحضارتين السومرية والبابلية، بل امتدت إلى بقايا الحضارة الفرعونية، وكان في كل طبقة من الأرض يصل لاكتشاف حضاري جديد ومثير. يزيد من بهجة حياتهما هو وزوجته أجاثا، لقد كانا يعيشان بسعادة وبساطة، ويسيران دون حراسة!

مدير التحريات الجنائية بهجت العطية يقول أن وراء اختفاء

أجاثا كريستي المفاجئ، خاطفين، أخذوها رهينة للمطالبة بأشياء أخرى كبيرة وخطيرة طبعاً وسيكشفها، هذه المرأة لا يمكن أن تختفي كقطرة ماء في صحن تحت الشمس، سيجدها حية، وسينال الخاطفون جزاءهم ، كان بهجت يقصد الشيوعيين، ومنذ البدء سلم أنها اختطفت، وبدافع سياسي، وقد يصل إلى الكرملين والساحة الحمراء في موسكو!

كان هذا الرجل المتمرس والمعروف بقوة الشكيمة، يعيش منذ سنوات جوا مكفهر من الصراع العنيف مع الشيوعيين واحتجاجات أنصارهم في العالم، وقد أتعبه هذا كثيراً، كما أتعب الباشا السعيد والوصي والإنجليز! وهم في هذه الأيام يعملون على إعادة محاكمة فهد قائد الشيوعيين، لأنهم وجدوا انه ما يزال يحرك أتباعه وأنصاره من زنزانته في السجن فيقومون بمظاهرات واعتصامات وإضرابات، كان بهجت يعرف فهد منذ صباه، كان قرينه، يجلسان معا على نفس الرحلة في المدرسة الابتدائية في البصرة، وكانا أليفين وصديقين يحب أحدهما الآخر كثيراً، ثم بعد سنوات وقد سار كل لشأنه، تباعدا كثيراً، العطية صار ضابطاً كبيراً يقود أمن الدولة، وفهد عاملاً كادحاً يناضل من أجل بناء الشيوعية في العراق، والعطية يحب الإنجليز ويراهم أفضل من يساعد العراق ليقوم الديمقراطية ويبني نفسه، وفهد يحب السوفيت ويراهم المنقذين للعراقيين وسيقيمون لهم دكتاتورية البروليتاريا في العراق، اختلفا بعمق ثم صارا عدوين لودين، وصار هم العطية أن يلف حبل المشنقة بنفسه على رقبة صديقه القديم، وهم فهد أن يطيح بالعطية ويجعل العمال ينزلون عليه ذروة غضبهم الثوري! وها هو يرسل من يختطف أجاثا نكاية به وليظهر فشله في حفظ الأمن! العطية الآن سيعمل ما بوسعه لتنفيذ حكم إعدام فهد على الفور،

والخلاص من صداعه الذي طال كثيرا! قال لثلة من معاونيه
يمكنني تخيل الرسالة التي ستصلني من الشيوعيين اليوم أو غدا،
"أطلقوا سراح رفيقنا فهد سكرتير حزبنا المقدام، وأمنوا وصوله
بطائرة خاصة إلى موسكو، لنطلق سراح أجاثا كريستي، من
يكون قد اختطفها غير هؤلاء الشيوعيين الهدامين، الماكريين؟
هواة القلاقل والاضطرابات والعاملين دون كلل على تقويض
أسس دولتنا، وتحطيم القيم العليا، مخدرين الناس بوعودهم
الخلافة المستحيلة. فأجاثا لا تختلط كثيرا بالناس هنا، ليكون لها
أعداء أو خصوم" هذه هي الساعة المناسبة للخلاص من قائد
الشيوعيين!

أحد معاونيه قال بتهذيب واحترام لقائده:

- رغم إن ما تقوله احتمال وارد وصحيح يا سيدي، إلا أننا
يبغي أن لا ننسى أن للإنسان مشاكل وعداوات حتى مع نفسه،
وثمة احتمال أنها انتحرت بإلقاء نفسها في دجلة مثلا!

أصر العطية على أن من خطفها هم الشيوعيون، خاصة بعد
أو وصله تقرير من مخبر سري دسوه في ما تبقى من تنظيم
الشيوعيين المتأكل عبر حملات الاعتقالات والاختراقات يقول
فيه: "حصلت على معلومات أكيدة أن أجاثا قد خطفت من الفندق
من قبل عصابة شيوعية واقتيدت إلى أحد أوكارهم السرية في
منطقة باب الشيخ، غير بعيد عن الفندق". على الفور داهمت
مفارز من الشرطة هذا الحي الشعبي الذي يتمتع بمهابة دينية
خاصة، حيث يوجد فيه مسجد وقبر الشيخ الكبير عبد القادر
الكيلاني، وجرى تفتيش العديد من المنازل والمحلات
والحمامات الشعبية، ولم يعثروا على أي أثر لأجاثا، لكنهم
اعتقلوا المزيد من الشبان والرجال وبعض النساء بتهمة
الشيوعية! وعندما أعلم بهجت العطية الباشا نوري السعيد بما

قامت به شرطته، أيده في هذا الإجراء قائلاً "يعجبني فيك يا بهجت أنك تسمع نبض الحرب الباردة التي يشنها الروس علينا، فهم يريدون إبعادنا عن حلفائنا الإنجليز الأوفياء، ابق منطقة باب الشيخ تحت الرقابة، أخشى أن يكونوا قد أخفوها في أحد المساجد، لا تنس أن خليتهم الماركسية الأولى كانت قد ولدت في جامع الحيدر خانة، ولكن مdahمة مسجد الكيلاني يجب أن تكون الحلقة الأخيرة، لا تتسرع! لا تثيروا الناس علينا، فتنشوا الآن ورشات النسيج القديمة، فتنشوا بيوت العاملين بنقابة النسيج، والسجائر قوموا بجولة تفتيش أخرى! وبسرعة خاطفة يداهم الشرطة والمخبرون حي باب الشيخ، لكنهم يتحاشون دخول المسجد الكبير، أو الجوامع الصغيرة، يقتحمون ما تبقى من بيوت النقابيين والبارزين بين العمال، والسكان الفقراء قبل أن يلتقطوا أنفاسهم من المdahمة الأولى، ومرة أخرى لا يجدون أجاثا كريستي، لكنهم يعتقلون المزيد من الأشخاص لا علاقة لهم بالشيوعيين وكل ما وجدوه لديهم بضعة كتب أو صور لم تفقه الشرطة منها شيئاً، فأولتها على أنها بلا شك مستمسكات جرمية شيوعية ولها علاقة بمختطفي أجاثا كريستي! لم يحصل مدير التحريات على شيء من حصاده الوفير من الشيوعيين، والذي لا يساوي شيئاً لدى السفارة البريطانية، صار السفير الإنجليزي يخبره أيضاً بصوت صارخ :

- نحن نريد أجاثا كريستي، وأنتم تعلموننا باعتقالكم شيوعيين، ماذا نفعل بالشيوعيين ثقلاء الدم؟ كل ما في جيوبهم من أقلام لا تستطيع أن تكتب جملة واحدة مفيدة مما كتبته أجاثا كريستي!

كاد بهجت العطية يصاب باليأس، لكن ما أن تظهر بارقة نور واهية حتى يعلق عليها أملاً كبيراً، ويمضي لتنفيذها فلا يحقق شيئاً ينفع في الوصول إلى أجاثا . صار يردد لمن حوله: "إذا ما

نعثر على كريستي راح يصّخم وجه العراق، متظلنا سمعة بالعالم! واقرأوا علينا السلام!" جاءه تقرير آخر، حار في كنهه؛ أهو سياسي أم عادي؟ يقول المخبر فيه، أن من خطف أجاثا هو جلال العطار، وهو روائي شهير ، ومدرس ثانوي منحدر من الموصل، تعرف عليها هي وزوجها حين كانا يinquان في نينوى، وثمة من يقول إنه وقع في غرامها وتدلّه في حبها لا كروائية يطمح أن ينال شيئاً من شهرتها وبراعتها الروائية بل كامرأة جميلة تزداد إثارة وجاذبية كلما تقدم بها العمر، مرة رددت عبارتها الشهيرة، "لا تنسوا أنا زوجة رجل أثار وأنا أزداد قيمة لديه كلما تقم بي العمر" رد عليها العطار لا تقولي أنك قطعة أثرية بل قولي أنك قطعة من الخلود، حورية لا تفنى ولا تشيخ! في بغداد كان يستقبلها وزوجها ويقيم لهما الولائم، وقد حاول تقديم الهدايا لها ومغازلتها وهو سكران، فصدته وانقطعت علاقتها وزوجها به.

ورغم إن العطار قد انتمى للشيوخيين وكان أحد قاداتهم لكنه تخلى عنهم وراح ينتقدهم، مع ذلك بقيت سمعته في الأوساط الصحفية والأدبية إنه شيوعي، يقول التقرير الذي كتبه مخبر صحفي لم يجد غضاضة أن يعمل مخبراً لدى السلطة أيضاً. إن العطار زحف كالأفعوان إلى أجاثا، ورغم إشاحتها عنه لكنه ظل عاشقاً مغرماً بها بقوة وصار مستعداً لارتكاب أي شيء لينالها، وعندما عجز عن نيل قبولها أقدم على اختطافها، وحبسها في بيت ما في بغداد لينال وطره منه، وكثير من الدلائل تشير إلى ذلك . أمر العطية باعتقال جلال العطار، وإخضاعه للتعذيب ليعترف؛ إذا لم يعترف طوعاً. عندما ذهبت الشرطة إلى مدرسة المتوسطة الغربية في الرصافة حيث يعمل لاعتقاله لم يجده، أعلمهم مدير المدرسة أن جلال العطار يتمتع بإجازة خاصة،

وقد سافر إلى النمسا منذ أسبوعين. وقد أكدت ذلك سلطة المطار، وبعد أن لمس صديق له إلحاح الشرطة في البحث عنه، وإثارة الغبار حول سمعته، انبرى ليقدم شهادة عنه لمركز الشرطة فحواها: أن العطار سافر ملاحقا فتاة مسيحية كان يحبها فهجرته وهو ما زال يجد في أثرها منذ سنوات دون جدوى، وإنه لا تشغله عنها أية امرأة أخرى، وإن علاقته بأجاثا وزوجها علاقة أدبية وثقافية بحتة. وإن العطار من الرفعة والتسامي ما يجعله فوق الشبهات! وبذلك حصل العطار وهو غائب على براءة من أية جريمة خطف أو قتل لأجاثا، كان سيصعب عليه أن يحصلها لو كان موجودا في بغداد! كان يخيل لمدير التحريات الجنائية إنه يمكن له أن يجد خلف أي شيوعي أجاثا كريستي مقيدة بالحبال، مكمة الفم، ثم حين يعتقل الشيوعي ولا يجد خلفه سوى بيتا خاويا حتى من طعام أو كساء، وليس هناك سوى أهلهم ودموعهم، وبضعة كتب وصور ممزقة، يصاب بخيبة أمل ثم يمضي لاعتقال آخر، وحين لم يعد ثمة شيوعيون ليعتقلهم دخل في مأزق البحث عن الأعداء السياسيين لبريطانيا العظمى، فصار كل من كره السياسة البريطانية أو وجد نفسه عدوا لبريطانيا هو بنفس الوقت عدو لأجاثا كريستي، وإنه هو الذي خطفها أو قتلها، انطلقت حملة لاعتقال كل من تستطيع الشرطة الوصول إليه من هؤلاء السياسيين الذين لا نشاط لهم سوى الجلوس في المقاهي وإطلاق أسنتهم الطويلة في شتم الإنجليز واعتبارهم هم سبب بؤسهم وشقائهم!

ولكن سرعان ما وقعت في قبضتهم شخصيات عارضت عقود استثمار النفط الممنوحة للإنجليز والأمريكان بشروط مجحفة، قائلة أنها تغط كثيرا حقوق العراقيين. ونسبت إليها

تهديدات بضرب منشآت ومقرات شركات النفط والحيلولة دون وصول المهندسين والخبراء إلى مواقع التنقيب والاستثمار. وأعادوا اعتقال شخصيات عراقية وعربية مقيمة في العراق نادت بضرب المصالح الإنجليزية في العراق لدورها في تقسيم فلسطين، وانحيازها للصهاينة، ومساعدتها في قيام إسرائيل. جميع هؤلاء وجدوا أنفسهم متهمين باختطاف أجاثا كريستي وعليهم إطلاق سراحها على الفور، أما إذا عثر على جثتها فسيكونون هم من قتلها والعقوبة هي الإعدام طبعاً بينما الكثير من هؤلاء لم يروا أجاثا لا حقيقة ولا صورة، ولم يقرأوا لها رواية أو حكاية!

(8) كل حقائق وأسرار بغداد، صغیرها وكبیرها لا يمكن أن تجدها إلا عند شرفاء روما!

لم تسفر التحقيقات السريعة الحامية مع كل المعتقلين من السياسيين عن أية نتيجة تكشف مصير أجاثا، لكن رجال التحريات لم يفتر عزمهم للوصول إلى أجاثا بأسرع وقت! وإذا كان الخاطفون لم يظهروا أو يكشفوا عن هويتهم، حتى الآن ولم يرسلوا مطالبهم، أو أية إشارات تنم عن وجودهم، فإن من الخطأ الوقوف مكتوفي الأيدي بانتظارهم، " المسكينة أجاثا كريستي هي الآن رهينة معذبة بين أيديهم، وهم يريدون تحطيم أعصابنا، وإيصالنا إلى تهالك نفسي وعقلي فنقبل بمطالبهم مهما كبرت وثقلت! ثمة ضابط كان يقول دائما: "كل حقائق وأسرار بغداد صغیرها وكبیرها لا يمكن أن تجدها إلا عند شرفاء روما!" كل زملائه من معاونين والشرطة يعرفون المعنى الواسع "لشرفاء روما"! ظهر هذا المصطلح عندما جاء جورج أبيض بفرقته المسرحية من القاهرة إلى بغداد، ليقدم مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير، فطلب من صاحب المقهى الذي ستقدم فيه المسرحية والذي يقع في منطقة الميدان حيث توجد دور الدعارة، أن يجلب له أشخاصا عاديين لا دور لهم سوى أن يظهروا لثوان في مشهد على أنهم شرفاء روما، كان المتعهد يعرف أن غالبية الرجال في بغداد يزدرون التمثيل والممثلين، ويعدونهم مشينا ولا يليق بالرجال؛ رغم أنهم يعجبهم التفرج على المسرح؛ لذا قام بالمرور على مقاهي الميدان المجاورة وجلب مجموعة من النشالين والقوادين والشواذ، لقاء أجر ضئيل، وألبسهم ثيابا بيضاء فصاروا شرفاء روما! وما أن

سمعت من المسرح صيحة "والآن يتقدم شرفاء روما لحيوا الملك العظيم" وظهر هؤلاء، حتى ضج المكان بالضحك وصيحات الاستهزاء، فالمتفرجون يعرفونهم واحداً واحداً نشالين وقوادين وشاذين جنسياً، وأصحاب سوابق، وقد أصرروا على أن يلعبوا دورهم الحقيقي فهم لم يغادروا مبنى المسرح إلا بعد نشلوا شيئاً من جيب هذا، وسرقوا معطفاً لذاك، وأخرجوا معهم رجالاً من المسرحية إلى بيوت الدعارة المجاورة! ومنذ ذلك اليوم حصلوا على لقب فخري: شرفاء روما! ولكن المؤسف أن الناس في بغداد كعادتهم يتوسعون باستعمال الألقاب والمصطلحات فشمّلوا به فقراء معدمين، وباعة متجولين على الأرصفة وحمالين وصباغي أحذية، وعاطلين و دراويش ومتسولين وشقاوات عرف بعضهم بالشهامة، ومطيرجية حمام ومحضري أرواح وقارئ كف، ورمّل وخرز ومجانين مساكين! لكن ما أتفق عليه الناس أن كل ما يخفى على سطح الحياة في بغداد يهبط كما قطع الحديد في البحر، ليستقر على السنة هؤلاء! لم تكن تلك المرة الأولى التي تستعين فيها مديرية الأمن العامة ورجال حكومة ونواب في البرلمان بشرفاء روما لكنهم في قضية أجاثا الحساسة جدا تردّدوا حتى يأخذوا موافقة مديرهم العام بهجة العطية ، فاكتفى بإيماءة من رأسه علامة الموافقة، فالكلمة الصريحة تعني أنه تخلّى عن قناعاته السياسية المعروفة حول اختفاء أجاثا! وبسرعة استدعى معاون الشرطة الكثير من شقاوات محلات بغداد وخاطبهم:

- انتو الزلم أهل الحمية، مرة أجنبية ضيفة عدنا، وبحمانا، ترضون يخطفوها؟ ويثلمون شرفنا، شوفوني نخوتكم، وعز الزلم!

نفخ الشقاوات المجتمعون صدورهم العريضة، ونفضوا يشامغهم على أكتافهم، وتحدث رئيسهم:

- سيدي بعد ساعة راح تشوفها بمكتبك، بس نريدك تسمحننا نسوي اللي خطفها قوزي على تمن!
اكتفى بهز رأسه، قائلاً:

- عاد لطوخوها!

نفح كل منهم نصف دينار ، وعلبة سجائر "غازي".
خرجوا تتقدمهم صدورهم، يهوسون "لندن وتريد نحاميها " " يا كريستي جينالك فزعة".

أرسل معاون الشرطي في دعوة مجموعة من الدراويش ومحضري الأرواح وقارئ الكف وما تحت الرمل ومنجمين وضاربات ودع من الغجريات. جمعهم في ساحة وقوف السيارات لبناية مديرية التحريات، وقف أمامهم خطيباً أمام الجماهير:

- أريدكم تشوفونا شطارتكم من أجل العراق. الوطنية مو خاصة بالشيوخ والعقوبين، وكامل الجادري، انتو الوطنيين الشرفاء الصدك، اريدكم تلككونا كريستي ، تطلعوها من جوا الكعاع! وراح يحدثهم عنها:

- هي أخت اليزابيث ملكة بريطانيا، الإنجليز يعبدوها مثل مريم العذراء، ولا يستطيعون العيش بدونها، والملكة قالت: أنا مستعدة أبيع تاجي المليون جواهر وذهب بسوق الهرج ابغداد وانطيه لليلككيها!

اشتعل حماس بعضهم فوقف هاتفا بحياة اليزابيث، وفيصل الثاني الملك الصغير، والوصي والباشا، وبهجت العطيه. وعدوه أنهم سيعضون أنفسهم بالإنذار ليجدوها له. أعطى كل منهم ربع دينار، وخرجوا وهم يتهلون ويدعون بطول العمر والتوفيق لمعاون الشرطة وأجائنا كريستي. استبقى معاون الشرطة رجلاً اشتهر بتحضير الأرواح ومخاطبة الموتى والغائبين، والحديث

معهم وإسماع أصواتهم لمن معه. اقتاده إلى حجرته، طلب منه أن يقوم بتحضير روح أجاثا كريستي؛ ليعرف أين هي الآن؟ حية أم ميتة؟ ماذا تعاني؟، وماذا تقترح هي بصفقتها كاتبة روايات بوليسية للوصول إليها، وإنقاذها. جلس الرجل في مكتب الضابط وراح يحضر روح أجاثا وقد جلس معاون الشرطة بجانبه متهيئاً، وقد دون على ورقة صغيرة أسئلته، لكن محضر الأرواح بدلاً من أن يحضر روح أجاثا كريستي حضر بالخطأ أو الإهمال روح امرأة تدعي ممة يستي، وهي امرأة مرايية عجوز من أصل إيراني، عاشت في حي الطاطران ببغداد، ويقال أنها جمعت ثروتها من اشتغالها في الدعارة، والقوادة، سمع معاون الشرطة صوت العجوز، هكذا خيل إليه؛ يخرج مكتوماً من صدر محضر الأرواح، المغمض العينين، والمتظاهر بغيبوبته عن نفسه، وهي تروى أنها أرادت أن تتوب إلى الله، فقصدت الديار المقدسة، حيث حجت وصلت عند قبر الرسول، وعادت بريئة من الذنوب "طاهرة كما ربي خلقتي" لكنها عند عودتها خطفتها عصابة من قطاع الطرق عند الحدود، وهي الآن في جوف بئر عميق في صحراء الربع الخالي، وصار صوتها مسموعاً، وهو يخرج من صدر الرجل محضر الأرواح: وهي تتوسل به أن يرسل مفرزة شرطة خيالة لإنقاذها، وإنها إذا نجت على أيديهم المباركة؛ فستتبرع بكل ثروتها الكبيرة من الدعارة للأيتام والمساكين وبناء المساجد في بغداد.

وجد معاون نفسه يائساً من محاولاته مع الدراويش والسحرة، ومحضري الأرواح، فطردهم قائلاً في نفسه: "الناس محقة في تسميتهم شرفاء روما، مشعوذين، حثالة مجتمع!" وندم أنه بدد جهده، وبعض المال معهم، دون جدوى، شعر إنه يائس تماماً، لكن ثمة حلقة طرحت أمامه ومن الصعب عدها

خرافة .أو لعبة دجالين. ذكره بها زميل مخضرم، حلقة براقعة بعض الشيء، ولا بد له من طرقها علها تقدر شرارة تضییء الطريق إلى مخبأ أجاثا، وهو ما كان قد حدث قبل سنوات لشقيقة القنصل الفرنسي عندما جاءت بزيارة لشقيقها في بغداد، فاخفت فجأة وقد بحثوا عنها طويلا، وتعذب كثير من العراقيين حين عوملوا كمتهمين عند التحقيق في اختفائها وأخيرا وجدوها، مخفية أو مقيمة بكل راحة وأمان ومتعة في أحد بيوت الدعارة في الميدان. فتاة فرنسية جميلة انسأقت مع نزوة غربية في ممارسة الدعارة في بلاد الشرق، عدها البعض فضيحة للسفارة الفرنسية، لكن القنصل الفرنسي ظهر متورد الخدين فرحا، يضحك أمام ثلة من الصحفيين، قائلا :

- هي مجرد نزوة حضارية! هذا أمر طبيعي، ألم يقيم نائب الرئيس الأمريكي حين زار بغداد بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، بزيارة لنفس حي الدعارة هذا الذي تتحدثون عنه، وقضى وقتا لطيفا فيه، حتى إذا كانت زيارته للمتعة الجنسية وليس للاستطلاع كما قال، فذلك نشاط إنساني عادي، ما قامت به شقيقتي هناك هو مغامرة طريفة تنم عن جرأة ثقافية، لماذا يحق للرجل ما لا يحق للمرأة؟

اقتنع معاون شرطة التحريات بالحكاية، فأرسل شرطيا سريا، مرتديا ملابس مدنية إلى منطقة الميدان، في الجانب الغربي من شارع الرشيد، عرف هذا المخبر بمكره ولباقتة وسرعة إنجاز لهامه في التجسس وجمع المعلومات. سأل أحد القوادين إن كان لديهم في المنزل قبة إنجليزية، تطلع القواد في وجهه مستغربا:

- انتو كل يوم طالعین مظاهرة بشارع الرشيد، خابصينا، وقاطعين رزقنا، تصيحون: يسقط الاستعمار: طردو الإنجليز، وهسه جاي تريد كبة انجليزية؟ لعد وينها الوطنية؟ غير

تنفعون قحاب البلد؟

جاراه الشرطي السري ضاحكا:

- الطبيب وصفها لي، ككال الانجليزية باردة عل القلب، وما
توجع لا الراس ولا الظهر، العراقيات وجعن راسي وظهري،
ما بي حيل عليهن.

نفحه درهماً، فوعده أن يبحث له في المنزل، جاءه بعد
ساعة إلى مقهى الميدان حيث ظل ينتظره، قال له وهو يعلك
على عادة أصحابه:

- ما عدنا غير كحاب عراقيات، سمرات، وسودات يطيبن
الظهر، يمعود هذا الطبيب اللي كلك العراقية اتعبك، كلشي
ميفتهم، يكولون الإنجليزية هي اللي اتعب، باردة، لوح تلج، زين
تريد ولد؟ حلو ناعم؟

- يعني متأكد ماكو انجليزية عدكم؟

- الله وكيلك، محمد كفيك، كل احابنا عراقيات أباً عن جد،
وكل وحده تفك المصلوب، تكول للكرم غيب وآني بمكانك،
تعال وشوف.

وعندما نهض شرطي الأمن عن تخت المقهى مغادراً، نهض
له القواد:

- تره يفوتتك، الفاتحات اليوم ورد جوري، أحلى وأنظف من
الإنجليزيات!

ركض شرطي الأمن إلى دائرة التحريات الجنائية ليبلغ
مسئوله المعاون:

- ما كو بالمنزول إنجليزية، لا كريستي، ولا هريستي!
عقدت لجنة التحقيق في اختفاء أجاا اجتماعها برئاسة مدير
التحريات الجنائية كرس لجرد وتقييم ما توصلوا إليه في

التحريرات والتحقيق ومعرفة طبيعة هذه القضية الغامضة. كان ما تحقق ضئيلاً، قاموا بعدة جولات تحقيق مع جبرائيل وزميله عامل استعلامات الفندق، كان جوابهما متطابقاً، ولم يغيرا فيه مع كل جلسات التحقيق، "لم نلاحظ شيئاً غريباً في الفندق يوم اختفائها، ونحن لا نحمل لها ولزوجها سوى المودة والاحترام، نحن عمال فقراء نريد إعاشة أهلنا، نحاول قدر ما نستطيع أن نبتعد عن السياسة، ولا نحب المشاكل" ورغم تعرضهما للضرب ولقدر من التعذيب والتهديد، لكن إفادتهما لم تتغير سوى أنها صارت مصحوبة بالبكاء والانهيار. ورغم قناعة المحققين ببراءتهما إلا أن مدير التحريات أصر على إبقائهما معتقلين، قائلاً "ياما تحت السواهي دواهي!" لكن البعض يعتقد إنه لا يريد أن تخلو يديه من ملاحقين في قضية كبيرة تتبعها الرؤوس العليا في الدولة. كانت الساعات تمضي على المحققين أيضاً عصبية سريعة، بطيئة، ثقيلة فارغة، والباشا بين ساعة يقصفهم بجرس تلفونه الرهيب : ها اشسويتو ؟ وين وصلتو؟ لا تخلوهم يقولون علينا سباع علشيو عيين، أرانب على القتلة والمجرمين!

(9) القيثارة السومرية تبعث أنغامها؛ تناديني أن أكتب أحزانها!

لم يذق ماكس طعاما طيلة يوم أمس، كان يشرب القهوة فقط، ويسحب أنفاسا عميقة من غليونه الأنيق، أستهلك عدة أكياس من تبغه الفاخر، فكر أن عليه أن يتغذى وإن يبقى نشيطا صاحيا ليفكر بشكل جيد ويعمل بقوة ودقة للعثور على أجاثا، فهي بلا شك مثله في محنة وقعت فيها دون أرادتها. مضى إلى المطعم، جلس على مائدتهما، أراد أن يحس أنها ما زالت بجانبه ولم تفارقه، ربما هي ما تزال في الحجرة وستنزل بعد قليل، تناول فطورا خفيفا، دون شهية، كأنه يتجرع دواء، احتسى أكثر من فنجان قهوة مرة، عاد إلى حجرته، هم بنزع ثيابه لكنه تذكر إنه لا يدري اللحظة التي يأتي فيها محققون، أو يطلبه فيها ريتشارد وعليه أن يكون مستعدا للنزول إلى البهو أو الخروج من الفندق. استلقى على فراشه بينظونه وقميصه على غير عادته، شعر لأول مرة أن نظام حياته بدأ يتخلخل وينهار! كأن شيئا لسعة، نهض، ليفتح دولا بها، حيث رتبت بعض الملابس على رفوفه، وجد أنه نسي حلقة مهمة قد تضيء ما حدث! وتحل هذا اللغز الرهيب، أوراقها! خفق قلبه خائفا، ماذا لو وجد رسالة تنبئه أنها ستنتحر غرقا؟ وأنها تعفيه أمام العالم كله من موتها الذي اختارته، ماذا لو وجد رسالة تنبئه أنها قررت هجره والعودة لزوجها الأول كريستي الضابط الطيار الإنجليزي الذي ما زلت تحمل لقبه، ولديها بنت منه؟ ربما ما زالت تحبه رغم ادعائها أنها نستة، وطوته من حياتها تماما! فهو كان يخونها، وينظر إليها كربة بيت؛ عليها أن تخدمه وابنته، ولا تطالبه بشيء. أو ربما هو نفسه جاء لينتقم منها بعد أن هجرته، بينما كان يحبها ومدلها

بها؟ وكانت أجاتا تخفي عنه مشكلتها الجديدة معه. وجد ماكس نفسه متعباً، لم تعد قدماه تحملانه، ارتعش جسده، وأحس ببرودته رغم النسمات الدافئة القادمة من النهر الطافح بالشمس. عاد لفراشه، لم يستطع تقليب أوراقها، كانت كالعادة مرتبة. هي فنانة في ترتيب أوراقها، الأجزاء المكتوبة على الآلة الكاتبة من الرواية مرتبة بعناية وفصولها مثبتة بدبابيس ملونة كأنها جدائل فتيات جميلات. رسائلها، حبكات روايتها التي تداهما خلال العمل أو في السوق أو عند النوم فتستيقظ مذعورة، لتكتبها بخطها الجميل. حاول الاسترخاء في فراشه، لا يستطيع الاقتراب من أوراقها، ربما فيها السر كله، لماذا لم يطلب المحققون الإطلاع عليها؟ هم بالطبع لا يعرفون بوجود هكذا أوراق لديها، لم يخطر على بال أي منهم أن للكاتب عادة أوراقاً خاصة يدون فيها معاناته أو ما يعن على باله، ربما لأنهم لا يجيدون الإنجليزية، أو هم لم يعتادوا هنا الوصول إلى حقيقة الجرائم أو القضايا الغامضة من كلمات على الورق، وإنما من دماء وسكاكين على الأرض، واعترافات تنتزع بالقوة والتعذيب أو بالإغراء، لذلك هم استبشروا بقطرات الدم القليلة الجافة. لكن الأدهى والمثير للقلق أنهم، كما لمس، يركزون في تحقيقهم على الجانب السياسي. الإنجليز في هذه البلاد، والبلاد المجاورة، مكروهون، خاصة بعد ما حدث في قضية فلسطين، لماذا نتحمل أنا وأجاتا ذنوبهم الثقيلة التي لا يد لنا في صنعها؟ ريتشارد يتهمني وأجاتا بأننا لا نفهم شيئاً كثيراً في السياسة، ولا نكثر لها، وإننا بذلك قد نعرض أنفسنا لأوضاع صعبة في هذه البلاد، هم يسمونها بلاداً معادية، وأحياناً متوحشة. وأنا أراها بلاداً مسالمة محبة ولطيفة، ذات تاريخ عريق وإسهامات حضارية عظيمة، مجهولة أو متجاهلة. كم لقينا من حنان وكرم الناس هنا، وكم قابلناهم خاصة أجاتا بابتسامات محبة صادقة. لست نادماً، ولا أظن أن ما حدث لأجاتا أمر يتعلق بالسياسة!

ومع ذلك " لا أدري"! كان مبلبلاً مشوشاً، ظل يتقلب يقظاً في فراشه شاعراً بخوف حقيقي من أوراق أجاثا. مرة يقرر أن ينهض لتصفحها، ومرة يؤثر الهدوء تاركاً الأمر لساعة الحقيقة القادمة، لا محالة. فجأة استجمع ما تبقى من قواه ونهض إلى أوراقها المرتبة على رف خشبي داخل دولابها. تناول بسرعة رزمة منه ، مضمومة بدبوس، هي فصول من رواية مدونة بالآلة الكاتبة، نفضها، لا توجد بينها أية ورقة جديدة أو غريبة، تجاوز الأوراق المكتوبة بالآلة الطابعة، مد يداً مرتجفة إلى أوراق مكتوبة بخطها، هذه هي المخيفة، لا يعقل أن تكتب أجاثا وصية انتحارها، أو رسالة هجرانها له على الآلة الكاتبة، هكذا أمور تكتب باليد حيث يمتد شريان من القلب إلى القلم، أضرار الآلة بينها وبين القلب برودة المعدن، هكذا يعتقد، أمسك بالأوراق المكتوبة بخط يدها، تصفحها متأنياً، واحدة واحدة، لم تكن كثيرة، معظمها ملاحظات تريد إدخالها في مجري النصوص المكتوبة، بعضها ملاحظات عن سفرهما، أخرى تتضمن المصاريف التي أنفقاها على رحلتهما، ورقة عليها أسماء ومقادير توابل وزهورات تريد شرائها، ورقة بمقترحاتها وما عليهما اتخاذه من إجراءات لسفرتهما المقبلة إلى حلب حيث سيستأنفان التنقيب هناك. هذا يطمئنه كثيراً، لا توجد ورقة الانتحار المرعبة، ولا رسالة عن هجرها له، أو سفرها بدونه، لكنه لم ييأس ، وجد هذا وحده بشير خير. توقف عند ورقتين من أوراق الآلة الكاتبة الكبيرة، واحدة تتحدث عن القيثارة الذهبية، عثر عليها في حفريات جنوب العراق، يعود تاريخها إلى ما يزيد عن 2500 قبل الميلاد. والأخرى عن لقائهما بالراهب بهنام، أحس بالتعب، كأنه يعود من رحلة طويلة مضنية، أخذ يقرأ بصوت مسموع، يريد أن يسمع من خلال الكلمات صوت أجاثا: " حين رأيت القيثارة العجيبة خفق قلبي لها، نغماتها تتغلغل في روحي، تحييني، تبثني شكواها

وأحزانها لآلاف السنين، تتحدث معي بالموسيقى، لغة الكون المفهومة من الجميع، سأعرف ما كتبت في صندوقها الموسيقي، من حب وهيام وصدود، تبثني هموم بلادها الكسيرة، المغيبة لقرون طويلة، ثم وهي تنهض اليوم زنبقة في رمال الهجير. أرى الشاب السومري الأسمر الجميل يداعب أوتارها في حضرة الكاهنة، والفتاة العذراء المنذورة تحتضنها لتهدئ النهر الهائج كثور، تتحول إلى طير كبير يحملني إلى سماء مضيئة بعيدة، تخلصني من بقايا ضباب لندن الذي يصر على مرافقتي، ويلفني كرداء تحت جلدي لا فوقه، تقول لي: تعالي واسمعي لحنى وكلماتي، ابق معي هنا، أما مللت حكايات المجرمين والقضاة والمحققين؟ قلبت بيدك الجميلتين عظام موتانا، كلماتهم ودموعهم، صرت تعرفيننا وتفهمين انتفاضات أرواحنا، اكتبني للعالم عنها، ليس فقط القصة البوليسية مشوقة، صراعات الملوك والكهنة والفقراء المساكين عندنا فيها الكثير مما هو مضحك وجذاب وله نكهة الحكايات الغامضة، سأغنيها لك الآن؛ نغمات أوضح من الكلمات. نغماتي أليفة لك يا أجاثا، من أعماق أوتاري خرجت نغمات هاندل وبتهوفن وموزارت وشوبان وبرامز وغيرهم من العباقرة التي تعشقين موسيقاهم. هذه القيثارة الذهبية ترفع رأس الثور المقدس وتلاحقني، صرت أخاف موسيقاها الجارحة المتسائلة، أحيانا الجمال والروعة يصيران عبئاً ثقيلاً، من يخلصني منها، حدثت ماكس عنها فضحك، يبدو ماكس وهو مستغرق بالتنقيب والحفر في الأرض، أشبه بالمولدة التي تستخرج الأطفال من أرحام أمهاتهم، ثم لا يهमे فيما بعد كيف سيعيشون، وماذا سيكونون، وكيف يموتون!

ألقي ماكس الورقة إلى جانبه وسرح مع كلماتها، يتذكر أنها قالت له :

- ماكس ساعدني بالشفاء من هذه القيثارة، ماذا أفعل معها؟

قرأ تاريخ الرسالة، كان قبل خمسة أيام من اختفائها، على الأكثر كتبتها في بيت الآثار، كانت تحلم بكتابة رواية تجمع التاريخ القديم بالمعاصر، قدر أن بعض مقاطع مخطط روايتها، مبهمة معقدة، مشوشة، لم تستقر عليها بعد، هذا حال كل كتابة إبداعية، فهي تبدأ مختلطة بسيطة ثم تتضح وترقى شيئاً فشيئاً، هل سيكون اختفاؤها أبدياً؟ هل سيقع لها أذى يقعدها عن كل شيء؟ فلا تكتب هذه الرواية، أم ستعود سالمة لتكتبها بقدرتها الإبداعية المعهودة؟ لا علاقة للقيثارة باختفائها ولا يمكن أن تتحول إلى نسر يقتنص ضحيته الغزالة أو الأرنب من البرية، مضى يقرأ كلماتها، وجدها تقارن بين رأي يقول أن كهان السومريين كانوا يعزفون على القيثارة لتهدئة الثيران وهي تساق للذبح أضاحي في الأيام المقدسة، ورأى آخر يقول أن الكهنة يطلقون أنغامها لتحمل أرواحهم إلى قلوب الآلهة لتستحم داخلها حيث البحار الهائلة، ثم تعود إليهم صافية نقية كما المطر. وأشعة الفجر.

ربما ستدخل ذلك كرمز في روايتها! تقول: كما تنفتح لك خابية في التنقيب ستأتبك روايتي بأسرار مدهشة من أعماق الزمن في كأس ذهبية! لماذا لم تشرعي بكتابتها فوراً كعادتك في الكتابة؟ قالت: أنا أكتب في الفندق على مضض، مخططاً أولاً، لكي لا تفر من رأسي حبكة الرواية التي راودتني فجأة، ليس ضرورياً أن أضع ورقة المخطط أمامي حين أكتب، أحفظه بذهني ليتطور لاشعورياً ثم أنفذه بتغيرات كثيرة نحو الأحسن. الفندق لا يمنح مزاجاً جيداً للكتابة العميقة، والنهائية، هو يمنح مزاجاً لتحليل إبداعي عام ينهال أثناء التجوال في المدينة، والتسوق، الاستلقاء في الفراش وقراءة روايات الآخرين. لكي أكتب رواية القيثارة الذهبية أحتاج لجو سحري يدخلني هيكلًا

سومريا بروائحہ وأطيافه، أرى منه ذلك المدفن الذي ظلت العذراوات يعزفن فيها حتى وصل مقلب الموت إلى قلوبهن. كنت يا أجاتا تكتبين في خيمة غير بعيدة عن حفر التتقيب وضوضاء الحفارين، كنت تقولين إن أجمل الإلهام هبط علي وأنا وسط الأرض الجرداء المليئة بالصخور وأكوام التراب، أو في بيتنا الصغير ذي الحديقة القابع أسفل تل النبي يونس، اكتب متكئة على مخزن أسلحة الملك الأشوري سنحاريب، كنت أحيانا أسأل نفسي هل أنا بحاجة لكل أسلحة هذا المخزن لأصنع حبة قتل، سيف واحد، سكين واحدة، رصاصة واحدة تكفي للقيام بجريمة وإطفاء سعادة الكثيرين؟ ماذا كانوا يصنعون بكل هذه الأسلحة؟ أريد الآن كتابة رواية يمتزج فيها رجال ونساء التاريخ بحياتنا الحاضرة. هل هذا يا ماكس خيال جامح لا يطيقه الناس؟ وكنت أطمئنها لا، هذا ما يريده الناس، هذا ما يريده الأدب والفن، هي كما أعرف لم تكتب شيئا من هذه الرواية التي تشغلها وتشغلني، طبعاً ستختفي هذه الرواية باختفائها! خسارة هائلة؛ موت أو ضياع المؤلف، أين أنت الآن يا أجاتا؟ ألا زالت تسمعين نغمات القيثارة الذهبية؟ ألا زالت القيثارة تلاحقك كنسر أثيري؟ كم كان بودي أن أعرّ على نسخة ذهبية من هذه القيثارة في حفرياتنا لأسجلها باسمك، لم يحالفني الحظ، سبقنا إليها منقبون أفذاذ، لكنني لا زلت أحلم أننا سنجد قيثارة أخرى في باطن أرض حلب فهي ضمن حضارة ما بين النهرين. لن تغيب يا أجاتا، لن تتركيني وحدي! راح في شرود؛ إذا فقدت أجاتا هل سأعود إلى إنجلترا؟ فأنسى كل شيء، أسدل الستارة على ماضٍ رياضي قضيت في التتقيب والاكتشاف الغزير، هل سأعتكف لأكتب ذكرياتي عن الحياة الجميلة التي عشتها معك؟ أية قيثارة في الدنيا تستطيع التعبير عن جمال أيامنا وسعادتنا معا في هذه الأرض وكل أرض وطنناها، كنت تقولين: ماكس كثير من الناس يقولون أن السعادة هناك، بينما السعادة هنا!

وتشيرين إلى صدرك الواسع كسماء تحتضن الغيوم، كم من
الشموس لوحت وجوهنا، وكم من الأمطار هطلت علينا معا
ونحن مشردون في دروب الدنيا، هذا الحب العظيم الذي عشناه
هل من المعقول ينتهي باختفائك؟ أحس بعبرات تلج بصدرة،
حاول أن يبكي فلم يستطع، يتذكر إنه كان قد بكى حين تدله
بحبها وطلب يدها فطلبت منه أن يمهلها لتفكر، وكان خلال مدة
تفكيرها التي طالت بعض الشيء يبكي حين يتصور أنها
سترفض الزواج منه. نبكي مع الحب الأول، ثم لا نبكي أبدا
مهما عشنا من حب أو هجران؟ عدم القدرة على البكاء هل
يعني زوال الحب، عدم القدرة على الحب؟ لا ! أنا أحبك يا أجاثا
الآن وأبداً. أنت كل وجودي، فقدك سيحطمني، وها قد بدأت
أنداعى!

أعاد الورقتين إلى مكانهما، اعتراه بعض فرح أن أجاثا
ستعود، ويجب أن تجدها في مكانها حين تشرع في الكتابة. كان
الراهب بهنام مهذبا وصريحا معنا، أعلمنا أن كثيرين يقولون أن
المنقبين يعثرون كل يوم على خزائن مليئة بالليرات الذهبية،
ويعتقدون أننا لصوص، استولينا على الكثير من مجوهرات
وثروات بلادهم! هل خطفها أحد ممن يعتقدون أننا أثرياء
ونستطيع أن ندفع لهم الكثير من المال ليطلقوا سراحها؟ لانتظر!
عاوده الخوف واليأس.

(10) هل هي جثة أجاثا كريستي؟ بأي قلب ساقف أمامها؟ اذهب يا صديقي وشاهدها، وسأبقى هنا أحلم بالأهرامات تسير على عجلات!

تنبه إلى دق خفيف على باب حجرته، نهض مسرعا، وجد عامل من الفندق:

- ثمة تلفون لك يا سيدي!

نزل الدرج مسرعا يكاد يسقط، أزعجه أن بدالة التلفون الداخلية في هذا الفندق متوقفة منذ حلولهما فيه، ولم تصلح لحد الآن، كان ريتشارد من السفارة يقول له بصوت حاد بارد كالسكين:

- يؤسفني أن أخبرك أنهم عثروا على جثة على شاطئ النهر في مكان لا يبعد كثيرا عن الفندق، لكنهم لا يعرفون إن كانت لأجاثا أم لغيرها، أعلمونا أن الجثة لامرأة شقراء فيها الكثير من الشبه بأجاثا. على كل حال هم يريدونك لمعاينتها، سأتيك لأكون معك في مشرحة الطب العدلي، سنذهب بعد ساعة من الآن حين يهيئونها!

لم يعد ماكس يستطيع النطق، سمع ريتشارد يقول:

- سنكون معا، هيئ نفسك لتقبل الأسوأ!

أعاد سماعه التلفون، وألقى نفسه على مقعد في البهو، وهو أقرب للإغماء، وضع النادل أمامه قدح ماء ولم يتجرأ على سؤاله إن كان يريد القهوة. كان صاحبا مرتجف الشفتين، كان يفكر بريتشارد أيضا، أحسه قاسيا كأنه هو من حول أجاثا إلى جثة امرأة قتيلة. تخيل نفسه يقف أمام، جسدها الجميل المثخن

بالطعنات، لا؛ هذا فوق احتمال، هذا سيدمر أجاثا في مخيلته وفي روحه ، نهض إلى التلفون وطلب ريتشارد:

- يا صديقي، أنا لا أستطيع الوقوف أمام جثة أجاثا، أرجوك، أنت تعرفها، جيدا، لا أعتقد أنك نسيت ملامح وجهها أو هيئتها، أرجو أن تذهب نيابة عني، لتفحص الجثة، وسأنتظر مكالمة منك! لي ثقة أن الأخبار ستكون طيبة!

- هذا صعب بالنسبة لي أيضا، ربما الأمر أسهل لك، فعملك في التنقيب يجعلك ترى هياكل الموتى دائما!

قال في نفسه يالريتشارد كم هو أحق وغبى ، أجابه:

- الأمر يتعلق بأجاثا يا صديقي، لا بعظام الأقدمين ، لا أستطيع أن أرى أجاثا بغير ما عهدها به، أرجوك قدم لنا أنا وأجاثا، هذا الصنيع واذهب وحدك لمعاينة الجثة.

صمت ماكس برهة ثم قال:

- رغم إنني اعتقد إنها ليست جثتها، لكنني لا أستطيع رؤية جثة من المحتمل أن تكون جثتها مهما كان الاحتمال ضئيلا، كان ريتشارد يردد:

- أوكي ماكس، أوكي!

عاد ماكس إلى مقعده، ورغم إنه أزاح عن صدره كابوس احتمال أن يرى أجاثا جثة ممددة في مشرحة، لكنه ظل هامدا برهة ثم راح الأمل يدب فيه، لا، أجاثا لم تمت، لم تقتل، هي حية في مكان ما، وستعود فرحة منتشية كأنها كانت في مغامرة مرحة لكنه لا يلبث أن يعود ليفكر إنه لن يراها بعد الآن! أحس باختناق البكاء في صدره لكنه تمالك نفسه وظل على رصانته. لأول مرة ومنذ زواجه أحس بحاجته لكأس من الويسكي، لقد منعه أجاثا من الشرب إلا بموافقتها، كان قبل زواجهما يحب من الويسكي كثيرا، يراه يفتح الذهن، ويستخرج الذكريات كما

يفتح أزميل المنقب الأرض ويستخرج منها الذكريات ولو
مختلطة بالطين! هبط إلى بار الفندق، وطلب كأساً من الويسكي،
ارتشف جرعات بينما بصره يسرح عبر النافذة إلى دجلة، تيهه
في سمائها العالية العميقة جعله يحس بان أية مشكلة هي صغيرة
إزاء عظمة الكون، النسيم العذب المتدفق من النافذة العريضة
مع غناء الصيادين وصيحاتهم المرححة ودبيب الشراب أنعش
روحه. لكن البكاء يحاصره ولا يتفجر، هل حقا هناك داء في
الدنيا اسمه البرود الإنجليزي؟ شعر أن أجاثا قريبة منه، ولا
يمكن أن تتركه، وإن حبهما عظيم لا يقهر، ولا يدمره قاتل أو
مغتصب! جاءه النادل يصحب شاباً قدم نفسه أنه صحفي يعمل
في صحيفة محلية مشهورة ويريد أن يجري معه مقابلة، تحدث
ماكس بملامح متجهمة:

- لا أريد أن أدلي بأي كلام قد يربك مجرى التحقيق. ساعدونا
بالصمت رجاء!

لم يدع الصحفي للجلوس فظل واقفا متهيأ:

- لا أريد أن اكتب للإثارة، وإنما بحثاً عما حدث حقاً، كاتبة
كبيرة تخطف في بلادنا، تلك اهانة لنا جميعاً، أريد أن أهيب
بالناس ليساعدوننا في البحث عنها!

- أعلموني بما تكتبه الصحف هنا عن قضية أجاثا، لماذا كل
هذه القسوة؟ لماذا تمتزج الأعياب السياسية عندكم بما هو إنساني
فتدمره؟

- ليس كل صحافتنا كذلك. معذرة إذا كنت قد أرعجتك!

نظر إليه ماكس متأملاً في شروء حزين:

- وأنا أرجو أن تعذرني، لست في مزاج من يطلق
تصريحات، أعذك إذا ما عادت أجاثا أن أخصك بحديث أترك
لك اختيار موضوعه وحجمه!

- أتمنى أن نجدها سالمة وبخير.

ومضى بهدوء. عاد ماكس إلى كأسه، تجرعه دفعة واحدة وطلب كأساً آخر، في تلك اللحظة استقر في نفسه أن أجاثا لم تمت، لم تختف مطلقاً، ستظهر، لا بد أن تظهر.. هي من تهب أبطالها حياتهم من الوهم أو الحقيقة، لا يمكن لأية قوة أن تسلبها الحياة، هل هي نشوة الشراب؟ هل هي صدمة الجثة المشتبه بها هي التي جعلته يكابر ويعاند ويعتقد أنها حية، فقط في مكان آخر، نهض فجأة، غادر البار وانحدر إلى الشاطئ، وجد دعبول البلام، سأله: - ها، هل عادت أجاثا؟

اكتفى ماكس بهزة غامضة محيرة من رأسه، وأخذ للصمت، راح دعبول على طريقته يتحدث مع ماكس محاولاً دس الكلمات الثلاث أو الأربع التي يعرفها من الإنجليزية في كلماته، (ففري ككود ، ووتر، فش ، عفارم ككود فش مشوي، ووتر) ...صاحب انتو تنطون حرية لنسوانكم أكثر من اللازم، لا تقلق، راح ترجعلك، بس مرة ثانية لتخليها تروح وتجي بكيفها ايدك بايدها! ظل ماكس شارد الفكر عنه، كان دعبول سكرانا أيضاً، حين وجد ماكس منشغلاً عنه قال:

- أدري صاحب أنا أحجي شيش بيش ، بس شسوي لا زم نحجي والا نموت، المايحجي، يختتكك!

هز ماكس رأسه مظهراً أنه يستمع إليه ويفهم ما يقول، لكن دعبول نظر إلى عيني ماكس الذابلتين، خمن أنه سكران، رق صوت دعبول وهو يقول:

- صاحب احنا اثنييه سكارى، بس إنت سكران بالويسكي، وأناي سكران بالعرق المغشوش، أنت داخ تدور على زوجتك، وما تدري هي وين، وأناي داخ لأن أدري زوجتي وين، هي بالمكبرة كاعدة من الصبح تبجي على ابنا الوحيد اللي غرك بهالنهر الملعون بذاك الصوب، (وأشر جهة الكراة في الكرخ)،

آني دعبول البلام اللي اعلم أولاد الناس السبح إبني يغركك يمي،
وآني ملتهى أعلم أولاد الأغنياء السبح؟ هذا حظي!

أحنى رأسه وأخذ ييكي رافعا طرف ثوبه ليمسح دموعه
كالطفل، حاول ماكس أن يقترب منه فقد أحس بألمه تاما، هو
لم يفهم كل ما قاله لكنه يعرف أنه ييكي على ولده الذي مات
دون الثامنة، وقد هزت قصته أجاثا حين عرفت أن طفله غرق
حين غفل عنه وقد كان منهمكا يعلم أولاد الآخرين السباحة
ومنهم أغنياء لم يقدرُوا مصيبتَه فما عادوا يسلمونه أبناءهم
ليعلمهم السباحة! مضى ماكس يجر خطواته، لماذا أنا لا
أستطيع أن ابكي مثله على أجاثا؟ عاد إلى بار الفندق وطلب
كأس ويسكي آخر، وآخر، حاول أن ييكي فلم يفلح، نهض
ضاحكا من نفسه قائلاً، يبدو إن الإنجليز يعرفون كيف يصنعون
سيارات الـروز رايز، ينتجون ويسكي فاخرا وموسيقى صاخبة
وأقمشة جيدة، ولا يعرفون كيف يكون!

صعد إلى حجرته، لم يبدل ثيابه، تداعى على فراشه. أخذ نوم
عميق، دون رغبته، أو رضاه، كان يريد أن يبقى يقظا ليستقبل
من ريتشارد خبرا رهيبا جدا أو طيبا بعض الشيء، لكن النوم
اخترق أرقه الطويل وسكرته الحالية كالسهم، استقر نائما لما
يقرب الساعة. استيقظ فجأة وقد أخذ بخنقه كابوس عميق، كان
يلهث، تناول قدح الماء من المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير،
يقطع شربه لهاث حاد؛ جعله يمسك صدره خائفا.

كان قد رأى نفسه في مشرحة الطب العدلي، وإن الجثة التي
ذهب مع ريتشارد لمعاينتها قد وجدها جثة أجاثا، وكانت مقطعة،
وقد صفت أجزائها بمكعبات، ورغم إن وجهها كان مشوها؛
لكنها كانت تبتسم له قائلة:

– كل هذه يا ماكس بسبب تنقييك في بلاد هؤلاء الناس
المجانين، هم غاضبون علينا كثيرا، يقولون أنك تبحث عن

أصنام أسلافهم لبعثها من جديد، وتحطيم دينهم العظيم! وتجمع ذهبهم ومجوهراتهم لسرقتها، لذلك فهم سيعاقبوننا بالموت، وسيمثلون بجثتنا، هذا الذي فعلوه بي سيفعلونه بك، قالوا لي إنهم سيقطعون جثتك ويرمونها للكلاب، قالوا إنهم أشفقوا عليّ لأنني امرأة، فلم يرموا لحمي للكلاب، واكتفوا بتقطيعه، أتستحق هذه العظام المنخورة والخرز الرديء والألواح المفتتة الذي تستخرجها من ترابهم، موتنا وعذابنا هذا؟

كان هلعا يتصبب عرقا، وجد فمه يفتح:

- أنسيت يا أجاثا الخنجر السومري الذي يلمع تحت الغبار؟
القيثارة الذهبية؟ حلي شعباد الأنيفة؟ ملحمة جلجامش؟ أنسيت؟
أنسيت؟ ألا تستحق هذه الأشياء كل هذه التضحية، وقف ريتشارد الدبلوماسي الإنجليزي بجانبه قليلا ثم اختفى، تبعه الشرطي والطبيب وحارس المشرحة، بقي هو وأجاثا يتجادلان، كان يسألها بهدوء كما الصمت في الأحلام:

- ولكن أين أنت الآن بالضبط؟ هل في أحضان الموت الباردة؟ أم بين أنياب خاطفين مجرمين؟
- ألا تراني يا ماكس؟ أم أنت لا ترى إلا عظام من ماتوا قبل ستة آلاف عام؟

فجأة ظهر كاهن قديم يرتدي زيه السومري، يتبعه حرس مدججون بأسلحتهم القديمة، دروع وسهام وسيوف، تقدموا من ماكس وبانحناء خفيفة قال الكاهن:

- سنأخذها إلى المعبد، وندفنها على الطريقة الملكية السومرية، هذا يعني إنك يا ماكس ستدفن معها، سنضع بجانبك ما يكفي من النبيذ المسموم قليلا،... سنجعل موتك مرحا وسريعا ولن تشعر بالآلام التي يتحملها الناس العاديون، وسنجعل العذراوات المنذورات يعزفن لكما ترنيمة الوداع على قيثارتهن

المقدسة، لا تمنع، ألم تقل أنك تحب أجاتا أكثر مما تحب نفسك،
الآن حانت ضريبة هذا العشق الكبير!

حاول ماكس أن ينتفض، صاح بوجوههم خائرا، حتى إنه لم
يسمع صوته يخرج من حنجرته "من سمح لكم أن تأتوا من
الماضي السحيق لتتدخلوا في حياتنا الآن" وبينما كان حرس
الكاهن يمسكون به، يقيدون يديه، ويقتادونه، فجأة أخذت
الأهرامات تزحف على عجالات ضخمة وتقترب منهم بسرعة،
تفتح أبوابها ويخرج منها رجال بثياب فرعونية، وبوجوه
مومياءات وهياكل سود، يشتبكون مع الحرس السومري في
جدل عنيف، يجعل الكلمات تنتقل من أفواههم كالرصاص، كلهم
يتحدثون الإنجليزية بطلاقة ووضوح فلا يبقى لدى ماكس شك
في ما يقوله، الفراعنة:

- سنقتله، مع أجاتا كريستي فهما يريدان النبش في مقابرنا
ليقلقا راحة موتانا!

والسومريون يقولون:

- سنضعهما في قاعة الموتى الملكية، ليكونا عبرة لمن اعتبر!
لم يتفاهما، ولم يتفقا على شيء، فاندفع الجنود والحرس من
الجانبين في صراع حربي عنيف، صارت كل جماعة تمسك
بطرف منه يريدون تقطيعه لاقتسامه، ثم انبروا يقتسمون جثة
أجاتا، ولما اشتد الصراع على جثته أفاق من نومه لاهثا! عب
قدح الماء كله واعتدل جالسا في السرير، ما هذا الذي يجري؟
يبدو أن السومريين والفراعنة غاضبون علينا، ماذا حدث
لأجاتا؟ ما هذا الطوفان من الرعب الذي يجتاحني ولا عهد لي
به في هذه البلاد؟ لو فقط أستطيع التفكير بهدوء لاهتديت لمكان
أجاتا! أجاتا ما تزال حية، ميثولوجيا هذا البلاد تقول: من تراه
ميتا في المنام؛ هو حي في الحياة، وبقوة، وعمره سيطول أيضا،
بذلك ستعيش أجاتا عمرا طويلا، معجزات كثيرة وقعت على

هذه الأرض، لم لا تقع هذه المعجزة الصغيرة؟ ظل في سريره صافنا، يستعيد تفاصيل الكابوس، مرات، ويهرب منه!

(11) هذه الأوراق أخطر من جثة مشتبها بها!

وقع بصره على حقيبة أجاثا الكبيرة مكونة إلى جانب الدولار الواسع، نهض إليها، تخرج أن يفتحها، لم يعتد التفتيش في حقيبة أو خزانة لها، عندما قلبت ملابسها أو أشياءها الخاصة، في الدولار، فذلك لأن ما فيه من ملابس وأوراق وأشياء صغيرة كان مشتركا بيننا، لكن حقيبتها هي شيء حميم خاص بها، وعلى التريث في قلب محتوياتها، هذا لا يريحني، وقد تدخل أجاثا فجأة وتجدي قلب في أشياءها الخفية، فيصعب علي أن أوضح لها دوافعي للبحث فيها، حتى ضرورة العثور على شيء قد يفيد في الوصول إليها أو معرفة سر اختفائها. رغم كل الحب والعلاقة العميقة بيننا، وقراءتنا للرسائل التي تصلنا معا، فقد أبقيت، وأبقت هي أيضا؛ مساحة معينة هي سر خاص لكل منا، ربما كل منا مستعد لكشفه للآخر ولكن تحت مبررات مقنعة. وهل هناك ساعة عصية غير هذه الساعة العصية للخوض في خصوصيات بعضنا؟ لم تكن الحقيبة مقفلة، كانت مفتوحة تقريبا، فقط هي مضمومة الجانبين، ذلك شجعه على إخراج ما فيها بهدوء، لم يكن فيها سوى ملابس الخروج، وبعض ملابس داخلية ما تزال في أغلفتها، لم تفتح بعد، وبعض أكياس زهورات جافة، وسفرجلة من الموسم الماضي، وقد نضجت كثيرا، أعطت الثياب رائحة طيبة، طريقة قديمة لتعطير الملابس تعلمتها من عائلة موصلية عريقة كانت صديقة لنا، لكن ثمة جييا، ملصقا بالجانب الفوقي للحقيبة، لم يكن سريرا، بل كان مخفيا بعض الشيء، ثمة ظرف أسمر سميك، عليه عبارة بخط يدها: " اختفاء ولفريد ثيسجر، في الربع الخالي، مغامرة

بين مضارب شيوخ القبائل العربية في الخليج!" وثمة عنوان آخر بالخط الأحمر، "ولفريد ثيسجر يبحث عن بنت المعيدي، تصاعد الحب في أطواره المختلفة حد القتل" ما هذا؟ كيف غفلت أنا عن هذه الأوراق الهامة والخطيرة طيلة هذه الساعات القاسية؟ ولكن لماذا لم تضعها أجاثا مع أوراقها عن رواية القيثارة؟ هل فقط لأنها ستعمل عليها لاحقا، أم هي تريد إخفاءها عني؟ لماذا قالت "اختفاء ولفريد" ولم تقل "اكتشافه للربع الخالي" برحلة معروفة. هل في مخيلة أجاثا فكرة عن رواية تجعله يختفي فيها في الربع الخالي، ويا من يبحث عنه في هذا العناء الرملي! أهي قصة بوليسية أم فلسفية؟ هل في فكر أجاثا رواية يقتل فيها ثيسجر حبيبته بنت المعيدي الذي هو هائم غائب عن نفسه باحثا عنها؟ لا أدري ماذا أقول الآن! فأجاثا لا تستريح حتى تحول العرس إلى مأتم، وعناق الحب إلى طعنة قاتلة، ثم تكتب عنها رواية، ذلك حظها وحظي! علي أن اقرأ أوراقهما جديا، وأفكر بها بتأن قبل أن أحكم بشيء، ولكن الوقت يمضي وقضيتها على نار ملتهبة، ولا تحتمل صبرا ولا تضاربات في الآراء والأفكار! هذه ساحة كبرى أخرى علي أن أبحث فيها عن أجاثا؟ وقد أبحث في أوراق ولفريد ثيسجر أيضا؟ ترك ماكس الحقيبة مفتوحة، وضع المظروف جانبا على الأرض، وتلمس باحثا عن جيوب أخرى، لم يجد شيئا، تذكر وكما في كابوس أنهما في ليلتهم الأولى في الفندق التقوا في قاعة الاستراحة بطابقه الأرضي، بالمستكشف الإنجليزي ولفريد ثيسجر وأجانب كثيرين، إنجليز وأوربيين. دهشت لوجوده في الفندق وفي بغداد دون أن نعرف أنا وأجاثا، رغم قوله إنه لم يأت سوى قبل يوم واحد، شغلنا عنه أنا وأجاثا في أحاديث مع بعض الأجانب كانوا معجبين بأجاثا، لكن استوقفتني لهفة أجاثا وهي تلتقي ولفريد ثيسجر، ضمته إلى صدرها بحنان وحرارة واضحتين، رغم أنني لم أعتد الغيرة من أصدقاء أجاثا

ومعارفها، لكنني شعرت أن في اهتمامها بئيسجر شيئاً غريباً لم أدرك كنهه. هو صديقنا تردد علينا في بيت الأثاريين كثيراً، واستقبلنا بحفاوة واهتمام ضيفين عنده في الأهوار قبل فترة؟ كان يتحدث عن هذه المستنقعات المائية الشاسعة كأنها أضحت ملكه أو محميته الخاصة، وقد حرص حقاً على راحتنا وإسعادنا والحديث لنا عن كل شيء صادفنا أو خطر له عنها! كان لا يتوقف يروي الحكايات عن البنت الفاتنة التي تدله بحبها كثيراً والتي تدعى "بنت المعيدي"، لكنني شعرت وكأن جواً أو مزاجاً غامضاً بينه وأجاثاً. تذكر ماكس إنه لم يره في مطعم الفندق أو ردهته، بعد ذلك، كأنه اختفى فجأة، ذلك وخز قلبه، وأثار شكوكه، لماذا اختفى في نفس الوقت الذي اختفت فيه أجاثاً؟ هل من المعقول أن أجاثاً رحلت معه؟ هرع إلى استعلامات الفندق، قالوا إنه غادر الفندق في ساعة مبكرة من الصباح، كأنها نفس الساعة التي اختفت بها أجاثاً، بالطبع هما لا يمكن أن يخرجاً من الفندق مترافقين معاً، موظف الاستعلامات يقول إنه لم ير أجاثاً تغادر الفندق، لكنه أكد أن بئيسجر غادر مبكراً جداً حتى أنه دفع حسابه في الليل، هذا جعل ماكس يفكر أن بئيسجر كان يعد لرحيله ومن معه بعناية ودقة! أيمن أن تكون أجاثاً بهذه الخفة والجنون فترتكب هذه الحماقة؟ أكان بئيسجر في حديثه وحكاياته المختلفة أو الصحيحة عن بنت المعيدي، وتدلّه بها يكذب علي، ويريد التغطية على حبه وتعلقه بأجاثاً؟ لا أدري! بدأ هذا الرجل يحيرني حقاً! عاد إلى حجرته ووجه بئيسجر بقسماته الجذابة الأسرة للنساء تملأ ذهنه! فكر أنه سيعرف ما حدث لأجاثاً مع بئيسجر من هذه الأوراق، في الأقل طبيعة مشاعرهما نحو بعضهما، لا بد له من قراءتها وتمليها بتأن، إنها أخطر من الجثة التي يشتبهون أنها لأجاثاً، جلس في الشرفة، وجد الحجرة تكاد تخنقه. جاءه عامل الفندق، لم يدعه يفتح فمه، نهض مسرعاً قبله يهبط الدرج كان تلفون ريتشارد في انتظاره، بكل برود قال:

- الآن أعلمني العراقيون أن الجثة ليست لأجاثا، وجدوا أنها تعود لفتاة قتلها شقيقها بما يسمونه غسلا للعار كما هو شائع هنا ، علينا أن ننتظر...

خشى أن يقول ريتشارد الغبي "ننتظر جثة أخرى"، قاطعه شاكرا، ووضع السماعة بسرعة. شعر براحة عميقة توقف ، كأنه ليبتهل شاكر الله، كأنه يتشرب النتيجة الطيبة، عاد مسرعا إلى حجرته، يشعر أنه الآن يمسك بطرف الخيط الذي سيقود لأجاثا حية، وربما عاشقة من جديد، وليست جثة هامة، وفي هذه الحالة وقد خانت هل سيتمنى لو أنها كانت هي الجثة الممدة في الثلجة ؟

(12) ثيسجر مكتشف صحارى ومستنقعات؟ ملاحق لحمامة جميلة في الأفاق؟ أم إنه محطم لقلب ماكس في بيت الأشباح؟

جاء ولفريد ثيسجر إلى بيت الآثاريين قبل عامين، هو من بحث عنا، شهرته الكبيرة تسبقه مثيرة غبار الصحارى، فهو البطل الإنجليزي عابر الربع الخالي مستعينا بإدلاء شبان من عرب عمان ودبي، وبمباركة ودعم مالي سخي من أمرائهم وشيوخهم. طويل القامة، متين، بوجه بيضوي أشقر، وشعر ذهبي، وعينين زرقاوين حادثي النظرات. ورقة طويلة حمراء عليها بعض الأخاديد التي تنم عن مواجهات طويلة، وصبورة لمناخات قاسية وتقلبات حياة جافة. كان دائم التلفت بنباهة، وسرعة بديهية، مع تجههم يبدو أحيانا عذبا كابتسامة، متدفق الكلام لا يفتأ يروي الحكايات التي تصغي لها أجاثا كطفلة مبهورة، كأنها ليست هي الروائية العظيمة، يتمتع بجاذبية لا تقاوم، لاحظت أن أجاثا تهتم به كثيراً، بل خيل إليّ إنها تتطلع إليه باشتهاء، أم تراها مخيلتي التي مرضت الآن بسرعة تدفعني وهكذا تصورات وتهيؤات سيئة وجارحة؟ جاءنا مع صديقنا الباحث في الآثار السومرية مستر هاري شبرد والذي كان تلميذا ومريدا للمنقب الكبير ليونارد وولي رائد التنقيب في أور منذ أوائل العشرينات ومكتشف القيثارة الذهبية العظيمة في المقبرة الملكية السومرية، تعرف عليه ثيسجر في مدينة الناصرية، كانت لديهما اهتمامات مشتركة كثيرة، يحتملان المشاق الكبيرة من أجل المعرفة مهما صغرت. نزلا معنا في البيت، أفردنا لهما، حجرتين في الطابق العلوي، في الصباح التأمنا في جلسة هادئة بعد أن فرغنا من الفطور، قال ثيسجر " أحببت الحجرة

كثيراً؛ لأنها تطل على النهر، وأسمع منها غناء وصيحات الصيادين التي تطربني، صرت بعد طوافي في الأهوار لا أطيق البعد عن شواطئ الأنهار، صرت أشك أنني أستطيع أن اقتحم الربع الخالي مرة أخرى، السباحة بالرمال بين الأفاعي السامة، والرياح الحارقة، أفزع من السباحة في لجة بحر يعج بسمك القرش والحيتان، وأصعب مغامرة في هذه الدنيا، فظاعة أن ترى موتك يتقدم إليك مغموراً بالنور الساطع لا بالظلام! يضحك قائلاً وهو ينظر إلى أجاتا (هل الآن فقط صرت أتذكر إنه كان ينظر إلى أجاتا؟) :

- يبدو إنني ما زلت أمتلك قدراً من الجنون يكفي لرحلة الصحراء، وأية صحراء؟ الربع الخالي الذي يبدو وكأن السماء قد نسيتَه منذ ألقته من يدها على الأرض عند بدء الخليقة!

قالت أجاتا دون أن ترفع رأسها عن جورب تقوم بحيাকته لي بحنانها المعهد الذي أكثر ما يؤلمني أنه باختفائها صار موضوع شك وتمحيص عندي:

- صحراؤك يا ولفريد تيسجر تقابل البحر الميت، هي بحر من الرمال. هل رمالها، مالحة؟

ضحك وهو يقول بصوت صلب معدني:

- تجاوزت مرحلة معرفة طعمها، كيف عرفت أن ما دخل فمي ورئتي من رياحها جعلني عموداً من الملح؟ تعالي يا أجاتا إلى هذه الصحراء قبل أن تفقد عذريتها وتمتلي بالبشر، والأفزع بمحطات البترول؛ فقد عرفت أنها تزخر بالنفط والمعادن الثمينة والسعوديون والعمانيون والخليجيون الآخرون تنبهوا إليها، ويزمعون استثمارها قريباً، مع أراضيهم الأخرى المستثمرة. تعالي لنراها قبل أن يغمرها الدخان بدلاً من عبير زهور الشيح والخزامى المقاومة للهجير بمزيد من العطر! كان مهووساً باكتشافاته، قلقاً، متردداً، فوضوياً في مشاريعه، مرة يقول

"أريد أن أنقل اهتمامي من سطح الأرض إلى باطنها، وألج ميدان البحث عن آثار العهود البعيدة في هذه البلاد المحتضنة أكثر من نصف التاريخ البشري". ومرة ينفذ يديه من الآثار ويتجه لمشروع آخر هو أقرب للمغامرة! قال: جئت إلى العراق، بعد أن وصلتني رسالة من صديقي الدكتور هكسلي زميل مالوان في فرقة التنقيب في أور، وأخرى من صديقي هاري وهما يدعوانني إلى أور للتنقيب في جنوب العراق، ومناطق أخرى، رغم أنني لست مختصاً بالآثار، ربما كانا يطمحان أن أوظف علاقتي مع موسرين في لندن والخليج العربي لأحصل لهما على تمويل لبعثاتهما للتنقيب في العراق أو مصر أو البحرين، حيث نشأت الحضارات الأولى متزامنة، وكانت ثمة جسور خفية بينهم، سيكون مفاجأة علمية أن نكتشف تلك الجسور وامتداداتها إلى اليونان لتتبع حضارتها لاحقاً. بذلك سنجد جذر الحضارة الأوربية والغربية! أحاديث هاري الطويلة مع هكسلي جعلت طموحي يمتد إلى الصين والهند وإلى حضارة المايا في أمريكا الجنوبية، كم تمنيت لو يمتد بي العمر لأنبش عن جذور الإنسان وطفولته لنوطد أسس الأخوة الإنسانية. وندراً انتهاك حقوق الشعوب الضعيفة الآن بعد أن كانت في أزمان سحيقة قوية مبدعة منتجة. انطفأ حلمي في التنقيب لا أدري لماذا، شيء مثير صادفني في العراق! قاطعه هاري قائلاً، وهو يقتل شاربيه الذهبيين المبللين دائماً بالبيرة:

- نعم كنت ولا أزال أتمنى لو أن نيسجر يضم طاقته الكبيرة الخلاقة إلينا في التنقيب خيراً له من التيه على الرمال أو الماء! اقترحت دون جدوى أن يفرضوا على الشركات التي تحفر بحثاً عن النفط والدولارات تمويل بعثات التنقيب عن كنوز الحضارات القديمة ، كل متر مربع في هذه الأرض يمكن أن تجد تحته قطعة حية من ذاكرة البشر!

عاد ثيسجر يتحدث:

- قضيت يا عزيزي هاري معكما وقتا طيبا، اكتشفت إن عدم امتلاكي اختصاص في الآثار سيجعل الآخرين يشكون بدوافعي، يظنونني أعمل لأغراض تجارية أو استعمارية، وكلا التهمتين تؤلماني! فكرت بارتياح بادية الشام، ورحلت أرتب لرحلتي إليها، قال لي هكسلي: أنت مشئت الذهن، مبعثر الهموم، لا تعرف ماذا تريد، تدير ظهرك لكنوز الحضارات وتذهب لتدفن أيامك في الرمال المليئة بالأشواك والطحابين! لكن مفاجأة غريبة حصلت ، منحت هكسلي دليلا آخر على تشتت تفكيري وتيهي وضياعي، صرت فجأة أفكر بالمعدان وموطنهم الأهوار!

أخذ ماكس يقلب الأوراق بعجالة، وقلق شديد، قال في نفسه يصعب العثور على ورقة تقول أن ثيسجر وأجاثا في علاقة خاصة حميمة وإنهما قد اتفقا على شيء ما، وأقدا على مغامرة طائشة! إذا أردت أن أقرأ هذه الصفحات من أجل التحقق مما حدث فعلي، أن أقرأ ما وراء سطورها وهذا يتطلب مني هدوء نفسيا، وبرودة أعصاب، هل أنا الآن كذلك؟ لا ، لكن إهمالها أيضا يزيد مخاوفي، أي شيء أفهمه منها قد يلقي ولو قليلا من الضوء على ما أنا فيه. ينبغي أن أحذر من أية استنتاجات أو حكم نهائي قد أندم عليه. رغم أنني لم أر هذه الأوراق سابقا لكنني أعرف طبيعتها والغرض منها، ما زلت أتذكر أن ثيسجر سأل أجاثا:

- هل تستطيعين يا أجاثا أن تكتبي مغامرتي، في الربع الخالي وأهوار العراق في رواية؟
صمتت برهة، قالت:

- ربما تعرف، أنا تشغلني الحبكة الفنية البارعة، ورحلتك مشوقة مثيرة، ومفخرة لبلادنا إنجلترا وعلي أن أجد مدخلا دراميا لها، ويسرنني أن أكرس جهدا لكتابتها بنص جميل

وجذاب، لذا عليك أن تزودني بمذكراتك أو ملاحظاتك التفصيلية عما شاهدت وسمعت أو خطر ببالك، وأتمنى أن تصبر علي بعض الوقت ريثما تختمر في ذهني، وتصير جزءا من حاستي الخاصة!

فرح وثيسجر، وأشرق وجهه :

- سأكتب، لدي صفحات كتبتها عن الربع الخالي، تلك الفلاة المثيرة، أتمنى أن تروق لك!

- دون لي كل ما يعن على بالك، أريد كل التفاصيل الخاصة برحلتك، في الربع الخالي والأهوار وجوهما العام، حتى أنا لا أعرف أية جزئية هي التي ستقح ذهني وتجعلني أضع يدي على مفتاح صندوق روايتك، أية ذرة رمل تدخل المحارة فتصير هي نواة اللؤلؤة! لا أريد أن أرى أحداث رحلتك في الربع الخالي والأهوار مرتبة كما وقعت في الزمن، بل من خلال روحك أنت، أكتب أي شيء، لا تقل هذا أمر قد لا يهم أجاثا، لا ، أنا لا أمل من الإسهاب، فهو سيكون في الكتابة الروائية موجزا وبقدر ما يحتاجه القلب البشري ليعبر عن مكنونه!

كنت وأنا استمع لها؛ مندهشا؛ أنها قد أعطته تقريبا معظم خبرتها الروائية، وهي نادرا ما تتحدث أو تبوح بها لأحد! خرج هاري إلى المدينة، وبقي ولفريد ثيسجر في حجرته. قال إنه يريد أن يكتب شيئا مما وعد به أجاثا، ألقت أجاثا عدة الحكاية، انصرفت للآلة الكاتبة، أحيانا تلجأ للحياكة حتى لو كان هناك ضيوف بعد أن تستأذنهم، أحيانا تتخذ من خيوط الحياكة ستارا أو جدارا يعزلها عن أحاديث الضيوف إذا كانت مملة، خاصة أولئك الذين يترددون علينا في مكان العمل في نينوى، لكنني لمستها تقبل على أحاديث وثيسجر وهاري بكل جوارحها، تقول إن نفاذات الحياكة المنتظمة تعلمها أن تحبك أفكارها

الروائية بنسيج دقيق محكم، بدأت حروف آلتها توقع ألقانها العذبة فارتحت، انصرفت أنا لعملي، لدي الكثير من جرد الحسابات، والفهرسة للقطع الأثرية المكتشفة، هي تستثار بالموضوعات الجديدة لا بمن يأتي بها. لا أعتقد أن لأجاثا اهتماما خاصا بئيسجر. لكن هل يطمئن قلبي؟ لماذا هذا الصمت المجنون الذي يؤجج الظنون الرهيبة في عقلي؟

ذلك الأصيل، ظلئيسجر في حجرته لا ادري إذا كان ما يزال يكتب أو يقرأ، أو ممارسا هوايته في إطلالة طويلة من النافذة الكبيرة على دجلة، عاد هاري متعبا بعض الشيء لكنه حمل بعض الأطعمة والفواكه، والخبز الساخن، جمعتنا مائدة عشاء استغرقت لأكثر من ساعة وجلسات سمر، استمعنا فيها إلى موسيقى كلاسيكية، من اسطوانات جديدة اشتريناها من مكتبة مكنزي سمعت أجاثا تقول لئيسجر :

- أنت مثلي يائيسجر تحب موزارت، أنغامه الرومانسية، والتي اسميها أنا بالريفية، تعيدني إلى أيام طفولتي في الريف الإنجليزي، فهي عبقة بشذى الورد والعشب تحت المطر!

كلامها لسع قلبي وراودني الشك لأول مرة! حين فتح هاري زجاجة ويسكي جلبها معه من لندن، وهم بصب كؤوس لنا، رفضنا ثلاثتنا الشرب، شرب هاري لوحده، وضحك منهئيسجر قائلاً:

- ستشرب مثل عصفور وحيد تحت المطر!

رد هاري ضاحكا:

- ما حيلتي إذا كان سرب العصافير يعتقد أن الغيوم السود مظلة ستقيه من المطر!

ضحكنا وشربنا الكثير من عصير الرمان محفوظا من موسم العام الماضي، جاءنا منه الكثير معبأ في زجاجات هدية من أحد

عمالنا في شهربان. الشهيرة ببساتين الرمان، قالت اجاثا لثيسجر:
- أنت مثلي تكره الشراب، وتنتهي عنه صحياً!

الآن أتذكر أو يتهيأ لي أنها كانت تطيل النظر إليه، أ تكون قد وقعت بحبه؟ ومن لا يرى ولفريد ثيسجر، ولا يغرم به؟ هو يمتلك مغناطيسية تستند على قوام رياضي، ورشاقة أكتسبهما من تدريبه المبكر على الملاكمة التي أحرز فيها جوائز ومواقع متقدمة في مطلع شبابه، وقد حافظ على لياقته البدنية الفائقة، وقوة شخصيته، عبر حياة نشيطة غنية متعددة الروافد والآفاق. خفة دمه يصعب أن توجد عندنا نحن الإنجليز في مناخنا الثقيل. اكتسبها هو من الأسفار الكثيرة ومعاشرة الناس والانطلاق في العالم، وهذا ما جعله جذاباً ومعشوقاً بجدارته، رغم شطحاته التي تجعلني أصفه بالجنون أو العته! جلسنا بعد العشاء نحتسي العصائر ونتبادل أحاديث شتى، حدثنا ثيسجر عن الشكوك التي تلاحقه بين من حول اسمهم من المعدان إلى عرب الأهوار، بعضهم يقول إنه جاسوس انجليزي:

- وماذا لدى أهل الهور لأتجسس عليهم؟ هل لديهم قنابل نرية؟ أم جئت أسجل عدد ما لديهم من جواميس ودجاجات وكلاب ومشاحيف؟ لأرسلها إلى وزارة الدفاع البريطانية في لندن؟

حمل ماكس أوراقه، ليذهب بها إلى الشرفة، أحس الشرفة مخيفة، وثمة ضوضاء تأتي من جهة النهر، تقطع تأملاته الغائرة عميقاً، أحكم إغلاق باب الغرفة، ومضى إلى السرير، لم يتمدد، جلس وسطه متربعا، متكئاً على المخدات وقد جمعها خلفه، ومضى ساهما "لا تتفعل يا ماكس! انظر للأمر بهدوء أقرأ الأوراق بدقة، وتأن لتصل إلى الحقيقة، لا تظلم ثيسجر، لا تظلم اجاثا!" وأخذ يقلب الأوراق، وجد بينها صورة فوتغرافية، ما أن ألقى عليها نظرة عامة حتى أشاح عنها، وجدها صورة

رهيبة، ما فهمه منها الآن يكفي لكي يجد أنها تحمل دلالات
مقلقة ومخيفة، ركنها جانبا، قرر أن لا يعود لتأملها والوصول
إلى حكم بشأنها ألا بعد أن ينتهي من قراءة الأوراق التي
وجدها، طويلة، قد تورثه الملل، رزمة سميكة، بسطور متراسة!
كما أن نيسجر يسهب في الكلام، هو يسهب في الكتابة أيضا.
كان قد دعانا للسفر معه إلى الأهوار في شتاء العام الماضي.
كنا أنا وأجاثا ولومبارد هيلي وكاترين قد زرنا الأهوار عدة
مرات، بحثنا وتناقشنا في أصول سكانها، ونصحناه بالتريث في
نسبتهم إلى السومريين قبل دراسة علمية متأنية، هو مندفع وراء
حلم رومانسي، أن يتصور بنت المعيدي التي سلبت ليه كما
يدعي هي حفيدة السومريين وحضارتهم الرائدة، والموغلة في
القدم، سبعة آلاف سنة في الأقل ! وجدته يتحدث متنقلا بين عدة
موضوعات تثقل ذهنه، يتذكر رجالا رافقوه في رحلته
الاستكشافية للربع الخالي؛ فيبدأ بحكاية له معهم، ثم يقطعها فجأة
ليقفز إلى قضايا تتعلق برجال ونساء لقيهم في الأهوار، ثم كأنه
وصل غايته ينتهد ويأخذ بالحديث الذي لا يمله عن بنت المعيدي
، ثم يظل يدور حول طيفها أو اسمها، وما قيل له عنها وما يحلم
به حولها مواصلا الحديث مع أجاثا لتكتب رواية عن حياته
واستكشافاته ويطلق ضحكة قائلا:

- ما دمت لا تستطيعين أن تكتبي إلا عن جريمة قتل، لنسلم
بالأمر، سأدعك تقتلين حبيبتي بنت المعيدي، لتتهمي رجلا
انجليزيا بقتلها، ليكن قائد الحامية البريطانية في العمارة أو
الناصرية، بل ليكن أنا رغم إنني لا يمكن أن أمسها بأذى حتى
لو همت بقتلي! مستعد أن أتحمّل أية تهمة أو عقوبة تقوديني
إليها، من أجل رواية ناجحة لك ، اجري قلمك على الورق
ودعي قلوب القراء تركض لاهثة على الصفحات ليعرفوا من
قتل بنت المعيدي ولماذا قتلها!

أتذكر إنني قلت مستفزا له:

— روايات أجاثا تزدهم بالفنادق الفخمة، والقطارات المرفهة، والرجال والنساء المترفين الأنيقين، ماذا في الأهور مما يجلب القارئ الأوربي؟ فهز رأسه ممتعضا!

وتضحك أجاثا وأبقى أنا أتابعه وهو يؤشر بيديه منفلا كأن بنت المعيدي ستقتل حقا!

- أنا واثق أن روايتك ستأتي عميقة جدا وبيعد فلسفي !

تعمدت إثارته:

- أي بعد فلسفي في رواية عن المستنقعات؟

احتد صوته:

- أن تبحث في صحارى الماء عن سراب الماء، وعن طيف جميل هارب، أليس هذا فلسفة؟

وضحكنا! بدأ نيسجر يضجرني بلجاجته مع أجاثا بمواضيع لم تجد بها كما قالت لي في حينها حبكة روائية مقنعة، بدأت هواجسي، هل هذا الرجل الغريب يريد اختطاف الحمامة من عشها، يبني مع أجاثا علاقة خاصة، متذرا بالكتابة والرحلات والتجارب الجريئة، محتميا بجدار حبه الوهمي لبنت المعيدي؟ قضينا معه أسبوعاً، توغلنا في أعماق الهور في زيارتنا الأخيرة، رأينا أجزاء منه لم نكن رأيناها في جولاتنا السابقة فيه. كانت نزهة طويلة رائعة، رغم ما لاقيناه فيها من صعوبات الإقامة والنوم وهجمات البعوض ومشقة الحصول على الماء النظيف، في صرائف المعدان الطافية على الماء. كأنها سكرى بأوجاع ساكنيها. أجاثا قالت:

- لا تكفي مئة رحلة لكي نلم بحياة هؤلاء الناس المستغرقين بعزلة لذبة كأنها الحلم الطويل لا يدرون متى يفيقون منه ليجدوا الحياة قد فانتهم كثير!

تري هل ذهبت أجاثا الآن في تلك الرحلة؟ ولكن لماذا لم تقل لي ، لماذا تذهب وحدها معه؟ هذا غير معقول، لو كان هذا ما حدث يكون إحدى شطحات أجاثا التي مهما بدت رصينة عاقلة، لكنها لا تخلو من جنون، ربما هي تلتقي مع ثيسجر بهذه الخصال الغريبة، عقل و رصانة وهدوء، ثم فجأة يتهشم كل شيء ويطل الجنون والطيش من مكن غامض مجهول. أعتقد إن هذا هو سر اختفائها، لاشيء آخر! أم أنا المجنون إذ أفكر بذلك؟ ثيسجر؟ هل هو مكتشف صحارى ومستنقعات، ملاحق لحمامة جميلة في الآفاق، أم إنه محطم لقلبي في بيت الأثاريين الذي يسميه أحيانا بيت الأشباح لكثرة ما فيه من تماثيل وألواح السومريين والبابليين! كانت الأوراق في ظرف خاص ، كتب عليه، وبخط جميل وسريع كالاختزال وبحبر اسود كأنه من نقيع الفحم "صفحات من مغامراتي في الربع الخالي، التقلابات، عجائب الناس والأرض! كدت أقع في الأسر لدى قطاع الطرق الصحراوية، عيشي بين عرب الأهوار. كان خط ثيسجر ناعما ممزوجا كأنه الاختزال، ومع ذلك كان واضحا أنيقاً يمكن قراءته بسهولة، خاصة لي وقد تعودت على خطوط الأقدمين والمحدثين! هذه الأوراق قد تكون أدلة جرمية لا مادة خام لرواية مقبلة! ثمة أوراق أخرى عليها كتابة بالحبر الأخضر و بخط أجاثا: انطباعات عن شخصية ولفريد ثيسجر، قوامه الجسدي الفكري والنفسي! وضع ماكس الأوراق جانبا وراح في شرود عميق! استطيع تفهم أن أجاثا لم تطلعني على أوراق ثيسجر فهي ليست من الرسائل الشخصية التي اعتدنا أن يطلع أحدنا الآخر عليها إذا ما جاءتنا من أي شخص أو مكان في العالم، ولكنني لا أفهم لماذا خزنتها بهذه الطريقة في حقيبة ملابسها وكأنها تريد إخفاءها عني، هل وجدها مهمة جدا وتصلح لرواية هامة ، كما لا أدري متى استلمتها منه، هل سلمها لها ليلة أمس حين التقاها في الفندق؟ جانزا! فانا لحظت

أنها قد ضمت أوراقا أخرى إلى الصحف والمجلات الإنجليزية التي ترسلها السفارة البريطانية لنا لنستلمها عادة من استعلامات الفندق! متى كتب تيسجر هذه الرسالة الطويلة؟ أغلب الظن إنه جلبها معه ليسلمها لها، وربما لم يجد لحظة مناسبة حيث كنت معهما طيلة الوقت، ربما سلمها لها في غفلة مني، أو تركها لأجاثا لدى الاستعلامات. أليس هذا شكلا من المراوغة، ومحاولة إغواء امرأة من خلف ظهر زوجها؟ أم تراني متجنيا عليه؟ وعلى أجاثا أيضا، والأمر كله لا يعدو تعارفاً ثقافيا حضارياً مشروعا؟ إنه يطمح جادا أن تكتب عنه رواية، لا شيء أكثر من ذلك! لم الظنون الجارحة يا ماكس؟

(13) إذا ذهب غريمك إلى الربع الخالي، لك أن تلاحقه، ولكن حذار من منازلته على الرمال المتحركة!

أشكرك يا عزيزتي أجاثا إذ وافقت على طلبي، أن تجري عينيك الجميلتين على ما دونته الآن عن رحلتي من مشاهدات وملاحظات لتصوغي منها رواية لتكون وساما على صدر حياتي كلها! لم يتح جو بيتكم لي أن أتحدث إليك طويلا ، أرجو أن تفهميني، فأنا لا أتحدث عن عاطفة محرجة لك، أو لي، إنما عن مشاعر صادقة، واهتمام بدأ معي مذ قرأت روايتك الأولى، ثم زاد تعلقي برواياتك وبك بعد أن رأيت صورتك، وجدت وجهك يوحى بالجمال العظيم والطيبة والسماحة معا. فمضيت أتابع ما تنشرين من روايات وما تصرحين به للصحف من أقوال وأفكار وآراء ومشاريع، ثم انقطعت أنا عن مدينة أوربا، وغبت هائما في صحارى الشرق واليوم أعود للحضارة الغربية، وأي باب لها أهم من إبداعك ورؤيتك لها وللعالم؟ حين عرفت من المنقب هاري، مساعد ماكس أنك هنا في بغداد طلبت منه أن يأخذني معه إلى بيتكم، ويمنحني شرف التعرف شخصا عليك! دهش ماكس: ثيسجر في الوقت الذي يتحدث عن موضوعيته وتجرده، يحاول كسب أجاثا فيتحدث معها بحميمية وطلاقة، "متبرما من جو بيتنا" : "وتعلقي بك وبرواياتك" كأنها دون زوج ، ماذا يظنني؟ صديقها فقط؟ رجل غريب متطفل عليها؟ عاشقا خائبا وما على ثيسجر سوى أن ينزل لمنافسته ويفوز بحبها؟ نسي إنني فزت بقلبها بعد قصة حب تقرب من الأسطورة! ثيسجر استهل مذكراته بנדاءات إعجاب وهيام لا حق له بها، هذه ليست أوليات عمل روائي على الورق بل عمل

روائي على الأرض! شباك خديعة وسطو على بيت زوجي آمن، وأجاثا ليست خالية له إلا إذا كان قد استمالها، هل أجاثا معه الآن؟ تيسجر هذا رجل معتوه ومخبول. لو لم يكن كذلك؛ ما الذي يدعوه للتيه في الصحراء تحت العواصف الرملية ظامئاً جائعاً زائغ النظرات؟ أو على ماء الأهوار، مدعياً حبه لفتاة رأى صورتها فقط؛ أي مجنون هذا؟ لقد أعطى مثالا تعيساً عنا نحن الإنجليز! إنه ليس غريب الأطوار وحسب، مشوه العقل والمشاعر. وجد ماكس أن الأوراق هي عدة رسائل كتبها في أوقات وأماكن مختلفة، ظهر له ذلك واضحاً ليس فقط من اختلاف الحبر، ونوع القلم، بل من اختلاف الموضوعات التي كان يتطرق إليها!

والآن سأعطيك نبذة عن حياتي: ولدت في أديس أبابا، عام 1910، الابن البكر للنبيل تيسجر الوزير البريطاني في الحبشة، نشأت في بيت بني من القش، والطين على النمط الأفريقي، البنيان الفخم لم يكن من نصيبنا، رغم أننا عائلة سفير التاج البريطاني، كان أبي يؤثر حياة التقشف والبساطة، وعلمنا نحن أبناءه وعائلته عليها، وهذه الخصلة لازمتني طيلة حياتي وساعدتني على تحمل شظف العيش والجوع والظماً في رحلاتي داخل الربع الخالي، والأماكن الأخرى المجذبة القاسية والخطرة، وستظل نهج حياتي، لكثرة جولاتي وارتيادي لأماكن مجهولة ومنسية؛ اهتموني بالتجسس؛ بينما أنا منذ طفولتي وصباي مولع بالاستكشاف وحب الاستطلاع، وهي من خصال الجواسيس كما هي من خصال الفنانين والمبدعين، أي هي خصلة يشترك فيها الملائكة والشياطين. ذهبت وأنا في العشرين بمغامرة خطيرة لتتبع مجرى نهر أوأش في اثيوبيا، خدمت مع القوات البريطانية في السودان، بمنطقة دار فور ، ومنحت رتبة رائد.

يشعر ماكس بالضجر من تفاصيل حياة ثيسجر ويجدها مقحمة ومحاولة لإغراء أجاثا بتاريخه وعائلته لكن لا يلبث أن يجد المبرر لها، فهي مادة خام ضرورية أتفق مع أجاثا على إعدادها لتستند عليها في كتابة روايتها عنه، من حقه أن ينظر لنفسه كأحد المهتمين بالحضارة الإنسانية، المساهمين ببنائها ، وأن يعرف نفسه لأجاثا ، ومن المفيد أن يتعارف الإنجليز العاملين في هذا البلد، فلم الظنون والشكوك؟ "نلت وسام الخدمة الممتازة، أرسلت في مهمة خاصة إلى سوريا وواصلت دراسة اللغة العربية هناك بعد أن بدأتها في لندن، يبدو إنني كنت محظوظاً حين تعرفت على الجراد، في عملي بمكافحته في السعودية، إذ قادني إلى الربع الخالي فجذبتني أعماقه وكادت تذروني مع الرياح لولا إرادة نهضت من داخلي ودعتني لمصارع كثرانه المتنقلة وبقيت واقفاً على قدمي! بعضهم يدخل الصحراء يريد الاستحواذ عليها وامتلاكها، أنا يا أجاثا تركت الصحراء تجتاحني، تغزوني مثل امرأة جميلة شهوانية وتسيطر عليّ! عشت مع البدو، قمت معهم برحلات قصيرة، جربت فيها ما يفعله الجوع والعطش والحرارة والبرد في البدن والنفس، كتمارين لمغامرتي الكبرى! سرني كثيراً أن شيوخهم تفهموا أهداف رحلتي ولم يشكوا بي ، مدنا شيوخهم الكبار بالمال والجمال وتعهدوا بحمايتنا، منحنا كبيرهم تصريحاً بانتسابنا إليه! فدفع الكثير من الأذى والخطر عنا! تناوبت ماكس انفعالات شتى وهو يقرأ، مرة يصف ثيسجر بالوحشي الخائن، ومرة يلوم نفسه على انفعاله وتطرفه ويقول عنه "لا بد أن أقر إنه كان مهذباً، وقد لمست غمامة حزن على وجهه، أشعر بصدقه ولا أظنه خوناً، أو يغوي المتزوجات، ليجرهن للخيانة. لأقرأ وأرى! "مساحة الربع الخالي أكبر من مساحة العراق بكثير، تتداخل فيه أرض المملكة السعودية واليمن وعمان وإمارات عربية أخرى ، أي مستطيل كوني هذا؟ رمال زجاجية تلمع

كالبرق تحت الشمس أحيانا مثل مرآة تعشي البصر، كثنائها العالية تنتقل من مكان لآخر خلال ساعة واحدة، ونحن نمضي خلفها وكأننا نطارد غيوم جافة هببت لترقص على الأرض! هل رأيت وجه إنسان مرة ينتقل أنفه إلى أعلى أو أسفل، ومرة ينتقل فمه أو عيناه أو أذناه من موضع إلى آخر في وجهه، هكذا وجه هذه الصحراء، رسام عظيم قدماء غائصتان في الرمل ورأسه في السماء يرسم لوحاته الهائلة على هذه الرمال كلما أكمل لوحة من الألق الأصفر والأحمر والتجاعيد بحجم وديان وتلال محاها بيده الضخمة ورسم لوحة أخرى على الفور، لا معالم ثابتة نستدل بها، أكبر سراب في هذا العالم ومع ذلك يجب أن نثبته وجهها لهذه الصحراء في ذاكرتنا. على قافلتنا أن تسير في مناخ يتردد بين حرارة 60 درجة مئوية صيفا إلى 7 مئوية تحت الصفر شتاء، وقد يكون هذا كله محتملا، ما لا يحتمل وحشة هذه الصحراء وفراغها الهائل حيث نسير ونسير دون هدى، ودون هدف! باختصار لو قلنا أن المتاهة قد تجسدت على الأرض لوجدنا أنها الربع الخالي! إذا فكرت أن تكتبي رواية عن الأبدية واللانهاية، والته المطلق فتعالى معنا في رحلتنا المقبلة في قلب هذه الصحراء! رغم كل هذا ثمة حياة متنوعة؛ جرابيع وأرانب وضب وأفاعي وطيور الحباري والقمري والعناكب والقوارض، أكمات شجيرات تغمرها الرمال، ثم لا تلبث الرياح تأتي وتفكها من سجنها، قالوا إن تجار البخور والعطور ومواد التجميل النسائي سبقونا في قطعها، أنا أصدقهم فجمال المرأة وما يزيدها فتنة يجعل الرجال يصنعون معجزاتهم! هذه الصحراء علمتني درسا عظيما: أن الحياة لا تقهر ولا توجد قوة مهما كانت غاشمة تمنع انبثاقها واستمرارها، نعم يا عزيزتي أجاثا الصحراء والرمال يمكن أن تعلمنا أكثر من الكتب، أنصحك أن ترفعي رأسك عن الكتب والأوراق وتأتي معنا لتقربي كتاب الصحراء! في جوف هذه الصحراء انهار ماء

عذب، وأديمها يتشقق من العطش، دليلنا ابن غبيشة يتلو شعرا
عن جمل يموت من الظمأ بينما على ظهره قرب الماء، كمثل
للعاشق الذي حبيبته قبالتة ولا طريق له إليها، (نسي ماكس
تحامله على تيسجر بل كاد ينسى أن أجاثا في وضع مجهول
وهو يسرح في الصحراء!) لست نادما إنني نثرت سنوات من
عمرى كما العشب الجاف في الصحراء، تنازلت عن أيام كان
يمكن أن تكون مفعمة بمتع ومباهج المدن لأملأ روعي بنور
الصحارى، وعبق زهورها الياينة والجافة، ورائحة البشر
حولها ما زالوا فيها على فطرتهم الأولى! كنت أسير على رمال
البوادي حافيا لأحس بها تحملني مثل أم حنون، أرى قرص
الشمس ينزل إلى الكثبان ويتوارى تاركا خلفه أعماقي وقد
تأججت بوهج حنين إلى السماء! أسير والقمر يداعب شعري
بنور رقيق وحين تحل العتمة ثم الظلام أغيب لأبعث من جديد
مع الفجر! فأتنفس الهواء النقي يدخل رئة إنسان لأول مرة! كان
غذاؤنا التمر واللبن المجفف، نحفظه لأشهر على ظهور الجمال،
ثمرة واحدة نقطع بها أميالا في الصحراء، يا عزيزتي أجاثا:
الصحراء هي الحرية، هي الصراحة المطلقة، هي الأمل في
أقصى حالات يأسه ينهض من الجذب، قد لا تكون الصحراء
مريحة زاخرة بنعم وخيرات المدن لكنها سخية في التعويض،
تمنح العدل والأمل من الرمل، والبساطة من الجبروت، رأيت
العبودية وضيق الأفق تتفتت في الصحراء، حتى المرأة التي
ترسف في قيود كثيرة في الشرق وجدتها بين أهلها في
الصحراء تصير طليقة سيدة مثل فرس جامحة! لا أنسى
أعرابيا قابلته على مشارف الصحراء وجهه اعتصرته الرياح،
قال:

— لقد اختفت النار هنا منذ عهد بعيد، لا نار إلا نار
القرى، والضيافة والكرم، وما تراه اليوم ليس سوى حرائق

صغيرة، يشعلها صيادون ليشبوا عليها صيدهم من الطيور والغزلان! النار النظيفة الطاهرة فستختفي باختفائنا نحن بدو الصحراء! لم أحق بوجهه الغريب وحسب، بل رحت أحق بوجه أدلائي أبناء هذه الصحراء كانوا ينظرون إليه حزاني، وقد أوشك بعضهم على البكاء!

كيف ينعثون هذا الجزء من الأرض بالخالى وهو مزدحم بالنجوم والأقمار والواحات الغارقة الناهضة وبالأطراف والأحلام حتى أشباحه كانت أليفة غير خطيرة ولا مخيفة، هذه الرمال مهما طمرت من جذوع وهياكل فإنها لن تدفن ذكرياتي! كم تثيرني الرمال المتحركة في الصحراء وكم تخيفني، أعجبتني كلمة قالها رجل بدوي معنا: "إذا ذهب غريمك إلى الربع الخالي، لك أن تلاحقه، ولكن حذار من منازلته على الرمال المتحركة!" قال ماكس أنها حكمة جميلة حقا تنطبق على حالتي مع ثيسجر!

(14) ماذا، لو جذبت خطاك أسوار جنة عاد؟

كنا نسير ليلاً، قافلة من عشرة رجال، جمالنا تكاد تنوء بنا وما معنا من معدات، كنا في أواخر الربيع، نتحاشى المسير نهارة، لهيب الشمس الحارقة يجعل ذرات رمال السوافي بقوة حبات الرصاص المنطلقة من بندقية صيد نشيطة. مال القمر للاختفاء وثقل الظلام وغدا خيمة من قماش أسود أعمدتها رؤوسنا ودوابنا المنهكة، لكن جمالنا كانت تغذ السير كأن في داخلها خريطة دقيقة لمسالك ومغالق هذه البيداء العظيمة. فجأة نددت شهقة من رفيقي شهاب العز وهو رجل من ظفار، كان جملة يسير جنب جملي، فهو دليلنا ومستشار رحلتنا والمسئول عنا أمام شيوخ. في دبي وعمان والبحرين يمولون رحلتنا لكنه يقول: أنا مسئول أمام ضميري أولاً عنكم! وتلفت صوبه كان يصيح:

- أنظر! أنظر!

لم أتبين شيئاً حولنا خلل الظلام، لكنني أحسست بيده تشير أمامه، بل خيل لي إنني رأيت ومضة نور خاطفة على وجهه، كأنه غاب عني والقافلة، وعن نفسه، راح يصيح:

- عاد.. عاد، أرم ذات العماد!

كان قد أوقف جملة عن المسير، فجذبت جملي أيضاً وتوقفنا، توقفت القافلة كلها، صاح:

- انزلوا، انزلوا، لنجلس! ثم نرى كيف يكون مسيرنا!

لم يسعني سوى الامتثال لمشورة هذا الرجل التي هي بمثابة أوامر، إنه خبير بمسالك الصحراء، ملما بذاكرتها الرملية

المتحركة الزائغة، كل لحظة يقرأ الرياح بحثاً عن لحظة كينة أو هدوء، ومن الغريب أنه يجدها، وطويلة نسبياً ويجعلنا نجدها معه، أيام وساعات الماضي والحاضر عبارة عن عواصف تلعب لوحدها كما في بكارة الكون الأولى، له مع الصحراء، وجبال ظفار رحلة العمر كله، وحيث أن الربع الخالي امتداد لا نهائي لا يجرأ أحد على الغور فيه إلا لمسافة محدودة؛ فإنه يمضي بعيداً يجوبها هادئاً مطمئناً مع جماعة، أو لوحده يستتره لثامه ورموش عينيه التي بدأت تشيب. حافظاً تضاريسها عن ظهر قلب. قال لي:

- صرت أسير في هذه الصحراء كأنني أسير داخل قلبي!
سألته مندهشاً:

- وهل يمكن للمرء أن يسير داخل قلبه؟

- نعم حين ترضى بدنياك، تألفها وتحبها، تصير هي في قلبك، وحيثما سرت فيها تكون في قلبك!

عجبت لهذا الرجل الأسمر الرشيق، النحيف الجسد ذي العينين النسريتين كيف يجد رضاه وقناعته في تلال، ووديان من الرمال الجافة، فيجعلها قلبه وضميره! نزلنا بهدوء، أوقدنا النار وسخنا ما لدينا من ذخيرة القهوة المعجونة، بعد أن أضفنا إليها القليل من الماء، وأخرجنا كسر الخبز، وقليلاً من التمر، وجلسنا نقضم ونحتسي القهوة بفناجين صغيرة، وقد خيم علينا صمت ووجوم، كنت أنتظر من دليلنا شهاب العز أن يتحدث ويقول لماذا هذا التوقف، ما الذي حدث وما هي معنى صيحته: "أرم ذات العماد"، صرنا نحظى بلمحات من وجوه بعضنا على وهج النار والجمر من حطب الشجر الشوكي الصلب الذي نحمله معنا! شعرت أن رجالنا يعرفون ما حدث، لم أشعر أنهم ينتظرون توضيحاً، قال العز:

- أتعرف ماذا رأينا؟ إنه وهج قصور جنة عاد الذهبية؛
تومض لنا من تحت الرمال، تريد أن تغوينا لتبتلعنا! لو كنا سرنا
خطوات أخرى لانجذبت أرجل جمالنا إليها ولظلت تسير بسرعة
خارقة؛ حتى لا تترك لنا مجالا للنزول عنها، ثم تغور بنا في
مهاويها السحيقة، ومن ينزل إلى قاعها يختفي إلى الأبد، ولا
يظهر إلا يوم القيامة، وفي جهنم طبعاً!

بقيت أطلع إليه، لم أكن استغرب هكذا ضرب من الأساطير،
حين أتيت هنا كنت أعرف إنني سأغوص في رمال الأسطورة
والخرافة والأخيلة الشعبية العجيبة، فأذهان هؤلاء الناس خصة
ثرية بالأحلام، إذا لم يجدوا أسطورة؛ صنعوها! ما دامت أيديهم
مغلولة عن العمل والحركة وإنتاج المادة، هكذا كانت
انطباعاتي؛ لكنني أبدا ما كنت لأتصور إنني سأعثر في
الصحراء بواقعة كهذه! سكت، لكن شغفي ازداد؛ كنت بالصمت
أحثه على الكلام، كان قد قارب الستين، وجهه مليء بالغضون
الحادة، ظل يحتسي القهوة وينفث دخان سيجارته، موليا ظهره
عن وجهتنا التي رأي منها النور المتوهج! شعرته يتحاشى ذلك،
كما يتحاشى تغيير مسارنا الآن، لأمر لا أدركه! مال إلي دون
الآخرين:

- هذه بقايا جنة عاد، أرم ذات العماد، أسلافنا يقولون أن
الملك شداد بن عاد، هو من كان قبل ثلاثة آلاف عام؛ يحكم هذه
الأرض الشاسعة الممتدة من اليمن حتى أطراف الربع الخالي
شاملة عمان ودبي وجزءا كبيرا من نجد وشواطئ الخليج
العربي! وكان هو وقومه يعبدون الأوثان، فجاء إلى شداد رجل
من قومه يدعى هود حاملا رسالة من الله! نصحه أن يؤمن بالله
الواحد الأحد، وكيف عن عبادة الأصنام، ويقيم العدل بين الناس،
لكي يرضى الله عنه، ويهبه وقومه جنته العظيمة! ضحك الملك
الجبار المتعجرف من النبي، قائلا! أي سخف هذا؟ كيف أو من

بما لا أراه؟ رد هود: إذا آمنت به ستراه! سأل شداد: وإذا لم آمن به، ولم أطعه، ماذا سيحدث؟ أجابه هود: سيكون مصيرك جحيم فظيع لا أتمناه لك، ولا لقومي أبدا! سخر الملك منه، ما هذا الهراء؟ وهم بطرده ولكنه تريت قليلاً، وأخذ للصمت! هذا يعني أن كل ما لديه من نعيم وترف ونساء كثيرات وخيرات وفيرة، منح الفتات منها لرعاياه، ليست شيئاً أمام جنة الله! وإن هذه الدنيا الجميلة ستفني سريعاً، وسيهجع هو تحت التراب في موت طويل بانتظار حساب عسير، ما هذا؟ أهى مصيبة كبرى حقاً، أم مجرد هراء رجل يدعي النبوة؟ صاح بهود: "صف لي جنة إلهك!" فراح النبي هود يقول: هي جنة وارفة خضراء عرضها السماوات والأرض، قصورها من ذهب وفضة، تجري من تحتها الأنهار من عسل وخمر وماء عذب، جوارى حور عين وغللمان، لا عمل فيها ولا مرض ولا موت، الكل يجد طعاماً وشراباً مما تشتهي الأنفس، وتتمنى القلوب، والكل في فرح وسرور! فكر شداد إنه قد وجد الحل، فهو لو بنى جنة كجنة الله فإنه سيحظى على كل هذه النعم وأهمها إنه سوف لا يموت أبداً! ضحك من هود قائلاً: "سأبني مثلها، بل وأفضل منها" كان بوذي أن أقطع رأسك ولكن ليس قبل أن أريك جنتي وأجعلك تؤمن بها، وتقر أنها أفضل من جنة ربك، وتكون رسولي إلى الناس تدعوهم للسجود لي! وظل يهذي ويردد كالمعتوه: من أين جاء الله هذا لينافسني؟ سأسحب البساط من تحت قدميه!

هكذا مضى شداد في طغيانه وفجوره، واسمع يا مستر ولفريد بقية الحكاية! نهض شهاب العز وملاً دلة القهوة ووضعها على النار وعاد يتحدث:

أمر شداد كاهن أوثانه أن يدون أوصاف الجنة، وضعها أمامه، وأوكل لألف من أمرائه، أن يتولوا بناءها، وضع تحت إمرة كل واحد منهم مائة ألف رجل! أمرهم بأن يشيدوا قصور

جنته كلها من ذهب وفضة وأحجار كريمة! فانطلق ولادة مملكته الواسعة يسوقون الناس يحفرون ليل نهار في المناجم يستخرجون الذهب ويسبكونه على هيئة صفائح للبناء. انطلق الغواصون يحرثون بحار المملكة جامعين اللؤلؤ والمرجان، وجدوا إن هذا لا يكفي فأمر جباته بالانتشار في أرجاء المملكة يفتشون في خزائن البيوت ونحور النساء وأصابعهن، وأسنانهن عن الذهب والفضة والياقوت والزبرجد! وثمة صيحة تلاحقهم: اجلبوا الجواهر حتى ولو من جلود الناس، ومن النطف في الأرحام! صاروا يركضون حتى خلف ذرق الطير معتقدين أنها ذهب يتساقط عليهم من السماء! صنعوا جبالا هائلة من صفائح ولبنات البناء من الذهب مزينة باللؤلؤ والأحجار الكريمة! استغرق جمع كل ذلك عشرة أعوام، واستغرق بناء الجنة ثلاثمائة سنة، وزادوا عليها ثلاثين من أجل التحسينات ومظاهر الزينة والبهرجة! نهضت قصور شامخة من الذهب والفضة؛ تقوم على أعمدة ضخمة عالية من ذهب مزينة بالزبرجد والياقوت، فهي تستنكف أن تلامس الأرض بل تتأطح السماء! فسموها لذلك أرم ذات العماد! كان في كل قصر ثلاث آلاف حجرة؛ تشع بقوة فلا تدري هل نور الشمس يأتي منها، أم من السماء! جعلوا أنهار العسل والخمر تجري من تحتها كما في جنة الله، وشذى المسك والزعفران يفوح من مائها وترابها! لكن شداد ابن عاد الذي امتد عمره طويلا أضاف لها نهرا من ماء خاص به ينبع من جبل عليه قصره القديم، مع نهر آخر من شرابه المفضل: عصير زهور الخشخاش مذابا بالزعفران والنارنج! أضاف إليها نهرا فارغا، مجرد واد خاو، وضع على ضفتيه كلمات تقول: إملأوه بما تشاءون! ويقول الرواة أن هذا يعني: أيها الناس انظروا جنتي، إذا رفضتموها أرسلت فيه دماءكم تجري دافقة، وإذا قبلتموها أرسلت لكم فيه بعضا من نهري، عصير الخشخاش والزعفران! ملأ ضفاف أنهار الجنة

وحدائقها بآلاف من حوريات حسان عين وغلما ن مخلصين لكنه قال : فتيات وغلما ن وخمور ، هذا لوحده يبعث على السأم والكآبة ، أضيفوا لهم مغنين وموسيقيين وشعراء ورجالا ونساء مسنين يروون لهم الحكايات المسلية ، ومهرجين يقومون بإضحاكهم ، بذلك يمكن احتمال الجنة ، فهي كما تعرفون المكان الوحيد الذي لا يعمل فيه الناس ، ولا ينتظرون فيه شيئا آخر! كان مندفعاً في سباق مع الله يريد الفوز عليه ، رغم إنه كان يقول إنه لا يؤمن بوجوده . جعل قصره في جنته يعلوا شامخا فوق قصور مئات آلاف القصور العالية والشرفات الواسعة تحيطه مع القصور الأخرى حدائق غناء واسعة بأشجار باسقة ، وحيث إنه أراد جنته قطعة من البقاء الأزلي والخلود؛ أمر بإزالة ما بنى المهندسون لها من أسوار منيعة وأبراج حراسة ، كان قد وقف عليها حراس غلاظ مدججون بالسيف القاطعة ، والسهام المسمومة قائلا: جنة شداد ابن عاد قوية منيعة باسم ملكها وسيفه وروحه الأبدية! لكنه أمر أن توضع حولها أبواب رمزية كبيرة شاهقة من ذهب ونحاس لتصون هيبتها وحرمتها التي لا يمكن التنازل عنها في أي حال من الأحوال ، ولتلمع أكثر في الشمس ، مغيبة كل أبواب جنة الله في السماء! أشاعوا أن الطيور والأسماك التي ترد من بقاع العالم ما أن تدخل هواءها أو ماءها حتى تتحول إلى طيور من الذهب والفضة وتستطيع أن تتكلم وتغني كالشجر تماما! وإن فاكهة الشجر وثمارها من ذهب ولؤلؤ وياقوت ومرجان لكن في داخلها عصير الفاكهة الطبيعية وحلاوتها وعطرها! وإن زهورها تبعث أنغاما وتصدح بالأغاني ، لكي يصنعوا لها هبة جنة الله! جاء شداد ابن عاد ليفتحها رسميا ومعه آلاف من عائلته وحاشيته وضباطه وأعوانه ، ومعهم ألف ألف جارية حسناء عليهن ثياب من الحرير والياقوت ، هن عشيقاته الجميلات ، يفض بكاره ألف منهن كل ليلة! هكذا قالوا ، كان في

الطريق لا يفتأ يصيح بأعوانه هاتوا هود لأجعله يقر أن جنتي أفضل من جنة ربه، فيسجد لها ولي! لكن هود كان قد هجر البلاد، وراح يطوف العالم شريداً، كما حدث لجده إبراهيم الخليل، وللمصلحين عادة! وهنا يا ولفريد تختلف الحكاية، فمن قائل أن شداد حين اقترب من جنته لاحت له ظبية فاتنة فقرر صيدها بنفسه؛ فراح يطاردها مبتعداً عن جيشه، حتى هوى إلى واد عميق انهال عليه ترابه فحاول أن يستجدي ملك الموت أن يمهله؛ ولا يقبض روحه حتى يرى جنته ولكن هيهات، ترك ملاك الموت بأمر الله التراب يطمره مع جنته! ولكن كيف لملك عات انفق كل هذا الجهد والذهب على جنته ثم يعافه من أجل غزاة؟ هذا غير معقول! هكذا قال شهاب العز، وكأن كل ما رواه سابقاً كان معقولاً، رغم معرفتي بطبيعة حكايته، لكنني كنت مستمتعا بها:

- ولكنني أومن طبعا برواية جاء ذكرها في القرآن الكريم، تقول (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات) وهكذا ظل عقاب الله العادل يرمم شداد وأعوانه الضالين وجنتهم المارقة سبع ليال وثمانية أيام! كل شيء لهذا الملك الضال صار ركاما بلمح البصر! صمت برهة، طلب أن تملأ الفناجين بالقهوة المرة الفواحة الموقظة، وعاد للكلام: ربما يا ولفريد يدور في خلدك الآن كيف بني شداد جنته في صحراء كهذه؟ لا لقد كانت هذه الأرض جنات لوحدها لما تجري فيها من جداول وينابيع وما تزخر به من غابات وبساتين، لم يكن البحر بعيداً عنها كثيراً، وكانت زاخرة بالخيرات والطيبات ولكن غضبة الله عليها أحالتها إلى ما تراه الآن من رمل ويباب وهوام، وريح لافحة، وعلى كل حال، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواء. فجأة نهض العز للصلاة هو ومن معه! وبقيت جالسا أرقبهم وقد غمرني خشوعهم. شعرت أن الصحراء كلها يمكن

أن تصير في لحظة محراباً للروح، وإن أشواق الإنسان الحارة العميقة يصعب حصرها أو وضعها في طريق واحد. بعد أن انتهى قال لي: لقد دعوت لك معنا بالخير. والآن هيا! ركبنا جمالنا، وانعطفنا إلى طريق دار به بعيداً عن جنة عاد، فوجئت به يلتفت نحوي ويعود يحدثني بحكايته التي ظننتها قد انتهت ولا أدري هل زادتني جهلاً أم معرفة قال:

- أتعرف يا ولعريد أن هذه الجنة الهائلة العظيمة فعلاً بعد أن اكتملت لم يدخلها أحد قط سوى رجل واحد، وصلها مصادفة، كان يبحث عن ناقته الضائعة، وحين وجد نفسه في داخلها ظن نفسه إنه قد مات وبعث في جنة الله! لم يمكث فيها سوى أياماً قليلة أصابه السأم من هذه الجنة الذهبية، ويقال إنه هو الذي قال كلاماً صار مثلاً: جنة دون ناس لا تجاس! حانت مني التفاتة جانباً حيث تركنا موضع جنة عاد، ويا لدهشتي يا أجاثاً لقد رأيت وهجا من نور برتقالي، كأن قنابل كبيرة تتفجر هناك، أو قباب من ذهب تحت الشمس، وكنا نلج الفجر! في رحلاتي الطويلة في الربع الخالي، وفي مدن الخليج العربي رأيت أن هذه الجنة تنتقل في مخيلتهم بين اليمن أو عمان أو البحرين، أو دبي أو مدن نجد ومهما اختلفوا في تفاصيلها يتفقون في القول: يراها المقبل إليها من بعيد، تشع قصورها وأعمدتها، بنور يعشي البصر، ويلهب القلب، فيسعى نحوها مسحوراً آملاً أن يجد بابها الذهبي لكنه إذا اقترب منها لن يجده فتذروه الريح على كثرانها العالية! لذلك هي تخيف الناس بقدر ما تجذبهم! وكنت أقول في نفسي هم لا يعدون الحقيقة، في أعماق كل واحد منا توجد جنة كهذه، تجذبهم ليركض نحوها، ثم في النهاية ليس سوى الرمال تذروها رياح الزمن هنا وهناك! انبعث صوت دليلنا بغناء أسى وفقدان، ازداد صوته الجميل حزناً، كأنه يتحسر على الجنة الضائعة! ماذا لو اجتذبت

خطاك جنة عاد يا عزيزتي أجاثا؟ هل ستكتبين رواية عنها؟ عن
جنة هائمة في قلوب البشر، فقط أتمنى عليك أن لا يكون
عنوانها "جريمة في جنة عاد"!

(15) في معترك السياسة يصعب أن تلتقي الحقيقة بالعدالة!

عقد العطية مدير التحريات الجنائية، ومعاونوه اجتماعهم الصباحي في حجرة المقاعد الجلدية السود كعادتهم، لم تسفر تحرياتهم عن أي شيء يتعلق باختفاء أجاثا أو ينهي الغموض الذي يكتنفه، ويرضي رئيس الوزراء والبلاط، وقبلهم السفير البريطاني. وها قد مرت أربعة أيام على ذلك ثقيلة مريرة، سيفقدون مناصبهم، وربما يسجنون لتقصيرهم، إرضاء لبريطانيا التي فقدت مواطنة مهمة، وفي بلاد وهبتها دولة حديثة، وسنت لها دستورا، وسكة للحديد، وفتحت فيها المدارس والمعاهد، وأدخلتها العالم الجديد. كما يقول الإنجليز دائما، الجثة التي عثروا عليها ملقاة بين أدغال قصب كثيف في شاطئ جزيرة أم الخنازير، وظنوا أنها لأجاثا كريستي، وجدوها لفتاة شابة جميلة طويلة شقراء كأجاثا، عانس دون الأربعين قتلت كما قيل غسلا للعار؛ إذ جلبها قواد لمجموعة من الشبان السكارى في الجزيرة، وفي مصادفة مجنونة كان شقيقها الذي يصغرها بأعوام بينهم؛ فانتضى خنجره وغرسه في صدرها. في هذا الاجتماع لم يحضر ممثل وزارة العدل. علموا إنه تعرض لمرض مفاجئ، وسيرسل محله المحقق خالد سامر، أحدهم وكان يعرفه قال إنه يمتاز " بجدية وكفاءة عالية" تلقى خالد التكليف بسرور وابتسامة حزينة، كان متألما لما تعرضت له أجاثا، من الصعب أن يشرح لرئيسه أو أي من زملائه، مشاعره الخاصة، وعلاقته القديمة بأجاثا وزوجها. كانت له معها ذكريات الصبا المفعم بالأحلام، المتطلع لآفاق العالم القادمة من بعيد، كيف يفهم الموظفون الكبار هذا النوع من الذكريات؟

كان ذلك قبل أكثر من خمسة عشر عاما، كان صبيًا في الثالثة عشرة حين جاءت أجاثا وزوجها سائحين إلى مدينته أيس في أعالي الفرات، حيث ولد وترعرع ونشأ فقيرا معدماً منطلقا بين شواطئها وبساتينها وجزرها وحواريها القديمة. كانا مع الكثير من السياح الأجانب قد اعتادوا القدوم في الشتاء والربيع لمشاهدة دوالي النواعير، وبساتين النخيل الوارفة، والتجوال بين معالم وأطلال هذه المدينة التي على ما يبدو لديهم معلومات غزيرة عنها، كانوا يسيرون ضاحكين في طرقاتها الضيقة المتربة الملتوية وفي أيديهم كاميرات وكتيبات صغيرة. كان أهاليها يحذروننا منهم قائلين: إنهم كفار، مالهم حرام علينا، يأكلون لحم الخنزير، طعامهم مسموم، وإنهم يضربون بحضور الناس ولا يستحون، رائحتهم قد تسبب لنا الجنون! لكننا ما أن خرج إلى الطرقات ونراهم حتى ننسى تحذيرات الأهل ونقترب منهم مبهورين مستطلعين، نلاحقهم متضاحكين مندهشين لمرأى نساءهم اللواتي يتبخرن بشعورهن المصقفة بأشكال غريبة كالتيجان، كاشفات عن صدورهن، بفساتين ملونة خفيفة مكشكشة، وسراويل قصيرة تظهر أفخاذهن الشقر أو المنمشة. كنت نتقافز أمامهم كالغزلان نريد مساعدتهم وخدمتهم دون أن يخطر في بالنا أن نأخذ منهم لقاء ذلك نقودا أو أي شيء، لكنهم إذا أعطونا الحلوى أو القطع النقدية الصغيرة، أو العلك نتناولها منهم بلهفة يسبقها لعبنا وضحكنا. نجرب معهم ما تعلمناه للتو في المدرسة من كلمات إنجليزية قليلة، نقودهم ليقفوا قبالة الجزر الصغيرة المتناثرة في النهر وبقايا طواحين الماء أو العيون الكبرى تنشل مياهها المختلطة بالغاز، يلتقطون الصور، أحيانا يسلموننا كاميراتهم، ويعلموننا كيف نضغط على أزرارها ونلتقط صوراً لهم. وعند رحيلهم يأخذون عناويننا يعدوننا أنهم سيرسلوا صورنا حين يعودون لبلدانهم، قلة كانوا يفون ويصدقون، فأرسلوا لنا صورنا مع كارتات بريدية عن مدنها

وحدائقهم وقصورهم؛ من بين الذين أرسلوا لنا الصور أجاثا كريستي وزوجها ماكس، بذلك تعرفت عليهما، تبادلت معهما بضعة رسائل؛ تعثرت رسائلهما ثم انقطعت، في آخر رسائلهما قالاً أنهما كثيرا التنقل، ولا عنوان ثابت لهما؛ ما جعلني أوقف رسائلي، لكنني بقيت أتذكرهما، وأشعر نحوهما بامتنان. إذ جعلتني مراسلتهم، ولو لفترة قصيرة، ورغبتني في قراءة كل روايات أجاثا؛ متلهفاً لتعلم الإنجليزية، لم تكفني الرزمة الصغيرة التي أرسلتها لي من رواياتها، فرحت أبحث في بغداد عن رواياتها، بطبعاتها الإنجليزية والعربية، واقضي الساعات الطويلة أتعلم قراءتها بالإنجليزية. روايات أجاثا جعلتني أتجه إلى كلية الحقوق، وجعلتني أهتم بالتحقيق الجنائي، وأختص به. نشأ خالد يتيماً معوزاً، والدته التي تكد وتكدح بأعمال الخياطة و الخصف مكنته من إكمال دراسته، لم ترض له أن يتوقف عن الدراسة لأعالتها وأخته الصغيرة، ما كانوا ليقبلوه في كلية الحقوق، فهذه الكلية يقتصر الدراسة فيها على أبناء الأغنياء وكبار رجال الحكم ومن يسمونهم بالذوات، لكن درجاته العالية، وإصراره؛ جعلهم يقبلونه، فمضى في دراسته متفوقاً دائماً، الفضل لأمه ولأجاثا معاً، تلك حقيقة، لا يدري الآن كيف يشرحها لأجاثا لو لقيها، أو لأمه التي رحلت عن الدنيا بعد تخرجه بسنة واحدة. أن الأوان لأرد لها الفضل، وهل هناك لحظة تحتاجني فيها أهم من هذه اللحظة؟ مضى خالد على عجل إلى دائرة التحريات، وأدخل على الفور مكتب المدير العام، كان العطية بقامته الرشيق النحيلة، تلتمع جمرة سيجارته على وجهه الأسمر النحيل، يجول وسط المكتب وقد أنهكته قضية أجاثا واستعصت عليه، وهو المعروف بكسر الأبواب لا فتحها بالمفاتيح، حسب مقولته، صافحه بهدوء اقرب للبرود كعادته مع من يقودهم، شرح له ما تحقق في هذه القضية، كان خالد يصغي باهتمام، ورغم إدراكه أنه يمثل القضاء وعليه أن

يحافظ على استقلاله لكنه بتهذيبه قال:

- سأضيف جهدي في التحقيق القضائي إلى جهود زملائي ،
أرجو أن تسمح لي بالتحرك الحر! العطية كعادته لا يقبل بأن
تمس هيبه سلطته:

- اعلمني بما تتوصل إليه، ولا تتخذ أي إجراء أساسي دون
علمي!

- طبعاً.. طبعاً

قال خالد، وقد أزمع في نفسه أن يتحرك بكل الحرية
الداخلية المتاحة من القضاء ، وإلى خبرة روحية عميقة اكتسبها
من روايات أجاثا، وزخم الذكريات التي عاشها معها وزوجها
في صباه الطليق في أيس! هو مقتنع تماما أنها بريئة من كل ما
راحت بعض الصحف تكيله لها ولزوجها من اتهامات قاسية.
وهو واثق من ضميره لن يخالف القانون! درس بتأن إجراءات
التحريات الجنائية، وجدها غير مقنعة، ود لو يقول للعطية "
تسييسكم القضية حرف اتجاهها بعيدا عن الحقيقة!" بل ود أن
يقول له تلك العبارة التي ظلت عالقة في ذهنه من أيام
محاضرات القانون الأساسي في الكلية" في معترك السياسة
يصعب أن تلتقي الحقيقة بالعدالة!" هذا صعب فالعطية معروف
باعتداده وشراسته، ورغم قربيه من مرؤوسيه، لكنه لا يتوانى
عن زجرهم وإسكاتهم إذا طرحوا ما يراه مخالفا لطريقة عمله!
ورغم قناعة خالد العميقة أن القضاء يجب أن يكون مستقلاً عن
السلطة التنفيذية، وإنه هنا بشكل عام كذلك، لكن ثمة خروقات
كثيرة تقع كل يوم، وكان دائماً يحذر ويرتاب من هكذا لجان
مكونة من الشرطة والقضاة، ويراها طريقة ناعمة خبيثة لتداخل
السلطة التنفيذية بالسلطة القضائية، وكثيرا ما يكون كعب
الشرطي، أعلى من كعب كتاب القانون، لذلك اختار أضمن
الطرق وأسهلها وأكثرها أملاً أن تثمر . طلب من العطية أن

يسمح له بمقابلة ماكس كمحقق منفرد، تماما كذلك المفتش البارع الذي يظهر فجأة في روايات أجاثا، هم أن يقول إنه يعرفه جيدا، بل ثمة علاقة صداقة خاصة بينهما، ولكن هذا سيبدو مضحكا لهذا المدير الكبير، المتقيد بالشكليات والجو الرسمي للعمل. اختار ما أعتقد أنها أكثر العبارات إقناعا:

- الحديث الشخصي الحميم قد يوصلنا إلى معاناة أجاثا الداخلية أيضا، هي مسألة ساعات لا أكثر. نظر العطية إليه كأنه يقيسه من فوق إلى تحت:

- تصرف! فالتقرير الذي جاءني عنك جيد جدا! وكرر عليه عبارته " لا تتخذ إجراءً مهما دون علمنا"

بالتأكيد قالها بهدوء مضمرا تفسيرها بكل المرونة الممكنة!

خرج مسرعا إلى الهواء الطلق في شرفة الحجرة التي خصصت له ، والمطلّة على شارع الرشيد وحركة الناس والسيارات ذاهبة آيبة فيه، ثمة بناءون قبالة يعلون طوابق في عمارة قيل أنها ستكون معهدا للفنون الجميلة، مع سينما حديثة!

(16) كيف نقفز من كيس الزمن، مثل سمكة من شبك الصياد؟

لا أنكر إنني جئت العراق فخورا منتشيا ، وربما مغرورا ، بنجاح مغامرتي في الربع الخالي! كنت أفكر أن أنطلق منه في رحلة استكشافية في بادية الشام، كنت أعرف إنها تعج بقطاع الطرق واللصوص والقتلة والمهربين، كما هي أهلة بالبدو الرحل، خطر لي أن أتحقق من أصل جماعة تعيش هناك يسمونهم " الصلبة " ويقال أنهم أحفاد جنود ومقاتلين جاءوا من أوربا في الحروب الصليبية وبقوا في هذه الأرض بين أسرى أو مختبئين تائهين ،هم شقر طوال بعيون خضر وشعر ذهبي، على وجوههم حزن عميق يعيشون على هامش القبائل، ينزلون إلى المدن القريبة يعتاشون على مداواة الناس بالأعشاب وتجبير العظام بطرقهم المتوارثة الناجعة، قد يكون أسلافهم أطباء أوريبيون صليبيون والناس في المدن يكرمونهم بعيدا عن أحقاد الماضي. لم أفكر بهم لدافع عرقي كما قد يظن البعض بل لأنني دائما يجتذبني المهمشون والمذلون والمنسيون فأهتم بهم، رغم أن وجهتي الأساسية هي دراسة هذه الصحراء فما خرجت من صحراء حتى وقعت بحب صحراء أخرى! البعض يقول إن هذا الولع الصحراوي القاسي هو انعكاس لجفاف أعماقي وظمأها لحب عظيم، ربما هذا صحيح فالحب الجميل هو الماء الذي يجعل الصحراء الشاسعة في أعماق الإنسان جنة خضراء زاهية والعكس صحيح أي إن التصحر الروحي هو فقدان الحب! أحيانا لا أرى فرقا بين وجه المرأة الجميلة الطيبة وصفحة السماء صباحاً، لكنني دائما أهرب من وجه المرأة إلى وجه السماء في الصحراء ربما خوفا من الخديعة والخيبة وذل الفشل،

رغم الفرص الكثيرة التي حفلت بها حياتي في إنجلترا أو أوربا؛ بقيت أطلع أو أبحث أحيانا عن المرأة المنشودة في خيالي ولم أقرب كثيرا من امرأة حقيقية ، لذلك لم أجدها أو هي لم تجدني، ومع ذلك بقيت أنتظر وأتخيل أن ثمة امرأة رائعة في عالم مجهول تبحث عني ولا تستطيع الوصول إلي! تصوري يا أجاثا لعبتي المضحكة، رغم كل واقعتي وصبري على مصاعب الواقع واختراقي لتحدياته لكنني، ابتليت باشتراطات صعبة في المرأة ، لست واقعا معها كأني لا أريد الإقرار أننا كائنات أرضية لا سماوية نحمل نفس أخطاء الحياة: عيوبها وأوجاعها، ونقصها الأبدى (ما مصيبة الموت هذه؟) ومع ذلك بقيت اطمح لامرأة تملأ عقلي وروحي وخيالي مثلما تملأ جسدي، وحيث إنني لم أجدها لا في لندن ولا في مدن أفريقية أو آسيوية حللت بها لذا قلت في نفسي لألقي روحي ومشاعري كلها في المغامرة والمجهول والخطر والأحلام المتجمعة كلها كالذئب والأزهار في الصحراء، أرى فيها حزني وعطشي ورحابة أملى في هذه الدنيا القصيرة المدى ريثما تجدني تلك المرأة التي لا أدري الآن في أية أرض هي تبحث عني؟(ستقولين يا عزيزتي أجاثا :أنت فطيع في نرجسيتك) ! أجريت اتصالاتي بشيوخ في السعودية والخليج وشمال العراق، من اجل مغامرتي في البادية فلقيت منهم استجابة وكرما واستعدادا للعطاء دون شروط فقد عرفوني وتوثقوا من صدقي وجديتي وزهدي حيث طلباتي المادية كانت قليلة جدا، وطمعت فقط بحمايتهم وقدراتهم الإنسانية أو العشائرية في تسهيل تنقلاتي وضمان سلامتي! ثم فجأة حدث لي ذلك الشيء الغريب فغير مشروعي وربما حياتي كلها! كنت جالسا عصرا في مقهى شعبي بسيط في بغداد، أحتسي الشاي الثقيل من استكان مذهب الفوهة، وأتطلع إلى زحمة الناس الفقراء وحركتهم وكدهم على الأرصفة، حانت مني نظرة إلى صدر المقهى

فوقع نظري عليها، وجه فتاة حسناء لم أر مثيلا له من قبل، بقيت ذاهلا أتأمله، وجه فاتن لا أستطيع وصفه سوى بحلم هائل أدخلني جنته، كل الصحارى تلاشت أخذني تورده الخدين، ونعاس العينين المكحلتين والصدر الناهد تحت أزهار الثوب المزركش، وجددتني أهمس لنفسي: "هذه هي الفتاة التي أبحث عنها، وقد رست اليوم بصورتها من وراء جدار الغيب! والغريب استقر في نفسي أنها هنا تبحث عني!" هل هذا معقول أن تلك المرأة التي انتظرتها طويلا، وتصورت إنني لن أجدها سوى في لندن أو باريس تأتيني الآن إلى هنا في منطقة علاوي الحلة في بغداد، أهكذا تلعب بنا أقدار الحب؟ اغتتمت أن صاحب المقهى يتقدم مني، كأنه كان يرقبني، سألته، مشيرا إليها:

- من هذه؟

أطلق ضحكة قصيرة:

- أنت أيضا؟؟ إنها بنت المعيدي!

- ماذا تقصد أنت أيضا؟

- كلهم هنا يعشقونها، فهي معبودة الرجال، وعدوة النساء، منافسة كل امرأة! كل رجل رآها وقع في حبها، وكل امرأة سمعت بخبرها؛ اعتبرتها ضرة لها!

ورحت أكرر القول في نفسي "هذه الفتاة هي من كنت أبحث عنها، ومن كانت تبحث عني" نعم يا أجاثا حلم شرقي هائل أخذ قلبي. وراح يسوقني وكأني حصان تحته، أمسك بزمامي وانتهى الأمر! رأيت وبأم عيني تلك الفتاة تتقدم مني، توقفتني وسط المسافة بيننا، وتقول:

- كفاك هربا مني، أنت هنا معي منذ زمن طويل!

- ولكنني رجل غريب أتيت توا من جزر بعيدة، يسمونها الجزر البريطانية!

- وأنا عيناى تجتذبان السفن القادمة من الجزر البعيدة، ألم تشعر بشعاع متقد يداعب قلبك من بعيد، فتبعته إلى هنا؟

قالتها بغنج ضاحكة بينما جسدها الأشقر يكاد يميل لحضني، ونظرت في عينيها الواسعتين العميقين، كانت فيهما حزم من الضوء والعتمة مجدولتين بقوة، وبما يكفي لجذب السفن من أعماق البحار، بل لجذب الجزر البريطانية نفسها من بحارها إلى هذه البقعة الشعبية البسيطة الرثة الفقيرة من بغداد! في تلك اللحظة ألغيت رحلتي إلى بادية الشام وقررت البقاء في بغداد أبحث عنها. تعمدت إسكات عقلي الذي قال هي مجرد صورة ربما رسمها مستشرق من أوهامه وصبواته، ابق على عهدك للصحراء فهي الحقيقة وما هذه الصورة إلا تذكرة رحلة فناء في عيني فتاة جميلة لا وجود لها! بقيت منكفئا في المقهى لا أجزأ على النظر إلى الصورة أحسست إن الفتاة التي نزلت من الجدار لملاقاتي قد دخلت قلبي ولم تعد إلى الجدار! ثمة صوت في أعماقي: ابدأ من هنا، أبحث عنها، هي فتاة أحلامك ها أنت قد تجاوزت الأربعين من العمر وماذا تنتظر؟ ومن تفتحه الفرصة في هذا العمر ستتلقفه الشيخوخة في أحضانها الباردة لتسلمه إلى القبر، ولا شي آخر. سارع فهي تنتظرك منذ عهد بعيد لا تخيب رجاءها ولا تحبط أملها! حدق في عينيها ستجد صورتك هناك خلف رموشها الطويلة الجميلة! جاءني صاحب المقهى يعرف إنني انجليزي، ويطيب له الحديث معي ثم في كل مرة يقول مندهشا "عجيب أنت تتكلم عربي أحسن من أهل بغداد، أين تعلمت العربية؟" وأقول له "في دمشق" فيهز رأسه مبتسما، قائلا "ماشاء الله، ماشاء الله":

- هل هذه المرة الأولى ترى صورتها؟

- نعم

- صورتها في كل مكان في المقاهي في المطاعم في الفنادق

في البيوت معلقة إلى جانب صور الملوك كيف لم ترها ؟
- كنت منشغلا بالإعداد لسفر طويل ،ربما مررت في أماكن
فيها صورتها ولم ألاحظها!

- هي من المعدان كانت تبيع الروبة على الرصيف ،رآها
صدفة ، ضابط انجليزي فوق في غرامها ، خطفها من زوجها،
وذهب بها إلى لندن!

بقيت أطلع إلى وجهه الأسمر، وذقنه النابتة بكثافة، فمه بلا
أسنان تقريبا، تنبعث منه رائحة تبغ الأرجيلة.
- أنت أنجليزي، ألم تسمع عنها في لندن؟
- لا أبدا.

- هي الآن في لندن يقولون،إنها صديقة الملكة اليزابيث! لم لا
تجعلونها ملكتكم؟ فهي أجمل من اليزابيث النحيفة كأنها طير
الماء! الله أعلم،شمدرينا أنتو الإنكليز كل شغلكم أسرار!
قلت في نفسي هكذا تصاغ الأسطورة الشعبية،لكنه زادني
فضولا،فجأة وكما تفجر نبع في أرض قاحلة وجدنتي أحب بنت
المعيدي!

يا أجاثا ، أتخيل الزمن وعلى ظهره كيس هائل،السماء
والأرض قماشته السمكة، يحمل فيه كل الناس، لا ينسى أحدا،
بل هو لا ينسى حيوانا ولا شجرة ولا ذرة غبار أو ماء لا تفلت
من فمه الكبير الشره؛ يحملنا نحن متاعه ومقتنياته المضحكة
بهدوء وصمت وخبث، ليمضي بنا مع خطوته الأسفنجية
الناعمة، يلقينا حسب مزاجه، هذا في المقابر؟ ذاك في الريح،
في البحار،في الصحارى. آخر في الذاكرة، في النسيان آخر في
الحب في الكراهية ، في المزابل؟ كيف نفلت من كيسه الطويل
العميق ، نقفز منه كسمكة من شبك الصياد؟ هل هذا مستحيل؟
لا مهرب لنا سوى أن نأوي إلى قلوبنا وضمائرنا، وماذا تكون

القلوب أو الضمائر غير الحب؟ هذه الومضة قدحت في ذهني حين كنت في صحراء الربع الخالي، وكنت قد نسيتها وتفجرت حين رأيت بنت المعيدي، لا مهرّب لي من الزمن سوى أن أحب أو أكون جديراً بمن أحب حتى إذا لم يحبني بذلك نستميل قلوبنا ونجعلها معنا لا ضدنا، بذلك ينسانا الزمن أو يتسامح معنا إذا قفزنا من الكيس الكبير الذي على ظهره، وحين يتلقفنا الزهر أو القبر بعد ذلك، لا نأسف على شيء، حيث لم نبق له شيئاً منا، تركنا كل شيء خلفنا لمن نحب أو لمن يحبنا!

تنفس ماكس بغضب، ماذا يريد ولفريد هذا الساحر الماكر أن يقول لأجاثا؟ لكنه هدأ قليلاً حين أخذ يقرأ:

أنا من دولة عظمى لكنني الآن شريد بإرادتي، نفيت نفسي إلى بلدان ضعيفة فقيرة، وعشت معهم على الكفاف، بإرادتي خرجت من حضارة أوربا، باحثاً عن روح غريبة أنا نفسي لا أعرفها تماماً ربما هي روح الصحراء، روح الماء، روح العالم، والآن استيقظت في روعي حاجتي لروح المرأة، أيقظتها عينا بنت المعدان، قد لا أجدها، لكن يكفي أنها جعلتني أعرف التوق للحب، هو الخطوة الأولى للحب وأحزانه الكثيرة!

(17) حكايات كثيرة عن مصير الحسنة ، لكن شبح الضابط الإنجليزي هناك دائماً!

قلت يجب أن أستقي معلومات عنها من مصدر موثوق، كنت أعرف صحفياً ظريفاً اسمه سليم البكري، يتكلم الإنجليزية بطلاقة، ويترجم منها وإليها بجزارة، يتردد على السفارة البريطانية؛ يزوده أحد أصدقائي ببعض الأخبار لتتفرد بنشرها صحيفة الأهالي التي يعمل بها، وقد تقرب إلى يريد مني أن أزوده بصفحات من رحلتي في الربع الخالي. كلمته تلفونيا من الفندق، وتواعدنا مساء في مقهى على شارع الرشيد، كنت مستعداً أن أقايسه بكل مذكراتي عن الربع الخالي مقابل بعض المعلومات عن بنت المعيدي! وجدته ينتظرني في المقهى. بعد أن عرف ما أريد، أطلق ضحكة قصيرة قائلاً:

- لم أكن أعلم أنك تعمل في المخابرات، وهذه المسكينة التي يقال إنها ضحيتكم صرتم لا تعرفونها، ما لذي ذكركم بها؟

كان من الطبيعي أن يقول ذلك فالأوضاع السياسية في العراق معقدة شائكة والصراع على النفط فيه، قد بلغ أوجه، والأرض كلها تكاد تشتعل به، ولا شيء يشغل الناس غير السياسة وتقلباتها، ومعظمها يصب في كره الإنجليز، والحكام الذين يعتبرونهم عملاءهم، كنت أريد أن أصارحه:

- إنها ليست قضية مخابرات، لا أخفي عليك، لقد رأيت صورتها في المقهى، وصرت أحبها بل مغرماً بها، وأريد معرفة أي شيء عنها!

لا ادري إن كان قد صدقني لكنه عاد يضحك:

- تحبها من صورة لها في المقهى؟ لم أكن أصدق ما يقال عن خفة عقول الإنجليز حتى رأيته! ومع ذلك لقد جئت متأخرا يا ثيسجر فهي حسب ما يحكى عنها، رحلت إلى بلادكم من سنوات طويلة، ولم تعد، هي منفية تعيش في ظل مغتصبها، قيل إن ضابطا انجليزيا أحبها فانتزعها من زوجها، أو والدها وأخذها إلى انجلترا!

هذا ما قاله لي صاحب المقهى، بقيت أطلع في وجهه، أنتظر المزيد:

- يا ثيسجر فهمت إنك تلقي نفسك في أحضان الصحارى بسرعة، كيف تلقي نفسك في أحضان النساء بسرعة أيضا؟ احذر! فالنساء هنا أخطر من الصحارى يبتلعن حياتك؛ ثم لا تجد في يدك سوى حفنة رمل!

توقعت تحذيره من العشق والعلاقات مع النساء في مجتمعهم المحافظ والمتزمت:

- أريد علاقة جدية معها، الاقتران بها شرعا كما تقولون!

هز رأسه صامتا، رفع وجهه نحوي وراح يتحدث جادا:

- لماذا تورط نفسك بمأزق كهذا؟ أتعرف من هي صاحبة هذه الصورة؟ آلاف الشبان والرجال يتطلعون مبهورين إلى وجهها الفاتن، كل يوم، في المقاهي والمطاعم والبيوت، يستلبهم جمالها العظيم لكن لا يتجرأون ولا يخطر ببالهم البحث عنها، يعرفون أنهم لن يجدوها، لقد أخذها الإنجليزي قبلهم، ويئسوا من إنقاذها أو استعادتها، كل ما يفعلونه، يخرجون صورها من تحت مخداتهم سرا، يتأملون وجهها الجميل وصدرها الناهد، وبعد أن ترهقهم حسراتهم، يستعيدونها شبقا، يغتصبونها، مستعينين بالصابون أو بلعابهم، حتى يقذفون أرواحهم في وجه السماء والقمر أو على أحذيتهم، لهذا ألصقوا صورها على جدران

المراحيض العامة؛ فحيلة العاجزين يجب أن تتوفر مجاناً للجميع! يا ثيسجر الرجال والنساء هنا في سجنين متباعدين، يتمنون لو يهدوا الجدران عليهم ليلتقوا تحتها، ولكن هيهات فالسجانون رجال دين وشرطة وكتب مقدسة، وآباء وأمهات يقفون على الأبواب والشبابيك، صور بنت المعيدي واحة خضراء في سجن الرجال!

وأنت جئت اليوم لتتزع هذه الواحة لك وحدك! عاد لصمت قريب من الوجوم ، قال فجأة :

- إذا صح أنها رحلت مع خاطفها إلى بلادكم، لم لا تذهب وتبحث عنها هناك؟

ويطلق ضحكة ناعمة:

- لماذا لا تدعني ابحث لك عن فتاة عراقية جميلة مسيحية مثلك، أو أخرى جميلة جداً تسلم من أجلها، تتزوجها هنا وتستريح، وتريحنا معك؟

- يا صديقي سليم، لا أدري ماذا حدث لي، أنا الآن متيم بهذه الفتاة، وأريد أن أعرفها!

- هذا هروب، فالبحث عن فتاة هي مجرد حلم في حلم، ووهم في وهم؛ يعني إنك لست جاداً، في الاقتران بفتاة حقيقية، ومع ذلك من قال أن الأحلام لا تستحق الركض وراءها!

ولأنني أعرف أنك مثقف رحالة وفيلسوف (تصوري! أغدق علي لقب فيلسوف) فأنا سأساعدك في ذلك، فإذا كنا نخشى الضباط وأسلحتهم، حتى لو كانوا عراقيين، فنحن لا نخشى، المثقفين حتى لو كانوا انجليزاً!

توقعت إنه سيطلب أجراً لقاء جهده واستشارته، كما في بلداننا، لكنه أصر أن لا يأخذ شيئاً، حتى مذكراتي لم يتطرق لها، لكنه طلب شيئاً آخر:

- فقط أرجو أن توصي صاحبك في السفارة أن لا يبخل علينا
بأخبار الإنجليز في بغداد، فأنتم اليوم تحكمون بلادنا من وراء
حكومة متمرسة، يتقدمها الداهية نوري السعيد، الذي لا يجعلنا
نعرف ماذا وراءه أو قدامه، أنيروا طريقنا أنار الله طريقكم!
ضحك حتى أخذته نوبة سعال:

- لكم النفط والويسكي والنساء، ولنا رجال السلطة و
الأحزاب الكثيية، والتقاتل والسجون، هذا هو قدرنا نحن
العراقيين والشرقيين! قل لصاحبك يعطينا الخبر اليقين، وأنا
سأؤسس لك معهد دراسات عن بنت المعيدي!
ضحكت وطمأنته، قلت له على طريقة البدو الذين عايشتهم
في الخليج العربي وبلهجتهم:
- "إبشر الخير قادم"

- ومع ذلك لا تتوقع إنك ستصل إلى بنت المعيدي، فقضيتها
غامضة، وغير مؤكدة، أخشى عليك من لوااعج الغرام على
أرضنا، فبقدر ما هي ساخنة، هي تحرق حتى عشاقها
ومحبيها، والأسوأ تجعلهم مجانيين هائمين على غير هدى!
- اطمئن، هي إحدى قرارات حياتي المجنونة، وهل يخاف
المجنون أن يجن من جديد؟

كانت ضحكاته تطمئنني، وهو يعيد القول :

- أنا لا أصدق حكاية خطفها من قبل الإنجليزي ، ربما الناس
يتحدثون عن بلدهم المستلب لا عنها هي حقاً، ثمة شيء صحيح
واحد فيها ، وهي أنها لا وجود لها في العراق ولا في أي مكان
آخر، ربما هي تهيؤات، أو هام مضطهدين، مظلومين، ومع ذلك
سأبحث معك عنها!

لا بد يا عزيزتي أجاتا أن تكون صورة بنت المعيدي، قد
طالعتك على صدر بهو أحد الفنادق، أو المطاعم والمقاهي التي

ارتدتها في بغداد والموصل وكركوك ومدن الجنوب، فصورها وهي حاسرة الرأس كاشفة عن شعر أسود كثيف ينسدل إلى ما تحت الكتفين، أو وهي معتمرة طربوشا تركيا نسائيا أنيقا، وابتسامتها الحزينة المضمرة على شفيتين كوردة لم تتفتح بعد، تمنح المكان جمالها ورقتها وبهاءها فيفيض ويمنح السكينة والرفقة والهدوء!

هي في ذروة جمال يتردد بين الريفى والمدينى، وكما اعرف أنت تحبين الجمال الريفى أو القروى، كم رأيت من الفتيات لم أتوقف عندهن، ولكي لا أبدو مستهينا بالمرأة الإنجليزية أو الأوربية أقول : هذه الفتاة أخذت من جمال الأوربيات الكثير، كما أخذت من ملامح الشرقيات وروحهن وغموضهن ما يكفي لإذابة القلوب. تستطيعين بنظرتك المرفهة أن تري ذلك الشعاع يعكس جمال الحقول والبراري الخضراء المتموجة بالزهر والندى والذي يمس القلب بلوعة شجية دافئة. لماذا هزت حياتي صورة؟ (هل هي صورة فقط؟ ومضة سماوية؟) حلم أذهلني عن نفسي وأهدافي ومشاريعي وجذبني إلى متاهات عالم بعيد مجهول، لم أعد أستطيع الفكك منه!

قلت لك يا أجاثا صباح هذا اليوم، إنني انغمست في حياة هؤلاء الناس الذين يسمونهم هنا بالمعدان، وهمت بابتنهم فاطمة (توقف ماكس متفكرا، هذا يعني أن وفريد كتب هذا الجزء من رسالته ليلاً في حجرته في بيتنا؟ بيت الأشباح، عندما كان ضيفنا، ماذا خامر قلبه من مشاعر؟)

(18) ترفع بريطانيا يدها عن العراق! تضع أمريكا يدها على العراق! خبر جديد؟ نبوءة ساحر؟ قنينة مخلات قديمة متعفنة؟ ولبنت المعيدي حالات وأطوار!

زرت صديقي كولن استيفنس حيث يعمل في سفارتنا في الصالحية ببغداد، هذا الرجل السمين المرح الذي تعرفينه وكيف هو كما قلت أنت لديه قدرة عجيبة على مجارات أصدقائه حتى لو انهمكوا بصيد البعوض، حجرته مطلة على حديقة وارفة تتكى على دجلة ، وجدته متفرغا للقائي، حدثته عن غرامي المفاجئ، وحاجتي إلى أخبار سياسية لتغذيته والوصول به إلى نهايته السعيدة، ضحك ،وراح يقهقه قائلا :

- أنا عادة كإنجليزي أصيل؛ لا اضحك على النكات إلا في اليوم التالي، ولكن نكتتك المثيرة هذه جعلتني اضحك على الفور، ومع ذلك سأزودك بكل الأخبار التي أتمنى أن لا توصلك إلى نهاية تعيسة، فحكايك مئة منذ البدء يا صديقي! أية أخبار يريدها صاحبك؟ سياسية عالمية؟ أم عامة تخص العراق فقط ؟

- لا أدري لا خبرة لي في هكذا أمور ، ما تستطيعه طبعاً!

- طبعاً هو يريدها تخص العراق، أخبار سياسية،مقابل أخبار غرامية،هي صفقة قديمة أزلية ولكنها ستحدث هنا بطريقة جديدة!لا يمكنني أن أفرط بأخبار قد تعد أمنية أو مخابراتية تخص بلدنا، ولكن استطيع أن أزودك بأخبار سياسية تبدو مخابراتية ، يهمسون بها في حفلات الكوكتيل في السفارات،وتتداولها صحف في لندن لكنهم هنا لا يقرأون ولا يعلمون بما يدور حولهم!

- أنت تعرف صاحبي سليم البكري يقرأ بالإنجليزية، ولكن معظم الصحف الإنجليزية تصل بغداد متأخرة أو لا تصله!

- استطيع أن أزودك بخبر قد يكون مثيرا للكثير من العراقيين، وهو أن الحكومة البريطانية بدأت تشعر أن مستعمرتها السابقة "أمريكا" التي كانت مجرد قطة صغيرة في قفصها، قد أضحت الآن نمره شرسة، حطمت القفص ومضت تفترس الطرائد، وهي الآن وبعد خروجها من الحرب العالمية الثانية منتصرة؛ أخذت تنافس بريطانيا على نفوذها في الشرق الأوسط، و بعد أن عرفت بوجود أكبر خزين للنفط في العالم تحت أرض العراق كما في السعودية أخذت تعمل على أزاحتنا منه وأخذ مكاننا فيه، بعض الصحف كتبت أنهم الآن يستغلون تذمر الناس من وقوف الإنجليز مع الصهاينة في فلسطين، وكره الناس لنا كمستعمرين فأخذوا يكونون خلايا لهم في الجيش العراقي للقيام بانقلاب، لعلك تعرف أن تاريخ الجيش هنا هو تاريخ الانقلابات ومحاولات تحطيم الدولة المدنية، وإقامة دكتاتورية عسكرية، كثير من الضباط هنا فارغوا الرؤوس ممتلئو الصدور والغدد بالأحلام والأوهام والطموحات الخاصة، والانقلابان السابقان قبل سنوات قليلة كانا بتمويل وضغط ألماني، والقادم سيكون أمريكي، ثمة ضباط كبار يطمحون للسلطة ولا يستبعد أن تستغلهم بوعيدهم أو دون وعيدهم ليقوموا بانقلاب! اعلم صاحبك إن بريطانيا تعرف بكل هذه المخططات والمشاريع وهي ترقب الوضع عن كثب، وقد اتخذت تدابيرها لذلك! هذا خبر هام تستطيع أن تعطيه لصاحبك بالتقسيط، تعلم! لا تعط الخبر السياسي الكبير والهام دفعة واحدة، احصل لقاء كل دفعة منه على كمية مناسبة من الأخبار العاطفية، وأجعل نهايته مقرونة بوصول معشوقتك إلى السرير، أو في الأقل تمنحك عددا من القبلات الساخنة! أنت خبير برمل

الصحراء، وتجهل رمال السياسة المتحركة، ورمال العواطف المتقلبة التي قتلت في العالم أكثر مما قتلت ثعابين وذئاب الصحارى!

خرجت منه منتشيا، تصوري يا أجاثا أنا الذي لم احلم يوما أن اهتم بالسياسة صرت شغوفا ومتطلعا لمعرفة شيء عن أسرار الصراع الأمريكي البريطاني على العراق، قائلا في نفسي من أجل عيني بنت المعيدي سأشتغل في السياسة، وأنظم لحزب، إذا اقتضى الأمر، تحدثت لسليم بالخبر كله دفعة واحدة، كنت أريد أخبار هامة عن معشوقتي المجهولة البعيدة، أريد أن أقربها مني بأسرع وقت. ضحك وظل يقهقه:

- ترفع بريطانيا يدها عن العراق! تضع أمريكا يدها على العراق! خبر جديد؟ نبوءة ساحر؟ قنينة مخللات قديمة متعفنة! هذا خبر عتيق يا صاحبي أعتكك من لنكاتكم، وكل الملابس المستعملة التي يتصدق بها الإنجليز على العراقيين، ومع ذلك يا ثيسجر أنا سأحدثك بكل ما أعرفه عن بنت المعيدي، دون مقابل من أي شيء، لا تتعب نفسك! هذا صاحبك كولن يتصورنا سذجا بلهاء، نحن نعرف أن كل الأقوياء في العالم يتصارعون علينا، بريطانيا وأمريكا وفرنسا وحتى هؤلاء السوفييت الذين يصورهم الشيوعيون المساطيل هنا ملائكة وقديسين، هم مستعدون لحرق كل الشيوعيين من أجل موطنهم قدم لهم في بلادنا، أو في الخليج. كنت أمزح معك، لا تتعب نفسك كل خبر للحب يسعدني أن أنقله لك أو لغيرك لا تهتم، نحن نتعامل مع الأجنبي بحب إذا تعامل معنا بحب حقيقي، لا نزدري إلا من يستعمل الحب قناعا للكرهية!

أشعل سليم سيجارته التي لا يفارق دخانها وجهه المستدير الأشقر، وعينيه الصغيرتين العمشاوين، وراح يحدثني:

- لا بد أنك قد عرفت أن كثيرين لم يفلتوا من صورة بنت

المعيدي ، فهي معلقة حتى في قاعات نوم جنود بثكنات الجيش، كما في بيوت الموسرين والفقراء والنساء يرمقنها بغيرة وحسد! والملك غازي وضعها إلى جانب صورة الكاتب الفرنسي أناتولي فرانس التي ورثها عن والده الملك فيصل الأول، اعتبر قصة اغتصابها أو خطفها أحد الأدلة على انتهاكات الإنجليز للعراق. سأله الملك علي، وكان محافظا جدا "لماذا تعلق صورة بنت غريبة في مكتبك؟" أجابه: هذه ليست غريبة، هذه بنت العراق الجميلة، تمثل عندي روح البلاد ،وقد اغتصبها الإنجليز، وليس كثيرا عليها، أو علي أن تكون صورتها في مكتبي، وحجرة نومي! وكان يتحدث عنها من أذاعته التي أقامها في قصر الزهور وكان المذيع الأول فيها، ويصر على القول أن من رسم صورتها هو رسام عراقي يدعى عبد القادر رسام، استعادها بمخيلته بعد أن جلس والد الفتاة بجانبه يصف له ملامح ابنته المخطوفة وإنه قد وضع الكثير من دموع والد الفتاة الحارة في الزيت الملون، وكان الملك يخاطب شعبه: مأساة بنت المعيدي، هي مأساة العراق المغتصب، ولن تتكرر! نعم لن نسمح لأحد أن يغتصب روح العراق ثانية! ربما هو محق في ذلك، والعراقيون محقون في تطلعهم إليها باحثين عن أرواحهم فيها!

- لكن نابليون كان يعلق لوحة الموناليزا في حجرة نومه، جمالها الباهر وتناسقها العظيم لم يمنعه من شن حروبه والصعود كدكتاتور!

- من المؤسف أن الأمر كان كذلك مع الملك غازي، جمال الفتاة ومأساتها لم تمنعانه من الانجراف مع ضباط يميلون لهتلر والنازية، فجاراهم بمذابح فظيعة ضد الأشوريين، وانقلاب دموي، ضد حكومة معتدلة نسبيا، معظم الساسة والزعماء لا يحسون بروح الفن، يأخذونه مظاهر، وشعارات، تبهرهم المعاني

السطحية، لا يتعبون أنفسهم في الوصول إلى أعماقه!
اعلم أولاً أنك في بحثك عن بنت المعيدي قد بدأت تصعد جبل
الآلام، جبل التحدي! فهي بشكل ما أضحت رمزا وطنيا، وأن
يقترّب انجليزي منها مرة أخرى فإنه يصنع لنفسه مصيبة ما.
- نعم هذا صحيح، وأنا سأقترّب منها لا تحديا، بل استجابة
لنداء حب.

- أنا أفهمك لذلك سأتعاون معك، والآن سأحدثك عنها! عرفت
أن لهذه البنت أسماء كثيرة ، فهي فاطمة، وليلى المعيدية، وبنت
المعيدي، زينب، جميلة، فتنة، حليلة، أسماء أخرى كثيرة بل أن
ثمة مثقفين لدينا لا يرتضون لها هذه الأسماء ويسمونها
"موناليزا" العراق، لكن وجدت إن اسم فاطمة يقترن بها في كل
الحكايات الكثيرة الشائعة عنها والتي كلها تدور حول أصلها،
وعائلتها واختطافها وهي محيرة فعلا، ورغم الاختلاف في
تفاصيلها يجمعها قاسم مشترك واحد، شبح واحد، وهي أنها
قد اختطفت من قبل ضابط انجليزي، هرب بها إلى لندن، اللعنة
على الحروب والغزوات كلها منذ بدء الخليقة حتى اليوم! لا
تكتفي بإزهاق الأرواح، ونهب الثروات وتدمير البيوت، بل
تنتهك الناس العزل وتسبي النساء والأطفال! بنت المعيدي واحدة
من الضحايا، هي ابنة عائلة من المعدان تربي الجاموس في
الهور، ذهبت إلى مدينة العمارة بأطباق اللبن والقيمر لتبعية
كباقي نساء المعدان، في السوق، رآها ضابط انجليزي، دهش
لجمالها، وتدلّه بحبها، تكلم معها بما يعرفه من كلمات عربية
قليلة مكسرة وقد شجعتة ابتسامتها الساحرة، ونظراتها المبهورة
به ، فعرف أين تسكن، فأقنع وجهاء من العمارة وذهبوا معه
لخطبتها ، لكن والدها رفض تزويجها له، حاول كثيرا معه فلم
يفلح. هنا تسير الحكاية في جدولين من ماء دافق لا يخلو من
كدر، واحد يقول أن الضابط الإنجليزي خطفها، الأخرى إنه

غرر بها وقد لمس ميلها له وهيامها به أيضا، ترك الضابط من أجلها كل شيء خلفه: مركزه العسكري والنجمات والنياشين التي ترصع كتفيه، قسمه العسكري وهرب بها إلى لندن وهناك استقدم فنانا ليرسمها في لوحة أرسلها إلى أهلها مع مبلغ من المال كتعويض! لكنها وقد صفعها ضباب لندن وبردها وبرودة الإنجليز، سرعان ما ندمت وظلت تنوح وتتعذب كحمامة كسيرة حتى ماتت شابة! وأخرى تقول أن الضابط الإنجليزي حين يأس من نيلها، قام هو يرسمها، فحصل على الصورة دون الفتاة، وإن كل هذا كان عام 1934، بينما يقول آخرون بل إن ذلك حدث عام 1920 خلال الحرب التي شنها الإنجليز لإخماد ثورة السكان ضد هم!

سكت سليم وراح يجذب أنفاسا عميقة من أرجيلة أنيقة مزوقة، ويحتسي شايه بهدوء وتلذذ ويرمقني بانتشاء وقد لمس ارتياحي للشطر الثاني من حكايته الذي يعني أنها ما تزال حية وفي العراق وفي أحضان عائلتها في الهور، وتمنحها عمرا مقاربا لعمرى، لكن الصورة لا يمكن أن يرسمها بهذه الروعة سوى رسام محترف ومتمرس، فكيف يستطيع ضابط هاو أن يرسمها وبهذه الدقة والروعة؟ ومن أين يأتي برسام محلي أو أجنبي في جنوب العراق لرسمها؟ وكيف تتمكن الفتاة وقد رفض أهلها تزويجها له؛ من الجلوس معه ساعات طويلة مرتدية كل هذه الثياب الجديدة عليها والغريبة ليرسمها؟ مسألة صنعتها مخيلة الناس على عجل كما هو واضح! ولكن مشاعري التي فرحت وهللت لهذا الحال الذي وصلت له البنات جعلني أتساءل مع نفسي، لماذا من الصعب أو المستحيل أن يحدث هذا، أو أن لا يكون الضابط وقد حرم منها قد جلس لوحده واستعاد دقائق ملامحها ورسمها واضعا فيها كل نبضات قلبه وخلجات روحه! ولم لا يمكن أن نتصور رجلا عسكريا، يصير فنانا؟ لا

خاطفا ولا معتديا؟ لماذا ننسى قدرة الحب على قلب أصبع الإنسان من أن يضغط على زناب البندقية، ليضغط على فرشاة الرسم؟

جاء صوت سليم، ليحبط أحلامي قائلا :

- هناك حكاية أخرى مغايرة تماما!

رفعت رأسي إليه، وقد اخذ قلبي يتوجس:

- خلال الأيام التي بنى فيها الإنجليز ذلك الجسر قرب الحلة، الذي أسموه (two reach) وتحول فيما بعد على لسان الناس إلى (طويريج) كان الضابط الإنجليزي منهمكا في عمل دقيق؛ نقش العلم البريطاني على الأعمدة الحديدية الوسطية للجسر لتخليد ذكرى وجود الإنجليز في العراق، مرت فتاة حسناء، كأنما ضربه ظلها؛ فرفع رأسه متطلعا إليه، بهره جمالها وصدده عن متابعة عمله، فأرسل من يتبعها ويأتيه بمعلومات عنها وقد اعتبرها معركته الأخيرة في هذه البلاد التي خسر فيها جيشهم الإنجليزي آلاف من الجنود أكثرهم كانوا طبعاً من السيك والهنود عموماً، جمع وجهاء ورجال الدين في الحلة وبغداد وسطاء يسعون له مع أهلها المعدان الذين لم يستطيعوا أمام هذا الحشد الديني والعشائري، إلا الموافقة على زواج ابنتهم منه، أمها وكانت جميلة مثلها: قالت "سوف أزفها إلى قبرها مع الإنجليزي هذا، لا إلى بيت عرسها" هكذا إذن حصل هذا الزواج بتراضي الطرفين، دون أن نعرف رأي الفتاة ، وهل للمرأة رأي في الزواج أو الطلاق في بلادنا؟ حتى الإنجليزي أمام شهواته في بلادنا لا يكثرث لرأي المرأة، لم نعرف إن كانت الفتاة قد أحبته، أم أنها فقط أسلمت مصيرها لمشئئة الله وقرار أبيها! لم يقم حفل عقد القران في صريفة أهلها القصبية المدخنة، بل في دار بلدية الحلة وقد حضره رتل كبير من رجال دين شيعة وسنة، نفحهم الضابط مالا وهدايا، وجاء قس من بغداد حاملا

باقية ورد كبيرة عابقة ببركات الكنيسة! يقولون إن الضابط طار
بفرحته بفتاته الحسنة، قبل الطائرة التي حملتهما إلى روما
لقضاء شهر العسل وهناك تعرف على رسام بورترية التقاه في
ساحة بياتسا نافونا، ورسم هذه اللوحة الجميلة لها وأرسلها إلى
عائلتها! بقيت أطلع إليه مندهشا حزينا لما يحدثني به، كأنه
يلعب بقلبي على جمر أرجيلته وينفخ به ليتوهج مع التبغ ويدخنه
أيضا " لكن مصدرا آخر يروي حكاية الضابط بشكل آخر: أن
الحامية الإنجليزية قد استأجرت بيتا على شط الحلة، كان
الجنود من السيخ والكركة الهنود يقومون عصر كل يوم بتنظيف
المكان أمام بيت الحامية وتهيئة مائدة الضابط الانجليزي الشاب
من طعام وشراب ودخان ليجلس على كرسي أنيق مريح يحتسي
كؤوسه، ويحرق بوجوه وأجساد النساء قادمات إلى الشط لغسل
الملابس أو المواعين أو للتزود بالماء، وكان إذا رأى فتاة
جميلة يعطي مراسله وهو معيدي روبية هندية ليسلمها هدية
لها إعجابا منه بجمالها! وكانت للمعدي فتاة جميلة فخطر له أن
يأتي بابنته التي اسمها جديلة ليراها الضابط ويستأثر بروبياته
الكثيرة، وحين رأى الضابط الانجليزي جديلة الفاتنة كاد يسقط
مغشيا عليه وقد صعقه جمالها، وتمض الحكاية لتقول انه منح
والدها ليرات ذهبية عثمانية كثيرة، وتزوجها في حفل اقتصر
على أهل العروس وأقاربهم من المعدان، وثلة من الجنود
الإنجليز السيخ والهنود الذين قدموا عروضهم الطريفة من الغناء
والرقص الهندي والأهوازي! وقد استدعى الضابط مصور
الجيش فجلب كاميرته التي كان يصور بها مشاهد المعارك
الحربية بين الجيش الإنجليز من جهة، والعثمانيين وأبناء البلد
المسلمين الذين رأوا بحكم العثمانيين امتدادا للخلافة الإسلامية
الأولى، قال له:

- هذه المرة ستصور وجه أجمل امرأة في العالم، بدلا من

أبشع صورة في العالم ، الدم والجثث والدخان!

قام المصور بتصوير الفتاة بعدة أوضاع، وهي ترتدي أجمل الثياب، بذل الضابط مالا كثيرا للحصول عليها! ثم أرسل صورها إلى إحدى المجلات الانجليزية، فنشرت أجملها على الغلاف بعد أن حولتها إلى ما يشبه اللوحة الزيتية. حين رأى الرجل الذي باع ابنته بالليرات العثمانية صورة ابنته في المجلة الانجليزية يتداولها الرجال في مقاهي الحلة، استيقظت حميته فجأة، ذهب إلى الضابط مع أحد الوجهاء يطالبه بتطبيق ابنته قائلا " لقد أعطيتها لك، لا للرجال في المقاهي" لكن الأوان قد فات! فالفتاة وقد ذقت مفاتن الضابط الإنجليزي فأحبته، راوغت والدها، واغتنتمت هي وزوجها سفر أول باخرة دنماركية من البصرة إلى بومبي فاستقلها، حيث قضيا بضعة أيام في الهند زارا خلالها تاج محل، وشكرا عبره الله ومقدسات المسلمين والهندوس والمسيحيين معا، التي جمعتهم ومنحتهم بركاتها، ثم سافرا إلى لندن واستقرا هناك يعيشان مع أبنائهما بكل هناء ونعيم بعيدا عن حياة العسكر، وهموم بريطانيا والعراق!، هنا نستدل أن هذه اللوحة هي صورة فوتغرافية وليست لوحة مرسومة باليد والزيت، والله أعلم، في كل تفصيل وكل أمر! ويتركني أتأمل وجهه مثل كلب ينتظر أن يمن عليه صاحبه بعظمة أخرى عليها بقية لحم ، كم لهفة الحب مذلة، تجعل العاشق كلبا منقادا! وافقه ماكس ، تتم بصوت مسموع وهو في فراشه كلبا ذليلا يجري خلف ضباع! ثمة ما أستوقفه، لو كان نيسجر مغرما بأجاثا وعلى علاقة معها ، هل يتهالك على بنت المعيدي إلى هذا الحد؟ لكنني رأيته يطيل النظر إليها، وهو يؤيدها في كل ما تقول، وكان يطريها ويثني عليها ويتملقها، ويحاول إثارة اهتمامها، ثم طرح عليها سؤالاً أدهشني وجعل بدني يقشعر:

- أتريدان مرافقتي في مغامرة أخرى لعبور الربع الخالي
والكتابة عن هذه الرمال البكر التي لم تطأها أقدام بشر غيرنا؟
نظرت إليها بوجل وخوف حقيقيين منتظرا إجابتها، قالت
بهدهوء:

- الأمر ليس بهذه البساطة يا وثيسجر!

تتهددت بارتياح، هكذا أوقفت اندفاعته. ومع ذلك يصعب أن
اخذ شكوكي، لماذا ظهر ليلة وجودنا في الفندق، ثم اختفى يوم
اختفائها، هل خرج قبلها أو بعدها ليلتقيا بمكان يسافران معا،
وأين؟ هل إلى الأهوار، أم إلى الربع الخالي؟

ألقى الأوراق جانبا، وسرح ببصره عبر باب الحجرة وحيث
يستطيع أن يرى الضفة الثانية من النهر، وتعاوده شكوكه
بثيسجر، لماذا يسرد كل هذه التفاصيل عن بنت المعيدي؟
أحاول استثارة غيرتها؟ يقولون إذا أردت اجتذاب امرأة تحدث
معه عن امرأة أخرى؟ أحس باختناق، قرر أن يخرج، يتمشى
أو يجلس في مقهى قريب، مخالفا تعليمات البوليس فهو لم يعد
يجد لها معنى في ظل هذا الصمت الثقيل والطويل..

(19) جاءني السياب وجبرا، عرضا مساعدهتهما، كلنا عاجزون، لكنهما منحاني شيئا من قوة الشعر إذ يفتح الأغاز!

كان ماكس في ردهة الفندق يسلم مفتاح الغرفة لموظف الاستعلامات، يريد الخروج؛ عندما دخل الفندق شابان؛ تذكرهما على الفور. كانا قد زاراهما في بيت الآثار قبل أيام؟ أحدهما جبرا إبراهيم جبرا، وهو أديب ومترجم، فلسطيني، ولد وعاش طفولته وصباه في القدس، بعد انتهاء دراسته في كمبردج لم يستطع العودة إلى فلسطين، ف جاء إلى العراق ليعمل أستاذاً للأدب الإنجليزي في كلية الآداب ببغداد. والثاني، بدر شاكر السياب شاعر ومترجم عن الإنجليزية، ولد في أبي الخصيب، يعمل مدرسا ويكتب في صحيفة تصدر في بغداد. تعرفت أجاثا عليهما العام الماضي في صالون عائشة السلام في الأعظمية. كانا قد قرءا في الصحف خبر اختفاء أجاثا، لم يصدقا، وقد جاء ليتأكدا من الخبر، وليتحدثا مع ماكس علهما يستطيعان القيام بشيء من أجلها. وجدا ماكس هامدا، بل محطما، كان واضحا من وجود ماكس لوحده بوجهه الحزين الشاحب، أن أجاثا لم تعد، ومع ذلك سأله السياب:

- هل من جديد؟

وحين هز رأسه صامتا بأسى، قال جبرا :

- لا تقلق يا ماكس ، ربما هو مجرد عارض نفسي لدى أجاثا!

كان جبرا قد قرأ الكثير عن حادثة اختفاء أجاثا في لندن، قبل سنوات طويلة، ولديه فكرة عن شطحات وذهول المبدعين الإنجليز والغربيين عموما!

أضاف السياب بنز عته الجماهيرية:

- ماكس كلنا سنجد أنفسنا للبحث عنها، بل سنعمل على إصدار بيان باسم المثقفين العراقيين يشجب ما حدث لأجاثا ويطالب المختطفين، ولو إنهم مجرمون عاديون، بإطلاق سراحها.

خرج ماكس عن صمته وتمزقه النفسي، قال:

- شكرا لاهتمامكما، لا أحبذ أي تصرف قد يعقد القضية التي هي الآن بيد الشرطة العراقية والسفارة البريطانية، وهم كما لمست حتى الآن يعالجونها بطريقة حسنة!

لم يدعهما ماكس للجلوس في بوفيه الفندق، خرج بهدوء، وتبعاه كأنهما أزما على مداراته لوضعه النفسي المتردي، لكنهما شعرا بفجوة بينهما وبينه. كان متحفظا، حذرا، وجدا ذلك أمرا طبيعيا، فهو يشعر بجو عدائي في هذه البلاد. كانت أجاثا هي مقصد الشابين ومحور صداقتهما واهتمامهما، يتبادلان معها الحديث عن الرواية والشعر والفن والآثار، ويقدمان لها نصوصهما الشعرية والقصصية بالإنجليزية لتبدي رأيها بها، لكن ماكس بعد سير لدقائق بين زحام المارة، والسيارات المنسابة بهدوء وخيلاء، فجأة بدأ يخرج من وبروده ويبيدي سروره بقدمهما بنظرات ودية ينقلها بينهما. أحس بشيء من الطمأنينة معهما، فهما يشعرانه أن أجاثا ما تزال موجودة وهي محط اهتمام المثقفين العراقيين! تذكر جبرا إنه حين التقى أجاثا كريستي في صالون عائشة مصادفة، وتبادل الحديث معها ظل لساعة غير مصدق أن الذي تحدث معها هي أجاثا كريستي مؤلفة الروايات البوليسية الشهيرة، إلى أن قالت له عائشة أنها أرادت أن تجعلها مفاجئة له، وإنها هي فعلا بلحمها ودمها ودخان غليون زوجها المعطر! حين سأله أجاثا عن نتاجه الأدبي، خجل وهو يقول لها:

- لم أكتب حتى الآن سوى رواية واحدة وبالإنجليزية، ما زالت حتى الآن تنتقل بين دور نشر مغمورة في لندن، ولم يوافق أحد منها على نشرها!

- ما هو عنوانها، وحول ماذا تدور؟

- عنوانها "صيادون في شارع ضيق" حول معاناة مثقف فلسطيني في بغداد الأربعينيات، صراع أسرة برجوازية بغدادية مع نفسها ومع الواقع الجديد المتحول سريعا!
- بودي أن أقرأها!

وعدها أن يأتيها بنسخة من مخطوطتها! كان السياب مهتما أن يعرف رأيها، بشعره، عبر نماذج من ديوانه "أزهار ذابلة" ترجمها على عجل وقدمها لها في زيارته الأخيرة، هو فرح بما قالت حين عرفت إنه مهتم بتجديد قصيدته، والخروج بها من العمود التقليدي الثقيل:

- هشم الأعمدة الصخرية للقصيدة، الإنجليز أنجزوا ذلك منذ فترة طويلة واعتبروه جزءا من نهضتهم الحضارية، القصيدة كالمرأة إذا تحررت التقت بروحها وحقيقتها، بل أستطيع القول أن تحرير القصيدة يعني تحرير المرأة أيضا، ستجعلني كلما رأيت امرأة تسير بثياب جميلة ملونة بعيدا عن العباءة السوداء والحجاب أتذكر قصائدك الحرة!

التفتت إليهما معا:

- اكتبنا الجديد، مقابل كل قصيدة ستكون هناك امرأة جديدة، وسيكون مجتمع جديد!

هزا رأسيهما موافقين كتلميذين صغيرين!

هل سيفقدان هذه المبدعة الكبيرة والمتواضعة؟ وأين؟ في العراق! يا للعار! كانا قد رددا هذه العبارة كثيرا، وهما في طريقهما إلى الفندق، كان جبرا الذي فقد وطنه فلسطين يعد

العراق وطنه، والمتقفون العراقيون أشعروه أنه عراقي أكثر منهم، كانوا يلتقون في صالون هو جناح كبير من قصر عائشة المطل بحديقته الواسعة على النهر تغدق عليهم ألوان الأطعمة والحلويات والمقطوعات الموسيقية. وكانا يجدان أجاثا قبلهما في معرض للفن التشكيلي، أو في حفلة للموسيقى السمفونية في قاعة الملك فيصل الثاني وفي أماكن أخرى، وأحيانا يكون معهما الروائي جلال العطار، فيتحاورون بهدوء ورقة، سألتهم هل بدأ كتابكم يؤلفون القصص البوليسية؟ إنه مؤشر على تنامي الشعور بالعدل وحقوق الإنسان، والديمقراطية أيضا، لكي لا يتم التحقيق في الجرائم في الظلام ينطلق المحققون أحرارا ينبشون وينقبون بحثا عن الأشرار، ويقول لها أحدهم، لم يكتب أحد هنا رواية بوليسية، القراء العراقيون يستوردونه من الخارج، وأجاثا كريستي أعظم المصدرين ويضحكون، هل انتهت هذه اللقاءات الطيبة، وتلك المرأة الجميلة في خطر المجهول؟ كانوا يسيرون في شارع الرشيد دون هدف قال جبرا:

- ما رأيك يا سيد ماكس أن نجلس في مقهى البرازيلية؟

كان جبرا بملابس جديدة قشبية وبقوام رشيق، بوجه فاتح البشرة، وملامح جذابة، تغمره سحابة من دخان غليونه، والسياب بقوام نحيل طويل بعض الشيء ووجه غير متناسق؛ بعضهم يرى فيه دمامة وقبحا، لكن البعض ممن يحبونه يرى في دمامته رقة ووسامة غريبة، رغم أن أذنيه الكبيرتين، وأسنانه الكبيرة البارزة كلها تميل به بعيدا عن الوسامة! لكن صوته العميق المشقق يشد سامعه إليه! أما إذا نطق بشعره فإن جسده يغيب تماما وتحل مكانه روحه الكبيرة الطيبة العميقة الحزينة. كان النادل يتقدم إليهم بأكواب القهوة حين قطع ماكس الصمت فجأة وقال بنبرة ذكرت جبرا بمسرح شكسبير::

- أنا يائس من عودة أجاثا، يبدو إنني لن أراها مطلقا!

أخذا يتطلعان إليه وقد ارتسمت على وجهيهما سمات حزن
وتجهم، قال السياب:

- سترها حتما، بلادنا رغم الغليان السياسي يا مستر ماكس
مسالمة وأهلها طيبون، ومعروفون بإكرام الضيف حتى لو كان
عدوهم. لا بد أن ثمة التباسا في قضية أجاثا، ستأتيك اليوم أو
غدا، وستكتب هي قبل غيرها رواية بوليسية عما حدث لها!
ندت عن جبرا ضحكة قصيرة:

- ربما هي مجرد مزحة منها، وهي مزحة ثقيلة دون شك!
قال ماكس بأسى واضح:

- لا التباس، ولا مزحة، ثمة ما هو أخطر ! وأنا قلق جدا!
كان كلام السياب مثقلا، بالسياسة والمصطلحات
الأجنبية، وكان البعض يخشى على شعره من ذلك، وقد انهمك
بالترجمة لبعض الصحف ليزيد دخله القليل، وتحسبا لاحتمال
فصلة من وظيفته بسبب نشاطه الشيوعي، قال !
- طبعا لبريطانيا أعداء كثيرون في بلادنا، ولكنكما أنت
وأجاثا مثقفان كبيران وصديقان لشعبنا، المناضلون في بلادنا
يفرقان بين الكوليوناليين المستغلين، والانتلجسيا الغربية النقية
التقدمية!

دخل المقهى حسين مردان بقامته المتوسطة الممتلئة ووجهه
المستدير وعينيهِ المتحركتين هنا وهناك كعصفورتين محبوستين
في قفص، اتجه إليهم، ألقى تحية مقتضبة متعالية، جلس على
المقعد الخالي الوحيد بجانبهم، كان مفلسا كعادته، صاح بجبرا
وهو يلهث من التعب اثر سير طويل فهو لا يمتلك ثمن بطاقة
الباص:

- دزنا على كهوة!

قال جبرا مبتسماً:

- تأمر أبو علي!

كان جبرا يحب صعلكته، قائلًا (أحبه لصعلكته التي نحن نريدها، ونعجز عنها) كان يراه شاعرا موهوبا بوهيميا بخيال جامح ورؤى جريئة! شعر حسين بوجود شيء حزين جلل؛ فقال بلهجته الساخرة المعتادة:

- قولونا عليمن مسوين مجلس عزاء، حتى نبجي وياكم ونقرا الفاتحه!

التفت جبرا إلى ماكس قائلا:

- أقدم لك صديقنا الشاعر المجدد حسين مردان!

اكتفى ماكس بانحناء خفيفة برأسه، بينما رفع حسين رأسه شامخا، أضاف جبرا محدثاً ماكس كأنما لينسيه موضوع أجاثا:

- حسين هو أول شاعر حديث في العراق يقف في المحكمة بسبب ديوان شعر، كان ديوانه "قصائد عارية" هو بنفس وزن ديوان "أزهار الشر"، لبودلير في فرنسا!

اكتفى ماكس بابتسامة خفيفة وبدا متمللا

قال السياب لحسين مشيرا إلى ماكس:

- ماكس مالون زوج أجاثا كريستي، لاشك إنك سمعت باختفائها!

قال حسين متصنعا حزنا:

- آني اللي حررت خبر اختفائها بالأهالي.

عاد جبرا يرسم على وجهه ملامح حداد على فقد أجاثا، بينما بدا السياب يوشك أن يبكي ويرثيها بقصيدة مرتجلة، قال موجهها كلامه لماكس:

- لا بد أنها في ضيافة أصدقاء لها، وغفلت عن أعلامك، هل

اتصلت بالسيدة عائشة؟ قال ماكس:

- اتصلت بها وبعفيفة اسكندر، وهما لا تعرفان شيئا عنها!

قال جبرا:

- لا تقلق! ستظهر قريبا ليس هناك خطر جدي، بغداد آمنة، آمنة تماما!

هو يتذكر دائما المظاهرات العارمة التي انطلقت قبل أشهر، مطالبة بإلغاء المعاهدة مع الإنجليز، وهزت بغداد وشلت الحياة فيها، وسقط فيها العشرات من الطلبة والشرطة والأهالي، بين قتيل وجريح، سماها المعارضون وثبة كانون، وسمتها الحكومة قلاقل الهدامين، كاد جبرا يقتل في إحدى سوراتها العنيفة. كان على باب الكلية عندما أطلقت الشرطة النار على المتظاهرين وسقط طلبة قريبا منه، وظل الرصاص يمر فوق رأسه، كقضببان ملتهبة. فجأة سألهما ماكس:

- هل تعرفان ولفريد ثيسجر؟

كان ماكس يعرف أن ثيسجر يتردد على مقاهي المثقفين في بغداد؛ متحدثا عن رحلاته المثيرة ومشاريعه الاستكشافية؛ يريد أن يجعلها علنية ويبعد عنها السرية والتكتم؛ كي لا تحتسب كتجسس، ويريد أن يكتبوا عنه ويبرزوه كبطل مغامر، قال السياب:

- نعم أعرفه؟ هو يأتينا هنا، نجلس ونتحدث عن رحلاته، الآن صار يتحدث كثيرا عن بنت المعيدي، واقعا في غرامها!

وراح يضحك، سأل ماكس:

- ما رأيكما به؟

رد جبرا:

- أنه رجل طيب ومسالم!

أضاف السياب ضاحكا:

- وظريف حالم أيضا، سألني ألم تكتب قصيدة غزل في بنت المعيدي، وحين ضحكت نافيا، رد حسين عليه قائلا: السياب الآن يكتب قصيدة عن المومس العمياء!
استلم جبرا الحديث منه قائلا:

- حسين قال أن الشيوعيين يدفعون السياب ليكتب عن المومسات العميوات، وليس عن الحسناوات المصونات المبصرات، لا لشيء إلا لأنهن مرفهات، وهذا أكبر خطر يهدد موهبة السياب، وحسين محق في ذلك!
النقط حسين اسمه، هو لا يعرف الكلام بالإنجليزية ولا يفهمه، فسأل باعتداده المعهود:

- شبيه حسين مردان؟ شنوا دترشحو لمجلس اللوردات البريطاني؟ طبعاً أنا أرفض الترشيح حتى لو طلبت إيدي الملكة إليزابيث، عندي "أمونة" الحلوة ملكة بنات المنزل، أعظم ملكة!

ضحك جبرا والسياب بينما بدا ماكس شارد الذهن رغم أنه يعرف الحديث بالعربية.

شعر جبرا أن عليهما أن يتركا ماكس، ولكنه تذكر الأوراق التي جاء بها إلى أجاثا، فتح محفظة جلدية بنية، أخرج منها مظروفا أبيض كبيراً، قائلاً:

- كنت قد طلبت من أجاثا صفحات من مذكراتها أو يومياتها لاستفيد منها في جو رواية أريد كتابتها عن القادمين من بلاد الضباب؛ حالمين بشمس بلادنا! وأنوارها فأعطتني هذه الصفحات الممتعة جداً، كم أنا ممتن لها، هي جريئة صريحة شفافة في كل كلمة تكتبها.

تحفز ماكس ملهوفاً لقراءة أي شيء لأجاثا، كأنه سيتحدث

معها الآن، ومن جديد، تناول الأوراق من جبرا بلهفة واضحة،
انفجرت أساريره بعض الشيء، قال وهو ينهض:

- أرجو المعذرة، لا أستطيع البقاء طويلا خارج الفندق؛ فقد
تأثنتي مكالمة عاجلة من الشرطة، أو السفارة. واضعا يده في
جيبه ليدفع فانبرى السياب قائلا أنت ضيفنا. نهض ثلاثتهم
يودعون!

خرج من المقهى يغذ الخطى مسرعا، رغم مشيته المترهلة،
كان مستعجلا، يريد أن يل حجرته، ويختلي بأوراق أجاثا كأنه
سيلقاها ثانية. قال حسين :

- اختفاء أجاثا لعبة بريطانية يريدونها مع نوري السعيد؛
لتمرير صفقة ما من ورائها! ضحك جبرا مستخفا، وقال
السياب:

- أيها الشاعر العظيم، تتهمني بالخضوع للشيوخيين
بقصائدي، وتنشر هيح آراء بجريدتكم؟ أنا أعتقد، اختفاءها حالة
إنسانية غامضة أقرب للشعر، أو الحلم!

- لا لا هذا مو رأيي أنا، هذا رأي السياسيين المشرفين على
الجريدة!

قال جبرا :

- سمعت، أن منظمة طلابية تدعى "اليد الحمراء" اختطفتها
بسبب قتل الشرطة الكثيرين من زملائهم الطلاب، وللمطالبة
بإطلاق سراح السجناء والموقوفين السياسيين بعد وثبة كانون !

قال السياب:

- أعتقد أن الاختطاف ليس من عادة العراقيين في النضال،
ترويع الناس أسلوب همجي يجر الأوضاع لمزيد من التدهور،
بدلا من حل المشكلات!

- نعم هذا صحيح، لكنني هكذا سمعت من بعض الطلاب!

قطع حسين الحديث وحوله إلى جلستهم وشربتهم الليلة:

- يا الله نروح للبار ، نكمل حديثنا، نشوف شلون السياب صار مفسر أحلام! لازم تشربونا، انتو قبضتو راتب! أنا حتى بعد شهرين ما أقبض، الجريدة مفلسة كل يوم يغلقوها ومينطوها إعلانات، هسه أنا ما أعرف ليش الجريدة تتدخل بالسياسة، خل تكتب عن الملاهي عن السينمات عن الكاولية الطيبين، ويخلون أم اللبن تحجي بالسياسة، أحسن!

افلح باقتيادهما إلى بار جبهة النهر، قائلًا وهم يدخلونه:

- تر موتفضوها بربع مسيح ومزة جاجيك، أنا اريد نص بطل مستكي وبيك؛ حتى يعدل راسي، وعشاننا سمك مسكوف! مو تككلبون علي؟ وكانوا يضحكون!

صعد ماكس درج الفندق؛ مسرعًا، أنفاسه تتلاحق متقطعة، استبدل ثيابه واستلقى على سريره يريد أن يسترخي قليلا، هو يعاني ارتفاع ضغط الدم، ولا يعلم إذا كان مقدار الدواء الذي يتناوله ما يزال كافيا وهو في هذا التوتر الشديد. ومع ذلك لم يجد خروجه دون جدوى، حصل على أوراق جديدة لأجاثا شعر بانتعاش لحديثه مع السياب وجبرا، كلنا عاجزون أم هذه المصيبة، كأن شيئا من قوة الشعر بدأت تداخلني وتجعلني أقدر على تبين هذا اللغز!

كان ماكس في لهفة شديدة لقراءة أوراق أجاثا، ألقي أوراقا نيسجر جانبا، حتى الآن لم أجد فيها شيئا يدلني على أجاثا، لا أتوقع أن تقول لي في هذه الأوراق أين هي الآن ، وماذا حدث لها، لكنني أتوقع أن أجد فيها شيئا ما قد يضيء ولو جانبا من لغز اختفائها! قرأ عدة صفحات وجد أنه كان قد قرأها سابقا، هي ليست جديدة، أجاثا لا تكتب شيئا، إلا وتطلعي عليه! وضعها

جانبا، كنت حين قرأتها آنذاك عرفت كل شيء تقريبا عن حياتها، تطابقت حياتي مع حياتها منذ لحظة حبنا الأولى، صرنا كفلقتي بذرة إذا انفصلتا لن تنبتا في أية تربة في هذه الدنيا، ولم تكن أجاثا تلح في السؤال عن تفاصيل حياتي، لكنني صرت اشعر أنها تعرفها كلها تقريبا، كيف؟ بالإيحاء؟ بمخيلتها الروائية الخلاقة؟ بالانتباه لظلال كلماتي وخلجاتي؟ بأسئلتها لي دون الإثقال علي. هي تكره التجسس على الآخر، حتى في عملها الإبداعي. كنا جالسين عصرا في حديقة بيتنا الصغيرة في الموصل، نحتمي الشاي مع البسكويت قالت أعتقد يا ماكس إنني اعرف فقط أنك ولدت في لندن سنة 1904 من أبوين كادحين، أنهيت دراستك في أوكسفورد متخصصا في علم الآثار وتاريخ الشرق الأوسط وإنك أعجبت وانبهرت بتاريخ العراق القديم وقررت أن تدرس شطرا كبيرا من حياتك له، لا.. لا يا ماكس أنا أعرف اهتماماتك في صباك ومراهقتك، ماذا كنت تقرأ وتفكر، نزعتك الإصلاحية وتطلعك لعدالة مطلقة كادت تلقي بك في أحضان الشيوعية، أعرف تهويماتك العاطفية المبكرة والخجولة، أعرف أنك لم تكن مكترثا لوسامتك ورشافتك وتطلع الفتيات لقوامك الممشوق الجذاب، أعرف مشيتك الحزينة الذاهلة عما حولك وولعك بالغليون بعمر مبكر، أعرف تلك الشابة الجميلة زميلتك في الكلية التي أحببتها بجنون، وبإدلتك بعضا من الحب ثم هجرتك فجأة فقررت، بعد تخرجك أن تذهب إلى صحراء أور لتدفن ذكريات حبك فيها، وبفس الوقت تواصل دراستك وبحثك في تاريخ العراق القديم. بقراءة أوراقها هذه صرت أعرف أجاثا أكثر، لماذا لا نستطيع أن نعرف من نحبه إلا عبر الآخرين؟ في رسالة لهم أو حديث معهم، أو إلا إذا أرد هو أن يعكسها لنا في وقت لا نتوقعه! امرأة بعمرها وشهرتها تهتم بكل شئوني الصغيرة، كيف أشك بحبها لي؟ لمجرد أنها اختفت في ظروف غامضة؟ أو أن

تصلها رسالة طويلة مهووسة ملتبسة من هذا الرحالة شبه
المخبول ثيسجر؟ أليست هي التي طلبتها منه مادة لرواية
محتملة عنه، لأعد إلى أوراقه فقد أجد وبشكل ما كلمة السر!

(20) خالد يقوم بدور المفتش هركيول بوارو، ، ثمة روح طيبة؛ قاربناها في ماض بعيد، ونسيناها، تأتي اليوم وتمد لنا يدا!

كان المحقق القضائي خالد يتابع بقلق ما تنشره الصحف المحلية عن اختفاء أجاثا. بعضها أسمته "الغز الإنجليزي الكريه" وجد أن الصحف المعارضة السرية والعلنية تتحدث متحاملة أو متشفية، مشككة في القضية برمتها" ماذا تفعل أجاثا كريستي في بغداد؟ لو وجدت فإنها جاءت لتكتب رواية تقوم من ورائها بالتجسس على العراقيين وحركتهم الوطنية". ثمة صحفي كتب: "أجاثا وزوجها جاسوسان خطيران، غريبا الأطوار، فإذا كان الجواسيس يتجسسون على الناس من فوق الأرض، فهما يتجسسان على العراقيين من تحت الأرض، بحجة التنقيب يقومان بحفر أنفاق تصل إلى ثكنات ومعسكرات الجيش ومقرات الأحزاب الوطنية لتسجيل كل شيء وإرساله إلى المخابرات البريطانية!" "يحفرون تحت بيوت الناس وحجرات نومهم وحماماتهم، فيصورون العراقيين وهم عراة وفي أوضاع خاصة لابتزازهم فيما بعد"، محذرا من أية أصوات غريبة تنطلق من تحت بيوتهم! صحيفة الشيوعيين السرية كتبت: "إنها لعبة، يراد من ورائها تبرير وتصعيد حملات اعتقال الشيوعيين، و تحويل العراق إلى قاعدة تجسس ضد الاتحاد السوفيتي، أمل البشرية الأعظم" كان خالد قد أمعن كثيرا في دراسة إضبارة اختفاء أجاثا، وجدهم في دائرة التحريات لجنائية قد أغرقوها في خضم الصراعات السياسية التي تشغل الحكومة. فزادوها غموضا، وتعقيدا، وصارت مستعصية تخلق قضايا أخرى. وإذا ظل التحقيق على هذا

المنوال فلن يصل إلى أجانا، وما جرى لها. قرر أن يلتقي
بماكس لا كمحقق رسمي، بل كصديق قديم، وعله يتذكره!
مضى إليه راجلاً، لم تكن المسافة بين مقره وفندق تايكر سوى
أمتار قليلة. كان وهو يسير بتمهل يحاول أن يستجمع أفكاره
ويستنفر خبرته، ويحدد من أين يبدأ أو يمسك الخيط. سار واثقاً،
مسترخياً، آملاً أن يصل إلى نتيجة طيبة. هو بقوام ممشوق
أقرب للطول، بوجه دقيق الملامح، على شيء من الوسامة، فاتح
البشرة، بشارب رفيع مشذب، فوق شفتين مضمومتين تؤثران
الصمت كرجل قضاء، أعزب، لا يخفي طموحه في السفر
لمواصلة دراسته القانونية في لندن أو باريس! خطر له أنه سيجد
في رواياتها، خيطاً يضئ طريقه إليها! لا حاجة له لكي يعيد
قراءتها فهي موجودة في ذاكرته وما عليه سوى أن يسترخي
ويطلق العنان لخياله ووجدانه يحلقان في أجوائها المثيرة
المشحونة بتقلبات النفس البشرية وتفجراتها الغريبة، دخل
الفندق بهدوء، لم يعلن عن هويته. أعلم موظف الاستعلامات
والشرطي الجالس بجانبه، أنه يريد مقابلة ماكس، سأله الموظف
بحذر:

- هل أستطيع أن أعرف من أنت؟

- قل له صديق قديم من أيس، وهو سيعرف!

كان ماكس أثناء ذلك مستغرقاً في قراءة أوراق ثيسجر، مبحراً
في لجتها التي ما تزال غامضة له، لكن مجيء أي طارق ببعث
أملاً في قلبه أن له علاقة باختفاء أجانا، كما يجعل قلبه ينقبض
هلعاً، "وقوف طير على حاجز الشرفة سأظنه يحمل شيئاً عن
أجانا" هرع نازلاً، إلى باحة الفندق! لم يتعرف على خالد حتى
بعد أن توقف هنيهة عن قرب محدقاً في ملامحه، ظل خالد
يبتسم بهدوء:

- مستر ماكس هل نسيت نواعير أيس، وعيون الكبريت؟

أقبل ماكس إليه يصافحه، قائلاً بخفوت وبرود:
- أنت خالد، أهلاً؟

خمن خالد إنه لو كان في وضع نفسي أفضل لأستقبله بحرارة، ولضمه إلى صدره مثلما ودعه وهو صبي. هو الآن يبدو فاتر المشاعر إزاء كل شيء، تذكره كيف كان يداعب الأطفال ويحنو عليهم في أيس، ويتابع أجاثا ويرقبها وهي تخطوا بين سواقي البساتين والدروب الترابية الضيقة. اليوم وقد اختفت، هو حزين محبط، عله يستطيع أن يرد له الطمأنينة والأمل:

- آسف لم أكن أعلم أنكما في بغداد، يؤسفني إنني ألقاك في هذا الطرف الأليم، كنت أتمنى أن نلتقي بغير هذا الحال، ولكن اطمئن ستعود أجاثا وتكون بيننا، قلبي يحدثني أنها بخير!

عرفه على وظيفته الحالية، راح يشرح له طبيعة مهمته. شعر ماكس بالراحة، بدا على وجهه حبور وهدوء. وانطلق يحدثه بمكنون صدره، كان يتحدث بسرعة وتدفق بعد أن وجد أن خالد يتكلم الإنجليزية بطلاقة رائعة، ربت على كتف خالد:

- عظيم! أنت ذاك الصبي الذكي الذي كان يقودنا بين ربوع أيس، صورك لا زالت لدينا، يسعدني إنني ألقاك الآن.. لو فقط أجاثا معنا. وأخذ صوته يرتعش.

- اطمئن سنلقاها.

أطلعته على القائمة الطويلة من السياسيين وأتباعهم الذين اعتقلوا في الساعات الطويلة الماضية، لم يحدث لقضية خاصة أن شغلت الحكومة والشرطة والقضاة، والبلاط الملكي نفسه كقضية أجاثا

- أرى إن التحقيق يجب أن يأخذ مجرى آخر، وسنجدنا حتما حية معافاة!

- إذا كان كل هؤلاء أعداء بريطانيا، فهم ليسوا بالضرورة أعدائي أو أعداء أجاتا! الساسة يصنعون أعداء لبلادهم بسرعة، وأنا أبني صداقات ببطء ، أنا واثق، ليس لنا عدو واحد في هذه البلاد، نعم لا أعداء لي أو لأجاتا، لا هنا ولا في أي مكان في الدنيا!

صمت فجأة. لام نفسه، هل حقاً هما دون أعداء؟ وأخذ يفضي بما يتقل صدره لخالد:

- جننا نبحث عن الماضي، فغرقنا بمشاكل ومصائب الحاضر، أنا وأجاتا مؤمنان أننا بمهمة إنسانية وحضارية ، هل أنا أجاتا قد دفعت ثمن ذلك؟ هل سألقها أيضاً؟ لا أدري!

- اطمئن ، لن يكون إلا الخير؟ التحقيق سوف لن يسقط أي احتمال، بحثنا ينبغي أن يكون هادئاً قدر الإمكان! هل ثمة أوراق لأجاتا، مذكرات، صفحات روائية، شيء من هذا القبيل؟

- أجل، هي عاكفة على رواية، صفحات من مذكرات، رسائل، ملاحظات تتعلق برواياتها!

- رائع ! هل أستطيع أن أطلع عليها؟

- نعم لا مانع لدي!

- هل أستطيع مرافقتك؟ أريد أن أرى وضع حجرتكما؟

- بل هناك شيء خطير ، لا أدري هل علمت به!

- حين مرا بالشرفة أشار ماكس إلى قطرات الدم:

- هذه أخطر، شيء تركته!

- انس هذا الشيء، التقرير الذي جاءنا عنه من المختبر أكد إنه رعايف أنفي، فيه مادة مخاطية.

تطلع خالد في أرجاء الحجرة، انشغل ماكس بجمع ما سيسلمه من أوراق، أحس بامتنان لجبرا والسياب الذين جلبا

أوراق أجاثا، فهي ستكون مفيدة لخالد في بحثه وتحقيقه، قرر أن يستبقي أوراق ثيسجر لديه، ليس فقط من أجل أن يستكمل قراءتها بل لكي لا يتسرع في إثارة أشياء قد تعد فضيحة لزوجته دون مبرر، فهو في كل ما قرأه وما راوده من شكوك وهو آسئ لم يجزم بعد بوجود علاقة لثيسجر بما حدث لأجاثا، سلمه أوراقها، قائلاً:

- هناك أوراق أخرى ، أريد أن أتأكد من علاقتها بقضية أجاثا ثم أسلمها لك!

- لك ذلك ، لكن لا تستبعد شيئاً؛ فقد تكون قصاصة صغيرة هي مفتاح القضية! نصحه بالهدوء والاسترخاء والحذر، ودعه ومضى!

أحس ماكس براحة ما، هذه يد طيبة تأتي من ماض بعيد، لمسة حنونة، أخذته مشاعر متضاربة، مزيج من الخوف والحنين لتلك الأيام التي عاشها مع أجاثا يجوبان فيها ضفاف أعالي الفرات، لم يطاوعه قلبه أن يقر باختفائها، عاودته رغبة الشراب، لكنه أحجم، خشية أن يظل يواصل الشرب ويفقد تركيزه وهو أحوج ما يكون إليه . هم بالنزول إلى الشاطئ، لكنه صار يخشى لقاء دعبول وسؤاله عن أجاثا، ثم ينطلق في غنائه وبكائه وضحكه ورقصه! وهو الآن ليس في مزاج لذلك. كيف احتمل هذا الكهل فقدان ابنه الوحيد؟ الآن صرت أدرك، لا شيء يدمر الإنسان سوى فقدانه أحبته، وأعرف أن أكوام العظام تحت الأرض، التي نقلبها بمجارفنا، كانت خلفها الكثير من الأحران، هل يكفي كأس الويسكي للنجاة؟ أيام شبابي لقيت شاباً في حانة بلندن، كان يحب الشراب بكثرة، تجاذبنا حديثاً عرفت منه أن حبيبته الحسنة قد هجرته مع رجل مسن غني. وكنت أنا أيضاً أعاني من الغدر والهجران، سألني أتعرف ما هي أكبر سفينة في الدنيا؟ بقيت أهز رأسي لا أعرف ماذا أجيب، قال: لا

تتعب نفسك إنها كأس الشراب؛ تناوله وأنظر كيف سيضع الدنيا كلها بجانبك، ليطوف بك البحار كلها! ومع ذلك أنا اليوم لا احتاج لأكبر سفينة في الدنيا، أحتاج أصغرها، بلم دعبول البلام، يجمعني وأجاثا نمخر عباب دجلة! توقف عن القراءة، شعر إنه سيضيع جهده ووقته مع أوراق ثيسجر ولا يجد شيئا، يكشف عما حدث لأجاثا، لكنه اقنع نفسه بشيء تعلمه في التنقيب "لا تدري أية حجر ترفعه أو تسير باتجاهه تجد الكنز العظيم"، هنا لا تدري في أية صفحة أو سطر أو كلمة تجد بابا يفضي إلى أجاثا، هل علي أن أقرأها كلها؟ ولم لا؟ كم تلال من التراب حفرتها بحثا عن لقية أثرية صغيرة؟ ثم أليست أوراقا مسلية، تكاد تنسيني همومي؟ لأقطع بها هذه الساعات العصبية حتى تحل اللحظة السعيدة وتطل أجاثا؟ عاد يقرأ قائلا "خالد الآن يقرأ أوراق أجاثا، وأنا أقرأ أوراق ثيسجر، وعل أحدا يجد كلمة هي المفتاح!

(20) كان حبيبها شاعرا، أقر بعجزه عن الانتصار على ضابط انجليزي، أعطاه نصيحته القاتلة، وقاد نفسه إلى مصير رهيب تراوح بين نار الحريق، والبيرة المثلجة!

جاءني سليم بحكاية أخرى، انبعث صوته ممزوجا بالدخان :

- وللتركمان حكايتهم المثيرة عن هذه الفتاة الفاتنة، وهل يسمح جمالها الباهر لقوم أو أمة أن تدبر ظهرها لها، أو لا تدعيه لنفسها؟ هم يقولون إن اسمها فاطمة "بنت الصمانجي" أي "بنت التبان"، وإن عائلتها كانت تسكن الحي القديم من كركوك، بدأت حكايتها أو مأساتها عندما حملت مكنسة القش وراحت تكنس البيت، وما أن وصلت العتبة حتى مرت مفرزة حراسة انجليزية، وعندما وقعت عينا الضابط الإنجليزي عليها تعثر وكاد يسقط؛ فأسنده جنوده، وتظاهر بالدوخة والدوار فطلب له

الجنود الماء من الفتاة الجميلة؛ فجلبته لهم على الفور، وقفت تنتظر ليعيدوا لها القدر الفخاري الكبير، وبينما أخذ الجنود يرشون الماء على وجه الضابط ويسقونه، كان هو ينظر إليها من تحت جفونه المسبلة بخبث، ويحفظ مكان بيتها البسيط الرث. في اليوم التالي أتى إلى عائلتها مع وجهاء ورجال دين طالبا يدها؛ معلنا استعداداه لأن يسلم ويصير تقيا ورعا، بل ورجل دين بعمامة كبيرة من أجل أن يفوز بها، عارضا على أبيها الفقير الذي يعيش على جلب التبن من الحقول وبيعه لمربي الماشية؛ الكثير من المال؛ لكنه رفض. كان هو وأمها غير مقتنعين بتزويجها من غير مسلم، وحتى لو أسلم فإن وجوده في بلادهم سيكون مؤقتا وقصيرا، وسيأخذ ابنتهما إلى بلاده البعيدة، بلاد الكفار! لكن الضابط لم ييأس فراح بين يوم وآخر يأتي إلى أبيها بوفود من وجهاء التركمان ورجال الدين، محملين بمختلف فتاوى جواز المسلمة من غير المسلم ما دام سيسلم، بل زادوا على ذلك بقولهم مجمعين إن تحويل غير المسلم إلى الإسلام يعادل حجة إلى بيت الله، ويمنح فاعله قصرا في الجنة! أخذ الضابط بطريقة ما يوصل هدايا من ثياب وحلي وحلوى إلى الفتاة وأهلها، كانت العائلة ترفضها مقاومة بريقتها ورائحتها، وأخيرا لعب الضابط الإنجليزي بالتهديد والوعيد إن لم يحصل عليها، فسلط بعضا من رجال الحكومة المحليين في كركوك وبينهم رجال من التركمان الأشداء الذي لهم مصلحة في استرضاء الإنجليز وعدم إغضابهم للحفاظ على ثرواتهم وإقطاعياتهم بعد أن أقروا بزوال حكم العثمانيين أبناء عمومتهم، أخيرا انهار الأب المسكين، ورضخ لهم ووافق على زواج ابنته الجميلة من الإنجليزي، (غنى شاعر تركماني فيما بعد عن لحظة استسلامه هذه قائلا، قوة الإنسان من قوة بلده، وأهله، فلماذا يبكي البلبل لوحده في ليل الحديقة؟) لم تلبث خدمة الضابط الإنجليزي أن انتهت أو هو سارع لإنهائها ليضع

زوجته في قفص ذهبي في لندن. ثمة جيران لهم قالوا، "الضابط كان شريفا على الطريقة الإنجليزية، وفي بوعده في أن تكون فاطمة عند أهلها، ولكن ليس جسدا بل صورة"، فأتى برسام ايطالي مهاجر وطلب منه أن يرسم فاطمة على غرار الموناليزا، فرسمها له بأكثر من وضع جميل خاصة وهي تعتمر الطربوش النسائي التركي المشرشوب بالذهب، وأرسل صورتها لأهلها عبر بريد الجيش الإنجليزي المضمون! قالت أمها تنتظر إلى الصورة باكية:

- ابنتي التي حملتها في رحمي تسعة أشهر لحما ودما، تعود لي أخيرا قطعة من القماش والصبغ وعلى خشبة هي تابوتها!

يقولون أنها دفنت صورتها في زاوية مهجورة من بيتها الفقير، ولم تكف عن البكاء، حتى ماتت، وأن فاطمة لم تكن حياتها في لندن أقل حزنا وعذابا رغم البيت الكبير الجميل الذي وضعها فيه زوجها، قالوا إنها لم تنجب، أصيبت بالعقم نتيجة صدمتها، آخرون يقولون إنها أنجبت بنينا وبنات بعضهم تبوأ مناصبا في وزارة الخارجية البريطانية. وإن أحدهم جاء سفيراً لبريطانيا في العراق!

وكالعادة هكذا حكاية لا تكتفي لنفسها بثوب واحد، فراح الناس يروون عنها أكثر من مسار ومصير منها حكاية مؤثرة وحزينة جدا، تقول أن فاطمة كانت عاشقة لشاب فقير كان يهيم بها حبا، وإنه بعد أن رأى عذاب أبويها وهما يقاومان عبثا كيد الإنجليزي وتهديداته، طلب منها أن تتركه وتستسلم لقدرها، وهذا زاده عذابا فيما بعد، فتمضي الحكاية لتقول: إنه كان شاعرا، ومغنيا ذا صوت جميل، فأصيب أثر فراقها بلوثة عقلية، فهام على وجهه في شوارع وطرق كركوك، يبكي ويضحك وينشد أشعارا يلحن فيها الانجليز مرردا " المحتل ينتزع من البلاد التي يحتلها أجمل ما فيها، ليغرس مكانها أقبح

ما عنده" وإنه ظل يسعى حتى وصل إلى حجرة مدير شركة نفط كركوك فسكب حولها صفيحة نفط ، وأشعل بها النار، ملقيا نفسه فيها صائحا ، "أيها الإنجليز كما أحرقتونا بنفطنا احترقوا معنا ولو لمرة واحدة" ولكن المدير الإنجليزي كان في مطعم الشركة مع أصحابه في تلك اللحظة يحتسي البيرة المثلجة، فاحترق العاشق المسكين لوحده! ثمة من يتحدث انه بعد أن مات والدا فاطمة، ونشئت أشياء البيت بين أخوتها وأخواتها المتفرقين، ولم يكثرثوا لصورة شقيقتهم، استطاع جار لهم كان يعرف حكايتها، أخذها واستثمرها بذكاء، أرسلها مع أحد أقاربه إلى بيروت فطبع منها نسخا كثيرة وأخذ يتاجر بها، بذلك بعثت فاطمة من جديد، صارت صورها تعلق في المقاهي والمطاعم وعلى جدران قلعة كركوك، أسموها نجمة كركوك، وقمر التبان ،والفاتنة التركمانية، وضحية الاغتصاب والظلم، وراحوا يألفون لها ، الأغاني والترانيم الحزينة التي اشتهرت منها أغنية تناديه (يا ابنة التبان ذات الأربعة عشر ربيعاً، غابت الشمس خلف التلال ، تعالي هنا، القلوب تبكي مع الينابيع، والطيور لا تقوى على الطيران، والصخور تنفتحت مع الريح) وما تزال الأغاني التي تترنم بها حية مؤثرة حتى اليوم يغنيها التركمان في أعراسهم، وختان أبنائهم، وأفراحهم، وينيمون عليها أطفالهم !

**(21) الحكاية الأكثر فجيعة لفاطمة
حدثت في كركوك، لكن نجمتها
الساجرة بسطعت في مياه الأهوار!
قررت أن أكون تحت تلك السماء، وقد
اخترت الحب المستحيل!**

عاد صوت سليم يأتي مخرشا بدخان التبغ الثقيل:

- ومع أن حكاية التركمان عن فاطمة قوية ومؤثرة، وتكاد تكون مقنعة، لكنها ظلت تسمى بنت المعيدي وبزغ نجمها فوق الأهوار، وليس من أي مكان آخر، والناس هناك يؤكدون أنها أبنتهم، وبرهانهم أن الإنجليز، دخلوا من الجنوب عام 1914 وان الصورة بدأت بالظهور في العشرينات، سنوات كافية لبدء حب ونموه وانتكاسته، والإنجليز لم ينتشروا في كركوك إلا بعد بدء شركاتهم بالاستحواذ على النفط فيها، وكانت آنذاك صور بنت المعيدي قد انتشرت في كل مكان! بقيت شاردا مع هذه الاحتمالات أو الادعاءات لسيرة الفتاة ومصيرها، المتكرر فيها دائما وجه ضابط انجليزي غاصب، بسحنة وحشية، قلت:

- أنا خجل مما فعله ضابطنا الإنجليزي!

قال سليم مبتسما:

- أسلافنا أيضا خلال حروبهم فعلوا ذلك، يصعب أن ننتظر من الحروب شيئا آخر!

- يبدو إن كل جماعة تنسبها لنفسها، لتقول أن الجمال لدينا وليس لدى الآخر!

- نعم ثمة صراع خفي بين الطوائف والقوميات في هذه البلاد، ليته يبقى يدور حول فتاة جميلة، ولا يتفجر حول أي شيء آخر!

وجدتني أو اصل معه حديثا في جو السياسة سألته::

- ألا يكفي التمسك بالجمال لدحر الشر؟

- ليس العنف دائما الطريق الأمثل لكسر العنف!

سكت فجأة، اعتراه وجوم قال:

- أعتقد أن اليوم الذي تخفي فيه هذه الصورة عن أنظار العراقيين، سيكون يوم شؤم ونحس، فلا صورة أخرى لهم بعدها غير صور الحروب مرة أخرى!

شعرت وكما الحلم أن حكايتها تسقط في قلبي مثل حمامة جريئة، بطلق ناري من صياد يترصدها، وإن قلبي صار نهرا جاريا، توقف عن الجريان فجأة ليحتضنها، وسيظل متوقفا متفكرا، حتى يعيدها للحياة سعيدة. قلت في نفسي أنها من الممكن أن تكون بنت المعيدي مربى الجاموس، أو بنت التبان التركماني أو الآشوري الآتي من تاريخ مديد، أو الكردي المنعزل في الجبل، أو بنت أي أناس آخرين، لكنني الآن أميل لاحتمال أنها بنت المعيدي، وإن أهلها الآن في الأهوار، ليس فقط لأن أهل الجنوب هم أول من احتك بالإنجليز، حين دخلوا عبر شبه جزيرة الفاو، بل لأن قلبي يحسها امرأة نهضت من أساطير المياه الشاسعة، دون أن أغفل الاحتمالات الأخرى! لا أدري هل كان هذا حلما، ومضة باهرة أم قرارا صائبا! انفجر سليم فجأة بضحكة جعلتني أنظر إلى وجهه مستطلعا، قال تذكرت ما أضافه الشيوعيون لحكاية بنت المعيدي، فهم يقولون أن المخابرات السوفيتية بأنشطتها الإنسانية والخيرية المتعددة، ووقوفها إلى جانب المضطهدين في العالم، استطاعت اختطاف بنت المعيدي من لندن وتهريبها إلى موسكو، وهي الآن تعيش في بيت فخم قريبا من الكرملين، وقد تعلمت الروسية وأخذت تنظم بها الشعر، وقد صار ستالين يتردد عليها يحتسي كؤوس الفودكا أمام وجهها الجميل مصغيا لقصائد تمدحه بها

وتغنيها بصوتها الشجي وإنه سيبقى يحتضنها حتى ينتصر
الشيوعيون في العراق؛ لتعود وتنفذ حلمها العظيم في تحويل
الأهوار إلى فينيسا الشرق. راح يداري جمر أركيلته وهو يقول:
حقا لا أحد يسبق الشيوعيين في صناعة الأوهام! وجدت في
مكتبة مكنزي صورا لها بطبعة لبنانية وعلى ورق صقيل فاخر،
فاشتريت واحدة؛ وضعت لها زجاجة وإطارا خشبيا مذهبا،
صرت أضعها أمامي حيثما حللت! أتأملها دون ملل أحدثها
وتحدثني بصمت وهدوء ودون وجع الرأس الذي يصاب به
الأزواج عادة، وكنت أعجب لعجزي عن معرفة حقيقتها ، أقول:
لقد اكتشفت الربع الخالي الذي تربو مساحته على 640 ألف
كيلو متر مربع، وأعجز اليوم عن اكتشاف حقيقة
صورة، مساحتها أقل من متر مربع واحد! ضحكت من نفسي،
هي لا يمكن أن تؤطر بنفس إطار صورتها؟ هذه سذاجة ، هي
عالم لا أستطيع اكتشافه، حتى لو كنت اكتشفت كل صحارى
وبحار الدنيا! وأعود أناقض نفسي: حتى إذا لم تكن هذه الفتاة
حقيقة فإن لدي ما يكفي من الخيال لجعلها حقيقة ، أو بالقدر الذي
يشدني إليها أكثر! أرى الناس في المقهى يتطلعون إليها فأحس
أنها موجودة حقاً وليست وهما قد اعتراني، وإنها لي وحدي،
تنظر لي دون الآخرين، نظرة غامضة عميقة أطلقتها قبل سنين.
اسمعها تسألني أيرضيك الذي وقع لي؟ اختطفني، بالأحرى
اغتصبني ضابط من قومك وأنا عزلاء ضعيفة، أنقذني، سأحبك
بإرادتي، تعال، سنعيش الحب الجميل! عزيزتي أجاتا، فجأة
رجعت مراهما، كائي لم أر جميلات في بريطانيا أو في أماكن
أخرى، ، صرت عبر وجهها أرى جسدها وأتأمل مفاته، كل
حواسي وغرائزي تفجرت نحوها بعد ما دفنت طويلا تحت
رمال الصحراء الساخنة، فجاءت حاملة ظمأ الرمال دفعة
واحدة، وجدت وجهها وجسدها يتناغمان كما الغابة والقمر الذي
ينيرها ليلا! بعد أيام وجدت أن شوقي الجسدي نحوها هو قسوة

عليها، وعلي أنا أيضا، فتوقفت عنه، نادما خجلا، وجدتها مشاعر فجة وحيوانية حقا، صار تطلعي لها يقوم على الحرمان، والحزن المبكر خشية الفقدان، وبقدر ما كانت تبدو البنت مستحيلة كانت تصير أملا وتحديا، لن يذهب بحثي عنها سدى، أشعر إنني على ذلك الشاطئ الذي تبحر منه قوارب الليل نحو المجهول الجميل دائما! قد تسأليني لماذا أنت دائما تبحث عن الأماكن الخطرة، الصعبة القاسية، غصت في أعماقي بحثا، وجدت إن لدي ميلا لذلك منذ طفولتي، سنواتي الأولى انصرمت في الحبشة، كانت آنذاك دونما سيارات وطرق معبدة. وبعد أن عادت عائلتي إلى لندن وأنهيت دراستي في أوكسفورد؛ عشت ثمانية عشر سنة أخرى متنقلا بين مناطق نائية في أفريقيا، والشرق الأوسط، مع أناس يتسمون بالعفوية والتكشف والذكاء الفطري، لا يسعون للشهادات الأكاديمية، ولا الملابس الغالية المبهرجة، طعامهم وشرابهم كقوت كالطيور. تغمرهم القناعة والرضا المفقذتان في الغرب منذ فترة طويلة. هذا جعل من السهل علي أن أعيش في الصحراء والمستنقعات. وأعاشر البدو والفطريين والبدائيين. نفرت من السيارات والراديو والسينما والطائرات؛ ولا أستعملها إلا اضطرارا، لا أتذوق السعادة إلا حين أكون مع راع في البرية، صياد في البحر، مغامر في الغابات، طيف أو شبح في أي مكان من هذا الوجود الشاسع الذي أعظم أمنيأتي أن أتجول في أرجائه كلها! مضت ميولي إلى حد قصي، يسحرني كوخ من القصب مملوء بالدخان، مع رجال ونساء وأطفال يقتسمون سمكة ورغيف خبز مشويان على الجمر! هؤلاء أبناء السماء، قبل أن يكونوا أبناء الأرض! ثم الآن اخترت الحب المستحيل! سافرت في اليوم التالي للقائي سليم، إلى الناصرية، كنت أفكر كيف أجد الطريق إلى الأهوار، رغم إنني حصلت من وزارة الداخلية العراقية وبتوصية من سفارتنا في بغداد على تخويل لي بالتجوال في منطقة الأهوار. ويوصي

موظفي الإدارات المحلية بتسهيل مهمتي الاستكشافية! بالطبع هم لا يعرفون مهمتي الغرامية لا أحد حتى في السفارة البريطانية غير صديقي كولون يعرف إنني عاشق ذهب يبحث عن محبوبته على هذا الغمر الهائل من المياه حتى إنه قال ضاحكا "أخشى أن تجدها نصفها حورية ونصفها الآخر سمكة"، كولون هذا رغم جسمه الضخم لديه لسان عصفور لا يكف عن الزقزقة!

(22) سألني أجئت من بلاد الإنجليز لتأخذ المعرفة من المعدان وجواميسهم؟ ماذا أقول له؟ وسمكة تقفز فوق الماء تلقي في قلبي حكمة الكتب كلها!

نزلت في فندق بالناصرية، يعد أفضل فنادقها القليلة، متوسط الحال، نظيف والخدمة فيه معقولة وثمة أمان وطمأنينة، أعجبتني في أهل هذه المدينة عدم تحسسهم من الأجانب. استيقظت متأخرا، كنت متعبا من رحلتي، رأيتها تطل عليّ بعينها الجميلتين ووجهها المتورد من فوق طاولة مدير الفندق، كأنها قد ازدادت جمالا بعد رؤيتي لها في المقاهي والمطاعم البغدادية! تذكرت ما قاله لي سليم البكري، أن كثيرا من الشبان لهم نزواتهم وأحلامهم الجنسية معها كل ليلة؛ كيف حولوها إلى غانية للجميع؟ ترى هل تشاركونهم هي نزواتهم؟ هل استطابت اللعبة، هل تستطيع إرضاءهم جميعا، أية مهمة قاسية ألقيت على كاهل هذه الفتاة الطيبة، شعرت بالغيرة حقا، وبالعجز أنني لا أستطيع إنقاذها من مصيرها المحتم ، مغتصبة من إنجليزي، ملكية عامة لأصحاب نزوات الليل؟ بشكل ما ذلك زادني عزما للبحث عنها، حتى إذا لم تحبني سأحاول أن أعمل شيئا من أجلها، هل يكفي حبي لها؟ أقنعت نفسي أنها لم ترافق الضابط الإنجليزي، رغم كل ما قدم لها أو لأهلها من مغريات، عطفته عليه وسمحت له برسمها أو تصويرها، لكي تبعد شره عن عائلتها. هي ما تزال هنا تعيش بين أهلها في الأهوار ، ممتعة عن الزواج وإن هذه اللوحة ستزين صدر بيتنا الصغير البسيط ، ولتظل صورها لدى العراقيين من شاء تسمو بها روحه، أو يفخر بها تمثل جمال وشموخ بلده، أو يستعملها لحواسه

وشهواته!

تحدثت مع مدير الفندق، وصاحبه أيضا، يعمل مدرسا للغة الإنجليزية في ثانوية المدينة، تحدثت معي بانجليزية سليمة، وقال أنه يقرأ كتباً بالإنجليزية في الفكر الحر، سألتني عن سبب مجيئي إلى الناصرية، وقد دهش حين عرف أن وجهتي الأهوار، قلت له "قدمت لأدرس أحوال هذه المنطقة الغربية المجهولة في العالم"، وقد أيدني في مسعاي قائلاً، هذا عمل تشكر عليه! فهو لاء أناس معذبون والمسئولون لا يفكرون بإنقاذهم ودمجهم بالمدينة الصاعدة في بلادنا، يريدونهم معلماً سياحياً فقط، دون توفير مستلزمات السياحة! ولكن عليك أن تحذر فبيئتهم قاسية يصعب عليك أن تجد فيها ماء نظيفاً، موبوءة بأمراض كثيرة، يترصدك فيها البعوض والأفاعي وحتى الخنازير البرية! صمت برهة سحب نفساً عميقاً من سيجارته، قال هناك ثمة جو عدائي خطر ضد الإنجليز، قد تقتل هناك لمجرد كونك إنجليزياً! انصرف ذهني إلى الضابط الإنجليزى الذي خطف ابنتهم قلت تقصد الضابط الذي خطف بنت المعيدي، ضحك قال: لا هذه حكاية! ولكن هنا في الجنوب كما تعرف دارت قبل حوالي ثلاثين سنة حرب بين الإنجليز والأهالي، ذكرياتها الأليمة ما تزال ماثلة في أذهان الناس، وكثيرون فقدوا أفراداً منهم في الحرب و يتحرقون للانتقام!

بقيت صامتاً أتأمله، لم يفاجئني تحذيره فهو لم يرغب عن بالي في تنقلنا في كل مكان في العراق، استوقفني قوله أن بنت المعيدي "حكاية"، هل يعني أنها مجرد طيف شبح بطلة وهمية، سألته:

- ما هي حكاية بنت المعيدي حقاً؟

رفع بصره ومط حاجبيه، فالصورة معلقة فوق رأسه، ضحك قائلاً:

- هي فتاة يبهرني جمالها حقاً، قد تكون حقيقة وقد تكون خيالاً، ولها حكايات كثيرة، وما دمت ستذهب لدراسة أحوال المعدان فأنا أنتظر منك أن تصل إلى حقيقتها!

أعجبني كلامه وزادني ثقة بضرورة رحلتي! كان لزاماً علي أن أراجع متصرف المنطقة، حاملاً إليه رسالة وزير الداخلية، وجدته جافاً متحفظاً، أوعز لموظف بمنحي ورقة كتب فيها "يسمح له بالتجوال في لواء الناصرية والتقاط الصور وأخذ عينات من التربة (عدا ما يتعلق منها بالنفط) وماء وسمك وطيور المنطقة، وتقع على مسؤوليته ما قد يقع له من مشكلات أو أخطار جراء اختلاطه بالناس أو الذهاب في مغامرات غير محسوبة العواقب" ضحكت في سري، وأنا أوقع على الورقة "لا يوجد فيها بند يحرم علي البحث عن بنت المعيدي!" لو كان هذا المسئول يعرف بغرضي من هذه الرحلة لما سمح لي بذلك، ما عرفته من طبائع العراقيين جعلني أتخيله يثور، ناهضاً من كرسيه ليطرمني صائحاً في وجهي "أنا هنا متصرف، نائب الملك، لست قواداً أيها الكلب الإنجليزي!" بعد أن انتهيت من سلطة الحكومة كان علي أن أحصل على إجازة سلطة الإقطاعيين الذين يرون أنفسهم هم الحاكمون الحقيقيون لهذه الأرض والناس! قصدت أطراف الريف المطل على الهور كأنه يطوقه أو يحرسه. كانت القرى أشبه بمملكة مستقلة للإقطاعي مجيد الخليفة وابنه فالح، اللذين استنكفا عن مقابلي، لكن فالح أوعز لمساعدته إعلامي للذهاب إلى سركاله المدعو صدام لينظر في طلبي! قابلني السركال منذ اللحظة الأولى بتحفظ، وب نظرة عدائية وشك واضحين! من عادة العرب أن لا يسألوا الضيف

عن غايته أو حجته إلا بعد اليوم الثالث لنزوله عندهم، سألني السركال منذ الساعة الأولى لنزولي في مضيفه :

- ماذا تريد يا صاحب، ما هي غايتك؟

وهنا أيضا كما تعرفين يسمون الإنجليزي "صاحب" وقبل أن أقول شيئا، قال :

- لقد أرسل لي فالح رسالة يقول فيها أنك ترغب في زيارة الأهور، ماذا تريد من أهل الأهور، هل أنت تعمل عند الحكومة ؟

ولم أعرف ماذا يقصد بالحكومة ؟ الإنجليزية أم العراقية؟

- جئت إلى هنا فقط لأنني أسر برؤية الأماكن المختلفة، وبالناس متنوعي الأجناس والأشكال!

ظل ينظر إليّ بريية ونهم، تصورته من أكلي لحوم البشر، وإنه يتفحص جسدي إن كان فيه ما يكفي من اللحم للقضم، في تلك اللحظة كرهته وخفته كثيرا، وقلت في نفسي أي حب هذا الذي سيجعلني وليمة دسمة لدى أهل المحبوبة، سألني:

- من ينفق عليك؟ ما الراتب الذي تحصل عليه؟

وتنفست الصعداء، الرجل يريد اقتسام راتبي معه، وليس أكلي نيئا أو مشويا، لم أجد مناصا من تخييب أمله، قلت:

- ليس لدي راتب، أنا انفق مما لدي وهي هنا لا تكلف شيئا كثيرا، أنا رجل فقير ومتقشف في عيشي!

خفت أن يعرف إذا عرف لدي بعض المال فقد يقتلني ليأخذه! هكذا فكرت، كنت في بداية دخولي عالمهم!

راح في صمت دام دقيقة أو دقيقتين، كانتا طويلتين علي جدا، لذا أضفت:

- لقد تجولت في الحبشة وفي العديد من الدول العربية والأوربية أنا انشد المعرفة.

وجاءني صوته مندهشا زاعقا منتهرا:

- من المعدان؟ جئت من بلاد الإنجليز تنشد المعرفة من المعدان؟

- المعرفة موجودة في كل مكان، ولدى جميع البشر!

هنا تذكرت أن هذا الرجل ليس من المعدان بل من عرب الجنوب الذين ينظرون للمعدان بازدراء، ويفخرون بانتسابهم لقبائل عربية كبيرة معروفة الأنساب قدمت من الجزيرة العربية، فرحت أنه ليس من أولياء أمر محبوبتي ليلحقني أو يقتصص مني، صار صوته اقل عنفا وحدة:

- هذه حماقة منك أن تعيش مع المعدان، أنا أريد راحتك لا تذهب للعيش مع المعدان! المعدان كجواميسهم يأكلون ويشربون ويتغوطون في الأوحال، أكوأخهم غائرة في الماء، تعج بالبعوض والبراغيث إذا نمت في كوخ لهم؛ فمن المحتمل أن تدوس جاموسة على وجهك وتهرسه، وهم جوعى دائما لا يملكون شيئا، ليس لديهم سوى الرز المتعفن، والحليب الذي يسبح به الذباب!

- ما جئت لأغير حياتهم، فذلك شأنهم، أنا جئت لأتعرف على حياتهم وأوضاعهم فقط.

عندما لمس إصراري على العيش بين المعدان قال بعدم اكتراث:

- هذا قرارك، ذنبك على جنبك، أي شيء يحدث لك نحن غير مسئولين عنه، ولكن أنصحك أن تتخذ لك حارسا ونوتيا لقاربك من المعدان فهم يعرفون بعضهم، ويمكن أن يطلع فيهم طييون

يحمونك! صمت فجأة وبقي صامتا يرمقني مستثقلا وجودي،
وكما توقعت لم يدعني للمبيت في مضيئه الكبير! خرجت
مفكرا، من حسن الحظ أن هذه البنت التي ابحت عنها لم تكن
ابنة إقطاعي أو سركال، أو تاجر كبير، هل هي كانت بالصدفة
كذلك؟ أم لأن حكايتها كانت مجرد حكاية، وما كان بالإمكان
جعلها ابنة رجل قوي جدا، لا يجرأ لا الإنجليزي ولا غيره
مسها؟ بالطبع لم اسمح لفكرة أنها حكاية أن تستقر في ذهني، هي
ليست بنت إقطاعي فقط، لأن بنات الإقطاعي لا يذهبن لبيع
الروبة قرب ثكنات الإنجليز، هن محصنات مدلات في
الخدور، هكذا تقول الحكايات أيضا! ركبت قاربا من مرسى
خشبي مخلع على ضفة النهر. بعد مسار مائي متعرج
ومضطرب لحوالي ساعة؛ ألقاني القارب ضحي عند أقرب
صريفة في هذا التجمع الكبير من الصرائف الطافية حول الماء
والذي يدعى مدينة الجبايش! قال لي الشاب الذي قاد القارب
وأنا أودعه: احذر أفاعي الماء، بعضها سام جدا! "السلام عليكم"
، كلمة ساحرة تشبه إشارة إنهاء الحرب، وإلقاء السلاح ونشر
الدعة والأمان ألقيتها على رجل مسن يقف أمام صريفة
متهرئة، خائضا في الماء وقد اختفى وجهه وراء أشواك من
لحيته، وردها علي بإيماءة من رأسه وصوت حزين، كالأنين،
فشعرت بالأمان! كانت أمامه مجموعة جواميس خائضة في
الماء إلى بطونها، تقف على ظهورها طيور تنقر بجلدها، سمعته
يقول: أنت الآن في الجبايش، كنت أعرف ذلك طبعاً، لكنني
حييته بيدي مع ابتسامة انجليزية جعلتها الغربة أكبر من حجمها
الاعتيادي، هل كان الرجل قد رأى حيرتي واضطرابي؟ نظرت
للماء الممتد أمامي لا حدود له، قفزت سمكة كبيرة أمامي ولمع
على جلدها مع الشمس نقش كما الكتابة قلت كأنها ألقى في قلبي
حكمة الكتب كلها، ويسألني السركال لماذا جئت إلى هنا؟ من
هذا المستنقع الهائل علي أن أبدأ رحلتي بحثا عن فاطمة، رأيت

بعينها كل أحلامي ومواجي القديمة! الجبايش مدينة مائية مكونة من مئات الصرائف مبنية من القصب والبردي على أكوام من الطين المكسد مخلوطا بعروق نبات مختلفة، تفصل بينها ممرات مائية ضحلة تكفي لحمل المشاحيف وهي قوارب صغيرة نحيلة رشيقة مختلفة الأحجام، تحيط بالصريفة، وتتدمج معها حضائر الجاموس تسرح بينها الكلاب والقطط والدجاج والطيور ويختلط أطفالهم الصغار بهم! يتواصل سكانها مع بعضهم بالمشاحيف وقوارب أخرى من مختلف الأحجام عبر مساحات الماء الشاسعة بحثا عن طير أو سمكة أو حزمة بردي وحلفاء يغذون بها جواميسهم. يصف بعض المتحضرين في المدن الأهوار بفينيسا وهذا ضحك على آلام البشر، فبيوت وعمائر فينيسيا تفخر بغناها الفاحش وبصخورها ورسوخها بماء البحر، أما هنا فالأكواخ الفقيرة الرثة الطافية في الماء مكونة من مواد هشة متفسخة تكاد تتماسك فقط بقوة أحلام سكانها وأوهامهم! يعيش فيها العوز مع البعوض والبراغيث، وقد ينام رجل وعائلته وسقف الكوخ فوقهم، ويستيقظون صباحا ليجدوا أنفسهم طافين فوق سقف الكوخ وقد انحدر بهم بعيدا! لم يأت هؤلاء الناس من المدن أو الريف، وجدوا أنفسهم يعيشون هنا، منذ عصور سحيقة، مثلما انحدروا بماء الأرض؛ انحدروا بماء الزمن، البعض يقول إنهم سومريون أو من معاصريهم! ومثل صرائف أو بيوت الجبايش هناك آلاف البيوت منتشرة على مدى هذه الحاضنة المائية الهائلة الممتدة بين البصرة والعمارة والناصرية، ماء غزير يرشح من دجلة والفرات ليجري على هذه الأرض المنبسطة، الناس عموما يسمون سكانها بالمعدان، وأنا سأسميهم منذ الآن "عرب الأهوار" هم ليسوا مزارعين بل مربو جاموس وصيادي سمك، وطيور وصانعي مفارش وحصران من القصب، هم مقطوعون عن المدن رغم إنها لا تبعد عنهم كثيرا، أحسست أنهم مرتاحون سعداء

بانقطاعهم عن هذا العالم، مستغرقون بهذه الرحلة الطويلة المتوارثة على الماء كأنهم منذ الأزل هنا، لا هدف لهم سوى وصل بداية البشرية بنهايتها!

كان الوقت ربيعاً ؛ أجمل أيام الأهوار، قالوا لي بمثل هذه الأيام حتى الأسماك ترقص في وكناتها المائية، لما يتدفق إليها من ماء وغذاء، غافلة عن نبال الصيادين الماهرين الذين تجري قواربهم برشاقة وخفة، كلما التمعت زعانف فضية، رأيت وجه فاطمة قد امتد على كل هذا الغمر الهائل، مؤطرا بسماء زرقاء صافية، ومنارا بشمس دافئة ساطعة.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. تعرفت على النوتين عمارة وياسين وتفاهمت معهما على مرافقتي وأدهشني أنهما حين تحدثت عن الأجر قالوا بصوت واحد: "ولا يهملك ما تعطينا إياه صاحب؛ نعمة من الله" دلاني على صانع قوارب ماهر، رجل مندائي يجيد مهنته، ورثها عن أسلافه المعروفين بإجادتهم المهن الدقيقة، وحرصهم على السكن قريبا من الماء؛ لأنه يدخل في كل طقوس عبادتهم ومناسبات أفراحهم وأحزانهم. صار لدي قارب أكبر قليلاً من المشاحيف المعتادة في الهور، رشيقا جميلاً بمقدمة شامخة كرأس إوزة عراقية رافعة عنقها بشموخ، التقيت في ورشة الرجل المندائي رجلاً من العرب الساكنين على أطراف الهور، جاء ليصنع زورقا له، كان بثياب افرنجية، شجعتني هيئته لمحادثته، سألته:

- من هو المعيدي في نظرك؟

رد بنبرة واثقة:

- كل من يربي الجاموس، يعيش معه، ويعتاش عليه؛ هو معيدي!

- وإذا ماتت جواميسه، أو تخلص منها، هل سيبقى معيديا؟

قال بزفرة ثقة مرت عبر أنفه الأسمر الطويل:
- ستظل رائحة الجاموس تلاحقه حتى آخر حفيد له!
- أليس ظلماً، أن ينسبوا للجواميس كأنهم خرجوا من
أرحامها؟
شعرت إنه متحامل عليهم، رد بجفاء:
- جرب أن تعاملهم بغير ذلك، وتحمل النتائج!

(23) أخيرا نمت في بيت من القش يطفو على الماء كأنني في رحم الغيب، لم أولد بعد!

كانت نقلة مدوخة لي، من الربع الصحراوي الخالي، إلى الربع المائي المزدحم بالحياة، من رحلة بين الرمال والأشواك والأفاعي والعقارب والزواحف القاتلة؛ إلى رحلة بين السمك، والبط والطيور، وثعابين الماء، والقصب وأجساد البشر الجميلة أو الهزيلة، من شمس لاهبة، جافة، إلى شمس ممزوجة بالماء؛ حلوة عذبة، مرة ملوثة! من الطير المستوحش بين الكثبان المتقلبة، إلى الطير الراقص فرادى وجماعات فوق شمس مفروشة على القصب الأخضر. وجوه بدو الصحراء الملوحة باللهب والرياح والظمأ، ثم وجوه بدو الماء المصفرة من المرض والأحزان والعزلة الطويلة! سأخوض هذه السديم المائي الهائل بحثا عن فاطمة الجميلة، هل سأجدها؟ لماذا تركت خلفي لندن الغاصة بالفتيات الجميلات، وغواني البارات الحسنات لا يكلفنني سوى جنيهات قليلة للوصول إلى أسرتهن الساخنة؛ وآتيت هنا أخوض في أوحال الأهوار، ومياهها، وثعابينها ودودها المتسلل إلى الأكباد بحثا عن فتاة مع كل جمالها وشهرتها لا تزال غير مؤكدة الوجود، أقرب للوهم، أو لحلم البعيد! أخيرا نمت في بيت من القش يطفو على الماء كأنني في رحم الغيب، لم أولد بعد! ينقبض قلبي حين يخامرني شعور أنني لا أمل لي بها، إذا كانت قد تزوجت، خطفت، أو اغتصبت، قبل ثلاثين عاما تقريبا، تكبرني كثيرا أو ربما ماتت وانطوت ولا يمكن أن تكون لي! فلم هذا العناء وهذا التطلع المؤلم، لكنني أقول الحب الحقيقي لا يشترط التملك، ووضع اليد على

المحبيب كما الزواج الشرقي. صار حبي لها دون غاية جسدية أو حسية قد تهبط بمشاعري إلى الحضيض. صار ألمي أن أراها يوما، حية، أو حتى أن أصل إلى حقيقتها فقط. كنت أدرك أنها ولكونها من هذه الأرض الملتهبة دوما، فإن على كل عواصف التاريخ ، حروبه وجنونه ومطامحه أن تهدأ في جسدها الجميل لتكون لي، وأكون لها تماما، فتسعدنا الليالي المقمرة، والمظلمة، هل هذا ممكن؟ لا أدري، ولكن لا بد من الحلم، لا بد من الوهم! أعرف إن بحثي سيكون طويلا ، وإن النهاية قد لا تكون سارة، أليس هذا ضريبا من الجنون؟ ألا يحق لصديقي كولون أن يسخر مني، ويصفني بالمعتوه، و بالأبله أو الأحمق الباحث عن حورية البحر، نصفها فتاة جميلة مخبولة، ونصفها الآخر سمكة جائعة؟ ولكن مع كل ذلك هل يوجد حب عظيم دون طيش وأوهام؟ هل يوجد عاشق حقيقي غير مجنون؟ ينبغي أن ابحث عنها بهدوء وحذر فإلناس هنا رغم بساطتهم وطيبتهم، متعصبون متزمتون وقد يقتلونني إذا عرفوا أنني جئت أبحث عن فتاة منهم ، التزمت التكتم حول كل شيء! لم أ جلب صورتها معي، أودعتها لدى صاحب الفندق البغدادي. وقررت أن لا أتحدث مع مساعدي ياسين وعمارة حولها بشيء إلا بعد توثقي منهما، وتعهدهما بكتمان السر! سحرني في الأهوار السكون البكر المتوهج منذ بدء الكون؛ لم يفتضه سوى صوت طائر عابر، فحيح ثعبان، زعيق إوز يرحل أو يعود، بط يحاول أن يطير، غناء فتى يافع في الظلام يناجي حبيبة مجهولة، هي ذاتها في مكان آخر تغني له أو لحبيب مجهول دون أن يلتقيا. هذا ماء يجري هادئا كأنه متوقف ، كأنه لم ينحدر منذ بدء التكوين من جبال شاهقة مكلفة في الثلوج في أواسط آسيا هنا ينبسط جسدا نائما، تعلوه شمس تفيض عليه ساعات طويلة، وحين تغرب تسحب خلفها القصب الأخضر، لهب مواقد تشع عليها أقراص خبز الرز. بيوت طافية على

الماء ، بينما شعور أصحابها أنها على مستقر صلب والنجوم تتراقص حولهم مطمئنة ، لا صوت محرك آلي يلوث هذا السكون الجميل، نعم يا أجاثا هنا آلاف السنين تذوب في الماء، وأنا احتسي منها كأني عاشق مهجور يعاقر كأسا لانهائية ، كيف لا أحب هذه البقاع التي ولدت فيها فاطمة، وشبت وحلمت كثيرا قبل أن تعصف بها الأقدار! لي أمل أن أجدها فتغدو كل هذه المتاعب ذكرى مرحة، لا بد أن يلوح لي بصيص من النور يهديني إليها، الحياة هنا يا عزيزتي بقدر ما هي جميلة لكنها خطيرة جدا. يكفي أن تلتهب الزائدة الدودية لدى شخص فتقتله حيث يصعب الوصول إلى مستشفى! لم تمض أيامي هنا دائما بيسر وراحة، سرب الطيور القادم من شمال أوربا هنا ترصده فوهات البنادق قبل العيون، اكتنفت حياتي هنا غصات وصدمات! انظري كيف استقبلني احد الشيوخ في مضيفه، عندما نزلنا عنده أنا ومساعدتي ياسين وعمارة ضيوفا كما هي عادة جوابي الأهوار حين يجن الليل أو يبدأ الغروب منذرا بالظلام الدامس! جلب الخادم صينية فيها أطباق دجاج مقلي وسمك مشوي ورز وخبز ومرق. طبقا لأوامر الشيخ وضعت أمامي على منضدة خشبية صغيرة مزعزعة. دعاني الشيخ للأكل، حسبته سيأكل معي على عادة شيوخ العرب مع ضيوفهم حين يحترمونهم، لكنه لم ينضم لي؛ لذا طلبت أن توضع الصينية على الأرض ليأكل معي مساعدتي ، قال الشيخ بحزم، وفضافة:

- لا ! كل حيث أنت، لا توجد مشكلة، صاحبك سيأكلان فيما بعد!

ألححت على إنني أفضل الأكل على الأرض، كما هي عادتي مع جماعتي، لكنه رفض، قلت:

- هذه ليست طريقة في معاملة الضيف!

فطل صامتاً يرمقني بوجوم وغضب. أخذت لقمة، امتناعي عن الأكل نهائياً يعد إهانة للمضيف لا تغتفر، ولا اعرف عقابها. وقفت، طلبت ماء لغسل يدي، أخذ الجالسون ينظرون للشيخ، سألني:

- ما ذا حدث؟

- لاشيء! أشكرك لقد انتهيت!

قال الشيخ صارخاً:

- أووو ، دعوه يأكل على الأرض كما يرغب!

شكرته ثانية وطمأنته بأنني اكتفيت، عدت إلى مكان جلوسي، وبعد وقت قصير؛ غادرنا أنا وصاحباي اللذان اكتفيا بتناول لقمة مجاملة، كانا مرتاحين لامتناعي عن الأكل، ردا على تصرف الشيخ. خرجت ليلاً من مضيفه، السير في الليل في الطرق المائية صعب وخطر، فالرجال هنا ينامون بعين واحدة، العين الأخرى ترقب الطرقات فإذا مر مشحوف ولم يعلن عن نفسه أو وجهته فقد يعتبره صاحب البيت عدواً، وقد يطلق عليه النار، أو ينشب فاله في صدره؛ لذا فمن الضروري حين المرور بالصرائف الجاثمة على الماء إيقاد شعلة حتى ولو عود ثقاب، وانتظار سؤال صاحب البيت من العابر لترد "صديق .. صديق" وتسمع "يا مرحبا بالصديق"، ويسألك: من؟ فنقول اسمك ووجهتك فيعيد صاحب البيت الترحيب، وقد يعرض عليك المساعدة ليوصلك إلى غايتك. عادات بسيطة، ولكن لو أخطأت فيها لقتلت؛ أو أصبت بأذى كبير، عالم مغامرة وجدته يليق بحبي لفتاة جميلة كالحلم، صار يضحكني حب في أوربا كل تكاليفه غمزة عين لينتهي بعد لحظات في السرير؟ لأشهر لم أذهب إلى مضيف ذلك الشيخ الذي عاملني بفضاظة. عند مرورنا مضطرين بالطريق المائي المحاذي لمضيفه، صار هو ينبري لدعوتي بإلحاح. لببت دعوته لأنني لا

أميل لخلق عداوات، لا داع لها. صار ما أنزل عنده، حتى يجلب طعاما وفيرا من السمك ولحم الطيور وخبز الرز، يضعه على سفرة أرضية، وكان يصبر أن أبقى معه الليل ثم أوصل السفر فجرا، غدا لطيفا، وعرض على صداقته، بقيت أحترمه، وأنزل عنده كلما دعاني، لكنني لم أحبه أبدا، ولم أقصده عامدا! مع كل هذه الأجواء الفظة المنفرة فإن حبي لفاطمة جذبني. لهذا الشعب الغريب المبعثر فوق الماء. وجعلني أحتمل مصاعب العيش بينهم، ودفعني لمحاولة دراسة أحوالهم؛ أصولهم وعاداتهم وواقعهم كله. ما أستطيع أن أشخصه أن عزلتهم الطويلة رسمت على وجوههم وبعمق حزنا وتوترا غامضين، أتذكرين يا أجاثا الجولة التي رتبها لكم في الأهوار ونقاشنا في أحوال سكانها وتاريخهم؟ وكيف اختلفنا حول آراء الدارسين لتاريخهم، فهناك من قال: إنهم بقايا السومريين والأكديين والبابليين، بعد انهيار حضارتهم بملوحة التربة أو بالغزوات، وأنهم تحصنوا وراء أسوار الماء والقصب الفارع محافظين على جو روحهم الأولى وعاداتهم القديمة، وهربا من ملاحقة أعداء مجهولين لهم، آخرون قالوا أنهم قبائل نزحت من الهند وإيران مع جواميسهم اثر موجة جفاف طويلة، بعض يقول أنهم عرب هاجروا من الجزيرة هربا من رمال القحط والمجاعات القاسية لانقطاع المطر سنوات متتالية. واستوطنوا هذه الأرض الطافحة بالماء ومثلما كانوا بدوا رحالة في صحارى الرمال؛ صاروا بدوا رحالة على الماء. كان رأي ماكس والعالم لومبارد هو أن من الصعب الجزم بأي منها، فالأمر يحتاج لدراسات أكثر عمقا، رغم أن ما يلهب خيالي هو تصوري أن معشوقتي هي حفيدة للسومريين! وإن لوجدانها امتداد طويل في التاريخ! ولولا وجود جذوة غامضة في أعماقها لما أثارت عواطف ومشاعر هذا القدر الكبير من العراقيين! هم اليوم غافلون عن الدنيا والعالم كله، ما يقال عنهم

وما لا يقال! تطفوا بيوتهم كريش البط في خفته، تهدد نومهم وأحلامهم الأسماك والضفادع وأفاعي الماء، لا يحسون بأسراب البعوض والحرمس التي تنهش جلودهم، لا يستيقظون إلا على أصوات ضروع الجواميس وهي تتفجر بالحليب الدسم جدا، فيهبون بأوانيهم إليها مع أصوات الطيور المغردة للفجر، وحين تطفح أوانيهم المعدنية بالحليب والقيمر والزبدة تذهب فتياتهم الجميلات الجريئات لبيعه لأهل المدن القريبة. تتفاوت بشرتهم بغرابة سمراء أو شقراء وعيون واسعة مفتوحة مستطلعة رشاقة، قامة مشوقة، كل ذلك بفضل السمك واللبن والطيور وحلوى القصب والنباتات المائية، وحركتهم الدائبة على طرق الماء يحفظون خرائطها عن ظهر قلب! رأيت بينهم نساء جميلات جدا، وصرت أقرب للاعتقاد أن "فاطمة" هي ابنتهم . جمالها وجلستها الوداعة الواثقة تدلان على أنها نشأت في أسرة تمتلك الكثير من الجواميس والمشاحيف! الناس هنا يتعايشون مع أمراضهم سنوات طويلة النساء هنا يذوين ويعجزن قبل الأوان! يخيل لي أن فاطمة قد أخذت من جمال الأوربيات كما أخذت من روح الشرق وهالته الروحية وهذا أراه أنا في عينيها ونظراتها الحالمة! (أتحدث عن جمالها يا أجاثا ولا أنسى جمالك الذي يصفونه بالاسكندنافي) لسع ماكس مرة أخرى، ألقي الأوراق من يده، هل إيماءات وإشارات تيسجر بريئة؟ أم هي خبيثة لها أوثق العلاقة باختفاء أجاثا؟ يبدو إن ولفريد كتب رسالته في أوقات وأمزجة مختلفة، كان ماكس يتوقف بين بعض الفقرات والسطور تاركا لمخيلته وذنه يسرح بعيدا متأملا محلا الكلمات والإشارات عله يجد ما يضيء له اللحظة الصعبة التي هو فيها الآن، توقف عند استنتاج مفزع، أن تيسجر يحاول أغراء أجاثا لرفقته في رحلاته، لإيقاعها في حباله، هذا جوهر وفحوى رسالته ، ما هذا الهراء؟ كيف يتجرأ على هذه المحاولات الخطرة؟ أهو يقصد ما يقول حقا؟ أم هو فقط يشطح

في خياله وأوهامه؟ أيرى أن أجاتا صبية مراهرة غبية دون تجربة ولا خبرة ولا ذكاء لتطويعه في وعوده أو دعواته الساذجة البائسة؟ أيعتقد إنه المعشوق الذي لا يمكن لأية امرأة أن تقاوم جاذبيته؟ بهذا يفقد وقاره وهيبته واحترامنا له؟ لا يمكن لأجاتا وهي العارفة بخبايا النفس البشرية وما يعتمل في أعماقها من نزوات واندفاعات أن تخدع بالأعْييه ومكائده، هي في طلبها رسالته لم تكن تقصد أكثر من الغرض الأدبي، أنه يحاول بقلمه تفتيت صخرة صلدة! أهى الغيرة؟ أم إنه قد وقع في حبها دون إرادته؟ وما حكايته مع بنت المعيدي سوى قناع مضحك؟ يتقافز هنا وهناك، الربع الخالي، بادية الشام، الهور، بادية الشام، الوهمية إلى بنت المعيدي، ثم الدوران حولنا؟ ماذا يريد هذا المجنون؟ أيريد أن يبني سعادته على تحطيمي وتمزيق قلبي؟ أم تراني مخطئ، وهو لا يقصد إغواءها، وإنه جاد وصادق في محاولة إعطاءها مواضيع روائية يعدها أهم من مواضيع الروايات البوليسية، لا ينبغي أن أتسرع في الحكم، عاد يقرأ متأنيا متفحصا متأملا!

ربما تتذكرين، أن لومبارد قال: المعدان، ينفرون من التعليم والثقافة، بذلك لا يمكن أن يكونوا هم أحفاد السومريين، الذين كانوا هم من وضعوا الحروف الأولى، أنا لا أزدري أصلهم، لكن ينبغي أن نبحث عنه في مكان آخر غير أور أو أكد. قلت له حينها: ألا يمكن أن نعزوا إدارة ظهورهم للثقافة إلى كونهم أصيبوا بخيبة أمل من الحضارة التي أهملتهم، ونبذتهم؟ قال ماكس لا يمكن لشعب أن يكره الوصول لأنوار المدينة، إذا لم يكن هناك ما يخيفهم، هناك سلطتان ترقيبهم من على الشواطئ سلطة الدولة، وسلطة الإقطاعيين وشيوخ العشائر! قلت: طيلة الأشهر الماضية التي قضيتها بينهم لم أسمع عن جريمة قتل وقعت بينهم، ربما يسرقون بعضهم، قليلا أو كثيرا، لكن

تجاوزاتهم لا تصل حد الجرائم الكبيرة، ومن يريد أن يرتكب جرائم يستطيع أن يجد في مجاهل الهور مهربا، وملاذا، قال لومبارد لكنك حدثتنا أنهم ضايقوك، قلت نعم ناكدونني وحاولوا طردي من بينهم، أعماقهم لا تحتل جسما غريبا، هذا دليل آخر على تعلقهم بأصولهم وحفاظهم على تكوينهم! تدخلت أنت لتقولي، دعونا نسمع غناء الطيور وحفيف القصب والبردي، ونملي بصرنا بأسراب هذه الطيور الجميلة القادمة من أوربا مثلنا تماما، الفرق أنها قد تعود بينما نحن وسكت، قال لومبارد: وهل أنت يا وئيسجر تريد العودة لانجلترا؟ سكت، ماذا أقول له؟ لو التقيت بنت المعيدي لعشت معها في هذه المستنقعات سعيدا، الحب لا يحتاج لعمارات المدن قدر حاجته لروح راضية قانعة حتى لو في خيمة. لكنني على ما أتذكر تحدثت بشيء آخر قلت: العراقيون لا يكرهون الإنجليز كلهم، هم يفرقون بين جندي بريطاني يرون إنه جاء لقتلهم، ومهندس بريطاني يرون إنه جاء ليبنى لهم جسرا أو محطة كهرباء! أنا سأكرس خمس سنوات من عمري، لدراسة هؤلاء الناس، أريد أن اعرفهم، ضحك لومبارد قائلا: لتعرفهم؟ أم لتتزوج ابنتهم؟

**(24) عجبت كيف اجتمعوا ضدي:
الحلاقون والشيوخيون والملالي
وثعابين الماء، الشمس ظلت تغمرني
بنورها، والقصب يغني، ويدي تختن
الأطفال بخفة منجل يحصد البردي!**

فتشت عن أي عمل أستطيع القيام به ويساعدهم على تحمل
صعاب حياتهم، وجدت أن الحلاقين يقومون بختان أولادهم
الصغار، وبطريقة بدائية وغير صحية تصيبهم بالتهابات،
وأحيانا بالعقم؛ فقررت أن أقوم أنا بختان أطفالهم؛ مستعينا
بأدوات طبية حديثة، حصلت عليها من صيدلية في
البصرة، وبخبرة تلقيتها قبل سنوات من طبيب هولندي التقيت به
في المنامة قبل رحلتي في الربع الخالي. أنا الذي معلوماتي
الطبية لا تزيد على معلومات أي رجل قرأ شيئا من الإعلانات
الصيدلانية. وقررت أن أقوم ببعض أعمال الطبابة لهم، اشتريت
من مدن قريبة أدوية إسعال وصداع وسعال وسوائل تعقيم
وضمادات لمعالجة مرضى صاروا يقصدونني أو أقوم أنا
بالمرور عليهم بعد معرفتي بأحوالهم الصحية المتردية وعدم
مقدرتهم على مراجعة المستشفيات في المدن. كان مفعولها
السريع لديهم يجعلهم ينظرون لي كساحر أو قديس وأعظم
طبيب في العالم! أتردد على العمارة أو الناصرية أتزود بما
احتاجه من شاي، وسكر، وفاكهة مجففة، وبعض الحبوب
،وأشياء بسيطة أخرى أحتاجها في عيشي، إذ لا يمكن أن أعتمد
في غذائي على السمك والطيور فقط. أبحر بمشحوفي مع
مساعدتي في هور العمارة أو الحمار، أدخل منطقة بني عامر،
هم عرب نزع أسلافهم من اليمن إبان الفتح الإسلامي، أنزل في
مضيف شيخهم الحاج فرعون الهاشم العامري الذي كان يرحب

بي كثيراً، ويجد في إكرامي، وفي مضيفه الكبير أبدأ حملة ختان أطفال عشيرته وديرتة. عشرات الأطفال الذكور يأتي بهم آبائهم ما أن يسمعوهاون الحاج فرعون يدق دقاته التي تستدعي الضيوف لشرب القهوة، في حملة ختان الأطفال يدقون الهاون دقات مضاعفة، كنت دائماً أشكر في سري ذلك الطبيب الهولندي الذي عشت معه أياماً جميلة في البحرين، وقال لي : ما دمت ستعيش بين أناس مقطوعين مهجورين فعليك أن تفكر كيف تمد الجسور إلى قلوبهم، وأفضل طريق إليهم هو علاجهم من مرض أو وقايتهم منه ، ختان أطفالهم عمل طيب يمس شيئاً غامضاً في أعماقهم وستجعلهم ممتنين لك، وستكسب ثقتهم، لم أكن أتقاضى على عملية الختان البسيطة أية أجور. أحد سكان الهور الظرفاء قال لي مازحاً: أنت تفتح قلوبنا لك، بالمقص الذي تقطع به إبرة أطفالنا! ولكن الحلاقين الذين تضرروا من عملي روجوا أن الطفل الذي يخته إنجليزي كافر سيصاب بالعقم، وإذا أنجب فإن ذريته ستكون نجسة وخبيثة! الناس سفهوا أقوالهم، بعد أن وجدوا أن الأطفال الذين ختنهم هؤلاء الحلاقون، التهبّت جراحاتهم وبعضهم ماتوا، أو أصيبوا بعاهاات، أو بالعقم! من حسن حظ سكان الأهوار وحظي أيضاً، إنهم لا يعرفون ولا يقرون ختان البنات الذي رأيته شائعاً في الريف السوداني عندما عملت هناك، وفي قرى كردية عراقية نائية تجولت بها قبل أن أنحدر جنوباً، وكان يجعلني أحس بتقرز وقشعريرة! لكنني أجدت ختان الذكور بعد ما أكد لي الطبيب الهولندي الذي دربني عليه أن لا خطورة منه عليهم، وإن إزالة القلفة لا يقتل الرغبة الجنسية لديهم؛ كما لدى الإناث، وإنه يضمن نظافة أعضائهم. ومع ذلك، لو سألتني أنا ضد هذا التدخل في التكوين الطبيعي للإنسان مهما كانت غاياته! لكنه تقليد أو فريضة دينية راسخة لدى اليهود والمسلمين! لم يحدث أن تعرض طفل لمضاعفات سيئة بعد ختاني له. صار الناس

ينتظرون حتى ولو لعام أو عامين لحين قدومي إليهم لأقوم
بختان أطفالهم، صار مقص الختان الفضي اللون هو جسري
الذهبي إلى قلوب الناس رغم إنه خلق لي عداوات مع الحلاقين
الفقراء الذين يقشطون شعر فروة الرأس بسكين تقطيع اللحم بعد
حكها بصخرة، بل إنني رأيت أحدهم يربط ببصاقه ذقن رجل
ليحلقه، تصوري حلاقا يبصق على زبونه قبل أن يحلق له!
ولكن هنا الذي يحلقون ذقونهم أو رؤوسهم قليلون، وجوه
الرجال هنا خشنة كثة كأنها تنبت أشواكاً، وإبراً، لذلك كنت
أتحاشى طريقتهم في تبادل القبلات الكثيرة عند اللقاءات! بعد
الانتهاء من ختان ثلاثين طفلاً، أو أكثر أحياناً في كل جولة
جراحية، نجلس جميعاً نتناول بما يشبه الاحتفال الطعام الدسم
في مضيف الحاج فرعون، أخرج عصراً إلى ريف شطآن
الهور، معي الملاحان ياسين، وعمارة والصبي سهر حفيد الحاج
فرعون لصيد الطيور، كنت ما أن أصيب طائراً ببندقية
الخراطيش، ويهبط إلى الأرض؛ حتى يركض إليه الصبي سهر
بخفة الغزال ليحلبه لي لأنحره وأزيح دمه، وأضعه في عليجة
الصيد، فتمتلئ بأنواع من الطيور السمينة اللذيذة اللحم القادمة
من أوكرانيا وروسيا والسويد وغيرها من أصقاع الدنيا البعيدة!
في صباح اليوم التالي، انطلق متوغلاً في أعماق الهور حيث
قاطنيه موضع اهتمامي ودراستي. صارت بينتهم المائية الهائلة
صومعتي ومعبدي، انتظر حقاً أن تطل علي فاطمة من الأفق
المتوهج، ولكن هيهات، كل مسالك الهور يكتنفها الغموض
والضباب، كل الطرق المائية وكل الحكايات التي اسمعها عنها،
لا تفضي إليها! الحب وهم جميل، نصنعه نحن إذا لم يعترض
طريقنا! سكنت صريفة متواضعة في قرية تتوسط الهور لأكون
على مسافة متساوية من كل الاتجاهات. بناها لي رجل متمرس
في تشيد الصرائف مستنداً إلى خبرة متوارثة. أقام الصريفة
على أسس متينة في أكمة الطين المعشوشب والموحد المحاط

بالماء الضحل، تفنن في ترصيع جوانبها القصبية ببعض الزخرفات أو التشكيلات من تشويق القصب بالحلفاء، جلبت فرشاً جديداً نظيفاً، وحرصت على الاحتفاظ ببعض المواد المبيدة للحشرات والجراثيم، لكن مفعولها كان يتضاءل أمام هجمات أسراب القوارض والطفيليات والجراثيم! كنت أحرص على غلي الماء وطهي طعامي جيداً! ورغم كل ذلك أواجه؛ تلوثه، واكتظاظ الهواء بالبعوض والحرمس ودخان الروث المشتعل والروائح العطنة. كثيرون هنا لا يلبون الجواميس بأيدي أو أواني نظيفة، أصبت في بداية وجودي بمختلف الومعات الصحية من إسهال وزكام وسعال لكن، جسمي تكيف مع الوضع بشكل ما. اعتدت على كل هذا وعلى الأخطار الكثيرة التي تحاصرني في هذه المساحات الشاسعة من الماء، لكن مصيبتني أن كثيرين من عرب الأهوار صاروا لا يفوتون فرصة لعزلي ونبذي لأنني بنظرهم لست من دينهم ولا مذهبهم. رغم إنهم معزولون ومنبوذون من العرب القاطنين أطراف الهور أو في المدن وهم من دينهم ومذهبهم أيضاً، فهم يأنفون من معاشرتهم يرونهم أقل شأنًا منهم، لا يتزاوجون معهم، ولا يختلطون معهم إلا في شئون البيع والشراء العابرة، وعلى مسافة منهم. كنت أرى بعضاً من أهل الأهوار في المناسبات يتوسلون للقرب من عرب المدن بينما أنا الذي أحبهم واحترمهم وأعد نفس واحداً منهم وأقدم كل ما أستطيعه لهم ينظرون إلى بريية واستعلاء: سمعت أحدهم يقول: "هذا لو ما زايحته الدنيا ما لفي عدنا!" واللافي هو اللاجئ، هم يتصورونني هارباً من شيء أو إنني كنت جائعاً في بلدي وجئت لأشبع عندهم. حتى الآن لم ينادوني باسمي، ولا بلفظة احترام أخرى، رغم أنني كنت الفظه أمامهم واضحاً، بحضوري ينادونني "صاحب" أو المستر، وبغياي يسمونني "الإنجليزي" أو "الإفرنجي" وحين أينعت قفلات أعضاء أطفالهم، وأن قفاتها، يسمونني "المطهرجي" أو

"الحاج " من أجل أن يكون ختاني لأطفالهم له مسحة دينية! ثمة من سماني (الديك الهراتي) ربما لشقرتي التي تميز هذه الديكة التي من هرات في أفغانستان، وبعضهم يسميني "مالك الحزين" ربما لطول قامتي، وأعظم احترام لقيه اسمي حين جعلوه "مبارك بن لندن " ، لماذا مبارك؟ لا أدري حتى الآن! كنت اضحك في سري من تصوراتهم عني، كان يؤلمني أيضا أن أشخاصا من عرب المدن يكرهونني ويرونني من أعدائهم الإنجليز. كيف أستطيع العيش بين كل هؤلاء؟

لم تكن أخطار الكراهية أو هاما أو مجرد توجس، ثمة ريب وشكوك وفسائس حقيقية كانت تترصدني! جاءني صباحا مساعدي عمارة بجفنين متنفخين كالمقرحين، كان صامتا شارد الذهن لا يكاد يسيطر على القارب وهو الذي كان يجذف ويديره بيد خبير قوي، سألته: ما بك؟ قال لا شيء، لا تقلق! لكنني ألححت عليه فطفق يتحدث وهو يغالب دموعه:

- يقولون يا عم ثيسجر أنك شاذ جنسيا، ليس فقط المعدان هنا يتحدثون بذلك، بل العرب من حولنا!

ندت عني ضحكة قصيرة، لكنني استدركت صامتا، فالأمر جدي وخطير في هذه البقاع:
- كيف عرفت؟

- البارحة جاءني رجل من العرب (يقصد عرب الأطراف "الأقحاح") سألني هل لدى ثيسجر زوجة في المدينة؟ قلت له لا ، قال: إذا ما يقال عنه صحيح، هو شاذ، إما أنه يفعل بمن معه، أو هم يفعلون به، سألته ماذا تقصد؟ قال سمعتك يا عمارة وصاحبك صارت سيئة بصحة هذا الإنجليزي الكافر الفاسق! أنت تعرف يا عم ثيسجر هذه مسألة تتعلق بالشرف، والأخلاق، والسمعة!

- ولكن ما يقوله الرجل كذب وافتراء، أنت تعرف ذلك!

- نعم أعرف، لكن هذا لا يجدي نفعا!

سرنا باتجاه الناصرية صامتين، تذكرت إن مساعدي الآخر ياسين كان قد جاءني قبل ثلاثة أشهر تقريبا مرهقا واجما وكالعادة فقد قدرته على قيادة المشحوف، لم أسأله عما به؟ بعد صمت وأسئلة غير مباشرة، ومماثلة معتادة، أخذ يتحدث:

- رجل من الصحين أتى إلى أبي قال له ابنك يعمل مع الجاسوس الإنجليزي، امنعه وإلا سنضطر لوقفه عند حده، سأله أبي: على من يتجسس؟ قال: علينا؟ سأله: ومن أنتم؟ قال: لا عليك!

سألت ياسين: ومن تعتقد هذا الرجل؟ قال: أبي يقول إنه من الشيوعيين! كان خائفا، لكنني طمأنته، هؤلاء الشيوعيون يتهمون كل أجنبي غير سوفيتي إنه استعماري، قلت لياسين يعز علي أن أفقدك ولكن إذا وجدت عملك معي خطرا عليك؛ تستطيع تركي دون أن نفقد صداقتنا! لكنه بعد يوم أو يومين نسى الأمر وعاد يعمل معي بنفس مزاجه ونشاطه السابقين، ما الحيلة مع عمارة والتهم هذه المرة تتعلق هنا بالشرف والأخلاق؟ كيف أقنعه؟ أعدت عليه نفس الكلام الذي كنت قد قلته لياسين، فظل صامتا يجدف دون انتباه، تركته لصمته وتفكره. في اليوم التالي وكنا قد بتنا في بيت الشيخ العامري بعد حفلة ختان طويلة لأطفال كثر من مختلف الأماكن في الهور، تبارى فيها أهاليهم في الكلام الطيب بحقي وإزجاء التحيات والشكر والوعود الطيبة، نهض عمارة من نومه صباحا، مبتسما وأحضر المشحوف لرحلتنا عائدين، وحين صرنا في عرض الهور قال:

- يا عم تيسجر فكرت في قضية البارحة، كلام الناس لا يخلص ولا ينتهي معك أو بدونك، والمهم إنني أعرفك واعرف أخلاقك الطيبة لن أتركك يا عم، لن أتركك!

لم اخلص من تشنيع الذين يكرهونني وطعنهم بأخلاقي وسمعتي، أعطيتهم بعض الحق هم يتوجسون من الغرباء، ولهم مع الإنجليز تجربة مريرة، قلت لأصبر عليهم، لا بد أن يتغير شعورهم نحوي وتعاملهم معي ،لم أفقد أجلي بمحبتهم خاصة بعد أن اكتشفت أن الحلاقين ومن كانوا يعتاشون على التطبيب بالسحر والشعوذة والمواد البدائية هم من يحرضونهم ضدي ، والغريب أن الشيوعيين ناصبوني العداء بينما كنت أدعو الناس بشكل هادئ وقد استطاعتي، أن يعوا أن الإقطاعيين،ومن يسمونهم بالموامنة يمتصون دمهم حين يجبون منهم الخمس، وكنت بذلك أحاول إيقاظهم ،والمفروض أن هذا يخدم أهداف الشيوعيين إن كانوا يعونها حقاً، لكنهم اصطفوا مع الحلاقين والمشعوذين، فقط لأنني بريطاني امبريالي في نظرهم، وبالطبع لو كنت من الإتحاد السوفيتي، لوجدوا ألف عذر ومبرر لوجودي، بل لا يعتبروني منقذاً أممياً! يوصلني ياسين إلى صريفتي، أهبط من المشحوف فتغوص ساقى في الماء، ويقول ياسين: احذري يا عم، ثعابين الماء السامة، تتكاثر هذه الأيام، وأدخل متفكراً : عجبت كيف اجتمعوا ضدي : الحلاقون والشيوعيون والملاي و ثعابين الماء! الشمس ظلت تغمرني بنورها، والقصب يغني، ويدي تختن الأطفال بخفة منجل يحصد البردي! لأتناول عشاءي وأنام بهدوء لكن هيهات يأخذني الأرق، أقول لنفسى ، هم محقون ، فأنا أتجسس كل يوم على روعي القلقة المعذبة في ترحالها الطويل الدائم علني أصل إلى حقيقتها، فلا أجد في يدي منها سوى نبض عروقي المسرع ، أنت أيضاً يا أجاتاً مغامرة باحثة عن روحك، عندما جئت إلى العراق شابة وحيدة ما كنت فقط تريدين الحج في أور، بل باحثة عن جذوة روحك في أرض انسكبت السماء فيها موحدة في قلوب الناس، ولتكلمي رحلة البحث عن عشبة الخلود التي بدأها جلامش وقيل أنها انتهت خائبة، وهي ما انتهت، فأنت تفهرين الموت

المؤرق برواياتك الشيقة المثيرة! نحن لم نأت إلى العراق كهؤلاء الباحثين عن الذهب في آبار النفط، ولا مثل المسز بيل الباحثة عن السلطة، ولا كـبعض الأثاريين الدجالين الباحثين بين عظام الموتى عن مجوهرات يسرقونها، ولا كأولئك الباحثين عن فتيات ألف ليلة وليلة في مواخير تعج بوجوه النساء المسكينات وقد أعتصرها المرض والفقر، أنت في أور أحببت ماكس، ما الضير أن تبحثي عن الحب والخلود معا؟ ما جدوى الخلود الذي لا يضمن لنا الحب؟ ماذا لو عشنا ابد الدهر ولكن دون حب حقيقي؟ ماذا نفعل بالخلود؟ آنذاك، سنتمنى الموت فلا يأتي، أنا يا أجاثا أفضل أن أعيش عمرا قصيرا مترعا بالحب؛ على الخلود كله خاليا من الحب! أقول من يحظى بحب حقيقي يحصل على الخلود! خذي هذا على مسئوليتي! ثمة أكثر من وشيجة عميقة بيننا يا أجاثا، أقولها بصراحة ودون مجاملة: أنت لمهمتي وقdotتي، وحتى الآن أنت تكتبين اكتشافاتك الروحية بالكلمات وأنا أكتب اكتشافاتي بالرمال، أو بالماء! لو اجتمعت خبرتي في الاكتشاف الأرضي، وخبرتك في الاكتشاف الروائي الفني، وعبر رحلات ومشاهدات حقيقية، أي كتاب جميل نهديه للناس؟ رغم ارتياح ماكس لكلمات ثيسجر عنه وعن اقترانه بأجاثا لكن قلبه ظل مرتابا، ما هذه الدعوات أو النداءات التي يوجهها لأجاثا، ماذا وراءها؟ أهو حقا يريد الإبداع، أم شيئا آخر؟ كيف يكون الإغواء إذا؟ إنه يدعوها لوحدها فقط، كيف يتجاهلني وأنا زوجها؟ ومهما بلغنا من التحرر، كيف ترافق امرأة مهما كانت غايتها نبيلة رجلا في الصحراء دون زوجها أو دون رضاها؟ ماذا يعتقد هذا المجنون، أن كتابة رواية هي أهم من سعادتها وبيتها؟ شعر بأنفاسه تعلقه، كأنه يصعد جبلا، ولكنه يعود قائلا: لا، أنا أبالغ، إنه لم يتطرق لي لكوني أمرا بديها في حياتها، وهو يقصد أن موافقتها تعني موافقتي وإنني سأكون حتما معها! واقتراحه عليها أن تكتب

رواية بغير مواضيعها المعتادة أمر طبيعي يتداوله الكتاب بينهم والقراء والنقاد، وهو أمر مشروع بل مطلوب وضروري، و ليس بالسوء الذي أتصوره! سأقرأ لأعرف هل التزم بما أرادت منه أجاثا أم إنه شط عن الصدد بأشياء أخرى، بل هل أن أجاثا شطت عن الصدد وتقبلت منه ما خرج به عن المؤلف، قبلته وتعاملت معه وشجعتة عليه؟

(25) خالد يستنفر كتب التحقيق الجنائي، وذكريات الصبا، وأشباه روايات أجاثا كريستي لكي يمسك طرف الخط!

مضى خالد بأوراق أجاثا ، إلى مقهى العائنين، المطل على
دجلة جهة الكرخ غير بعيد عن الجعيفر، كان يجلس فيها أيام
دراسته في الكلية؛ يقرأ كتب الحقوق الضخمة، واضعا بينها
روايات أجاثا كريستي، الصغيرة الناعمة، يعتبرها واحات
استراحة خضراء، ينطلق في أجوائها الندية الملهمة متخلصا من
جفاف كتب القانون وثقلها، وكأبة حجرته الصغيرة التي لا تبعد
كثيرا عن المقهى، أجراها من عجوز، لا تنفك تطالبه بإيجارها
قبل حلول مواعده. كانت أجاثا قد استهلكت ما كتبت به بسؤال يشبه
تأنيب ضمير معذب "أي نداء انتزعني من ابنتي وبيتي في
لندن ودفعني بعاصفة إلى صحراء أور؟ تواصل بوحها أو
مذكراتها: يصر كثيرون على القول أنني اسكندنافية الملامح،
ربما لأن جدتي لأمي كانت مهاجرة سويدية إلى إنجلترا حين
كانت موجات الصقيع في اسكندنافيا تاكل كل شيء الجزر
والبطاطا وجذور العشب، ولا تترك للناس سوى أجراس
الكنائس، لتتعى الموتى من الجوع! و جدي لأبي نزل من
قوارب الفايكونك على شواطئ أمريكا، بحثا عن جدة لي تعرف
كيف تطبخ اللحم بعشرة أصناف، وليس كالمرأة السويدية التي
لا تشتري اللحم إلا داخل مصران السجق! على كل حال أنا
راضية بملامحي ويفرحني أنها تجتذب نظرات الرجال حتى لو
أثارت غيرة بعض النساء، ليس المرأة وحدها تلهب من
صورتي، بل دمي يشعرني أن الملامح الإسكندنافية ساخنة
وليست باردة كما يشيع عنها منتجو المدافئ الكهربائية!

ما أتذكره إنني عشت طفولة سعيدة، من أين تسللت الأشباح والمخاوف والكوابيس إلى رأسي؟ لماذا قصصي مشبعة بالموت؟ أو لا تخلو من دماء؟ أنا نفسي لا أعرف، ليست كتيبي وحدها طافحة بالموت. الشوارع والساحات والبيوت التي كانت قديما آمنة أضحت طافحة بالموت! يعزو البعض ذلك إلى أنني في مطلع شبابي رافقت زوجي الأول أرتشي كريستي إلى جبهة الحرب في فرنسا، إبان الحرب العالمية الأولى، وإنني عملت ممرضة في مستشفى كان يمتلئ كل يوم بجثث وأشلاء الجنود القتلى والمجروحين فتغلغل الموت في كل خلايا روحي وجسدي وصرت أصبه على الورق. ربما في ذلك بعض الحقيقة؛ فالحرب لا تقتل المحاربين فقط، بل الناس العزل في المدن، من لا يموت في جسده، تموت روحه و يعيش معذبا أكثر، حتى الأطفال تزحف إلى قلوبهم ديدان جثث الحرب وتتخرها؛ فيعيشون مروعين مزعزين حتى ينتجوا حروبا أخرى، أو يموتون في سلام مريب. أشباح الطفولة تلاحقنا إلى الشيخوخة، وتنزل معنا إلى القبر! لكنني بعد كل رواية تدور حول جريمة قتل أرسل فيها القاتل لينال جزاءه أحس بالأمان كأنني بذلك أحقق بنفسى العدالة والسلام المفقودين في عالمنا، وأحث على ملاحقة القتلة والأشرار أينما كانوا، ومهما كانوا! ليس في أعماقي نزعة عدوانية أو فطرة شر كما روج البعض، على العكس أحس أن لدي نزعة خير جارفة، وتطلع للأمان والمحبة والتزام بالعمل على طرد الخوف من قلوب البشر، هذا ما أنشده وأدعو إليه، ربما أنا من خلال الكتابة المضنية المدمرة أقول ذلك لنفسى أولا، ثمّة أطباء نفسانيون حاولوا تحليل رواياتي وشخصيتي، هذا من حقهم؛ فقط ينبغي لهم أن يعرفوا أن روح المبدع هي كما البحر، يبدو ساكنا ناعما، لكن أعماقه تضطرب بتيارات وسورات عميقة جارفة، وأسراب هائلة من الحيتان والكواسج والكانئات الحية المتصارعة!

لا أدري من أين تلقيت تلك الإشارات الغامضة الملحة
تدعوني للذهاب إلى العراق! هل لامست قلبي نسمات من
الإنجيل والكتب المقدسة؟ إذ تشير إلى بابل، وأور حيث ولد
إبراهيم الخليل أبو الأنبياء، وملهم التوحيد الإلهي؟ لا أعتقد إنني
لبيت رسالة دينية محضة، أن أكون حاجة وأنا شابة، فذلك إقرار
بالشيخوخة قبل الأوان! وأنا لست شديدة التدين وإن كان لدي من
الأيمان ما يكفي لتحقيق رضا الله عني، ومنحي بيتا صغيرا في
الجنة، وربما سكرتيرة طبية غير ثرثرة، وآلة صغيرة أكتب بها
روايات عن الحب، فأنا أعتقد حتى الجنة لا تطاق دون روايات
مسلية. ربما تلقيت نداء الشرق من الشمس المفقودة هنا في جزر
الضباب؟ لا شك أن الدفء والنور هو حاجة ملحة هنا وفي كل
مكان، الشتاء والخريف يتخمان الجزر البريطانية بالبرد
والظلام، ولكن هل على الإنجليز أن يهجروا بلادهم قاصدين
البلدان المشمسة؟ لا طبعاً! لذلك، وجدوا الحل، نقلوا صوف
الخراف إلى جلودهم عبر ملابس سميكة، وحصلوا على النور
من إشعال شجر الغابات. لكن الصوف الكثير أفقدهم أنفاقهم،
ودخان المواقد أتلّف عيونهم وجعلهم لا يستطيعون القراءة
جيّداً، إلا إذا كانت الأوراق التي بين أيديهم نقوداً أو شهادات
أسهم في الشركات! وأنا لا تشغلني هكذا أوراق أبداً! لذلك
حرصت أن لا أجعل الجريمة تسجل ضد مجهول! قال بعضهم
إنني قررت السفر لأبتعد عن المكان الذي حدث فيه افتراقني عن
زوجي آرتشيلد كريستي الذي ما زلت وابنتي نحمل اسمه، هذا
لا يخلو من الصحة، فجراح الحب أليمة، وتبقى تنز ندما ووجعا
في القلب، وحجارة المكان تضربنا بها كل لحظة، وبعдна عنها
أولى خطى النسيان! لا أنكر إنني كلما تذكرت ما حدث لي مع
زوجي لا أستطيع مواصلة الغوص في التفاصيل الجارحة، فقط
أقول ليسامحه الله وأتمنى له السعادة مع امرأة أخرى! كما إنني
اعترف إنه لم يكن قاسيا دائما، وأنا لم أكن رقيقة معه دائما!

ومن دفع ثمن سوء تعاملنا مع بعضنا هي ابنتنا الوحيدة
روزاليندا الغافلة الطيبة! فقداني لوالدتي بنفس عام انفصالي عن
زوجي جعل جراحي عميقة جدا ونازفة ، وصرت اشعر إنني
وحيدة ومهجورة بشكل لا أمل معه! لكن رحلتي إلى الشرق
أكبر من مجرد محاولة نسيان حب فاشل، أو نسيان غياب
والدتي، أصغيت للنداء منتشية، الأمل يمنح جسدي خفة الأثير،
متلهفة لمعرفة سره، ما هو في الحقيقة ؟ ومن أين يأتي؟ أهو
يعني تطلعي للمعرفة حيث بلاد ما بين النهرين كما حدثنا عنها
التاريخ حوت حضارة جميلة، صنعها بشر امتازوا بذكاء مبكر
ويقظة وحب للتناسق والجمال؟ هل يعني الإيمان والسكينة حيث
هناك مهبط الرسائل السماوية الكبرى؟ أهو حلم أهوج عابر
كالأحلام الأخرى التي طالما راودتني وألهبت قلبي، وأتعبتني ثم
تكشفت عن هباء؟ أهو مزحة ثقيلة من الأقدار المتصارعة
حولي، أهو فطنة عظيمة ؟ أم غياب يعترني الإنسان حين يعتقد
إنه ذكي ملهم؟ ويظل قلبي يهفو لنور عظيم لا أعرف كنهه، إن
كان بشريا أرضيا، أم خياليا سماويا؟ لكنه لا يكف يداعب القلب
ويرهقه! كنت في خلوتي مع فنجان قهوتي الصباحي أسأل نفسي
،ماذا؟ هل ثمة رسالة سماوية جديدة تريد السماء أن تضعها على
كاهل امرأة؟ أية امرأة؟ أنا أجاثا كريستي المهمة بروايات
الجريمة والمجرمين؟ كيف يتسنى لي الخوض في مراسلات مع
السماء، وتقلب أشياءها المقدسة الحساسة وجمع الحواريين
والأتباع والفقراء والمساكين والمرضى أتباع الأديان عادة
حولي وأنا لا أستطيع تنظيم رسائلتي الشخصية، ولا مدارة
أمزجة صديقاتي وأصدقائي أو أقاربي وجيراني؟ أن أتولى بريد
السماء وبريد الأرض تلك مهمة لست قادرة عليها! أتوقف في
سري عند كلمات لصديقة لي هنا في لندن كانت تقول؛ ربما أنت
تقتفين خطى الإنجليزية جير ترود بيل التي تحولت من أثرية
عليها أن تستخرج الملوك القدماء الصخريين من باطن الأرض

وتضعهم في المتاحف، إلى صانعة ملوك جدد من لحم ودم تضعهم على عروش قلقة تحت التاج البريطاني الذي لم يعد يتسع لمزيد من الملوك والدرر الحقيقية والمزيفة! وأهز رأسي ضاحكة من ذلك، ويعود صوت رحيلي إلى الشرق يتواصل نقياً عذبا، موسيقى عذبة هائلة، تقول لي بنغماتها الغامضة: اذهبي إلى هناك، هيا انهضي، لا تتأخري، احزمي حقائبك الآن اركبي قطار الشرق السريع، تمتعي بمناظر الغابات والوديان والجبال والمدن الحاملة وستصلين إلى شيء كبير عظيم! ما هو هذا الشيء؟ ستصلين أور وتعرفين، كما تشوقين الناس لنهاية روايتك وتماطلنهم، هاهي الأقدار تلعب معك بالأحداث يا أجاثا، لتشوقك وتيقبك في لهفة، ولن تقول لك لماذا عليك الذهاب إلى أور، إلا في أور نفسها! يبدو إنني توقعت كل شيء إلا حقيقة ما سيحدث في أور حين أصلها وهكذا مهما يكون مؤلف الروايات بارعا إلا أن الأقدار التي تكتب رواية حياته هي دائما أكثر براعة منه، واشد حزما وحسماً ولن تقول نهاية حكايته إلا أخيرا. هل مع نهاية حياته؟ أم قبلها ولو بقليل، عادة تأتي نهاية المبدع مفاجأة له قبل غيره! لكنني أخيرا قلت لنفسي، رحلتي تطلع لحب كبير تصنعه الشمس المشرقة، والسماء الزرقاء الصافية، والأفق الذي يقف عليه أمل عظيم كما يقف طير هائل على قوس قزح!

(26) كيف أنسى عائشة المتفانية في حب وطنها؟ نادل المطعم يبعث رسائله الغرامية في سندويجة الطفل، طريق الصحراء، كيف أنسى وأنسى؟

كان ذلك عام 1928، تركت وراءني الحبيبة لدى أقارب زوجي وأصدقاء لي، أغلقت بيتي الجميل الهادئ، وركبت القطار من محطة فكتوريا في لندن وجعلت وجهتي الشرق! من الجانب الآسيوي من تركيا. استقلت قطار الشرق السريع الجميل الفاخر، قصدت حلب، أزمعت أن أقضي فيها بضعة أيام لما قرأت وسمعت عن أجوائها الساحرة، وأطعمتها الشهية. كانت تجلس بجانبني امرأة تقارب الأربعين، هي التي بدأت الحديث معي، عرفتني بنفسها: عائشة السلام، حسناء عراقية ناعمة قوية الشخصية؛ زوجة رجل دبلوماسي يعمل في سفارة بلده في لندن، عادت إلى بغداد لوحدها لتري أمها المريضة، تنكلم الإنجليزية بطلاقة؛ متابعة لجوانب كثيرة من الحياة الثقافية في لندن؛ حريصة على مشاهدة المسرحيات والحفلات الموسيقية. احتفت بي كثيرا حين عرفت إنني كاتبة، طبعا لم أتوقع إنها كانت قرأت روايتي الوحيدة، عندما حدثتها عنها؛ أبدت رغبتها في قراءتها، وعدتها بإرسالها لها؛ فأنا لم أكن أحمل أية نسخة منها! راحت طيلة الطريق تحدثني عن بلدها المدلهة بحبه حد التقديس، تراه مهد الحضارات، ومستقبله سيكون بما يليق بماضيه! كنت أقارن في سري بين كلامها الواثق المعتر كثيرا، وما حدثني به موظفون إنجليز في وزارة الخارجية حين قابلتهم في لندن أريد نصيحتهم لسفرتي! هم يرون العراق إحدى مستعمراتهم، وكفى! لكن أحدهم تبسط معي في الحديث على فنجان من القهوة، قال لي وهو يضحك، لقد كان

رجالنا هناك خبثاء حقاً، رسموا خارطته ووضعوا بين أنهارها وجبالها ومفاصل عظامها، متفجرات تكفي لجعلهم يحتاجوننا دائماً، وقد يجعل مستقبل هذه البلاد على المدى البعيد عسيراً وتعيساً! قال إن المسز بيل لم تكن بعيدة عن هذه الطبخة المسمومة. ذلك آلمني حقاً، وجعلني اشعر بالخجل أن حكومة بلادي بهذه القسوة واللؤم، وجعل صورة المسز بيل تهتز في قلبي، كنت أتابع فصول حياتها وأخبارها بتقدير وحزن، أناقش صديقتي حولها، هي تعتبرها صاحبة رسالة عظيمة، ساعدت شعوب الشرق في الخروج من ظلمات العثمانيين، إلى نور الحضارة والمدنية. قلت لها: لكنها تنقلهم لهيمنة أخرى أشد مكرًا، وترد: هيمنة الغرب تحمل لهم النور والتطور المادي، وسيستردون أراذلتهم الوطنية منها حتماً، فيجدونها قد صقلت ونضجت وقاربت العالم المتحضر! لا أخوض كثيراً في السياسية، أنا كاتبة روايات بوليسية، أنظر لشخصية المسز بيل كشخصية روائية جذابة، نجحت وتألقت ثم فشلت، وسقطت، ماتت بصورة غامضة، كوب حليب ملوث بالكوليرا كما قالوا، ربما انتحرت، دفنت في أرض غريبة، كثير من سكانها يكرهونها، ولا أدري إن كانوا قد ابقوا على قبرها بينهم! هي رحلة حزينة ومثيرة وتصلح لرواية، أبحث فيها عن سر موتها مثلاً، لا أدري إن كنت سأكتبها، سأزور قبرها إذا كان لا يزال موجوداً، أضع عليه باقة من الزهور، فهكذا شخصيات تثير شجني، وتسحرني! وجدت لها عذراً فهي خاضعة في النهاية لإرادة رؤسائها! كان حديث عائشة ممتعاً؛ لكنني ضجرت أنها ستبدد وحدتي وخلوتي مع نفسي، تلك التي أعشقها خلال السفر، خاصة حين تفتح نافذة القطار على غابات وجبال ووديان خضر، وسماء زرقاء ترقص فيها غيوم بيض! مضيت أجاملها واستمع لها، فأنا لا أطيق أن أرح قلب إنسان حتى ولو على حساب راحتي، حين عرفت إنني سأذهب إلى بغداد؛ فرحت

كثيراً، سألتني أين سأنزل في بغداد، قلت لها في فندق طبعاً
قالت: ما هذا؟ ظننت أن لك أصدقاء أو أقارب في سفارتكم في
بغداد؟ أنا لا أقبل أن تنزلي في فندق أبداً، أنت تنزلين عندنا في
البيت، وراحت تصف بيتها الكبير المطل على النهر! كانت
تقول ضاحكة أنا عاشقة لوطني مولهه به، لا تضحكي مني حين
ترينني أتغزل به! لدينا سيارة حديثة سأطوف بك في بغداد
وضواحيها، سأخذك إلى مدن أخرى في الجنوب والشمال
وسترين العراق كم هو جميل ساحر، ونحن محقون بالفخر به!
وحين عرفت إنني سأمكث أياماً في حلب: قالت لو لم تكن أُمي
مريضة لبقيت معك، لأريك معالم حلب الفاتنة، أنا وزوجي نحبها
كثيراً، لنا فيها ذكريات جميلة، خشيت أن تنتزع مني وحدتي في
حلب أيضاً! أعطتني عنوانها في بغداد، ووصفت لي كيف أصل
إليهم. في محطة قطار حلب، جاء رجل عراقي مع زوجته
لاستقبالها بسيارة فخمة. أصرت أن توصلني إلى الفندق،
اقتрحت علي أن أنزل في فندق البارون، قالت إنه فندق رائع ،
ننزل فيها كلما نحل في حلب ، سترتاحين فيه كثيراً! أصرت أن
تنزل من السيارة معي، وتوصي صاحب الفندق بي، نهض
مرحباً بها بحرارة. قبلتني وضممتني إلى صدرها مودعة كأنها
صديقة قديمة، وقفت أرقبها وهي تختفي في السيارة المنطلقة،
تلك أولى لمسات دفء الشرق! بدأت أحس أنني أخرج ولو قليلاً
من برودة أجواننا الأوروبية، واجهتني في ممرات الفندق رائحة
زهور عطرة، تذكرت إننا في الربيع!

ما زلت أتذكر فندق البارون، صاحبه رجل أرمني يدعى
مظلوميان، احتفي بي كثيراً، لما تحدثت به عائشة عني، وحين
عرف أيضاً إنني أعد لكتابة رواية تدور أحداثها في قطار
الشرق السريع. أعطاني الغرفة (203) المميزة ، هي واسعة
جميلة، كانت بسريرين لكنه أحسبها لي بكلفة سرير واحد، ما

زلت أتذكر خزانة الملابس من الخشب الفاخر، والمرآة الكبيرة الصقيلة، والجدران المزدانة بتحف من الخزف الصيني الملون الصلد بلون المحار، كانت تطل شرفتها على حدائق في ضاحية رائعة، النزلاء الأرستقراطيون يصطادون طيوراً جميلة من فصيلة البط من شرفاته، طاف بي السيد مظلوميان في الفندق قال:

- انظري! كان جارك هنا السيد لورنس العرب، سكن في الحجرة 202. ومن شرفة غير بعيدة عن حجرتك رقمها 215، ألقى الملك فيصل الأول خطابه إلى جماهير حلب الفرحة الملوحة له معلناً أن سوريا أضحت مستقلة عن الدولة العثمانية، وستسعى جاهدة للخلاص مما يقيد استقلالها في معاهدتها مع الفرنسيين! وفي هذه الحجرة نام ملك السويد وقد أيقظنا مرة في منتصف الليل يريد أن نجلب له الثلج لفودكا الأبسولوت التي جلبها معه، كان ديمقراطياً، يبتسم كثيراً، فتجرات وقلت له، حين حملنا حقائبك إلى حجرتك يا جلالة الملك كانت ثقيلة باردة، وقد ظننا أنها مملوءة بثلج جلبته لنا من السويد لتحسن مناخنا الساخن، وكنت في الواقع أقصد السياسة، وليس جو حلب المعتدل الجميل، لكنه كسويدي لا يكثرث للسياسة، ولم تدخل بلاده حرباً منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً، أطلق ضحكة ملك دون قهقهة، وقال:

- هي جواربي الصوفية السمكية، جلبتها تحت تأثير برد السويد، وجدت إنني هنا لا أحتاجها، احتجت الثلج لفودكا، السويد باختصار ثلاثة كبيرة، والفودكا وحتى جمرة السجارة فيه مثلجة!

كنت أرى الكثير من الرجال الألمان في الفندق، قرأت في الصحف الإنجليزية أن الحكومة الألمانية أرسلت الكثير من الجواسيس الألمان لمراقبة وملاحقة جنرالات الإنجليز

والفرنسيين لمحاولة عقد صفقات سرية متنوعة معهم، فهم بعد انهيار الدولة العثمانية راحوا يتصارعون على تركته تصارع القطط على سمك تنانير من سلة بائع أعمى سقط في حفرة. كانت أياما ممتعة قضيتها في هذا الفندق الذي بني في أحضان بساتين ما تزال بعض أشجارها باسقة زاهية الخضرة، وسواقيها تحفها صفوف الزهور الياضعة. آخر يوم قضيته انتهى بمأساة ظلت تلاحقني ذكراها فترة طويلة، وتشعرنني بتأنيب الضمير، وأفكر في الكتابة عنها لأزيحها عن قلبي. كان رئيس جرسونات مطعم الفندق الألماني باول قد وقع بحب الفتاة الألمانية "أننا"، التي كانت قد دفنت جمالها الباهر تحت ثياب راهبة، متبلة صارمة، كانت معلمة في المدرسة الملحقة بالدير الكائن قبالة الفندق، وكان باول يرسل لها مع تلميذها الطفل ابن مظلوميان رسائل غرامية يدسها في سندويجاته المدرسية التي يعدها له كل صباح، ويوصيه أن لا يأكلها قبل أن تفتحها الراهبة، وتتلو صلواتها عليها، كانت الراهبة تقرأ أغلب رسائله الغرامية المتوسلة لسنتين دون أن ترد ولو على رسالة واحدة منها! حدث لمرات أن أكل الطفل وهو جائع رسائل باول الغرامية المدسوسة داخل السندويجة حين لم يجد المعلمة الراهبة لتصلي عليها. وقد بثني باول حزنه وشكواه؛ فنصحته بالكف عن كتابة الرسائل وترك "أننا" الجميلة لعشقها الرباني. سألته ماذا تقول لمظلوميان لو أن طفله غص، أو مات وهو يبتلع إحدى رسائلك الغرامية؟ ما هذا الذي تفعله يا باول؟ قلت له: من الصعب بل من المستحيل لك أن تنجح في منافسة مع الله على قلب راهبة، خاصة وفي المعركة السيد المسيح المدجج بروح القدس، وصلبانه الذهبية، وآلاف الكهنة! أما وجدت غير الراهبة لتعشقها يا باول؟ لو كنت عشقت عروس البحر لكانت أقرب إليك! راح يهز رأسه بشكل حيرني. بعد ساعات من حديثي معه نزل إلى سرداب الفندق، وأطلق رصاصة على رأسه من مسدس اشتراه

من ضابط ألماني ينزل في الفندق. قالوا لي أنهم حين أعلموا الراهبة (أنا) بانتحاره لم تنطق بكلمة، هزت رأسها، ثم رسمت علامة الصليب على صدرها الناهد الجميل، وهذا كل شيء! لكنني بقيت واجمة لا أستطيع النطق، شعرت كأنني ساهمت في قتله بنصیحتي الخرقاء! غادرت حلب وأنا أحلم بالعودة إليها، يصعب على من عاش بها ولو لأيام أن ينساها، نكهتها، نورها السماوي، وجوه أهلها، أطعمتها الشهية اللذيذة والزهيدة، مدينة تبقى في القلب. رحت أحلم ببغداد فهي كانت في يوم ما عاصمة الدنيا، ومنبع الأحلام!

ركبت باص شركة النقل الكبيرة التي يمتلكها الأسترالي المستر نيرن، وأطلق عليها اسمه، كان يطوف على الركاب متفقدًا أماكنهم، لكنه كان يعجز عن منحهم مقاعدهم التي في بطاقتهم، فثمة ركاب متنفذون وأغنياء يجلسون في أية مقاعد تحلو لهم وهي عادة لغيرهم، ولا يستطيع أحد زحزحتهم عنها، كان معهم حراسهم المسلحون، وكان الركاب البسطاء يفضلون الصمت وعدم المطالبة بمقاعدهم؛ فكل ما يريدونه أن يسير الباص ويصلون مقاصدهم. رأيت في التزاحم على مقاعد الباص صورة رمزية لما يجري من صراعات في هذه البلدان الواقعة في قبضة الاستعماريين الإنجليزي والفرنسي، "المهم أن يسير الباص ونصل"، هذا ما قاله أحد الركاب ملخصا كل فلسفته في الحياة، لا يهمه أين يكون مكانه ومن ينتزعه منه دون وجه حق. احترموا على ما يبدو وضعي كأجنبية؛ فلم يطلب أحد مني ترك مقعدي الذي كان متميزا بكونه بجانب النافذة وغير بعيد عن الزجاج الواسعة لمقدمة السيارة! كنت أشعر بالطمأنينة إذ أجد أن الشرق آمن نسبيا، إلى حد يستوعب شابة إنجليزية حسناء وحيدة، يمنحها حرية التنقل، مع عطف ورعاية ولو عفوية، بينما حكومتها تحتل أجزاء كبيرة من بلادهم، وقتلت

الكثيرين من أبنائهم، وما تزال تشن حروباً هنا وهناك عليهم،
والأسوأ عندهم أنها تقف بجانب اليهود ضدهم في فلسطين.
كنت أسأل نفسي كيف يقولون عن الناس هنا أنهم يكرهوننا،
وهم متوحشون، مهووسون بالجنس يفترسون المرأة كما
يفترسون الخراف، وجدتهم لطيفين وديعين، عاملوني بعفة
وشرف، فتبدد خوفي منهم، هذا لا يعني أن أرضهم تخلو من
المجرمين والمتعطشين للدماء! في بغداد نزلت في فندق تاكرس
بالاس، زرت السفارة البريطانية، وطلبت نصحهم في سفري
إلى أور، وعدوني بدراسة طلبي بتآن؛ وعلي الانتظار، اتصلت
بعائشة تلفونيا، جاءتني مع شقيقها إلى الفندق؛ كانت غاضبة
علي أنني نزلت في الفندق، ولم أتصل بها حال قدومي لتأخذني
إلى بيتها! لكنني طلبت منها أن تترك مسألة نومي وعزلتي
لمزاجي! عادت إلى ابتسامتها وتدققها في الحديث. أخذت تريني
جوانب من بيتهم الفخم في الأعظمية على دجلة، نخيل
حديقتهما، وزهورها، كانت فرحة أن أمها قد تحسنت صحتها،
وهي الآن في بيتها الآخر وتحت رعاية طبيب يهودي وخدم
مدربين. عملت لي أفضل الأكلات العراقية كما قالت: الدولة
والباجة والكبة، ما أن أنتهي من طبق حتى تملأ لي طبقاً آخر،
بشمت ولازميني إسهال لأيام، لكن ذلك لم يفقدني ثقتي بالمطبخ
البغدادي، جعلني أحبه وأحذر منه بنفس الوقت! توثقت صداقتي
بعائشة. قالت لي؛ أنا وزوجي سأمنا الحياة في لندن رغم جمالها
وغناها وفخامتها، الحياة في بلادنا على بساطتها يا أجاتا تجعلنا
سعداء أكثر، هنا جذورنا وذكرياتنا وقد أدينا واجبنا نحو وطننا
هناك، وهذا يكفي. زوجي موظف في الخارجية وأنا أزمع أن
افتح صالونا ثقافيا وأطمح أن أنقل تقاليد من الثقافة الأوربية
لوطني الذي خضع طويلا للعثمانيين، امتصوا دماننا باسم
الخلافة الإسلامية، أن لوطننا أن ينهض بعيدا عن الانقسامات
الدينية! وقفت أتأملها كأنني أراها لأول مرة، سمراء، بعينين

عسليتين وشعر ناعم فاحم، رشيقة فارعة، بدت لي أميرة عربية حكيمة. وجددتني سعيدة بصداقتها ولمت نفسي أنني ضجرت من ثرثرتها معي في القطار. قدرت همومها وآمالها ووعدتها أنني سأكون على تواصل معها دائماً. كانت تأتيني بسيارة يقودها سائق كهل يمازحني ببعض الكلمات الإنجليزية. صرت أنا أطلب أكلاتها الدسمة فأستطيبها ومعدتي لم تعد تنوء بها خاصة حين احتسي أقذاح الشاي الأسود المر! ثمة موظفون في سفارتنا ببغداد نصحوني بعدم السفر إلى أور الآن، قالوا إن البعثة الأثرية الإنجليزية التي تعمل هناك بقيادة الدكتور لومبارد وولي هي الآن بإجازة في إنجلترا، ولا يعرفون متى تعود، وأشهر الحر اللاهب في الجنوب؛ قد لا تشجعهم على القدوم مبكرين، ولا تزال الأجواء هناك مشحونة ضدنا بعد ثورة العراقيين هناك على لإنجليز!" إذا كانت أور تهكم إلى هذا الحد؛ تعالي في العام القادم!" قضيت أياماً جميلة في بغداد، سألت عائشة إن كان ما يزال قبر المسز بيل موجوداً في بغداد، بقيت على حبي وتقديري لها رغم ما سمعته عن نشاطها الاستعماري. قالت عائشة، ولماذا لا يكون موجوداً؟ نظرت إلي بقلق، أعتقد أن كره بعض العراقيين لها أو لغيرها سيدعوهم لإزالة قبورهم؟ نحن نحترم قبور الموتى، مهما كانوا، لا ننظر لدينهم أو حياتهم السابقة! عائشة تتحدث بصراحة عن تقديرها للإنجليز، لكنها تشير إلى ما قاموا به في بلادها بوضوح، وتحدد ما هو جيد، وما هو سيئ! طلبت منها أن تأخذني إلى القبر، قالت يسرني ذلك، وهم هنا يسمونها الخاتون، ويعرفون أنها بمثابة القابلة التي أخرجت العراق من رحم الدولة العثمانية بعد أن أضحت جثة هامدة، قالت من الصعب أن تخرج طفلاً معافى كامل الأوصاف من رحم جثة، المسز بيل أخرجته، ولكن ليس دون تشوهات! قالت إنهم يقولون أنها نذرت نفسها للسياسة بعد أن فجعت بمقتل حبيبها الضابط في الجيش البريطاني! أخذنا أنا

وإياها نقطف باقة من ورود الجوري الحمراء الكبيرة لنضعها على قبرها، حديقة عائشة واسعة كثيفة زاخرة بالنخيل والأعاب والرمان، مشبعة بماء دجلة الغزير وهوائه النقي! اتصلت بأحد معارفها، قالت ما أعرفه أن قبرها هو في مقبرة الأرمن الأرثوذكس في الباب الشرقي، لكنني أردت أن أتأكد، خشية أن تكون غربتي في لندن قد هزت ذاكرتي! سألتني ما رأيك أن نخرج على مقبرة الجنود والضباط الإنجليز وهي غير بعيدة عنا، وعلى طريقنا! رحبت بفكرتها. وأعدنا سوية باقة ورد كبيرة أخرى متنوعة لهم! قالت: ربما يقول البعض أنهم رجال احتلوا بلادي، لكنني أنظر الآن لهم على أنهم شبان غرباء، ربما جاءوا إلى هنا رغما عنهم، ودفنوا في أرضنا، وحدثهم تحزنني، أتصور ابني بينهم! عائشة دون أبناء، تقدمت في السن! ذلك يشعرني بالحب أكثر من الكراهية، يا أجاتا إذا نبقى على الحقد في صدورنا لن نتقدم خطوة واحدة في هذه الحياة! في الطريق ونحن في سيارتها الفارحة كانت تحدثني منتقدة السياسة التي اتبعتها الإنجليز في بلادها والمعروفة بسياسة "فرق تسد"، كبلوا العراق باتفاقات جائرة، واستحوذوا على الحصاة الأكبر من ثرواته، وكما قالت "رائحة النفط قد أسكرتهم وأفقدتهم صوابهم! رغم سعادتي باستقرار بلدي، لكنني أحس تحت هذا السطح الهادئ ثمة نذر شر قادم، أخشى أن نفقد فجأة الأمان والسلام وهما أهم ما نحتاجه لبناء وطننا. دخلنا مقبرة الجنود البريطانيين في الرصافة كانت منظمة ونظيفة، قبور بشواهد رخامية تحمل أسماء ضباط وجنود وتواريخ مقتلهم، تتخللها مساحات خضراء من العشب الريان والمقصوص، صفوف زهور وأشجار يوكالبتوس وارفة، عمال وحراس يدورون بينها محافظين على رونقها الجميل والمهيّب. وضعت باقة الزهور، في مقدمة الصف الأول من القبور الرخامية المرصوفة بنظام هندسي دقيق. وسمعت عائشة تتم بأدعية بلغتها، وفي عينيها ندى حزن،

هذه المرأة تشدني كثيرا بتسامحها وعمقها ومرونة شخصتها، هي تكره الاستعمار، لكنها تتألم لضحاياها من الجانبين! مكثنا لحوالي نصف ساعة صامتتين! بدأنا نسير لنخرج من صمت القبور، على الممر قطعت عائشة الصمت قائلة بصوت خافت:

- أكثر هؤلاء الجنود والضباط الإنجليز قتلوا في ما سميت بثورة العشرين، يبجلها كثير من العراقيين ولا يعرفون أن الإقطاعيين قد أشعلوها حين عرفوا أن الإنجليز يرومون إعادة توزيع أراضيهم والحد من الملكيات الكبيرة، والحد من سلطتهم المطلقة على الفلاحين حيث كانت لهم سجونهم ومشانقهم الخاصة لمن يخرجون عن طاعتهم. سارع رجال الدين لتأييدها لأنهم لا يريدون دولة مركزية راسخة تحول دون جبايتهم الخمس من الفلاحين الفقراء، والتحكم بمصائرهم، بآرك الإيرانيين تمردهم لأنهم لا يريدون عراقا قويا بجوارهم يحول دون مد نفوذهم إلى شواطئ البحر المتوسط. ولا يهتمهم في سبيل ذلك أن يقتلوا الشيعة العراقيين الفقراء. خسر الجيش البريطاني الكثيرين من جنوده في صراعه معهم، ترين بعض قبورهم أمامك الآن، أما قبور الفلاحين العراقيين الذين ماتوا وهم لا يعلمون أنهم حاربوا ن أجل جلاذيتهم من الإقطاعيين، ورجال الدين، والإيرانيين؛ فقد ذرثها الرياح!

سكت برهة تطوف نظراتها الحزينة في الأفق، قالت وهي تنتهد بأسى:

- إيران وراء الكثير من مصائبنا، هي ومنذ آلاف السنين بين محتلة لبلادنا أو متدخلة في شئوننا عبر عملاء لها من أهل البلاد!

قلت لها: أنا عادة لا أهتم بالسياسة ولكن يبدو لامناص لي إذا أردت العيش في بلد أن أعرف تاريخه وهمومه الكبيرة. تحدثت مع حراس المقبرة، هم يتلقون رواتبهم من السفارة البريطانية،

قال أحدهم ، لا يأتينا سوى زوار قليلون، من إنجلترا أو الهند، حيث بعض الجنود من السيخ، وفي فترات متباعدة جدا. اكتشفت أن مرأى القبور المهجورة من أهلها وأحبثها وفي أرض أخرى، هو من اشد المشاهد حزنا في الدنيا! كم احتقرت أطماع البشر، أولئك الذين يحتلون بلاد غيرهم، وينكثون بوعودهم، وأولئك الذين يخدعون أبناء وطنهم بأكاذيبهم، لقد جرعتني رحلتي إلى الشرق الكثير من المعرفة، والأحزان والأفراح أيضا! ونحن في طريقنا إلى قبر المسز بيل، نظرت في وجهي مبتسمة بحزن قائلة:

— كانت المسز بيل صاحبة الكلمة الحاسمة لدى الحاكم البريطاني للعراق، قدمت له خدمات كبيرة، لكن كبوتها كانت أنها لم تكن تدرك خطر إيران على العراق، فنصحتهم بعدم الاكتراث لمساعيها مع رجال الدين والإقطاعيين في العراق الواقعين تحت نفوذ الإيرانيين، فجعلت قيادة الجيش البريطاني تتراخى ولا تستعد لمجابهة المؤامرة! استغنت الإدارة البريطانية عن خدمات المسز بيل، عقابا لها على غفلتها القاتلة، عاملتها بجفاء وإهمال، لكن الملك فيصل الأول أراد مواساتها فأوكل إليها إدارة الآثار العامة، فأُسست المتحف العراقي وتعاقدت مع بعثات جديدة للتنقيب، حين تذهبين إلى أور سترين بعضهم! ماتت قبل أن تأتين يا أجاثا بثلاث سنوات، قالوا إنها كانت تعاني من بقايا إصابة بالكوليرا، وقيل أنها توفيت لأخذها خطأ جرعة كبيرة من الحبوب المنومة، أعتقد أنها انتحرت، كآبة من يخيب مشروعة الكبير بحسن نية أو بغباء! كانت المقبرة مهدمة ملحقة بكنيسة قديمة في الباب الشرقي وقفت عند قبر المسز بيل، وضعت عليه باقة الورد الحمراء، رسمت علامة الصليب عدة مرات، وتمتعت عائشة بكلمات من القرآن، وخرجنا واجمعتين! كنت حزينة لو مت هنا فسيكون قبري كهذا القبر المهدم

المنخسف وقد لا يجد من يزوره! قطعت عائشة صمتنا قالت:

- لو أنها كانت حية لشبكت يدها بيدك، وحملت كاميرتها وذهبت معك إلى أور، ولحدثتك بالكثير عن أور، هي ملمة بتاريخ العراق والمنطقة بشكل جيد!.

ظل وضعي في بغداد قلقا ومشوشا، عائشة بأريحيتها الحاضرة دائما؛ عرضت أن تأخذني بسيارتها إلى أور. لكن نصيحة السفارة لي وشيئا ما غامضا في أعماقي قالوا لي لم يحن وقت ذهابك إلى هناك! تعالي في العام القادم! أعلمت عائشة بقراري الرجوع إلى لندن، حاولت استبقائي، قالت صادقة "صرت أختا لي" وأنها كانت تود مرافقتي في طريق العودة، ولكنها مضطرة للبقاء بجانب والدتها خشية أن تنكس صحتها، وقد تأتي إلى لندن في وقت قريب لتصفية موجودات بيتها هناك، أكدنا ضرورة تواصلنا! اعتبرت رحلتي هذه أشبه برحلة تدريبية، يبدو أن طريق الهدف الكبير لا تتحقق فيه الخطوة الأولى إلا كمحاولة!

(27) بأية مياه خضت؟ أوهام؟ أحلام؟ أم مياه وجود وحقيقة؟ أم لا هذا، ولا ذاك، حملت شجرة عمري لأغرسها هنا، هل ستمد جذورها وتزهر وتثمر؟ أم أنها ستتفسخ في هذا المستنقع!

أعود أسأل نفسي؛ لماذا أنا ولفريد تيسجر المتحضر هنا في الأهوار المنطقة البدائية شبه المتوحشة؟ أهو الرغبة في تعذيب الذات وتدميرها؟ هل أنا أكره نفسي إلى هذا الحد لأرتضي لها هذه الإهانات في العيش الرديء والخطر الداهم؟ كنت منذ مطلع شبابي في وضع جيد وكفاءة لوظائف راقية تمنحني عيشا رغيدا ومكانة عالية، كثيرون من رجال السياسة والحكم في بلدي والعالم يعرفونني ويريدون ودي وقربي منهم! عندما دعيت لحضور حفل تنصيب الإمبراطور هيلاسيلاسي عرض كثيرون علي مناصب عالية في أثيوبيا وفي دول أخرى في أفريقيا وأوربا. لو كنت قبلت أبسطها لعشت حياة سعيدة، ولحظيت بالثروة والوجاهة وحياة زاخرة باللهو والمتعة والشهرة، ولوجدت في أحضاني نساء جميلات. أحيانا ولو للحظات أنسى هدفي من المجيء للأهوار، وأتساءل ما لذي جعلني آتي للعيش فيها؟ أهو حب المعرفة والإخلاص والصدق في البحث عنها؟ ولكن الأمر لا يقتضي كل هذا العناء والبذل الكثير من العمر والجهد؛ لماذا لم أكتف بأسبوع أو شهر من العيش معهم، والتقاط الصور لهم ودراستها فيما بعد؟ لماذا لم أقلد أولئك الرحالة المستشرقين اللذين أولعوا بتقصي عاهات الشرق وعيوبه، لم يروا منه سوى بيوت اللهو والمتعة، وحنانات الخمور ومعارض البغاء والرقيق وحمائم النساء والكتابة عنها للاتجار بها في الغرب؟ مشبعة أذهانهم بأخيلة ألف ليلة وليلة وغيرها من

القصص والأساطير الساحرة. ولكن ألا يمكن أن تكون صورة بنت المعيدي هي من رسم فنان مستشرق من هؤلاء الذين لم يروا من الشرق غير نسائه الجميلات المثيرات؟ بكلمة أخرى أنني لا أختلف عن أي أوربي حاء إلى الشرق باحثاً عن جانبه المثير والممتع لا عن قيمه وأفكاره وفلسفته وبقايا حضاراته القديمة؟ بأية مياه خضت؟ مياه أو هام؟ أم أحلام؟ أم مياه وجود وحقيقة؟ أم لا هذا ولا ذاك، قطعت شجرة حياتي وتركتها تتفسخ في هذا المستنقع! ماذا فعلت بنفسي؟ لا !! أنسيت ما جئت من أجله؟ هل غاب عنك وجهها، وشعاع جمالها؟ وأجدي مقتنعا بروعة التضحية من أجل الحب! ومنحه كل هذا العناء والسعي الطويل الصبور دون نيل متعه ومسراته! كثير من التعاليم الشرقية ترى أن عظمة الحب تقاس بحجم الألم الذي يسبقه أو يرافقه، ثم الحرمان النهائي من ثمرته، ترى في ذلك هناء وسعادة تفوقان أية متعة أو لذة! حبيب فاطمة ووجدت في وجهها الكوكب الذي علي أن أتبعه حتى آخر الدنيا، مؤمنا كما المتعبد أنها طموحي الأعلى، وإن علي أن أعيش بين أهلها وقومها زمنا مهما طال حتى أجدها؟ ولكن هل علي مواصلة هذا الإرهاق الذي أنا فيه الآن؟ أم إنني جئت هنا لأفني ذاتي وروحي وجسدي؟ هل إن قرار انتحاري كامن في أعماقي دون أن أحس به أو أعيه وأنا واقع تحت تأثيره يسوقني كما تسوق الرياح فراشة إلى النار؟ أحيانا أرى أعماقي امتدادا لهذه المساحات الهائلة من الماء والغموض والتوجس والحيرة والضحك، فيها نفس ما في هذه التجاويف الغائرة من أسماك وطيور وثعابين وزنابق وقصب، روعي وكل هذا الغمر من الماء سر واحد يمتد تحت السماء يريد أن ينكشف ويضاء بنور الشمس والحب معا! أحيانا تهب عليه رياح الكراهية، أحيانا رياح الخوف واليأس، ثم أرى فاطمة تلوح لي فيشتد وجيب قلبي، فأوقن أنها ستوصلني إلى روعي الغارقة تحت كل هذه المياه الراكدة، ولكن

من وضع روعي هناك؟ أنا أم هي؟ أكانت روعي هنا تحت هذا الماء الشاسع منذ بدء الكون؟ رغم كل المنغصات والأخطار، وما يؤرقني من نفسي ومن الناس هنا كنت مرات كثيرة استقل القارب وحدي، لأتجول في أرجاء الأهوار غير مكتثرت لتحذيرات مساعدي ياسين وعمار وغيرهما خشية التيه على هذه المساحات المائية الشاسعة الذي يفقد فيها المرء الإتجاهات من أن تغيب عنه الضفاف! أترك القارب ينساب دونما هدف أو غاية أعرف أن في أعماقي أمل بلقاء فاطمة، تقابلني على مشحوفها هي أيضا مثلي تبحث عن أملها المنشود، الرجل الذي يحبها وبرهانه على الحب تحمل الأهوال من أجلها، تحضننا ظلال القصب للحظات، دموعنا تتعلق بضوء القمر لا تهبط إلى الماء المتوقف وجلا، تعود إلى القلب كما نبعث منه! يلأنا الصمت، نتلاشى في النور البهي، لا عناق ولا كلام ولا افتراق، كل حلمنا أن نلتقي ونقترن بقوة نبني معا بيتا من القصب والبردي بهندسة سومرية، نعيش فيه حياتنا البدائية، نقتات على السمك والطير ولبن الجاموس والرز، لا يدخل بيتنا راديو ولا جريدة ولا كتاب قديم أو حديث، حتى صورتها سأطويها، ما حاجتنا للصورة إذا حضر الأصل؟ نسمع موسيقى السماء والشمس وغابات القصب، لا أشارك في تلك الجرائم الكبرى التي تصنعها الدول الطامعة الكبرى وبينها دولتنا، نعيش معا حتى الموت، هل الحلم كثير على الدنيا، هل سيتقلها أو يعوق مسيرتها ودورانها؟ هذه حكاية العمر الذي مهما طال؛ يظل اقصر من حكاية عجوز لطفل سريع النوم! مساعداي ياسين وعمار خففا كثيرا علي عبء الحياة هنا، ياسين، دون الثلاثين وسيم داكن السمرة بوجه مستدير وعينين واسعتين تكادان تريان بوضوح في ظلام الماء، رشيق، مهذب جدا. عمار بنفس عمره كأنهما تؤمان، هما قريبان كما عرفت، لكن عمار أكثر سمرة، وأكثر امتلاء، ورغم انهما لم يذهبا إلى المدرسة كأكثر شبان

العرب هنا إلا أنهما يتمتعان بتهذيب فطري يدهشني ويزيدني
حزنا عليهما، كيف يبقيان يطوفان في المشحوف يقتاتان على ما
يصيدان من سمك أو طير، أو تجود به عليه عائلتهما
والجاموستان اللتان يمتلكهما والدهما المرهقان المريضان، حتى
يشيخان أو يموتان مبكرين بأحد الأمراض القاتلة التي
يتداولونها هنا بينهم كالهدايا المسمومة. كانا يساعدانني تاركين
والديهما يهتمان بشئون وحاجات العائلة، مع فقرهما المدقع،
يقبلان الأجر البسيط الذي أعطيتهما، وما كانا يطلبان المزيد،
ولا يتقبلان ما أجليه لهما من ملابس أو هدايا بسيطة إلا بعد
إلحاح، يقولان دائما أنهما وجدا بي أبا أو عما، أحيانا يناديانني
(يابا). استطعت أن أكسب ثقتهم أترج في حديثي معهما عن
فاطمة كلاهما قالا إنهما سمع والديهما وجديهما يتحدثان عنها!
أنا وجدت أن أكثر العرب هنا لا يعرفون عنها شيئا بعضهم، لم
يسمعوا بها، لم يروا صورتها! الرجل هنا منغمس بهوموه
وكدحه اليومي، وشقاقه ومرضه، كيف يفكر بهكذا قضايا غريبة
بطرة؟ وجدت صورها في صرائف قليلة، أصحابها محظوظون
أن لهم أبناء أو أقارب سافروا إلى المدن فجلبوها كهدايا ثمينة،
في لحظة نشوة أو حنين غامرة. أسألهم عنها يقولون أنهم
يعرفون تفاصيل ما حدث لها وأصلها وفصلها، متصنعا البراءة
والغفلة: "من هي؟ بنت من؟ أين عائلتها؟ في أي مكان
تسكن؟" يكتفون بالقول "إنها منا، من المعدان" وكفى! بذلك
يعيدونني إلى نفس المتاهة، جاعلين من أنفسهم كلهم ضحايا
مثلا، وسياجا لها أيضا! أحدهم وكان كهلا تحدث عنها بفخر
،قال وهو يشير إلى صورتها المعلقة فوقه في مضيفه:

- الإنجليز قصفونا بمدافعهم، ونحن قصفناهم بهاتين العينين
الجميلتين، أندري يا صاحب بنت المعدان هي الآن أميرة تحكم
في بريطانيا!

ابتسمت في سري، وكانت مناسبة لحديث واستفسارات، لم أخرج سوى بنفس ما لدي من حكايات عنها! بعض الرجال يرى بنت المعيدي تاج الأهوار، ودرة مجدها العظيم، وكونها قابلت الإنجليزي، أغواها أو أغوته، فتلك مآثرة كبرى لها، سألت أحدهم:

- أين هي الآن؟

فاتجهت إلى الأنظار بين مستريب، وبين غاضب: قال أحدهم بنزق:

- كيف لا تعرف!

ثم أجبني بثقة ونبرة غضب:

- انها هناك طبعاً، في لندن تحكم مع ملككم!

لم أحر بشي، أحنيت رأسي وسكت، قلت في نفسي ليتها في قصر بنكهام ربما كان وصولي إليها سيكون أسهل من رحلتي الطويلة هذه إليها دون جدوى حتى الآن، يا لورطة هذا الحب المرهق لروحي وبدني! لجأت إلى حيلة أو لعبة؛ ظننتها بارعة وموفقة، جلبت عدة نسخ من صورتها، أهديتها لبعض من أزورهم في الأهوار، علقوها في صرائفهم، قلت ذلك سيجعل صورتها في صريفتي عادية كما صورتها في صرائفهم، ويغدوا حديثي معهم حولها طبيعياً، وقد أصل إلى معلومات جديدة عنها، كما إن ذلك سيمكنني من مطالعة وجهها الحبيب حيثما حللت بينهم، لكنني حتى الآن لم اسمع من أحاديثهم سوى حكايتها المكررة نفسها، مع بعض التفاصيل تختفي أو تأتي بشكل مختلف قليلاً، وبقيت في مكاني لم أخطو نحوها بأية خطوة جديدة! ثمة رجل كهل صارم الملامح قال "إنها ليست أجمل نساننا، لدينا أجمل منها بكثير، لو نزعن ثياب حلب الجواميس، ولو تبرجن مثل بنات المدن لبهرن رجال المدن! وجلس أمامي

على منحدر باحة معشبة أمام صريفته يدخن ويحدثني عن رحلة المرأة في حياتها على الماء: "المرأة عندنا متعبة حد الموت؛ فهي ترافق الجاموسة من الصباح حتى المساء، الجاموسة لا تسمح أن تحلبها سوى المرأة التي اعتادت عليها أو صادقتها؛ لذلك تظل المرأة خادمة لها حتى الموت، ولو مرضت أو رحلت متزوجة، أو ماتت يجب أن ترتدي ثيابها المرأة أو الرجل الذي يريد حلب الجاموسة لتشم رائحة صديقته القديمة وتدر حليبها، الجاموسة ألوفة وفيه وشبه مقدسة هنا فهي مصدر عيشنا وعصب حياتنا، وقد تساوي قيمتها المرأة نفسها، وربما تفوقها لدى بعضنا، لذلك قد تفنى المرأة حياتها في خدمة جاموس العائلة، نعم يا صاحبي المرأة عندنا مرهقة فانية، دعها ترتاح شهرا واحدا، وخذ لها صورة؛ ستجد أنها أجمل من فاطمة! كلامه استوقفني، لماذا لا أتزوج أية فتاة جميلة هنا، اسميها فاطمة، وتنتهي رحلة بحثي الطويلة، لكن الأمر مع قلبي ليس بهذه البساطة! كان الرجل محقا في كلامه، رأيت في الهور فتيات جميلات جدا، يقبعن تحت ثيابهن السود الرثة المهلهلة، وطبقات الأوساخ المكونة من رذاذ حليب الجاموس ودهنه، وغبار المدن حين ينزلن لبيع الروبة والزبدة في أطباق خشبية مدورة يحملنها فوق عمامة سوداء على رؤوسهن بطوابق متعددة قد تصل إلى عشرة طوابق أو أكثر، تصوري يا عزيزتي أجاثا فتاة جميلة فارعة القوام تمشي في شوارع مدن غربية، وهي تحمل على رأسها عمارة خشبية من عشرة طوابق ليست مسكونة بالبشر المزعجين لجيرانهم بموسيقاهم الصاخبة كما في لندن بل باللبن اللذيذ كامل الدسم! بعضهن شقراوات بعيون خضر وشعر ذهبي كأنهن أوربيات، حتى لأقول في نفسي أن جداتهن جنن من انجلترا وأوربا على أجنحة الإوز العراقي الذي يأتي لشواطئ أوربا من الأهوار ليسير على الماء بخيلاء العروس التي فازت بحبيبها الجميل من بين عشرات المتنافسات

عليه! وإلا بماذا تفسرين أن تكون بنات المعدان شقروات بين
عرب القبائل، القادمين من اليمن والجزيرة العربية والمعروفين
بسمرتهم ودكنتهم حد السواد؟ نعم الإوز العراقي والجدات
الأوربيات ما زلت يلعبن على أوتار الجمال أعذب الألحان!
(أتحدث عن جمال النساء يا أجاثا ولا أنسى جمالك
الاسكندنافي، أنت آية كبرى في الجمال والذكاء والإبداع، حلم لا
تجراً حتى عروس الإوز على الاقتراب منه) يرتجف قلبي عند
أصوات محركات لقارب أو طائرة ويخفق فرحاً لسماعي
صوت اصطفاق أجنحة بطة تمرح على ماء الهور، سمكة
صغيرة تقفز لتقضم شعاع الشمس، ضرع جاموسة يدر الحليب
بسخاء في وعاء صبية جميلة حتى يفيض وهي ذاهلة تفكر
بحبيبها! أنت تعرفين أكثر مني يا عزيزتي أجاثا، أن الإنسان هنا
تجراً وصرخ بوجه السماء، لماذا نموت؟ وجلجامش لم ييأس
حتى اليوم من بحثه عن الخلود! وأنا هنا أبحث عن الفناء في
الحب، ذلك أسهل من الخلود، ولا يقل جمالاً وعظمة عنه! بل
إن الحب والفناء فيه هو الخلود، سأظل أبحث عن فاطمة هنا
والتي ربما لا وجود لها، وهذا هو خلودي كله!

لهنيهة ظل ماكس يتسمع أصوات متشابكة مختلطة تأتي من
جهة النهر، علها أجاثا عادت يحف بها منقذوها، شرطة أو
رجال طبيون. نهض إلى الشرفة، تطلع إلى الشاطئ، لا شيء
سوى الصيادين والقوارب التي تنقل العابرين، هل غفلت عن
أجاثا ومحنتها وغرقت في ما كتبه هذا المعتوه وثيسجر في بحثه
عن حبيبته الوهمية؟ أم إنني كنت أبحث عن أجاثا بين كلماته
المتدفقة بشهية رجل لديه الوقت للركض خلف غرام وهيام لا
يعرف هل هو حقيقي أم وهمي؟ ولكن علي لكي أعرف مصير
أجاثا أن أتأمل وأدرس كل شيء، وقائع حدثت أمس أو اليوم،
إشارات ودعوات ثيسجر، وعلى أن أملأ الفراغات بينها لأجعلها

متناسقة، متسلسلة واضحة قد تفضي كما المعادلة الرياضية المعقدة إلى نتيجتها الصحيحة، من حسن حظي إنني درست علم الآثار والذي من أهم دروسه ما يسمى بفن ملأ الفجوات، حين يصادفنا لوح قديم عند التنقيب وقد سقطت عنه حروف وكلمات أو سطور؛ علينا أن نشعل خيالنا لنملأ هذه الفجوات بكلمات هي طبعا لن تكون نفس الكلمات التي خطها الكاتب القديم ولكنها قد توصل لنا بشكل عام ما أراد قوله، علي أن أملأ فجوات كثيرة هنا وهناك في طريق بحثي عن أجاتا سواء في ما كتبه ثيسجر أو في ما كتبه هي أو في ما خطته الظروف لنا على هذه الأرض الغريبة! وعاد يقرأ: رغم أن الكثيرين من عرب الأهوار لم يستسيغوا وجودي بينهم لكنني لا أستطيع إلا أن أراهم بطبيعتهم الهادئة المنسرحة مع الماء والطير والقصب الأخضر، لا يميلون للحروب أو الصراعات الدموية، وهم رغم انفعالاتهم السطحية الغاضبة، أميل للمسالمة والسكينة، ما عثروا عليه من أسلحة الإنجليز بعد سحق الثورة لم يستعملوه، أو يحتفظوا به حتى ولو لصيد الطير أو السمك. أعطوه أو باعوه لأبناء القبائل العربية أطراف الهور أو في المدن، لم يأخذوا من الإنجليز ألا ما سمعوه أو حفظوه من أسمائهم ليستعملوها لشئ غريب، ولا يخلو من طرافة، ويصب في تعلقهم بالحياة رغم أنهم يعيشون مع الكثير من أسباب الموت، وويلاته. وجدت لديهم طريقة غريبة لمراوغة الموت، والهروب اليائس منه، فهم يسمون أبناءهم بأسماء قبيحة أو بشعة، ذلك باعتقادهم يجعل ملاك الموت يتخطاهم؛ ولا يقطف أرواحهم لكي لا تتلوث يده بأسمائهم! فهم يسمون بعض أبنائهم: جريذي، جحيش، كليب أحدهم سمى ابنه أو ابنته بلاسم، أي بلا اسم، الرجل و المرأة الذين لا اسم لهما، فلا يعرفهما الموت ولا يهتدي إليهما، بعضهم سمى أبناءهم بأسماء الإنجليز فهي في اعتقادهم نجسة قبيحة لا يقربها الموت، وجدت رجالا بأسماء

قادة إنجليز سمعوا بهم خلال الحرب معهم، (جون) (كوكرز)
(شرشول) من شرشل! و بنات بأسماء (دكسن) ، و(موده) من
(مود) (جورجه) من (جورج) ،فكتوره (من فكتوريا) هنا
صارت الأسماء الإنجليزية دروعا ينجو بها أصحابها من
الموت، ويعيشون طويلا، لو صحت نظريتهم، لحمت الإنجليز
أسماءهم من الموت! لا أدري كيف حصلت بنت المعيدي في
اللوحة العظيمة على اسم فاطمة وهو اسم بنت نبي المسلمين،
وهي تحظى بإجلال المسلمين بمختلف مذاهبهم، أغلب الظن
أنها منحت هذا الاسم تقديرا لجمالها الفائق الذي كان واضحا منذ
ولادتها! وجودي هنا صعب جدا، فيه فرح الأمل أجدني في
تأملي ، بأية مياه خضت؟ أو هام؟ أحلام؟ أم مياه وجود وحقيقة؟
أم لا هذا، ولا ذاك، حملت شجرة عمري لأغرسها هنا، هل
ستمد جذورها وتزهر وتثمر؟ أم أنها ستنتفخ في هذا المستنقع!

(28) قالوا: سنسلخ جلده لنخرج منه
الضابط الإنجليزي الذي أفلتت منه بنت
المعيدي وجاء يبحث عنها، ليستعيدها،
أو لينتقم!

أرقب قرص الشمس يهبط في الماء البعيد، صفحة واسعة من
المدى تتوهج نحاسا لاهبا، الكون يلم أطرافه ليأوي لنفسه، ولقلبي
معا، وفاطمة هناك في لجة النور البهي! عمارة وياسين بجانبتي
صامتان وقد استغرقهما جلال المنظر. يحترمان صمتي،
وحزني المفاجئ، هما يصران على مرافقتي خوفا عليّ، يعدان
معي عشاءنا من لحم الطيور والسماك المشوي على طريقة
المسكوف والتي يقال أنها طريقة السومريين في شَيِّ السمك.
أحيانا يصران على المبيت معي في الصريفة، هما ازدادا قلقا
عليّ بعد تواتر تهديدات لقتلي، كثر أعدائي هنا دون توقع مني،
يتواصل ضدي حلف الحلاقين المتضررين من طبابتي
،والموامنة السارقون خبز الفقراء باسم الخمس الإلهي،
والمزايدين في الوطنية، يروجون إنني جاسوس، أحصي
حركاتهم وسكناتهم للسفارة البريطانية!

وحين أبقى وحدي ويجن الليل، ينتابني أرق، وسهاد ممتع
لذيذ، أحس بروحي انفعالات الأهوار ونبضها وحركتها الداخلية
العارمة تحت السكون المغمور بضوء القمر! أسمع أصواتا
تقترب وتتأى، حشود بشر يأتون من أعماق التاريخ يشنون فوق
الماء بقوة السحر أو بمعجزات قديسين، يطرقون بابي ثم تشتتهم
الريح والصمت المفاجئ، يتصاعد أنين القصب، نقيق ضفادع،
أزيز بعوض ونغمات جنادب وطيور تتحادث في ما بينهما في
الظلام وقد تلاقى كل ذلك بموسيقى رطبة، دافئة باردة منعشة

كنسيم الصباح، وتعود خطى البشر فوق الماء، خطى مؤمنين وملحدين وحائرين بينهما، وأتية بعيدا عن الإله، ويقر في نفسي خاطر سعيد، أن كل هذا الصخب الكوني المهيب يزف لي الآن فاطمة، ستدق باب الصريفة المخلع برفق؛ وستدخل بثوب الزفاف الأبيض الهفاف وترتمي في أحضاني، بلهفة حنونة دافئة، أصحو فأجد إنني وحدي على فراش في سرير الجريد، أخلد للصمت وأروح أسأل نفسي، لماذا لم أكن أنا أول من رآها؟ لماذا سبقتني إليها ضابط متعجرف؟ كنت انحنى عابدا خاضعا لجمالها وليس كما فعل وجعل جمالها يخضع لقوته وجبروت دولته؟ لا خضوعا حقيقيا إلا لقوة الجمال! كثيرون لم يعبدوا الإله إلا بعد أن أدركوا جمال صنعه . حتى خوفهم من الموت كان نشدانا لجمال الوجود وبقائه وضرورة خلوده.

كلما زرت البصرة، ونزلت فندقا، معلقة في صدارته الداخلية صورة فاطمة، أسأل صاحب الفندق أو مديره، لمن هذه الصورة؟ ويأتي الجواب: "بنت المعيدي"، مع ضحكة قصيرة تحمل معنى الغرام أو خيبته، ثم تتوالى أسئلتي، من هي؟ أين هي الآن؟ لماذا؟ كيف؟ وتنهل الحكايات! وقد وجدت أن حكايات كثيرة عنها في البصرة، كل يضيف لها ويحذف منها حسب خياله ومزاجه، وقد خرجت بحصيلة وسعت متاهتي معها، وزادتني حيرة من أي الأبواب أدخل إلى قلعتها الحصينة! مدير فندق يطل على العشار كان قد قارب السبعين حدثني: كان القطار القادم من بغداد إلى البصرة أو العكس يتوقف لساعات في محطة تدعى السدة، قريبا من البصرة، حيث تسكن جماعة كبيرة من مربى الجاموس، فكانت فتيات منهم يتقدمن إلى نوافذ القطار أو يصعدن إلى عرباته يبعن للمسافرين القيمر واللبن الذين اشتهرا بجودتهما ونظافتهما في هذه المنطقة. لمح ضابط انجليزي فتاة تبيع القيمر فافتتن بجمالها فسقط هو والقطار كما

قال في بحر حبها العميق، فلم يتحرك هو وقطاره إلا وأقنعها بخداعه ومكره لتهرب معه! وتكرر الحكاية فتقول أنها التقت الانجليزي خارج منطقة سكنها، وبالتحديد عند شاطئ العشار وهي تحمل فوق رأسها عمارة اللبن والقيمر المكونة من عدة طوابق، وإن الإنجليزي كان ضابطا في البحرية البريطانية، وإنه كان يرتدي بزته الصاخبة بأمواج البحر وزرقته، حين رآها اعتقد إنه يدخل مع سفينته لجة البحر، فتمايل وسقط أرضا، وإنها ألقت طوابق اللبن والقيمر عن رأسها وراحت ترش الماء على وجهه ليفيق، وشغفت به أيضا، ولم تمض سوى دقائق حتى أصبحت عاشقين، كيف تفاهما؟ يقولون أن الإنجليزي يعرف قليلا من العربية، ثم هل يحتاج الحب لغة غير لغة العيون واختلاج الملامح؟ الحكاية تقول أنهما هربا إلى لندن، وعلى الفور! وكالعادة يرسل الضابط صورتها لأهلها من هناك! في حكاية أخرى تقول أن أهلها رفضوا زواجها منه، فقرّر أن يحصل على صورتها كتعويض أخير وحزين طبعاً، فيرسمها من مخيلته، الحكاية تمنح الضابط مرة أخرى قدرات عظيمة تفوق دافنشي الذي رسم الموناليزا بسبع سنوات بينما الضابط رسم حبيبته في سبعة أيام! وسواء كان من رسمها ضابط أو دافنشي نفسه، فهي كما يقول مدير الفندق الآن فائنة الأبد، والأبصار، تضيء بوجهها الفنادق والمقاهي، والمدن وتبديد الظلمة إذا انطفأت الفوانيس، أو نضب الزيت أو انقطعت الكهرباء! لم يضجر ماكس لهذه التفاصيل المملة أو المتفرعة كثيرا، وتوقع أن أجاثا أيضا لا تشيح عنها بل على العكس هي تؤكد أن الرواية يجب أن تتضمن أدق تفاصيل الأشياء، فالحياة نفسها كذلك! كل الحكايات تأسى لها في غربتها بل أن أحداها تشط في الخيال فتقول أن بنت المعيدي تعود كل عام من غربتها في أوربا مع الطيور المهاجرة إلى الأهوار، لترى أهلها ومرايع طفولتها دون أن يروها فتنكأ جراحهم، وإن بعضهم تعرف عليها

من عينيها لجميلتين الباكيتين دائماً، وإن أحد الصيادين بعد أن أطلق خرطيش بندقيته على سرب من الطيور سمع من بينها صرخة آدمية تقول، " انا ابنتكم جئت لأراكم كيف تقتلونني؟ ومنذ ذلك اليوم انقطعت عن المجيء، هنا يختلط الحقيقي بالوهمي إلى حد يتعني ويحزنني كثيرا!

كادت تصيبي بالإحباط واليأس حكاية رواها لي مسافر معي في القطار من الناصرية إلى البصرة عرفت أنه موظف في المكتبة العامة الوحيدة في البصرة، يعمل مفهرسا ومجلدا:

- هي معبودة الكثيرين في مناطقنا، يحبها الفقراء كثيرا، وضعوا صورها على جدران بيوتهم الطينية، أو الصفيح، وفي محفظات جلدية متهرئة تحوي دراهمهم القليلة، وفي قلائد صغيرة لتكون قريبة من قلوبهم، هي حلم الكثيرين، وبنفس الوقت هي ليست لأحد، وهي شيء من لا شيء، بحثت عن حقيقتها، وبحكم عملي في المكتبة راجعت الكثير من المصادر فوجدت إشارة تقول أن ثمة رسام ألماني يدعى هوينر كان قد جاء سائحا إلى البصرة فرسمها، وباعها لأحد المطابع، في بيروت ومنه انتقلت إلى سوق الصور!

مضت أشهر طويلة على وجودي في الهور، صحت صباحا على صوت مجذاف مرافقي الأمين عمارة، يخطب الماء بعصبية واضحة، دخل صريفتي صامتا، قلقا، لا يستقر، دعوته للجلوس، ظل يخرج إلى باب الصريفة؛ يطل برأسه إلى الفضاء المتوهج بشمس شتائية ندية ثم يعود، سألته ما بك؟ دهشت إذ رأيته يهز رأسه وقد لاحت سحابة غم على وجهه، سألته: ماذا هناك؟ لم يجب وبقيت أتطلع إليه، جلس القرفصاء وراح يخط على الأرض بعود منكس الرأس بعد صمت قال:

- أحاديث الناس هنا صارت تلاحقنا غريبة غامضة، لا أدري ماذا يريدون، بعضهم يقول إنك الضابط الذي هربت منه

بنت المعيدي، وقد جاء إلى الهور يبحث عنها!

توجس قلبي، قلت :

- ألم يكن أهلها قد رأوا ذلك الضابط؟ ألا يعرفونه؟

- بعضهم يقول أنك الضابط نفسه، وهم رأوك رأي العين، ومتأكدون أنك هو نفسه، بينما آخرون يقولون إنك مرسل من قبله، هنا الأوهام يا عم تيسجر أقوى من الحقائق!

وأخير عرفوا إنني جئت أبحث عن فاطمة ابنتهم، وابتدعوا لي تفاصيل قصة حب لي معها لم تكن تخطر ببالي ولا في الحياة نفسها لو سمحت لنا بأن نعيشها معا! راح عمارة يسرد لي حكايتهم التي يتداولونها عني، قالوا إنني كنت ضابطا في الجيش الإنجليزي في الهند، (قذفتني مخيلتهم إلى الهند وأعادتني) وإنني عملت في قاعدة الشعبية في البصرة، في تلك الأثناء خرج احد ضباطي من الكركة الهنود مع ثلة من جنوده بدورية، فالتقى بفاطمة التي كانت عائلتها قدمت من الأهوار، واستوطنت قريبا من شط العرب وراحت تبيع الروبة والقيمر في البصرة، فوقع في غرامها على الفور، وصار يتغيب عن الثكنة، هائما بها يساعدوا في بيع الروبة بوقوفه بجانبها يؤدي أغان وحركات بهلوانية هندية، فأستدعيته (أنا الضابط كما ادعوا) وأجريت تحقيقا معه، وأمرت بإعادته إلى الهند ونزع رتبته. لكن الضابط الهندي راح يستعطفني قائلا لو رأيت جمالها لعذرتني، وعفوت عني، فوافقت على مقترحه بأن يجعلني أراها، فرتب لي موعدا معها في بستان على شط العرب، وإنني ما أن رأيتها حتى سقطت مغشيا علي، ما جعل الهندي يجلب أعشابا ويعصرها في انفي حتى أفتت، وإنني كما شط بهم خيالهم المائي، قد ساومته أن يترك الفتاة لي مقابل أن أعفو عنه وأبقيه في رتبته ومكانه، فوافق الضابط الهندي بل طلب منها بلغة الإشارات أن تخرجه من قلبها، وتضعني مكانه، فوافقت على مضض، وإنني

قصدت أهلها لخطبتها؛ فرفضوا، رغم أنني عرضت عليهم الكثير من المال والهدايا، ووسطت إليهم رجال دين من أحفاد الرسول. فأصروا على الرفض، وإنهم لكي يتخلصوا من إزعاجي لهم وللفتاة عادوا برحلمهم وجواميسهم إلى أهوار الصحين، هكذا جرت حكايتهم الملفقة! صمت عمارة، أخذت نظراته تهيم في الأفق، بقيت متوجسا للحظات ثم فجأة شعرت بالفرح، فأقاولهم هذه تعني، إن من أبحث عنها موجودة، وليست غائبة، وهي هنا في الهور، وليست في لندن. وإنما ليست عجوزا ما دام عاشقها الضابط بعمرى أو يشبهني! لكن فرحتي انكفأت، حين عاد عمارة يتحدث:

- لكنهم حسب قولهم اكتشفوا أنك ما زلت تلاحقهم، وبذلك لا حل أمامهم سوى قتلك ليتخلصوا من مضايقتك لهم! القضية كما ترى يا عم تيسجر قضية شرف وسمعة عشائر لا تغسل العار والحيث إلا بالدم! رغم سخف حكايتهم وتهافتها لكنها أفلقتني كثيرا! الناس هنا لا يتسامحون بقضايا النساء؟ وكنت مدركا لهذه الحقيقة في بحثي الصامت عن فاطمة، ترى كيف اختلقوا هذه الحكاية التي تعني الحكم عليّ بالموت! إطلاق لجحافل من الأشباح تلاحقني إلى كل مكان، تريد أن تغور بي في مكان لا يعثر فيه على عظامي حتى ماكس نفسه تلك الليلة بقيت أتقلب أرقا، موقنا أنهم سيقتلونني، كنت أتذكر طبيعتهم المسالمة وطيبتهم، لكنني أقول أن ما يأخذونه علي أنني قاربت قضية تمس شرفهم وسمعتهم، تخيلت أحدهم يكمن بين القصب ويصوب إلي بندقيته، التي ربما تكون نهبت من معدات الجيش الإنجليزي! ثم يعود الأمل فجأة إلى قلبي أنني سأجد فاطمة وسأعرف كيف أقتع أهلها بالموافقة على زواجي منها، وسيتم ذلك ببسر فأنا لست كالضابط يريد انتزاعها منهم وأخذها إلى لندن، أنا سابقيها في أحضانهم، وسأعيش معها في الهور. لو

كنت أنا من رآك يا فاطمة في جمالك البكر كنت أتيتك بهيئة
شحاذا لا بهيئة ضابط، كنت استملتك لي بلغتك لا بلغتي، سجدت
عند قدميك، مديراظهري لبوارج دولتنا المسلطة فوهات
مدافعها إلى بلادك، في الحب لا أحتاج لمدافع، ولا حتى
رصاصة واحدة، على العكس أطرده رائحة البارود، وأتيتك
بزهرة فواحة مبللة بدموعي، أراك في قلبي نهارا تنهضين،
فتلثت الشمس على شعرك، وتأوين في الليل فينكفي القمر على
لؤلؤ ثغرك، أه يا فاطمة هل كان يجب أن أولد قبل ثلاثين أو
خمسین سنة؟ هل بكرت أنت بالخروج من الرحم مثل حمامة
اعتقدت أن وهج البرق والرعد الليلي هو نور الصباح؛ فخرجت
من العش لتتلقفك، صاعقة العساكر؟ لكنني سأجذك، أنت الآن
تأتين كل ليلة لتطوفي هذه البقاع المائية بحثا عن ذكريات
طفولتك وصباك، المزهرة مع براعم القصب، ولمعان الشمس
على الموج، أنا هنا، أنصب لك كمين الحب، أجمل كمين في
الدنيا وأكثرها شرعية وصدقا بين ملايين الكمائن التي دمرت
هذا العالم، وحالت دون لقائنا في الوقت المناسب، سنلتقي يا
فاطمة، لن نفقد الأمل مصير البشرية أن تعود عائلة واحدة!
ربما ستقولين يا أجاتا وما الفرق بينك وبين الضابط؟ هو جاءها
بالسلاح وأنت جئتها بالكلام المعسول وأدويتك المسكنة، وأنا
أيضا أفكر كذلك، لا دليل لدي غير شعوري بصدق نواياي،
أقول أنهم محقون حين يقولون: سنسلخ جلده لنخرج منه
الضابط الإنجليزي الذي أفلتت منه بنت المعيدي وجاء يبحث
عنها ليستعيدها أو لينتقم! وأتلمس نفسي قائلا، هل أنا كذلك حقا
وقد عرفوني بفطرتهم الذكية، هل هم يعرفونني أكثر مما
أعرف نفسي؟ من حسن الحظ كان لدينا في اليوم التالي عمليات
ختان في قرية مجاورة لمجموعة أطفال بينهم طفلان لشيوخ
متنفذ. حكيت له بما سمعته من عمارة، أطلق ضحكة قال:

- هذا تخريف، لا صحة لهذا الكلام، حكاية بنت المعيدي انقضت من زمان العصملي، أي ضابط انجليزي يأتي للبحث عنها؟ هنا رجال يقضون وقتهم، عطالة، وبطالة، لا يجدون ما يعملونه سوى الثرثرة بهكذا حكاية عفا عليها الزمن، اطمئن لا أحد يجراً على لمسك وأنا هنا! وأمسك شاربه على عادة العرب حين يعدون أو يعطون كلام شرف! وبقدر ما شعرت بالطمأنينة لكنني أصبت بخيبة أمل أن فاطمة حكاية خرفين عاطلين، ألا يشملني ذلك؟ وإن رحلتي محمولة على حكاية من زمن العصملي، أي حب هذا! لكن ما أن خرجت من مضيف القرية وقد وقف الصبيان يلوحون لي مودعين بينما يمسكون باليد الأخرى ثيابهم من بين أفضاذهم لكي لا تمس أعضائهم المجروحة فتتكأها! حتى دب في قلبي الأمل من جديد! في الطريق المائي الطويل رحلت أفكر أن فاطمة الجميلة موجودة حقاً! وهي محاصرة سجينة عند أهلها خشية أن تختطف وسأكون أنا المنقذ، وفتى الأحلام المنتظر! أخذت أحث ياسين أن يتوغل بمشحوفنا في أعماق الهور، لنصل إلى الصرائف البعيدة فلا بد أنها قد لاذت بالأماكن النائية، ويعود قلبي لتوجسه، وخوفه، صرت ولأيام طويلة فريسة حلم يسقط خائبا متلاشياً تارة، ثم ينهض فجأة قويا جارفاً! كان السمك يتقافز أمامنا في الهواء كما الطيور، وأحياناً يلقي نفسه في قاربنا وأحضاننا فكان ياسين يقول ضاحكا ، السمك يقدم نفسه لنا بطيبة خاطر، ثم يضيف: جدي يقول عن هكذا سمك، هو عاشق يطير إلى الحبيب ناسيا الجمر الذي ينتظره، ولا أدري أضحك في سري أم أبكي وأنا أقول إنه يتحدث عني! صرت أستمتع بحكاية الحب التي صنعوها لي، متصورا حركات الهندي كأنه يعبر عن أحزاني بطريقة بهلونية، راحت مخيلتي تتدرب على حزن العشاق على الطريقة الهندية المشبعة بالروحانية والمرح! اكتشفت أن فاطمة ستكون بسيطة ساذجة بل فجة وجاهلة، وهذا

أمر بديهي، وماذا أنتظر منها وهي التي نشأت حيث لا مدرسة ولا حضارة؟ هل أنتظرها مثقفة وبشهادات؟ لكن يمكنني أن أنتظر، إنها ذكية متفتحة ذات فطرة ناضجة وعميقة ، وكم يكون بين الأميات من مفاجآت، فتيات ذوات خبرة روحية عميقة يتفوقن على صاحبات الشهادات العالية اللواتي يمكن أن تجد بينهن بليدات ثقيلات لا تطاق معاشرتهن! هكذا رحلت أوّمل نفسي أنها ستكون بسليقتها وبساطتها غاية في اللطف والتهذيب! وحتى إذا لم تكن كذلك علي أن أبذل جهدا معها، عيناها تشعان ذكاء وقدرة على الارتقاء! أحببت هذا المكان وهؤلاء الناس وعلي أن أتحمل صعابهم وأستمتع معهم بجمال الدنيا والتي مفتاحها عندهم البساطة، ثم البساطة!!

(29) يا للمقادير! كنت وحبيبي في مدينة واحدة، ولم نلتق، هناك، التقينا في بلاد بعيدة!

بعد عامين تقريبا عدت إلى بغداد، في طريقي توقفت في اسطنبول، بهرتني مساجدها وأبنيتها الجميلة وأسواقها ومطاعمها وحمامتها الساخنة، لكنني لم ابق فيها سوى يومين، شيء ما في أعماقي كان يقول لي دائما: هيا إلى العراق! إلى أور! في حلب استقبلني مظلوميان بلهفة وسألني: هل كتبت يا أجاثا عن فندق البارون في روايتك؟ قلت له، من أجلك لم أكتب عنه، لو ذكرت أن حادثة انتحار فظيعة قد حدثت فيه فسوف يخاف الناس أن ينزلوا فيه! في الواقع كنت معذبة من أجل بول، رئيس الجرسونات المنتحر واشعر نحوه بذنب ودين، أن أكتب عن انتحاره من أجل حبه الرهيب للراهبة. يبدو إنني لا أستطيع أن أكتب عما يقع للناس حقا، أو حتى ما يقع لي شخصيا، لا أستطيع أن أكتب إلا من الخيال، تصورات أو تهيؤات تؤرقني فأجسدها وأمضي بها حتى النهاية. أما ما حدث فعلا فأتذكره كما هو في الواقع، ولقدرة الخاص، لا يحق لي التدخل فيه ولو بكلمة واحدة! ظل مظلوميان يهز رأسه وقد أصيب بخيبة أمل، لكنه لم يقلل من حفاوته بي! كانت ذكرى بول لا تبرح ذاكرتي خاصة عندما يقدمون في المطعم أطباقا ارتبطت باسمه، سألت عن الراهبة التي انتحر من أجلها! قالوا إنها زادت من مسوح الراهبة حتى اختفت آخر لمحة من جسدها الجميل الفتان! وصارت تمنع الأطفال أن يأكلوا سندويجاتهم قبل أن تفتحها لهم، يبدو إنها تبحث عن رسائل غرامية بين شرائح اللحم والطماطم لعاشق جديد ينتحر من أجلها

وتقدمه قربانا من أجل الرب! عجيبة هذه الراهبة، هي جميلة
حقا كما رأيتها مصادفة لمرتين، كم صار الأطفال يبتلعون من
الرسائل الغرامية مع سندويجاتهم بسبب جمالها المثير رغم
الرهبة؟ سألت في نفسي، ترى أما كانت ستكون اقرب للرب لو
لبت رسالة من أحبها حد الانتحار؟ أم هي تعتقد أن الطريق إلى
الرب لا يفتح لمن يتذوق الحب الإنساني حلالا أو حراما! وهو
حكر على من يرتدون مسوح الرهبان؟ مكثت في حلب ثلاثة
أيام، كنت متلهفة للوصول إلى العراق، اشعر في أعماقي أن
شيئا كبيرا عظيما ينتظرني هناك، حتى في بغداد لم امكث أكثر
من يومين، قضيت منها ليلة في بيت عائشة، ونعمت بحنانها
وأكلاتها الطيبة، وعرفت إنها قطعت شوطا في إقامة صالونها
الثقافي، صار يتردد عليه كثير من الشعراء والمثقفين. وعدتها
بأنني سأكون من رواده، إذا أقمت في بغداد! طمئنت نفسي؛
عائشة وبضعة نساء هنا مستنيرات جريئات، هن الأمل في
تحرر المرأة في العراق ونهضته! وثقت وجودي لدى السفارة
البريطانية، وتلقيت نصائحهم، قالوا أنهم سيتصلون ببعثة
التنقيب البريطانية في أور لترتيب استقبالي، ويساعدونني على
إنجاز المهمة التي جئت من أجلها. ما هي المهمة التي جئت من
أجلها؟ أنا نفسي لا أدري ما هي، أيستحق الوقوف على أطلال
مدينة انقرضت قبل آلاف السنين، كل هذه الرحلة الطويلة
المضنية الخطرة؟ يبدو لي إن هناك شيئا كبيرا سألقاه، تحس به
أعماقي بشكل غامض ولا أعرفه! وكيف أعرفه وكل شيء حتى
خطوة قصيرة واحدة، هي في عالم الغيب؟ قاومت دعوة عائشة
في البقاء عندها، رفضت استعدادها لأخذي بنفسها بسيارتها إلى
أور، أو تدع سائقهم الأمين يوصلني بسيارتهم إلى هناك! شعرت
إنني بحاجة إلى خلوة مطلقة مع نفسي وأنا في طريقي إلى
أور، لأقلب أفكاري وأحلامي وأخيلتي! عاصفة من غبار أحمر
تجتاح بغداد، والمنطقة كلها، كنا في شهر آذار، تبدل الطقس

المفاجئ يصيب الجسد بالإعياء والكسل ونزلات البرد المفاجئة، وكنت أشعر بنحول ومزاج يتردد بين الكسل والنشاط، خفت العاصفة قليلاً، وجدت سيارة تغامر في السير في هذه الأجواء إذا ضاعفت الأجرة، دفعت، السائق رجل مسن طيب، توثق منه موظف في السفارة البريطانية جاء لتوديعي والاطمئنان علي، لم أمانع وقد أجرت السيارة كاملة، أن يحمل معي ركاباً آخرين خاصة وهم عائلة، تحدثوا معي بالإشارات وألقوا علي الكثير من معجزاتهم المحشوة بالتمر والمطوية بالقرفة واليانسون. بددوا خلوتي التي تخليت عن رفقة عائشة من أجلها، قطعت السيارة مئات الكيلومترات إلى الناصرية جنوب البلاد، عادت العاصفة الجافة للاشتداد، السائق يطلق صوته بين فينة وأخرى رافعاً رأسه إلى السماء. فهمت من لهجته المتوسلة إنه يدعو الله أن ينزل المطر، وينظر إلي بإشفاق كأنه يقول: ما الذي أتى بك من بلدك البعيد إلى هنا؟ كانت الريح تهيل علينا طحينا أحمر كأنه غبار دم جاف، أوصلني السائق إلى بيت الدكتور لومبارد وولي في ضاحية من المدينة هي الأقرب لأور. حين نزلت من السيارة، لم أكن أرى حتى يدي، عجبت كيف استطاع هذا السائق المنهك قطع كل هذا الطريق الطويل المتعرج غير المبلط وكثير الحفر، وسيارته عتيقة مضعضة، وكيف لم يخرج عنه، وحدوده تتداخل مع الصحراء؟ وجدت السيدة كاترين زوجة الدكتور وولي متوعدة، رحبت بي وأصرت أن أسكن معهم، ولم تسمح لي بالنزول في الفندق، قالت في الأقل ابق هنا أياماً ريثما تتعرفين على المدينة واعتذرت عن مرافقتي والاعتناء بي كما يجب في جولة كانت قد وعدتني بها في مراسلتها لي، أوكلت مهمة مرافقتي إلى عالم الآثار البريطاني البروفيسور ماكس مالوان الذي رحب بالمهمة، كان لطيفاً، ودوداً! استمرت العاصفة خمسة أيام لازمت خلالها البيت، وقضينا الوقت الطويل في تبادل

الأحاديث عن نشاط فرقته للتقيب، ومنجزاتهم ومشاريعهم، وعن أحوال الناس هنا، وقلما تطرقنا إلى حياتنا في إنجلترا! توارت العاصفة وصحا الجو؛ خرجت مع ماكس لجولة في المدينة. حدثني أن من عادته، أن لا يحل في مكان حتى يروح ينبش في تاريخه قال: هذه المدينة بناها على ضفتي الفرات الشيخ ناصر السعدون في القرن التاسع عشر وفق تصميم مسبق حديث، وضعه مهندس بلجيكي جمع فيه بين شكل المدينة الأوروبية والنمط الشرقي، تبعد عن أور بحوالي 15 كيلو مترا لكننا نستطيع أن نعتبرها امتدادا لها وتشكل روحها العريقة. أعجبتني كثيرا فهي مضيئة منفتحة على الشمس وهواء النهر. نظيفة وأنيقة، رغم الفقر والعوز الذي يلوح على وجوه الناس لكن عيونهم تشع ذكاء وحماسة للحياة. النساء يتلفعن بثياب سود، قال ماكس أنه تمسك بحزن أبدي في هذه الأرض الجميلة التي كانت دائما ساحة حروب وقتال وفيضانات وأوبئة وهجرات أليمة، تفقد فيها المرأة مرغبة زوجها أو ابنها أو عائلتها كلها. رجال العشائر يتفهمون عملنا ويحترمونا ويشعروننا بالأمان. ذهبنا إلى أور عصرا بسيارة تدعو للضحك، عرفت من ماكس أن صاحبها حصل على ماكنتها من مخلفات الجيش البريطاني، وركب له حدادون الهيكل والمقاعد بطريقة بدائية، كانت متينة ونظيفة وصالحة للاستعمال، صاحبها حسين تجاوز الستين نابت اللحية ويستعملها للأجرة، وماكس يتعامل معه بسخاء ومودة. ويأتمنه كثيرا! وأخيرا وطأت قدمي تراب أور وتنفست هوائها الذي اشتقت سنين كثيرة لأن أملا صدري منه! انفتح قلبي لها، لم أكن أصدق أنني الآن أسير على أرضها. هي متوهجة، تضاحك السماء. فيها عدت أواجه الأسئلة التي كانت تنهمر على في لندن، وتلاحقني مسابقة قطار الشرق السريع، لماذا جئت إلى هنا؟ عم ابحت؟ لماذا قطعت هذه الرحلة الطويلة الخطرة إلى هنا؟ هل أنا مجرد

واهمة قلقة تائهة دون هدف أو شعور بجدوى الأشياء
والمساعي؟ هل جئت أبحث عن خطي إبراهيم أبي الأنبياء،
وأولى أنوار التوحيد الإلهي، وعن سكينه الروح وطمأنينتها أم
أن روحي ليست معي وهي هائمة في هذه الصحراء الشاسعة
وجئت ألاحقها أرجوها أن تعود لتسكن جسدي، وأعود بها إلى
لندن؟ أم أنني أبحث عن روح أخرى تألفني وترضى بي كما
أنا؟ أغلب ظني أنني أبحث عن شيء آخر لا أعرفه! حين أوقفني
ماكس على الحفر العميقة التي غاروا إليها منقبين عن الأشياء
القديمة، ولاحت لي عظام البشر الزائلين؛ اعترتني قشعريرة؛
هل جئت من لندن لأرى هذه العظام؟ لأبحث فيها عن أهلي
وأحبتي الموتى وما زالوا أحياء في قلبي؟ أم جئت أبحث عن
عظامي؛ أريد شرائها من الله ثانية على أرض أور؟ ما هذه
الكوابيس؟ قلت لأمكث هنا فترة وأرى! كان قلبي يخفق، وأور
التي جئتها من بعيد؛ صارت أبعد من ذي قبل؛ فأن لا تفهم شيئاً
أو مدينة؛ تبتعد عنك حتماً! ومع ذلك ظل قلبي يخفق لها وعلى
أرضها بفرح ونشوة! ربما لأن ماكس قد غمرني بحنان هادئ
صامت، وورفته ممتعة، أشعرتني بالطمأنينة. شكرت العاصفة
الترابية، وتوعدك السيدة كاترين، وكل فايروسات العالم، وتمنيت
في سري أن يستمر توعدكها (فقط أن لا تموت) لكي لا تنتزعني
من رفقة ماكس. اقتادني إلى الإيوان الرئيسي للمقبرة الملكية
المقدسة، وراح يحدثني بصوته الهادئ العميق: كيف أن بعثتهم
بقيادة الدكتور ليونارد وولي، عثرت على القيثارة الذهبية تحت
أمتار كثيرة من تربة متراكمة حفروها بصبر وأناة، هي
قيثارة؛ الملكة بو-آبي وتسمى خطأ الملكة شبعاد، كانت معها
قيثارتان أقل حجماً عزفت عليها وصيغاتها الترنيمات الجنائزية
الأخيرة للعائلة المالكة وهي تموت ببطء مع حاشيتها، ليلحقوا
بالمك الذي مات وعليهم أن يموتوا معه قبل أوانهم، هكذا
يقضي الوفاء السومري الملكي! قال ماكس: كان ملك

العراقيين آنذاك موسيقارا يعزف على ثماني آلات بينها قيثارة
بثلاثين وترا ويشرف بنفسه على أول معهد للموسيقى في
العالم، وحتى في مدارسهم العادية هناك درس إضافي للموسيقى،
وكان الطالب الذي لا يجيد العزف يتأخر نجاحه ويزدرى من
زملائه الذين يعدون الموسيقى الشرط الأول لنقاء الروح! قال
هنا مركز مملكة أور، قلب العالم آنذاك، هنا ولد إبراهيم
الخليل، ومن هنا انطلق جلعامش بحثا عن عشية الخلود حتى
وصل إلى جبال الأرز في لبنان، والى شيطان دلمون البحرين
حسب رواية أخرى، وعاد خائبا حيث لا مفر من الموت!
ماكس يحدثني عن أشياء كنت قد قرأت كثيرا عنها وألهبت
خيالي، ولكنني حين اسمع حديثه الآن عنها بصوته المتأني
الصبور أحس بنكهة جديدة للكلمات ومعنى آخر لها، قال هنا
عثرنا على الخنجر الذهبي الملكي، رأيته فيما بعد ، خنجر ذهبي
يلمع تحت الغبار، صار منبع إلهامي، يوحي لي بالكثير في
روايتي التي كان قدرتي أنها تدور حول الجريمة! استيقظت
مبكرة ورحت أتمطى أمام نافذة الحجرة؛ بينما شمس الفجر
تصعد متوهجة ومع نورها الساطع الغامر وجدتني أكتشف لماذا
أتيت أور، لقد جئت لألتقي بماكس مالوان عالم الآثار ، الشاب
الجميل، هل هذا معقول؟ هي بشرى بمستوى الحلم الذي أنهكني
طويلا، ولكن كيف أتجرأ على حبه، وأنا في التاسعة والثلاثين
من عمري، وهو في السادسة والعشرين؟ ألا أبدو كأنني غررت
به؟ أو مارست اغتصابا؟ لا ! هو سن الرشد منذ سنوات طويلة،
وأضاف لعمره كما قال لي آلاف السنين من عمر الإنسانية التي
ينقب في تاريخها! ولم يبدر شيء مني نحوه سوى كلمات
صادقة دون أية نية إغواء، وابتسامتي له من القلب، بل أحس
وكان روحي فيها ترتجف على شفتي! هل هذا اغتصاب؟ ومع
ذلك لم أقل له حتى الآن: أحبك، وهو لم يقل شيئا، رغم إنني
أحس أن عينيه تقولان أشياء كثيرة، أسمع القيثارة الذهبية تعزف

لحنا جديدا لنا وحدنا، للحب هذه المرة، وليس للموت الذي ظلت تعزفه تحت التراب آلاف السنين! أسال نفسي ربما كنا أنا وماكس في لندن في وقت واحد ، في نفس اللحظة وفي نفس الشارع، لا يبعد أحدنا عن الآخر سوى أمتار ولكننا لم نلتق، فصل بيننا جدار أو سيارة عابرة، وربما التقينا وجها لوجه ولم يكثر أحدنا للآخر، ربما مر أحدنا بالآخر غريبين طبعاً، من يدري؟ ثم تحتم علينا أن نقضي سنة أو سنوات من أعمارنا، فنقطع آلاف الكيلومترات، لنأتي هنا إلى أور و نلتقي، كم هي الحياة لاعبة مأكرة غريبة تأبى إلا أن تحشر نفسها في أسطورة؟ ولكن أليست الأسطورة غائرة في لحمنا الإنساني تلعب بنا كما الأحلام أو حكايات أطياف السماء؟ وجدتي كلما تطلعت إلى وجه ماكس الجميل أغدو على يقين إنني جنّت من أجله! وسمعتة يكمل حديثه عن جلامش: سدوري صاحبة الحانة قالت له بشكل ما تستطيع القول أنك لن تجد عشبة الخلود، لكنك وجدت عشبة الحب التي هي نفسها عشبة الخلود! هل كان يقول أنت جنّت من لندن إلى أور لتقطعي عشبة الخلود! وقد قطفتها ففاح عطرها في جوانحي كاللهب، كدت أقبله وأرتمي بأحضانه، لكنني تماسكت، وكنا بين القبور! عدنا إلى البيت نسير على التراب الهش صامتين، كنت من سعادتني أظير، وجدتي أقول لنفسي ها أنا أعرف الآن أن المهمة التي جنّت من أجلها بسيطة، ليست كبيرة أو خطيرة كالمهمة التي جاءت من أجلها المسز بيل، هي شغلها صناعة الملوك من عجينة مطابخ كبرى، ثمّة نساء إنجليزيات جنن مع رجال شركات النفط، يبحثن عن الثروة وأنا سأبقى بين الأطلال المهدامة أساعد ماكس يستخرج ذاكرة البشر من تحت التراب، وسأكتب ما يعن لي ، هذا كل شيء. الآن عرفت طريقي، عبرت كل طرق العالم إليه.

يبدو إن الحب العظيم يرهقنا في البداية، يتقاضى ضريبته أو تكاليفه مقدما، ثم أخيرا يمنحنا السعادة، ضحكت من خواطري المنهالة سريعا في ذهني، قطع ماكس الصمت: أمل أن يستقر الجو، ويبقى صاحيا، أريد أن آخذك غدا إلى مدينة (نفر)، لا تكتمل الصورة لديك عن العراق القديم دون أن تجوسي ذاكرتها! أوصلني إلى بيت لومبارد، وذهب هو إلى بيته، المجاور له، وكما أيام المراهقة شعرت إنه أخذ قلبي معه، فوقفت على الباب أتأمله حتى دخل البيت، ولكنه لم يلتفت وراءه، ولم يرني! إلا أدري ما الذي شغل ماكس، قال سنؤجل سفرتنا إلى نفر، لكننا تواعدنا على نزهة مع الغروب بين أطلال أور. كانت من أجمل ساعات حياتي، جلسنا طويلا، نسينا أنفسنا حتى حل الغروب، وطلع القمر وبدأت أحس بجسدي يذوب في نوره وهالته فشعرت بدوار لذيذ. كان ماكس قد قرب شفثيه من فمي بقبلة خفية، ثم حين وجدني متلهفة له راح يقبلني بقوة، استرخينا بنشوة، نقلني لخضرة ندية وارفة، كأن هذه الخرائب عادت لحياتها الزاهية. لم يسألني ماكس لماذا افترقت عن زوجي، أنا الذي حدثته؛ كنت قد أحببته وأخلصت له وأزمنت أن أبقى معه مدى العمر، لا أفارقه يوما وحين اقتضت خدمته العسكرية إبان الحرب العالمية أن يذهب إلى باريس لحقت به وعملت ممرضة في المستشفى الميداني، كنت لأيام عديدة لا أذوق طعم النوم العميق أو الراحة لما يتكدس أمام وداخل المستشفى من أكوام الجرحى والجثث القادمة من جبهات القتال! ما جعلني افترق عنه هو افتقادي الصحبة الحنونة الدافئة معه. أرادني أن أكون مجرد زوجة مضمونة جاهزة، بعد العمل، أبقى في البيت، أعد طعامه وشرابه وثيابه وأنجب؛ بينما هو يقضي وقته في البارات مع عشيقاته وأصدقائه وموائد قمار ولهو، قررت أن اقطع هكذا لعبة سمجة سخيفة! وأترك بسرعة هكذا حياة له وحده، أصغى ماكس لي، ولم يقل سوى جملة واحدة صادقة "أنت محقة يا

أجاثا لم تظلميه، ولم تظلمي نفسك!" حدثني هو عن حياته؛ لم يكن ذا تجارب كثيرة ، ولم ألح عليه في أية أسئلة لا بسيطة ولا محرجة، قبلت به كما رأيته، والحب الحقيقي أن تقبل شريكك ولا تحاول أن تعيد صنعه، فتلك قسوة أنت وهو في غنى عنها! أتركها للحياة، وجدنا أنفسنا في عناق حار بين خرائب أور الخالية المهجورة ، بعد أن سرت منتشية بجانبه ممسكة بيده شعرت أن أطياف نساء ورجال تخرج من حجارة جدران الماضي السحيق وتلوح لنا بحبورا!

(30) كان العراقيون القدماء يعاقبون للصوص والمختلسين ومغتصبى النساء والأطفال بالاعترافات البطيئة في أحواض المياه المسكرة، قبل أن ينزلوا عليهم الموت والعار الأبدى!

ركبنا سيارة حسين وأنا ابتسم، كيف لسيارة كهذه أن تسير بنا قرابة 300 كيلو مترا إلى مدينة نفر. ضحك ماكس وكأنه أدرك سر ابتسامتي قائلا: لا تقلقي، حسين سائق ماهر يعتمد عليه! كان ماكس قد اعتاد التعامل مع حسين وغيره من الرجال العراقيين العاملين في الحفر أو النقل والحراسة. وخبر طبائعهم، وطرائق عملهم. وينبغي أن أجاريه، ما دمت قد جئت إلى هنا؛ لا معني لأية اشتراطات! صعدت بنا السيارة شمالاً. كان حسين مؤدبا ولطيفا، يحدث ماكس عن بعض معالم الطرق ويورد حكايات وطرائف عنها، وعن سكانها. ماكس مع دراساته لأصول اللغة العربية في لندن صار هنا يجيدها وبلهجات أهلها، يحرص أن يترجم لي ما يجده مثيرا لاهتمامي. الطرق ترابية غير معبدة، ولا ممهدة وكثيرة المنعطفات، اهتزاز السيارة وصعودها ونزولها المفاجئ جعلني أترنح، كنت سعيدة، فهذه لحظات مناسبة لأن يضع ماكس بها يده على ظهري أو كتفي ليسندني. دفقات حنانه والهواء والشمس الناعمة، والسماء الزرقاء الصافية كلها تمتد في قلبي! قمة سعادتي! استرحنا في بلدة صغيرة تدعى عفج، أكلنا اللحم المشوي على الجمر مع أرغفة الخبز الساخنة. واصلنا رحلتنا، رأينا من بعيد برجا كائيا، أمسك ماكس يدي: انظري تلك هي زقورة (نفر)! كنا بعيدين عنها كثيرا، 20 كيلو مترا تقريبا! قامة مارء محترق ينهض فجأة من عمق الصحراء! مصارعا ليفلت من الأرض وينطلق

ملتحقاً بزمنه الذي فارقه مرغماً. وصلنا (نفر) قال ماكس: نحن الآن على مسافة تقارب 180 كم من بغداد، جهة جنوبها الغربي قليلاً! وقف ملقياً نظرة إلى الأفق صامتاً كأنه يستعيد ذكريات عمله لفترة قصيرة هنا، هي العاصمة الدينية المبجلة لدى السومريين والبابليين! لم يبقوا آلهتهم محلقة في السماء؛ أسكنوها هذا البرج العظيم، وحده يليق بها، تنزل الآلهة لتتجول في الأسواق، وتدخل البيوت لترى أن كانت الأمهات تجد طعاماً لأطفالهن. آلهة مخلصه غير كسولة مدربة على أداء وظائفها في خدمة البشر لا في خدمة السماء، التي لا تحتاج البشر، أشار ماكس إلى بناء طويل منحني مقوس قليلاً: هذا من بقايا سورها، كانت مدورة، تقع على الفرات إلا أنها لم تكن مفتوحة عالية خشية أن يتسلل إليها الغزاة منه، الآن انسحب الفرات عنها بمسافة طويلة، فأضحت الأرض يابسة مفتتة، سور هائل، ينم عن أهمية المدينة، وخطورة أعدائها! مشينا فيها نتعثر بكسر الأجر واللبنات التي تتأثرت بعد أن تهدمت مبانيها بثقل آلاف السنين، أجهز على ما تبقى من أجرها أناس من هذا الزمن ليبنوا بها بيوتهم! كان البرج مهشماً متأكلاً، آيلاً للسقوط، ثمة قوة ما تبقى واقفا مترنحاً كمثل يتماسك بقوة لا تخلو من مرح أسر. أشعل ماكس غليون، ينظر بألفة صديق لقاعدته الدائرية المتهدمة وقد بدت كهضبة. قال: كان ارتفاعه أكثر من سبعين متراً لم يتبق منه، إلا ما يقارب الخمسين متراً، ومع ذلك هو مثير حقاً، كان يسكن فيه الإله إنليل الذي كان يعد رئيس آلهة السماء كلها، واعتبروه آنذاك الأب الأعظم، وفيه معبده وحجرات الكهنة وحاشيتهم المترفة، ولكهنتها الناطقين باسمه، الكلمة الحاسمة على بابل وأور والمدن والدويلات الأخرى! يمنحون الشرعية لمن يشاءون، ويحجبونها عمن يشاءون، فما كان يتوج ملك، أو ينصب حاكم، في أية مدينة ما لم يحظ برعايتهم وبركتهم، يأتهم الملوك والوزراء حاملين الهدايا

والنذور لينصبوهم على عروشهم وكراسيهم ويرشوا الماء المقدس على تيجانهم وصولجاناتهم، ويسمحون لهم بالبقاء أطول فترة في الحكم، أو يورثوه لأبنائهم! توقف ماكس، ليصافح حارسا، أشيب، قارب السبعين كان يعرفه، تقدم منه مرحبا ثم انصرف بتهذيب، عاد للكلام: هنا يا أجاثا تجددين أوضح صورة على دور رجال الدين في صنع الحكام وتحريكهم كالدمى! أين يمكن لسائحة أن تجد عالم آثار بمنزلة وخبرة ماكس يكون دليلا سياحيا لها؟ ما استخرجنا من هنا كنوزا ومجوهرات وحلي وتيجان تكفي لمتحف كبير. القلائد والأكاليل مصاغة كأعلى آيات الإبداع والإلهام، معجزات رقيقة حقا! وعدني أن نذهب إلى المتحف الوطني في بغداد، لنراها معا، أشار إلى أدراج وسالمة مهدمة: من هنا يصعد الكهنة إلى حجراتهم المطلة على السماء متعالية على الناس! صارت هذه الأماكن لفترات طويلة ملاذا للصوص وقطاع الطرق، واليوم يقصدها فقراء معدمون ينبشونها حالمين أن أسلافهم تركوا لهم شيئا من كنوزهم. هنا مركز تعليمي كبير لهم، يقصده طلاب من شتى المدن لتعلم أصول اللغة السومرية كما ينبغي أن تكون في المكاتب الرسمية لدولتهم الزاهرة آنذاك. عاد ماكس يشعل غليون، نسيه في غمرة شروحه وتلويحاته كأنه يخاطب إله وكهنة (نفر) الآن، قال: سميت (نفر) (ضمادة الجروح) ربما لأن مجلس كهنتها كان يحل المشاكل التي تتعرض لها مدن العراق ويلئم جراحاتها! وسميت أبيدو، أي الأبدية والخلود، لأن كهنتها ما كانوا ليتصوروا أن مدينة بهذه العظمة والجبروت يمكن أن تبلى بضربات الزمن! ضحك قائلا وسموها أيضا أريدو أي حوض التطهير، يؤتى بالفاسدين من الوزراء والموظفين المختلسين للمال العام والمرتشين، ومن ينتهكون أعراض الناس، فيضعونهم عراة في أحواض ماء فيه مادة مسكرة، ليستمتع القضاة لا عترافاتهم البطيئة، بالخدر والمرح يلزمونهم بإعادة ما

سرقوه لخزينة الدولة، ويعتذرون للفتيات والغلمان الذين اغتصبوهم مستغلين مناصبهم، ويعوضونهم! وإذا كانت جرائمهم كبيرة، يحكم عليهم بالعار الأبدي ويعدمون! سعدنا درجات من البرج، أطللنا على فضاء فسيح وقرى وبساتين، وأرض قاحلة، نزلت بحذر وهدوء ممسكة بيد ماكس، مطمئنة تملأني نشوة الماضي والحب معا. سرنا في دروب مستقيمة وملتوية، أدهشني ماكس أنه يعرفها كأنه كان قد سار فيها قبل أربعة آلاف عام، يؤشر بثقة ودراية على بعض المواقع، هنا كانت أول مكتبة، وجدنا فيها أقدم القوانين وبينها لائحة عن حقوق الإنسان، ونظريات وخرائط في علم الفلك، تقويم زراعي، ملاحم وقصائد مدهشة، وجدنا مخطط ملعب كرة القدم وقواعد لعبتها! هنا افتتح أحد أنصار جلامش صيدالية منتظرا أن يكون أول دواء يبيعه فيها هو عشبة الخلود! وبعد أن عاد جلامش من لبنان أو البحرين، خال الوفاض، بدأت الصيدلية تبيع زهورات تطرد الغازات، صدمة حتمية الموت أصابت الكثيرين بالتهاب القولون! ضحكت معه كثيرا سعيدة وقد سرني إن لديه روح النكتة! نفث دخان غليونه قائلا، قبل أن أأتي إلى هنا ما كنت أتصور أن سكان هذه الأرض قد أنجزوا ذلك قبل خمسة آلاف سنة، ما هذا الانكفاء الرهيب والسقوط في الظلام بعد ذلك؟ سألته: هل هو الطوفان؟ لا، لا! قالها بسرعة وتأکید هذا حدث عابر وقد هول كثيرا! استدار مظللا عينيه بكفه مصعدا بصره إلى أعلى البرج، من هناك كما تقول الألواح المكتشفة صدرت الإشارة بالطوفان، وإلى أتونبشتم المسمى نوح ببناء سفينته! هل توجد لديكم أدلة قاطعة على حدوث الطوفان؟ ابتسم قائلا: ليس بالشكل الذي تصوره الألواح القديمة والكتب المقدسة طبعاً، هذه أرض كثيرة الفيضانات، وتهطل عليها أمطار غزيرة أحياناً، ولا يستبعد أن غمر ماثيا هائلا قد حدث، دمر مدنا وقرى ومواقع كثيرة، ومن الطبيعي أن يلجأ الناس إلى سفينة، وملاح، مخيلة

الناس تنسج أكثر مما نسج الماء! أعجبني في ماكس إنه عقلاني رغم إنه يستمتع بالأسطورة والخرافة، يضحك منها كطفل يعيد سرد حكاية الجدة لنفسه، أو يعيد تركيب دميته! عند عودتنا إلى السيارة ألقى ماكس نظرة شاملة إليها كأنه يودعها قال لقد ظلت (نفر) مأهولة بالناس لسطوتها الدينية القديمة في نفوسهم رهبة وخشية، ثم ماتت وانفض الناس عنها عند دخول المسلمين أرضها، اعتبروا معبدها وطقوسها ضربا من الوثنية، من حسن الحظ إنهم لم يدمروها، اكتفوا بإدارة ظهورهم لها! عدنا إلى الديوانية، بتنا ليلتنا في فندق فقير رث، حيث لا يوجد غيره، وفي الصباح قمنا بجولة قصيرة في المدينة، لم نجد شيئا مميزا سوى أن أسواقها كانت تضج برائحة الرز العنبر، رائحة فاغمة عطرة لم أشم مثلها حتى في أسواق التوابل التركية والهندية، أما مذاقه وطعمه فهو من ألد ما أكلت من الرز في حياتي! قال حسين إنهم يصدرون الكثير منه إلى بلاد الإنجليز، لكنني لم أره هناك!

(31) قبل آلاف السنين، كان كهنة نفر
ينصبون ويعزلون الحكام، ويتحكمون
بعقول الناس، لم يفلت النهران في
العراق يوما من نفر ، لابد لهما من
المرور عبر أبواب معابدها المختلفة!

قال حسين سألتني كثيرا يا ماكس، عن طقوسنا الدينية، الآن
جاء وقتها، فهي في ذروتها هذه الأيام! ما رأيك؟ نظر ماكس
كأنه يسألني هل أنت متعبة هل أنت بمزاج لذلك؟ وافقته على
الفور! هي رحلة شاقة بعض الشيء، علينا أن نغير في
طريقنا، والطرق متربة غير معبدة، راحت السيارة تنهب الطريق
متعثرة ، لاحت لنا من بعيد قبة كبيرة كأنها جبل من الذهب يشع
تحت الشمس، تتقدمها منارتان. قال حسين وصلنا النجف، ذاك
هو مرقد الإمام علي! ظل يشع أمامنا بقوة كلما اقتربنا منه. أوقف
حسين سيارته قرب السوق الرئيس القديم، وصرنا نحو المسجد
الكبير الذي ضم الضريح. صرنا على الفور قبلة أنظار الناس
وفضولهم، راحوا يتفحصوننا بنظرات مستطلعة نهمة لا تخلو
من استنكار وغضب، بدا لي إن بعضهم يوشك أن يتلمسنا ليرى
أن كنا كائنات غريبة قادمة من كوكب آخر. قال حسين قبل فترة
ليست بالطويلة كان من النادر أن يسمحوا للأجانب بدخول
المرقد. الآن صاروا أقل تشددا، لكنهم لا يتسامحون مع من لا
يراعي تقاليدهم، استطاع حسين أن يستعير لي عباءة من أحد
البيوت القريبة، تسربت بالعباءة السوداء، همس لماكس كأنه
يفضي بسر موجهها نظراته لي وكأنه يريد أن يسمعي ذلك
كتحذير: المتدينون يعتبرون وجه المرأة عورة، وعيب يجب أن
يستر، فما بالك بسيقانها وشعرها! سور المرقد بجدران ضخمة.
دخلنا من باب عريض شاهق الارتفاع مقوس بشكل فخم

ومقرنص بزخارف، وجدت أنني يجب أن أتخلى عن حذائي وأودعه عند رجل يحتفظ بصفوف كثيرة من الأحذية، وأدخل حافية. صرنا وسط ساحة كبيرة، فيها مئات الرجال والنساء بعضهم وقوف خاشعين وبعضهم منكفئون على الأرض أو على الجدران العالية من الإعياء فبعضهم يأتون سيرا على الأقدام من أماكن بعيدة، وبعضهم مرضى ميئوس منهم، جاءوا يرجون الشفاء! صفوف طويلة من الرجال والنساء والأطفال بملابس بالية وسخة يعتصرهم الجوع ومع ذلك جاءوا باكين شاعرين بالذنب يبتهلون بأدعيتهم وطلب شفاة إمامهم ليكون شفيعهم في خلاصهم من مرض أو محنة، وإذا لم يكن مفر من الموت يدخلهم الجنة، فهو شفيع موثوق مرتجى دائما عندهم! ثمة حمام وعصافير يبحث عن فئات أي شيء يأكله في الباحة رغم ازدحامها! قال لنا حسين هم يقتطعون من خبزهم وكساءهم لكي يأتوا ببعض النقود يلقونها من شباك الضريح أو يعطونها لرجال على رؤوسهم عمائم خضر لكي يساعدونهم في إتمام زيارتهم، كان القاشاني الذي يكسو الجدران مزينا بزخرف زهور وحروف جميلة. عرفنا أنهم ينوون إعادة إكساء قباب المسجد بالمزيد من الذهب والفضة فثمة تبرعات كبيرة تأتي من الشيعة في إيران والهند والباكستان. دخلنا ردهة الضريح الكبيرة المفروشة بالسجاد التبريزي العريق، والقبر محاط بهيكل كبير مشبك من الفضة اللامعة المسرلة بحرير اخضر مشرشب، ثمة زائرون وبعضهم فاقد البصر يمسكون بالشبابيك باكين متوسلين! رجال بملابس دينية يتحركون بين الزائرين يتناولون من أيديهم القطع النقدية أو الحلبي الذهبية. تغدينا في مطعم قريب، ماكس يفضل أكل المشويات في هذه المطاعم لأنه يستطيع التأكد من نظافتها، قال حسين رأيت الأشرطة الخضر المعقودة على جوانب الضريح؟ هي لزوار لديهم مشاكل أو علل صعبة أملين أن يحلها إمامهم! حين يأتون بعد أيام لا يجدونها

عادة، إذ يكون الرجال القيمون هنا قد حلوها وباعوها لغيرهم، لكنهم يعودون فرحين معتقدين أن مشاكلهم قد حلت! نظرنا أنا وماكس إلى بعضنا قال ماكس هذه لعبة بعض رجال الدين حتى في زمن السومريين والبابليين! وقد شاعت في الكنائس أيضا! انتقلنا إلى مقهى ، جلب لنا حسين حلوى الجزر المطبوخ بالسكر والتوابل المعطرة، قال لي ماكس ونحن نغادر المكان متجهين إلى السيارة، في كل حفرياتنا هنا نكتشف أن الكهنة دائما هم الأسياد، الناس يكدون ويتعبون ليقدموا لهم ثمار عرقهم، فيعدونهم برضا الآلهة وبركاتهم، كل التراب الذي نقبنا فيه يكاد يكون عظام الملوك والكهنة و الفلاحين والفقراء معا، صرت مقتنعا أكثر، رغم أن المال والسلطة، وكل شيء سيصير رمادا، لكن الكهنة في كل العصور قبل غيرهم يصرون على جشعهم وطمعهم!

- ولكنكم وجدتم قوانين وعجلات وقيثارات وألواح شعر وملاحم وخوابي خمر في معابدهم!
أطلق ضحكة فرحة كطفل:

- كهنة ذلك الزمان لم يجدوا تعارضا بين تقدم الحياة، والعبادة، لذلك بنيت حضارة، ومضى الإنسان صاعدا مراقي النور والمعرفة!

- لكن لم يمض كل شيء بهدوء وسلام وعلى ما يرام دائما
- نعم، والناس آنذاك لم يكونوا تعساء كما هم اليوم!

- كانت السماء مقسمة كالأرض على عدة آلهة يدخلون في مسابقة يومية كل يريد أن يمنح رعاياه ما يشده إليه، تعرفين كان هناك إله للمطر وإله الحرب وإله للحب وحتى إله للخمر والخصب، وربما حتى إله للنفايات؛ إبراهيم الخليل صمم السماء بهندسته البارعة: إله واحد أعظم، يقابله على الأرض ملك واحد

مطلق السلطة! منذ ذلك الحين صار الحاكم هو الوجه الثاني
للإله فعم الاستبداد والتطرف!

سكت برهة، وأشعل غليونه:

- أعتقد إننا نحفر في الأرض فقط؟ لا يا عزيزتي، نحن
نحفر في السماء أيضا!
- وأين وجدت الله؟

نظر في وجهي، أطلق ضحكة قصيرة خافتة سريعة:

- كيف عرفت إنني كتبت في يومياتي، "ينبغي أن لا نبحث
عن الله في السماء، بل على الأرض وتحتها وفي عظام البشر
المتفكسة، وأحلامهم المحطمة، وإذا لم نجده هنا؛ فيجب أن نجده
هناك، إنه حاجة قصوى!"

قلت متصنعة الغضب وأنا أضحك في سري:

- لا تنس يا ماكس إنني جئت إلى هنا من أجل إبراهيم
الخليل!

- أنا أيضا أجل أولئك الباحثين عن النور، شقوا طرقا في
الصخر والنار، لكنني أتوقف أمام ظاهرة ميلاد الدين كسلطة. لا
روحا منعشة تواسي الإنسان في وجوده الصعب والمؤلم.

أخذت يده، ضممتها في يدي، فاستسلمت لي دافئة كطير
صغير، رمقني بحنو، ولو لم تكن في هذا المكان، لتعانقنا طويلا!
عدت أردد في سري، أنا جئت إلى هنا من أجلك يا ماكس! رحت
أسرح بصري مع الأفق المتوهج بشمس ساطعة بقوة. وجدنا ثمة
أشخاصا وقفوا يتأملون السيارة وكأنها حيوان غريب، هم
محقون، بعضهم لأول مرة في حياته يرى سيارة، فالسيارات
ليست كثيرة، بل هي نادرة. مررنا بمقبرة هائلة أشار حسين
قائلا:

- هذه أكبر مقبرة في العالم كل يوم يدفن بها المئات، الشيعة يحرسون على أن يدفنوا إلى جانب إمامهم، فيطمئنون داخل قبورهم! الموتى في أماكن بعيدة، يدفنونهم هناك بشكل مؤقت كأمانة لدى الأرض، ريثما ينقلونهم إلى هذه المقبرة ولو بعد سنين طويلة، الإيرانيون والهنود يرسلون جثامين موتاهم إلى هنا، وكم جاءت إلينا معها من أوبئة وأمراض، أمرنا الله!

استقرت السيارة على طريق كربلاء، قال ماكس:

- اسم كربلاء ، غير غريب علي فهو يعني في البابلية (قرب الإله) ، كانت قرية بابلية، ثم أضحت بلدة مسيحية فيها أديرة وبساتين كروم ومعاصر خمور، وعرفت بمقبرتها الكبيرة، لكن كل ذلك تغير إلى شيء آخر تماما!

في مركز المدينة حيث ضريحي الحسين والعباس، واجهتنا جمهرة هائلة من رجال ونساء يبكون وينحبون يحيطون بصفوف طويلة من شبان بثياب سود وصدور عارية يلطمونها بشدة ويرددون الأهازيج الحزينة، آخرون يضربون ظهورهم بحزم كبيرة من السلاسل الفولاذية، حتى تتورم وتتفجر دما! بعضهم يضربون رؤوسهم بسكاكين طويلة فيشجونها وتسيل الدماء منها على ثياب بيضاء هي أكفانهم كما شرح لنا حسين:

- إنها أكثر المناسبات حزنا هنا، أنا شيعي أحب الحسين وأجله كثيرا، لكنني لا أستطيع مشاركتهم اللطم وضرب أجسامهم بالزناجيل والسكاكين! هذه طقوس جلبها لنا الصفويون! قال ماكس :

- والصفويون أخذوها عن فرق مسيحية مهووسة في أسبانيا كانت تصعد الجبال العالية إلى كنائس وأديرة زحفا على ركبهم حتى تتسلخ ويتساقط لحمها بين الصخور والأشواك! انتابني الخوف من رأى الدماء والصرخات الحادة الفظيعة

قال حسين:

- وصلنا متأخرين، لم نشهد المعركة الأخيرة التي قتل فيها الحسين، ويعيدون تمثيلها كل عام، يأتون برجال بنفس ملاسهم القديمة ولحاهم وسيوفهم وخيولهم، وتجري المعركة، فيرسخونها في أذهان الناس جيلا بعد جيل، فلا تنسى، ولا تغفر! أضاف بنبرة محتجة مكبوتة:

- ما يؤلمني ليس ما يسيل من دم هنا بل ما سيسيل من دم إذا بقينا متفرقين شيعية وسنة! أنتما إنجليزيان، أقول لكما أن حكومتكما بدلا من أن تساعد الشيعة والسنة على التقارب والتفاهم، عملت على تباعدهم وفرقتهم أكثر! كان ماكس يصغي له مبتسما ويترجم لي، قلت لماكس:

- أنت لم تخطئ باختيارك حسين مساعدا لك!

هز ماكس رأسه موافقا، شعرت أنا بالحزن أن يختلف أبناء البلد الواحد ويتباعدون على قضايا حدثت قبل أكثر من ألف وثلثمائة عام، وأن لا يفهم الإنجليز رعاة هذه الدولة أن عليهم مثما حرروهم من العثمانيين أن يساعدهم للتحرر من النزعات الطائفية والتوحد في وطنيتهم!

هز ماكس رأسه بحزن، وقلق واضح. ولم أجد ما أقوله فقد اعترتني دهشة مريعة! وعندما رأيت نساء يأتين بأطفالهن لرجال، كالحي الوجه، بأيديهم سكاكين لشج رؤوسهم ومباركتهم كما شرح حسين؛ لم أستطع أن أحتمل منظرهم، فجدبت ماكس وسرنا باتجاه السيارة، واجهتنا سحب دخان وروائح قوية لرز ودسم ثقيل، كانوا يطهون بقدر كبير، كأنها قوارب مدورة، قال حسين، هذا الطعام التقليدي للمناسبة، اللحم المهروس مع الحمص، وفي قدور أخرى الرز الفاخر، سأل حسين: ما رأيكم أن تتذوقوا شيئا منه؟ كانت شهيتي قد انسدت فعلا من رائحة

الدم البشري المسفوح، خاصة دم الأطفال، فانسحبنا مسرعين. بقينا في السيارة صامتين، سيطر الوجوم علينا، لكن حسين ظل مستثارا قال:

- رجال دين هددوني لأنني أرسلت ابني إلى المدرسة، قالوا إذا أرسلت ابنتك سنقتلها، الإقطاعيون هددوا الفلاحين بالطرد من أراضيهم، إذا أرسلوا أبناءهم للمدارس، هم لا يريدون لأبناء الفلاحين أن يكونوا أطباء ومهندسين وضباطا، كيف يخضع فلاح للإقطاعي إذا صار ابنه ضابطا أو معلما؟ الظلم الذي يقع علينا هو من مراجعنا وساستنا، وبكل خبث يلقونه على الآخرين!

لم يعلق ماكس بشيء، اكتفي بالنظر إليّ، قال حسين، علينا أن نسرع قبل الظلام وينفس الوقت نسير بهدوء وحذر على طريق غير معبد، ثم أخذ للسكينة، قدرت إنه كان في كرب وهم ثقيلين ، ويبحث عن بيته شكواه، ووجد في ماكس وبني من يصغي له.

رحت أتأمل الطريق، الأرض قاحلة يحتضنها نهران عظيمان، وينبغي أن تمرع بالنبات؛ لكنها الآن صحراء قاحلة، ومع ذلك كأنني أقرأ على ترابها المتصاعد مع الرياح الكثير من الكلمات ممزوجة بالدماء التي سألت عليها في معارك قديمة شتى، وعسى أن تنسى. شعرت بالتعب، عانيت من اهتزاز السيارة وكثرة انعطاف الطريق الموحش، حسين يسابق الشمس قبل أن تغرب ، ويحل الظلام، ولا مصباح في شوارع المدن. ومصباح السيارة كما أعلمنا حسين عاطل. دخلنا الناصرية كالمنتصرين، توقفت السيارة بنا عند باب بيت لومبارد مع آخر خيوط الغروب!

(32) مرة أرى ثيسجر خائناً، ومرة أراه بريئاً، أتعس انصياغ للمحنة أن نفقد قدرتنا على الحكم بصواب!

أتى لي عمارة برجل مسن، تجاوز الثمانين، كان يمشي بخطى واهنة، من الغريب إنني لمحت على وجهه ملامح العاشقين رغم شيخوخته، قال عمارة مبتسماً، هذا الرجل كان زوج بنت المعيدي، وما زال يبكي عليها كل يوم، كان مفاجأة لي، جلست قبالة، قال:

- لا تصدق كل الحكايات التي يتداولها الناس عن بنت المعيدي، فهي لم يعشقها ضابط إنجليزي، ولا تركي ولا ألماني، لم يعشقها أحد سواي، ولم تحب هي أحداً غيري، لم يخطفها أحد سوى الموت، أحببتها وأحببني منذ الطفولة فهي ابنة عمي، أصيبت بالسل وهي شابة فاتنة الجمال، أخذتها إلى البصرة للعلاج، فأعيت الأطباء، أحدهم فتن بجمالها، هو طبيب أجنبي، لا أعرف من أية بلاد ولا من أي دين أو ملة، لكنني اطمأننت له، كنت أراه ينظر إليها وثمة دموع في عينيه، طلب مني أن أسمح له ليرسمها بنفسه، لم يقل لي أنه يئس من علاجها، لكنني أيقنت بذلك من إصراره على رسمها، والحصول على صورتها! عجز عن إنقاذ جسدها فأراد إنقاذ روحها مخلدة في صورة وجهها الجميل، صورة من قماش أو ورق، بديلاً عنها أو تذكيراً منها!، وإذا شعرت إنني سأفقد، وسحقني الحزن، وافقت أن يرسمها فصار يجلس قبالتها في حجرة المستشفى لساعات معه عدة الرسم وبيده الفرشاة تتحرك بقوة وسرعة وعينه لا تفارق وجهها الغارق بشحوب السل، في الصورة صارت معافاة متوردة الوجه!

- هل أعطاك الصورة ؟

هز رأسه نافيا:

- انتهى من رسم صورتها قبل موتها بثلاثة أيام! وقد أوصتني أن أغرق جثمانها في مياه الهور لتبقى مع الطيور والأسماك والقصب!

بقيت صافنا، أحرق في وجهه، لا أريد أن أصدقه، لا أريد تصور فاطمة قد توارت تحت مياه الأهوار، لذلك حين جاءني ياسين بعد أيام بخبر يقول أن هذا الرجل مجنون يحظى بفترات صحو ثم لا يلبث أن يعود لجنونه، صدقت على الفور، أضاف ياسين إنه في الحقيقة شقيق زوج بنت المعيدي، الذي بعد أن انتزعها الإنجليزي منه انتحر وهو الذي أوصى أن يغرق جثمانه في مياه الهور، وفي الموضع الذي كان يلتقيان فيه أيام شبابهما! عالم غريب حقا؛ صار يتعبنى في ملاحقة تفاصيله ويزجني في متاهات لا أخرج من واحدة منها، حتى أدخل أخرى! سرعان ما أفيق منها لأعود إلى حلمي أن فاطمة حية وما تزال شابة يانعة وأنها تنتظرني، وسألقاها هنا ذات يوم! كيف أحدثك يا عزيزتي أجاثا عن رحلتي بحثا عنها، وعن حقيقتها، ومعاناتي من أجلها، وكيف يبدو لي من غير الممكن الوصول إليها إلا إذا وقعت معجزة ، وأين أنا من المعجزات؟ قلت لك إنني خضت هذه المغامرة كأنني غائب عن نفسي منوم تحت تأثير سحر غامض لا أعرف كنهه، أهو الشرق كله أم نظرتي أنا إلى الشرق. كلهم يقولون أن فتاة أحلامي سبقني إليها انجليزي من أبناء جلدتي! لماذا قدرنا أن نبحث عن أحلامنا هنا وتحت الشمس الساطعة ولا نجد لها، وغيرنا يبحث في الظلام ويجد ضالته؟ كنت أتذكر إنك وجدت حلمك على هذه الأرض المشرقة فوجدته، بزواجك السعيد من ماكس، أنا حبيبتي من أهل هذه البلاد، ومع ذلك لا أريد أن أفقد الأمل، من يبحث عن الحب

سيجده، حتى إذا لم يجده، يكون قد وجده في البحث الجميل،
هكذا كل نضال صحيح! مضى ماكس يلتهم السطور بقلبه قبل
عينيه، هيمن عليه هاجس أن يثسجر يحاول أغراء أجاثا لرفقته
في رحلاته، وإيقاعها في حبائله، لكنه حين وجده يقول لأجاثا
إنها وجدت حلمها بزواجها السعيد منه أخذ يغير رأيه " كنت
قاربت الصواب حين قلت لا يمكن ليثيسجر أن يكون أبله خائنا
فيعشق أجاثا المخلصة لحبنا وبيتها الزوجي، أو يتصور أجاثا
صبية مراهقة غبية دون تجربة ولا خبرة ولا ذكاء لتطاوعه!
وقد صح توقعي ، كيف شط بي خيالي لأشك بأجاثا المخلصة
الحكيمة؟ أجاثا تعرف أكثر مني خبايا النفس البشرية وما يعمل
في أعماقها من نزوات واندفاعات ولا يمكن أن تفسر كلماته إلا
بما تحمل من معاني حقا وتعد ذلك في صلب انشغالاتها بإبداءها
وضروراته الكثيرة الثقيلة والملحة! لكن ماكس المضطرب
المشوش يعود ليقول بصوت مسموع، ربما هو بريء وصادق
وفي تواصل جاد معها محاولاً إعطاءها موضوع رواية هامة،
يراهها أعمق وأجدي وأهم من الروايات البوليسية التي اعتادت
كتابتها، اختفت أجاثا فظهرت أشياء كثيرة عند أجاثا وعندي
وعند أصدقائنا! يثسجر ينقب في الماء، وأنا أنقب في التراب،
كلانا يجد أشياء غريبة، هل ما نفعله نحن الإنجليز في هذه البلاد
شيء حسن؟ هل سيرضى عنه الناس هنا؟ كلمات الراهب بهنام
ما تزال تلاحقني؟ حانت منه نظرة إلى الصورة الفوتوغرافية،
فأشاح عنها متوجسا " هامسا لنفسه ماذا يعتقد نفسه هذا
المجنون؟ إنه يحاول أن يحفر بأصابعه الرخوة صخرة صلبة!
أيريد أن يبنى سعادته على حطامي؟ أم تراني مخطئ؟ أنا في
مزاج لا أستطيع معه التخلص من شكوكي وترددي في الحكم
على الأشياء. أتعس ما تصيبنا به المحنة أنها تفقدنا صوابنا
وقدرتنا على الحكم والقرار! هذه الرسالة رغم تشعباتها أشبه
بجرعة مخدر لي. كم أتمنى أن تعود أجاثا وتلبي رغبته وتكتب

روايته ، إذا تأكد صدقه، فهو عاشق كبير جميل، كلانا يبحث
عن حبيبته، هو يبحث عنها في الأدغال ، وأنا أبحث عنها في
مدينة مكتظة بالبيوت والسحر والغموض، أجاثا كانت حقيقة
كبرى ثم اختفت، وفاطمة هي الآن وهم، وقد تصير حقيقة! هل
سيبقى يسجل حبيبته في نفس اللحظة التي ألقى فيها أجاثا؟ كم
سيكون ذلك مدهشا وعظيما! وخالد، لماذا لم يأتني بشيء؟
أعطيه العذر، هو لا يقرأ الأوراق فقط بل يفكر ويحلل ويستنتج
ويناقش زملاءه ورؤسائه، ولا بد أن يأتي. أنه شاب طيب يحبنا،
لم أكن أتصور أن صبيا في مدينة نائية استلطفناه وتراسلنا معه
بود يظل يكن لنا كل هذا الحب! يا لهذه الساعات القاسية
المريرة كم أنهكت أعصابي، يجلس ساعة، تهدأ أنفاسه صار يجد
متعة وسلوى في ما يقرأ: في يوم كنا قد وصلنا أنا والنوتي
ياسين إلى الناصرية متأخرين ليلا، فرسونا بمشحوفنا قريبا من
بيت أحد المزارعين، استضافنا في بيته حيث قدم لنا العشاء في
حجرة الضيوف الكبيرة ثم اقتادنا أنا وياسين إلى حجرة
متوسطة الحجم للنوم، وعندما أخذ الخادم ينزل لنا الفراش من
محمل خشبي كبير مزوق، طالعنتني فجأة وكما الحلم صورة
فاطمة ملصقة على واجهة المحمل الذي نضدت عليه
الفرش، سرنى النوم قريبا منها، احتضنتها في حلمي طويلا، في
الصباح سألت الرجل: هل تعرف شيئا عن بنت المعيدي؟
ضحك واختفى ثم عاد تتبعه عجوز قال إنها والدته وهي تعرفها
دهشت، وتساعد الأمل، تحدثت العجوز:

- وكيف لا نعرفها؟ كانت صديقتي، كنا معا نلعب قدام
بيوتنا، ونتزاور، اختطفها ضابط تركي بعد أن رفض والدها
المزارع أن يزوجها له، أخذها لإسطنبول ومن هناك جاءت
الصورة لوالديها الذين فقدوا بصرهما، بكاء وحزنا عليها، فصرنا
نحن نصف صورتها لهما وبيكيان!

هذه المرة ضابط عثماني! وهل انتهينا من الضابط الإنجليزي؟ بقدر ما أدهشتني رواية العجوز وأنعشت آمالي، أصابتنني بالحزن والإحباط، هي إذن بعمر هذه العجوز التي قاربت التسعين، هل من المعقول إنني كنت ابحت عن عجوز عمرها تسعون عاما، حبيبة لي؟ كم هي ضلالات الحب قاسية وأليمة؟ تذكرت ما حدثني به سليم البكري أن أحد المثقفين حلل حكاية ليقول إنها عشتار، أجمل جميلات وادي الرافدين التي فارقت بيتها الأرضي وهاجرت إلى السماء بحثا عن حبيبها تموز الذي هو شقيقها وزوجها أيضا، فصارت كوكب الزهرة، بذلك جعل عمر حبيبتي آلاف السنين، وأبعدها عني ملايين السنين الضوئية! هذا هو الزمن يبعد عنا دائما من نحبه يتلعه في أعماقه أو يضعه كوكبا في السماء! فلا نجد من أحببتنا سوى الضلال! إلى متى تتكاثر حكايات فاطمة، حكاية تأخذني وأخرى تأتي بي؟ واحدة تصعد بي إلى السماء، أخرى تلقيني على الأرض، هل الحب يقتضي كل هذه الرحلة الطويلة المضنية؟ أي عذاب واشتياق ورحيل أزلي؟ ذهاب وإياب في العشق لا بد منه!

(33) قالت العرافة: أنت لم تخلق لامرأة، ولم تخلق لك امرأة! هل أصدقها؟ أم أظل سائرا نحو ذلك الوجه الجميل؟

عند عودتنا انعطفنا في طريق مائي طويل لم يسبق لنا
ولوجه، سألني ياسين:

- أتريد أن تقرأ لك العرافة مكية حظك!

كنت أسمع عن العرافات والعرافين هنا، فأراهم امتدادا لكهنة
السومريين والبابليين، ويزيدني قناعة بأصل عرب الأهوار،
سومرين ، قلت:

- ذلك جميل!

خطر لي أنها ودون سؤال مني؛ ستتحدث عن فاطمة، فهي
عرافة كما يقال! كان ياسين يقود المشحوف بحذر خشية أن
يجنح داخل أكمة قصب؛ فتجرحنا أوراقها الحادة:

- مكية قبل أن تصير كاهنة كانت أعظم وأشهر عاشقة في
الأهوار قاطبة!

- لماذا لم تحدثني عنها قبل الآن؟

- كنت أظنك ستسخر مني!

- وكيف أستخف بعاشقة شهيرة، وحفيدة كهنة!

عاد بيتسم مسيطرا على المشحوف كأنه فارس على مهرة؛
طاوخته بعد جموح، فوجهه إلى مسلك يخلو من الموج ، شمس
الضحى تكاد تجعل الماء ذهباً، مضى يتحدث:

- حكايتها غريبة وعجيبة، وكانت كما حدثني أبي؛ الشاغل
الأكبر لأهل الأهوار كلها من الأعالي حتى جزر مجنون، لكنهم

بعد ما حدث لها من تحول، سكتوا عنها، بل صاروا يخشون ذكرها!

توقف متلفتاً حيث لاح غير بعيد قارب بخاري كبير، إذا مر بنا فستجعل الأمواج الهائجة التي يخلفها وراءه قاربنا يتأرجح وربما ينقلب، لذا عليه أن يبعد عن مساره! ما قاله عن سكوت الناس عنها جعلني أعرف سر جهلي بها، رغم اجتهادي في التقصي عن اهتمامات الناس، قال:

- مكية ابنة شيخ عشيرة، جميلة جداً، أجمل فتاة على الضفاف، (خفق قلبي، هل هي بنت المعيدي؟ لكن لسانه مضى في منعرج آخر) هي ليست من عرب الأهوار بل من العرب الأقحاح. أحبها شاب جميل وشجاع يدعي ساجر، ابن شيخ عشيرة أيضاً، بادلته الحب ولكن المصيبة، هي أن لعشيرة ساجر مع عشيرتها عداوة قديمة وشديدة، فشلت كل محاولات الصلح بين العشيرتين؛ دبرتها مكية بهدوء ومن وراء ستار، طال انتظارها سنوات، وسنوات، كانت مكية ترفض كل من يتقدم لخطبتها رغم أن بعضهم أبناء شيوخ وأمراء، وكان ساجر يرفض الزواج من غيرها رغم أنهم عرضوا عليه فتيات جميلات وبنات شيوخ وأمراء، وهي صار جمالها يذوي ويتلاشى صابرة منتظرة أن يصلح الله قلوب المتعادين من العشيرتين ويحل السلام ويتوج حبهما بالزواج السعيد ويعيشان في رغد وهناء بعيد عن أحقاد العشائر التي لا تنتهي إلا لتبدأ! ولكن العداوة ظلت تتخر الأكباد، ولا تخلف سوى العذاب والشقاء للجميع! في فجر يوم ربيعي رائع، ركبت مكية واثنان من أعز صديقاتها خيولهن وذهبت إلى ساجر، الذي كان ينتظرها ملهوفاً، كانت الفتاتان هما الشاهدتان على زواجهما! عاشا متخفيين في الأهوار هائنين بحبهما وقد انتصر أخيراً، اشتعلت القبائل كلها استكاراً وغضباً على هذا التحدي وصارت

تطارد الحبيبين تريد قتلها، فهكذا انتهك لعرف العشائر يعني بنظرهم فناء حياتهم! فتصور يا عم ولفريد ما سيحدث! اجتمعت ثماني عشائر وقررت قتل ساجر! هياوا ثلاثة من الرجال الرماة المتمرسين بالقتل غيلة، والتصويب الذي لا يخطئ، أعطوهم بنادق ورصاص جمعوهم بينهم، خلطوه بكيس وخضوه كما اللبن حتى يروب، لكي يتوزع دمه عليهم فيضيع الثأر، كان محور المتحالفين من العشائر هم أفراد عائلتها فهم لا ينسون لها أنها غدرت بهم، وخدعتهم، إذ اقترنت بحبيبها غير مكترثة بما لحق بهم من عار وأذى! وقد أزمعوا على قتلها ولكن بعد أن ينتهوا من ساجر أولاً. قتلوا ساجرا فجرا في نفس الوقت والمكان الذي تزوج فيه مكية! وبينما عجز أبوه وأخته عن الأخذ بثأره، قررت مكية أن تقف وحدها في وجه ثماني عشائر، فانبثرت بكل عزيمة وإصرار تقاتلهم متوقعة في أية لحظة أن تنازل أباهما وأخوتها في معركة مفاجئة أيضا، فتصور يا عم ولفريد كم هذه المرأة رهيبة عجيبة! كانت تنتقل وتتخفى في مكان لا يعرفه حتى الشيطان من زوايا غابات القصب والبردي! تصور امرأة وحيدة إلا من بندقية حبيبها القليل، تشن الحرب على أهلها المتحالفين مع ثماني عشائر، تكمن في الأهوار الشاسعة، ثم تشن هجومها على أهلها في الضفة اليابسة. تحولت مكية إلى شبح اسود يختفي في ظلام الهور، ينتقل بين مغاور الخنازير المتوحشة، والثعابين السامة، ولا يظهر إلا حين تومض فوهة بندقيتها بالنار لتصرع رجلا من هذه العشيرة أو تلك! كانت تصوب بدقة وأحكام ولا تقتل إلا في القلب، كأنما تريد أن تقول سأقل نار قلبي إلى قلبك، وأريك لظاها! مدركة أن ما لديها من رصاص هو قليل معدود وينبغي أن لا تطلقه عبثا، ظهرت ذات يوم في مضيف شيخ عشيرة شبعا كما اعتادت أن تظهر، كانت قد قتلت أحد رجاله لنتحدها، وجاءته اليوم قائلة:

- اعترف لك أن شظية من رصاصك أفقدتني إحدى عيني، ولكنني بهذه العين الواحدة سأصير عكم جميعا! واختفت كما ظهرت! بدأت الإشاعات تسري أن مكية التي صارت بعين واحدة إذا صوبتها إلى رجل أو شيخ تصرعه؛ فيسقط مشلولاً على الفور، دون أية رصاصة من بندقيتها! قالوا أنها صارت بقدرات إلهية خارقة ولم تعد بندقيتها هي القاتلة بل عينها الوحيدة! ثم جاء من يقول أنها صارت تتنبأ بكل شيء قبل حدوثه، وأخذت نبوءاتها تترى إليهم مع تقلبات الرياح، تحدثت عن قرب موت شيخ عشيرة، وباء، أحزان تحل فجأة، مدهامات حكومية، مولد طفل لعاقراً، مرض هذا، شفاء آخر، غرق بيوت وصرائف، قوارب صيادين، نزول نيازك، أو هطول أمطار، فتتحقق كلها وكما تصفها تماماً، صاروا يخافون عقلها يخترق حجب الغيب، كما يخافون عينها الوحيدة التي تشل من تسلطها عليه، وجدوا شبحها يدهمهم وهم في بيوتهم في البر أو طافية على الماء، تأتيهم رسائلها متنبئة بمصائرهم، ترسمها وتصنعها بقوة السحر. صاروا يتوسلون عفوها عنهم، ينحنون عند ذكر اسمها، يرجون رحمتها ونصائحها، وأخذوا يسمونها العرافة المقدسة، وأخيراً استقر في نفوسهم أنها فعلاً تتلقى وحيا إلهيا، وما العجب أن يكون العاشق المفجوع نبيا؟ هكذا سمعتهم في صباي يقولون! فتصور يا عم ولفريد كيف انقلبوا في نظرتهم إليها! كيف لا يخاف الناس وشيوخ العشائر منها، ألقوا بنادقهم على الأرض، واحنوا رؤوسهم لها، وراحوا يسعون للتفاوض معها يرجونها أن ترحمهم من عينها الواحدة، ومن ذهنها المتوقد بالنحس والبشائر المخيفة، حتى ما كانت تعدهم به من خير صار يقلقهم أن لا يتحقق، أو يزول بسرعة، كل هذا مقابل أن يتنازلوا لها عن الدماء التي سألت منهم معتبرين أن الأمر كان قدرا عليها، وعليهم. فهي ما قتلت إلا انتقاما لرجل أحبته، بل هم عرضوا عليها أن يتجوها شيخاً أو أميرة عليهم لكنها قالت

لرسلهم: لا أريد أن أكون أميرة أو ملكة، أنا الآن عرافة، دعوني أتنبأ بمصائركم أو أخمن نواياكم أو أعرف حقيقتكم، تلك أعظم هبة منحتها لي السماء، تعبت من القتال والحرب، أريد أن أستريح وحتى الموت اتركوني وحدي أعيش بسلام مع ذكريات من أحبني وأحببته! أعطوها الأمان لكنهم ظلوا يتهيبون لقاءها، يرسلون وسطاءهم إليها حاملين هداياهم فتردها لهم، دون أن تبخل عليهم بتنبؤاتها ومشورتها، يقولون إن عينها الوحيدة تزداد حدة كلما تقدمت بالعمر، قد لا ترى ما حولها لكنها ترى البعيد البعيد، وراء الأفق، فتخرق الغيب وتعرف مصائر الناس. مات أبوها وأخوتها ولم تحضر جنازاتهم، وخيم الحزن على الجميع أمدا طويلا، والحزن يا عم وفريد هنا في البر وعلى الماء ثقيل رهيب كأنه ظلام ما قبل الحياة!

(توجس قلبي مرة أخرى أن مكية هي بنت المعيدي ولكن بقوام وطبيعة أخرى أيضا) هذه الحكاية جعلتني أنسى إنني أطوف على مشحوف فوق الماء وأتصورني كأننا مسحورا بين الأشباح والطواطم والسحرة القدماء، ماذا يجري هنا في هذه الأهوار مفتوحة أو معزولة غافلة لها براءة الماء، وصمت السماء؟ شبحها وسطوتها؟ كنت يقظا منتشيا في آن واحد، ما رواه ياسين، سمعه من أبيه أو جده ومن كبار أهل الهور، مكية قدمت من البادية القريبة، روح هائمة جارحة في هذه المجاهل، ستقولين يا عزيزتي أجاثا! "مأساة عاشها غيرها في أماكن أخرى" نعم ولكنها هنا لها نكهة أخرى! لها رائحة البردي وزنابق الماء وعشبه العطري، سار بنا المشحوف فترة صامتتين، وصلنا الطوف القصبي الذي يحمل بيتها الصغير كأنه عش نسر فوق برج عال لمعبد مجهول هكذا خيل إلي! وجدناها جالسة أمام صريفتها، لوح لها ياسين وأخذت ألوح معه، وهي تنظر إلينا ساهمة جامدة! كانت الشمس قد صعدت

عاليا مقتربة بنا من الظهيرة، ناعمة دافئة منعشة في ربيع سخي في صفوه وعبيره، والماء عاد ساكنا إلا من تقافز أسماك صغيرة ونقيق ضفادع تتقافز على الطين، سرب طيور تنتظم في تشكيل غريب على الماء يمر غير مكترث بنا، أوقف ياسين المشحوف عند منحدر كوخها، نهضت واقتربت سمعت صوتها، حزينا خافتاً ترحب بنا! تجاوزت الثمانين، وجه اسمر صغير دقيق الملامح ملأته التجاعيد وثمة وشم أخضر باهت ينحدر من جبهتها ويمر بين الحاجبين لينزل إلى صدرها، لكنها بدت لي جميلة رغم أنها بعين واحدة، حقا يا أجاثا، المرأة هي الكائن الوحيد في الكون، تظل جميلة حتى لو كانت بعين واحدة! ومهما كانت ملامحها وسنها! (المرأة يا عزيزتي أجاثا وليست مجاملة لك، جميلة فقط لكونها امرأة! فكيف إذا كانت عرافة، فنانة، أو كاتبة؟) أما إذا كانت محبة عاشقة فجمالها الكاسح لا تنال منه عواصف الدنيا كلها! بيدها سبحة طويلة تسقط حباتها وتتمتم، أصرت أن تدخلنا كوخها، وتجلسني على كومة فرش رثة غير مبسوطة، متراكمة فوق بعضها، بدت لي كأنها كرسي الاعتراف، رغم أنني كما يفترض لا حاجة لأن أعترف لعرافة! جلبت لنا طاسة كبيرة من اللبن، قائلة: جلبوه أحفاد أخي قبل قليل! سرني أنها غير مهجورة من عائلتها، وثمة من يرعاها! قال لها ياسين نريدك أن تري طالع عنا الإنجليزي! خشيت أن يقول "إنه مخبول مثلك"، نظرت إليّ تتألمني صامتة مبتسمة كاشفة عن فم بلا أسنان، كانت الزاوية معتمة لولا بصيص ضوء يتسرب من شقوق وفجوات في جوانب الكوخ القصبي، ربما هو استمرار للطقس القديم الذي كانت تمارسه الكاهنة السومرية في زاوية من المعبد، كنت أستطيع أن أرى وجهها وقد بدأ يعبس ويغيم وراء صمت تألمي مفاجئ، لاحت لي أنها تتواصل مع قوة أو كائنات غائبة بعيدة وجاء صوتها بلغة واضحة سليمة؛ مهيبا في ارتجافه وخشوعه :

- إيه يا بني ، أنت جبت الدنيا شرقا وغربا، عشت أهوالا، وسوف تعيش أهوالا، أنت جئت هنا تبحث عن شيء ما لن تجده هنا ، ولا في أي مكان آخر ، راح تجوب العالم تبحث عنه ولا تجده، لأنك لا تعرف ما هو، ومن لا يعرف ما يريد، يظل يدور حول العالم، وهو يدور حول نفسه فقط! راح تعيش عمرا طويلا، تضرب بيدك باب المائة سنة وما يفتح!

صمتت فجأة، تساءلت مع نفسي هل سمعت أو عرفت بشكل ما إنني أبحث عن بنت المعيدي، لا أعتقد ذلك، فهي منعزلة عن الجميع كما قال ياسين ، أردت أن أسألها عنها، تخرجت، بل خفت أن تنكر وجودها أيضا، وتطفئ حلمي، لكنني سألتها :

- ما هو هذا الشيء الذي لا أعرفه ، أهو امرأة؟

- أنت لم تخلق لامرأة، ولم تخلق امرأة لك!

لم أحر كلاما ، أخذني ذهول، فوجئت أن ياسين، وقد أدرك ما يجول بخاطري يسألها:

- هل تعرفين يا مكية بنت المعيدي؟

رفعت رأسها ساهمة العينين، أطلقت ضحكة قصيرة جافة :

- وكيف لا أعرفها؟ هي أنا، وكل بنات العرب المهجورات

المعذبات!

مرة أخرى تدفعني هذه العجوز إلى ضياع آخر، أربكتني وشغلتنني بما قالتة عن وضعي الحالي ومصيري. انكشيت مكية بهدوء، وراحت في ذهول ووهن واضحين، نهضنا أنا وياسين ، تناولت يدها الجافة نائثة العروق رأيت على ظاهرها وشما لعين كبيرة، قبلتها، واستللت من محفظتي دينارا، وهو مبلغ يعد كبيرا هنا، وقدمته لها، ضحكت، قالت:

- أنا لا أخذ مالا من أحد، عندي مال يكفيني ، أخذت حصتي من ميراث والدي أغنام وأرض، خل المال معك ينفعك فأنت

تعيش في الغربة!

خرجنا ، وأنا أشد ذهولا ، كيف الهور يقدم لي كل يوم شيئا غريبا! طيلة طريقنا الطويل إلى بيتي القصبي العائم أفكر في ما قالته "أنت لم تخلق لامرأة، ولم تخلق لك امرأة" أهى مجرد نبوءة لعرافة كبيرة، أم هي حقيقة؟ ألم يكن هذا هو إحساسي قبل أن تقلب فاطمة وجهتي من الصحراء إلى الماء، لكنني قررت أن أنسى ما قالته، ألقيت نفسي على فراشي في الممدود على الأرض الطينية المرفوعة قليلا عن الماء ،ورحت في نوم عميق

(34) وماذا يجدي كل ما حصلت عليه هنا؟ إذا كنت قد فقدت أعز ما لدي هناك؟

رغم استمتاع ماكس بما يأتي به ثيسجر من حكايات، واستبعاد احتمال أن يكون هو وراء اختفاء أجاثا، لكنه ظل متوترا قلقا، صار يفكر بخالد، لماذا لم يأت له لحد الآن، لماذا لم يعطه رسالة ثيسجر؟ هو يستطيع أن يدرسها بهدوء وتأن ودون انفعال مسبق. هل هو مجرد تأخير أم تخل عن القضية، وقد وجدها مستحيلة أو صعبة جدا؟ صمت بغداد الكبيرة ورجالها يكاد يبتلعها كما ابتلع أجاثا! كان خالد على الضفة الثانية من النهر، منكبا على أوراق ورسائل أجاثا يقرأ ويعيد القراءة ويتأمل، عازما في نفسه، سأبذل أي جهد مهما كان شاقا، حتى لو اقتضى الأمر أن اشق إليها نفقا سريا تحت الأرض! وكلمات أجاثا تتلاحق أمامه تقربه وتبعده عنها دون أن يفقد الأمل في الوصول إليها: كانت هناك في البيت مفاجأة أليمة تنتظرني! حسنا فعلت كاترين، لم تبلغني بالخبر السيئ في الليل، ما كنت طبعاً سأستطيع النوم رغم تعبتي الشديد من الرحلة الطويلة إلى نفر، ووقوفنا على الطقوس الدموية! ما كنا نستطيع السفر إلى بغداد في ليلة مظلمة. صباحا بعد تناولنا الفطور؛ قالت كاترين أن السفارة البريطانية في بغداد أبلغت لومبارد ببرقية أن ابنتي روزلاندر مريضة في لندن، وفي حالة حرجة، ويطلبون حضوري! كانت صدمة قاسية، جلست في حجرتي وحدي صامتة، أخذت ألوم نفسي، لماذا تركتها وجئت إلى هنا؟ ما هذه القلق والتشرد الروحي الذي أعيشه؟ كان وجه ماكس يطل علي فأحس بالطمأنينة قليلا، لكنني أسأل نفسي؛ أما كان يمكن أن

ألقاه في لندن دون فراق ابنتي؟ امرأة إنجليزية لا تلتقي حبيبها الإنجليزي إلا في هذه الأرض البعيدة! يبدو إن الأمر ما كان ليحدث إلا هكذا، جئت إلى هنا وحدث ما حدث ، وماذا يفيد اللوم؟ ورحت أبتهل إلى السماء من أجل شفاء ابنتي، هي ستشفى بدعائي لها من محراب الشرق القريب للعرش الإلهي دائما، هكذا فكرت في هلعي! جئت حاجة إلى إبراهيم الخليل ثم صرت عاشقة، وما المانع أن أكون حاجة وعاشقة بنفس الوقت؟ أنا المسكينة الحزينة القادمة بحثا عن القداسة والحب معاً، وقد وجدتهما هنا ، هل هذا كثير عليّ؟ لم أعد مهجورة كما كنت؛ فهنا معي الله، وإبراهيم الخليل، وحبيبي ماكس! كيف لا أستطيع الوقوف بجانب ابنتي حتى تشفى؟ سأراها، سأراها حتماً، وإذا كان الله يريد أن يبتليني كما يبتلي محبيه عادة، ربي دعني أراها مرة أخيرة قبل افتراقنا الأبدي، ربي اشفي ابنتي الصغيرة الجميلة التي حرمت حنان الأب وهي في لفائفها، ولا تحرمها حنان الأم حين أخذت تتفتح، رحت أدعو وأصلي ولا اشعر بدموعي تسيل غزيرة، قررت حين ألقاها؛ أضمها إلى صدري وأكون لها الأم والأب ولن أفارقها أبداً، جاءت كاترين وأخرجتني من الحجرة. مهونة عليّ، ذهبت إلى ماكس في بيته، وعرف بالخبر، نهض من المائدة ولم يكمل فطوره، أرسل في طلب حسين قائلا: يجب أن نسافر الآن! أصر على مرافقتي إلى بغداد. قال أنا مستعد أن أذهب معك إلى لندن! شكرته، موافقة أن يذهب معي إلى بغداد! شعرت بحاجتي الشديدة إليه، معه أستطيع مواجهة محنتي، بما حدث ولا يريدون أن يعلموني به دفعة واحدة، هكذا مضت ظنوني ومخاوفي! أخذ حسين يطمئنني على طريقة العراقيين، في التهوين من الأمور، "ساعات قليلة وتكونين في بغداد، ومن هناك سيكون الطريق سهلاً وأمناً! وستجدين ابنتك قد شفيت قبل وصولك!" زوجته تحمل طفلاً على صدرها رفعت رأسها إلى السماء، وراحت تدعوا لها

مغرورقة العينين، شعرت بالراحة لوجود هؤلاء الطيبين من حولي! عندما تركنا الناصرية وراءنا التفت ماكس إلى:

- ما رأيك أن نطلب من حسين عند مرورنا بالحلة، التوقف بنا ساعة لا أكثر في الحلة، أريك أطلال جنائن بابل المعلقة؟ قلت له دعني أفكر! كنت أعرف أن ماكس بأحدثه التاريخية التي لا يمل منها؛ يريد صرف ذهني عن التفكير بابنتي ووضعها المجهول لي، لكنني كنت قلقة جداً، والوضع لا يحتمل أي تأخير، رغم أن مواعيد الرحلات وانطلاق القطار إلى أوربا، قد يضيع علي ساعات وربما أياماً. ولكن لا ينبغي أن يكون ثمة تأخير من جانبي، فابنتي الآن بأمس الحاجة لأن أصلها ولو لساعة واحدة قبلاً. عدت ألوم نفس على فراقها وأقر بأنانيتي، تركتها من أجل نزوة مهما كانت سامية؛ فهي لا تخلو من طيش ورعونة! وأعود للأمل والتفاؤل، ابنتي ستتعافى، حتماً، وأنا وماكس قد حسنا أمرنا حبيبين وشدت قلبينا إشراقة نور كبرى! كل شيء طيب، كل شيء على ما يرام، لم الفلق والحزن؟ قطع ماكس حيرتي حول بابل، أمسك بيدي:

- غيرت رأيي، فجنائن بابل هي في خيالك خضراء مزهرة تتدفق من درجاتها العليا شلالات الماء، والعمود، لا أريدك ترينها الآن كومة حجارة وتراب، والطريق الملكي الطويل المحاط بالتماثيل والرسوم المدهشة الملونة، سترينه خرائب مهدامة، أستاذ التنقيب قال لي وأنا طالب: "ليس المهم أن نعرف من بنى بابل، المهم أن نعرف من هدم بابل، وظل يلاحقها كلما نهضت هدمها" أخيراً سرق منقبون أجانب الكثير من تماثيل ورسومات شارع الموكب العظيم انعطف بنا حسين بنا في سيارته وهو يقول ضاحكاً، يريد تبديد جو الوجوم الذي لازمني:

- سادعوكم على حسابي لأكلة سمك مشوي، مسكوف، فأهل الحلة يجيدونه!

نزلنا إلى مقهى على ضفة النهر، مقاعده جميلة منسقة مصنوعة من جريد النخيل، عليها بسط بدوية صوفية ملونة! وقف بنا حسين عند حوض تسبح فيه أسماك الشبوط والبنّي، اخترنا منها ثلاث سمكات مكتنزات، وضعوا السمك مسنودا بأعواد صلبة أمام شعلة الجمر الكبير المتوهجة، جلسنا على مقعد طويل يطل على شط الحلة يجري أمامنا رائقا! بدا ماكس مترددا، فهو يريد أن يحدثني ليسري عني، بنفس الوقت لا يريد أن يتحدث بأمور تبدو غريبة عما أنا فيه، اكتفى بالقول:

- بابل هي (باب إيل) تعني في السومرية ، (باب الإله)، وهي فعلا كانت محطة نزول الآلهة إلى الأرض، ومنها تفرقوا إلى شتى أصقاع الدنيا، كل له إله، ولكل إله ثلة من البشر!

كانت رحلتنا إلى بغداد مريحة رغم الهموم، خفف من ثقلها عليّ، حرص ماكس وحسين على إحاطتي باهتمامهما . نزلنا في فندق ميخائيل زيا في شارع الرشيد، كان ميخائيل بشوشا طيبا، يعامل نزلائه وكأنهم ضيوف في بيته، وقد خصنا برعاية لطيفة يقظة: كعاشقين في بلاد الغربة! هو يعرف ماكس منذ فترة، بينهما صداقة ومودة. وضع ابنتي كان يشغلني ويبدد فرحي برفقة ماكس، لم أستطع أن استغني عن لقاء عائشة. جاءتني إلى الفندق، فقلت معي، ثم راحت تهدئني "ربما هو مجرد نزلة برد، دلال واشتياق بنت لأمها، هي قد تعافت الآن"، وعزت الصمت حولها لصعوبة الاتصالات "لو أردت أنا مستعدة لمرافقتك إلى لندن" شكرتها ودعوتها أن تهتم بأمها، ضحكنا، هنا الأم تحتاج ابنتها، وهناك البنت تحتاج أمها، لعبة الدنيا، حدثتها عن حبي لماكس، فرحت كثيرا، أصرت أن تدعونا إلى بيتها لكنني اعتذرت ببحثي عن فرصة قريبة للسفر، جمعتهما معا على مائدة شاي في الفندق، قالت أنت محظوظة به فهو مع الدكتور لومبارد يتمتعان هنا بسمعة رائعة، حدثتها عن

جولاتنا في أور ونفر وكربلاء. أعادوا في السفارة التأكيد أن ابنتي مريضة وإن علي أن أحضر على الفور، مرة أخرى انتابني قلق شديد، لم استطع النوم، انتاب ماكس أرق معي، كنا ننتظر الصباح لأعود إلى لندن، ودعني في محطة الباصات الكبيرة، أوصى بي سائق شركة نيرن، كنت غائبة عن نفسي وأنا أودعه، أخشى أن يكون قد وقع الأسوأ لابنتي روزلند! في الطريق بدأت استعيد وجه ماكس، تذكرت أن عينيه كانتا نديتين محاولا حجب دموعه، وإنني بكيت دون أن اشعر، تبينت ذلك من رطوبة على وجهي أحسست بها حين لامستها نسמת تتدفق من نافذة السيارة عندما تحركت! كيف اختلطت عندي الأحزان، بين حزني وقلقي الشديد على ابنتي، وأساي لفراق ماكس، بكيت، بكيت، بينما الباص ينهب لا مباليا صحراء بادية الشام! وتفتح قبة برتقالية من نور الشمس حولها وداخلها زرقة السماء، ويهفو قلبي فجأة لأمل وفرح عظيم، ذاكرة التاريخ تذوب في الفضاء كما في عقلي. أحزان البشر منذ بدء التكوين إلى اليوم، أين ذهبت؟ ستذهب أحزاني ومخاوفي معها أيضاً ذات يوم، لم العذاب؟ ستشفى ابنتي، وسألتقي ماكس من جديد، وسنكون عائلة سعيدة، ورحت أتأمل الطريق لا شيء الآن بعد هذه الإشراقة المفاجئة سوى كثبان وصحراء على الجانبين تقطعها أحيانا قافلة بدو على الجمال يسIRON وراء الماء والعشب، قرويون يسوقون بغالهم لبيعوا محاصيلهم لأهل المدن. كل يمضي في طريقه وأنا ماضية في طريقي إلى لندن، وهناك سأرى أي طريق آخر ينتظرني، وعدت أفكر في رواياتي؛ ما كتبت، وما سأكتب، لدي الكثير، فقط أريد الاستقرار والحب، وراحة البال! لم ابق في حلب سوى ساعات، وأسفت إنني لا أستطيع قضاء ولو ليلة واحدة في هذا الفندق الكثير الأسرار، كنت متعجلة وفي لهفة لأتناول قطار الشرق السريع أريد أن أصل لندن بسرعة، أن أضم روزلندا إلى

صدري. طيلة الطريق وأنا أعاود لوم نفسي، كيف تركتها لوحدها هناك، وهي ما تزال صبية في السابعة من عمرها؟ أقنعت نفسي أنها مع من تبقى من عائلتي، ومع صديقاتي، يغمرونها برعايتهم، لكن البنت تشعر بالوحدة دون أمها، حتى لو اجتمعت الدنيا حولها، الآن فقط أدرك هذه البديهة التي تعرفها القلط أيضا؟ يا للغباء، قررت أن أعذب نفسي، اصلبها، لماذا كنت طائشة قاسية القلب إلى هذا الحد؟ انصعت لأحلامي وأوهامي وجنوني ولم أفكر بها وهي التي فقدت أباهما بطلاقي منه، وها أنا أتخلّى عنها أيضا، بماذا أقنعت نفسي لفراقها؟ بحلم الصحراء؟ بتسم نور من السماء مر على قلب أب الأنبياء؟ بحلم كتابة روايات في الصحراء؟ بشهواتي . بقطار الشرق السريع، ضفاف البوسفور، وادي الرافدين، والنيل، وجاذبية مصر التي لا تقاوم، وغيرها من الأحلام؟ ماذا يمثل كل هذا إزاء فقد أبنائنا وإلقاء صخور من الآلام على قلوبهم الصغيرة، أزمعت إذا وجدتتها ميتة أن انتحر، هذه المرة لن تفشل محاولتي في الانتحار كما فشلت محاولتي السابقة قبل أعوام! سأفعلها بشكل متقن! أكثر اتقانا من كتابة أية رواية! ستكون هي روايتي الدموية الأخيرة! الانتحار ابسط عقوبة لمن تترك ابنتها الصغيرة نائمة في سريرها وتخرج بحثا عن الأوهام والوعود الخلابية! كل الروايات التي احلم أو اخطط لكتابتها لا تساوي قبلة منها، ضمة لها إلى صدري، كم نحن معشر الكتاب سخفاء ومعتوهين نحطم حياتنا وحياة أبنائنا من اجل كتب لا يقرأها أحد، أو يمسحون بها الأرض حين يندلق عليها طعامهم وشرابهم! الآن فقط أكتشف كم أحب ابنتي، الآن فقط وهي الآن في أحضان المرض الذي لا يحدثوني عنه بوضوح حتى صرت أتخيله الموت نفسه؟ دخل القطار محطته الأخيرة في لندن وحين نزلت منه كانت المفاجأة السعيدة العظيمة، ابنتي رزولندا تمسك بيدها صديقتي الحنونة الوفية مارغريت، ضممتها إلى صدري معا،

ما أجمل الأمومة والصدقة في شهقة واحدة، ورحت أتمتم، أهذي كالمحمومة والمجنونة: لن أفارقك يا ابنتي بعد الآن، كل الروايات، كل المجد الأدبي، كل الأحلام، لا تساوي قبلة أو ابتسامة منك، ليأت إلينا الأنبياء والقديسون! لن نذهب إليهم، ليس لأننا لا نحتاجهم، بل لأنهم الأقوياء القادرون المريدون! لن أغادر بيتي يا ابنتي بعد الآن، الحلم هنا والسعادة والروايات هنا، وليست هناك! لكنني ما أن مرت أيام وتعافت ابنتي وأغدقت عليها الكثير من حناني وصارت تلعب بعيدا عني حتى صرت أفكر بماكس؛ هل ما حدث بيننا كان فورة عاطفة جياشة عابرة؟ هل أخذتني إليه الهالة النورانية في ارض النبي الأول والشمس المشرقة؟ أم هي عاطفة عميقة هائلة وتفكير رصين متزن، هل ستتلاشى مشاعري نحوه عند أول عقبة أو تحد أو حتى إغراء جديد؟ قلت لأدع الأيام التي أعيشها بعيدا عنه تكشف ذلك! بقيت في لندن هائلة، مسترخية اقرأ وأفكر بحبكة لرواية جديدة مع ما لدي من حيكات وموضوعات اغتنت كثيرا في رحلتي الأخيرة! قلت سأمكث هنا فترة لتكن أشهر، سنة، أكثر، هذا يعني إنني قد تخليت عن قراري بعدم فراق ابنتي، والبقاء بجانبها طويلا وحتى تفارقني هي، صرت مبلبلة مشوشة الذهن لكنني سألت نفسي، كم سيدوم أحدنا للآخر، وكما بقيت أنا لوالدتي، وكما ستبقى ابنتي لي؟ تلك سنة الحياة يفترق الآباء عن أبنائهم، والأبناء عن آبائهم، مرة بالحاجة والمصلحة وأخيرا بالموت، لعبة قاسية لم نخترها ولا يسعنا التدخل فيها إلا بقدر محدود. وعدت أفكر بماكس هل أنا أحبه حقاً؟ هل هو يحبني حقاً؟ وأنا أكبر منه بكل هذا القدر الكبير من السنين، وهو الشاب الوسيم المثقف الذي يجذب النساء بقوة شخصيته، وثقافته، وغلبيته المعطر أيضاً؟ حين أتأكد من حبنا لبعضنا سأغادر لندن إليه، هكذا قررت، وكل يوم أحدث نفسي: صبرا انتظري ، لا تكوني مراة متهاكة! كان تبادل الرسائل

بيني وبينه متعبا ويصيبني بالكآبة أحيانا، فهو يستغرق الكثير من الوقت القاسي والمضني، كنت أستعمل البريد العادي عادة، أحيانا ألجأ إلى معارفي في الخارجية البريطانية ليرسلوا مكاتبي له عبر البريد الدبلوماسي، ولا أعد ذلك تجاوزا، كنت أقول ما ضر أن أكرس دولة بريطانيا العظمى ولو لمرة واحدة ساعة بريد من أجل الحب، أما كفاهها أنها شغلت بريدها وبريد العالم بقضايا الحروب؟ عدت إلى هوايتي التي أحبها كثيرا؛ العزف على البيانو، كنت في مطلع شبابي أتدرب ست ساعات في اليوم على عزف البيانو، وكنت أغني الأوبرا، لكنني كنت أرتبك إذا عزفت أو غنيت أمام جمهور. قال لي الأستاذ الذي امتحنني في معهد للموسيقى الارتباك في المحفل العام خصلة قاتلة، إذا لم تتخلصي منها الأفضل لك الانصراف لهواية أخرى! ثم إنه وجد في صوتي عيوباً أوبرالية ، بذلك قضى على طموحي في أن أكون مغنية أوبرا، لا أدري إن كان قد أسدى علي فضلا في ذلك، إذ لو كنت مغنية أوبرا لما استطعت أن أكتب رواياتي ، خاصة عن عالم الجريمة فعبير الموسيقى لا يلتقي مع رائحة الدم المسفوح! لكنني بقيت أعزف وأغني لنفسي رغم أن من سمعني أعزف أو أغني امتدح عزفي وقال؛ الأستاذ الذي نصحك، بحاجة إلى من ينصحه بالكف عن النصائح! لكنني ألقيت نفسي كليا في خضم الكتابة ، وقد استهوتني الرواية البوليسية؛ فحبة الترقب، وعمق السر، وغموض الأفق؛ هم متعتني قبل أن تكون متعة قرائي، لذلك كنت أنصح من يريد أن يكتب أن يحب موضوعه أولا، ويجد متعته فيه؛ وإلا فليتركه لغيره! قضيت صباحا جميلا في الحديقة المجاورة لبيتنا في لندن ثم عدت إلى البيت بمزاج مرهق اقرب للإحباط، فقد شعرت فجأة أن الرواية التي قد غرقت فيها إلى مدى يزيد على المنتصف مملة ولا تستحق مواصلة العمل بها، رواية سيئة، "كفي عن موصلة كتابتها وبحثي عن موضوع آخر، لرواية

جديدة تماما" صوت يكفي لإسقاط الحمل، إجهاض داخلي، عدت إلى البيت محبطة يائسة، فاقدة الثقة بنفسي! قررت أن أتوقف عن كل شيء، وأصعد القطار، واذهب إلى العراق، ألقى نفسي في أحضان ماكس أعب من محبته واستعيد ثقتي بنفسي وبموهبتني وبالحياة ، ولروزلندا هنا رب يحميها! ها قد عدت مرة أخرى للقلق والترحال، أين وعودي؟ وأين قسمي بأن أنصرف كلياً لابنتي ولحياتي البسيطة هنا؟! فتحت البريد وكانت المفاجأة السعيدة، رسالة من ماكس ليست كرسائله المترعة بالعواطف، كانت مكوني من سطرين "أنا قادم لنجري إجراءات زواجنا لم أعد أطيق صبرا، هل ما زلت على قوارك أم أن برد لندن جعل عزيمتك تفتقر؟" وهرعت إلى روزلندا أقبلها، أضمتها إلى صدري ، أخذتها في رقصة سعيدة، الفرح يجعلني أطيّر بين حجرات البيت. كتبت برقية لماكس "تعال أنا بانتظارك، لا تجعل الشمس تحرق وجهك أكثر فلا أعرف عليك!" وهرعت إلى منضدة الكتابة وشرعت بكتابة رواية جديدة كانت أفكارها تدور في رأسي من فترة إنها "جريمة في قطار الشرق السريع" كانت قد اوحت بها إلي إطلالة ساحرة من نافذة القطار المتجه من اسطنبول إلى حلب، كأنني رأيت رجلا يقفز من سطح القطار ويتوارى بين منحدرات الجبال، شيء لا وجود له لكنني تصوريته قاتلا، ترك خلفه في القطار جثة أو جسدا ينزف ويئن، كتمتها في نفسي، وظلت تراودني كحلم، وكذكرى، ومرة كابوسا يجثم على صدري وعلي أن أزيحه بالكتابة! بعد أن فرغت من كتابة صفحاتها الأولى وهي الأصعب عندي عادة في أية رواية أكتبها، جلست وحدي في مكتبي الصغير، تحيطني مجلدات مسرحيات شكسبير وروايات ديكنز والكثير من دواوين الشعراء الإنجليز، ويعاودني نفس الخاطر الذي اعترانني وأنا في أور، يا لهذا الحب الغريب، ناداني من بعيد، بقعة منيرة في الشرق، فقطعت إليه الطريق

الطويل المزدهم بالمخاطر، أحقا حدث هذا؟ أم هو مجرد حكاية سحرية سمعتها من أمي وأنا أغطس في أمواج النوم الدافئة في شتاء لندن؟ جعلت قلبي آنذاك يذوب ويتلاشى في أحلام البراري البعيدة؟ خاطر صار يكرر حضوره في ذهني يعتريني كرعشة الحلم ، حتى وأنا أعد فنجان قهوتي، أو أطفئ نور الحجرة لننام أنا وابنتي في فراش واحد! "ربما كنا أنا وماكس في لندن في وقت واحد ، في نفس الشارع، لا يبعد أحدا عن الآخر سوى أمتار ولكننا لم نلتق، فصل بيننا جدار أو سيارة عابرة، وربما التقينا وجها لوجه ولم يكثرث أحدا للآخر، كغريبين، ثم تحتم علينا أن نقضي سنة أو سنوات من أعمارنا، فنقطع آلاف الكيلومترات، لنذهب إلى هناك في أور و نلتقي، ونصبح حبيبين كم هي الحياة لآعبة مأكرة غريبة تأبى إلا أن تسكن أسطورة، لتكن لؤلؤة أو قوقعة فاسدة، الأسطورة غائرة في لحما مهما تجاهلناها". استقبلت ماكس في محطة القطار أنا وروزلندا فقط، دون قصد مني، ربما أردت أن أقول له هذه عائلتنا، نحن لا أحد معنا، ونأمل أن لا يكون أحد ضدنا، ضم ماكس روزلندا إلى صدره قبل أن يعانقني، بذاك يقول لي بصمت هي ستكون ابنتنا معا، هي كل ذريتنا، لا ترهقي نفسك بالتفكير بالإنجاب، كأنني لم أكن في سن اليأس! أقمنا حفل زواج بسيط هادئ ضم أفراد من عائلتنا وبعضا من أصدقائنا معا، لم نقض شهر عسل تقليدي هنا أو هناك، عشنا أياما جميلة في لندن

(35) هل يمكن لقصة حب أن تمر دون أن تمر بقصة البلد كلها، والأمريكان دائما على الأبواب!

كان عمارة وياسين يدهشاني بذكائهما، كنت أقول دائما لو كانت قد توفرت لهما مدرسة، لكانا من المتفوقين، ولم أكن بحاجة لسؤالهما عن سبب عدم التحاقهما بالمدرسة فالسبب واضح ؛ الفقر والعوز، والمدرسة بعيدة في الجانب الآخر من الشاطئ ! أصوات الهور تأخذني من جسدي، ومن الأرض لتلقيني في فضاء شاسع متوهج بالنور والعطر، أحس بجهات الدنيا كلها قريبة مني. صباحا تهب الطيور بأغاريدها والبط، بصيحاته ورفيف أجنحته، يسقط النعاس عن ريشة الملون، قفزات السمك تتوالى على الماء، أصوات السمك كأصوات البشر فيها الكثير من الوهم والغموض، من قال إن السمك لا يتكلم أو يغني؟ كأنه يؤدي لحنه الجنائزي مناديا صياديه؛ ليأخذه إلى النار، خوار الجواميس، ونداءات النساء حولها، هياج الأطفال ناهضين من النوم، ينثرون أحلامهم بكاءً أو كلمات، عند الضحى وارتفاع قرص الشمس في سماء زرقاء صافية، تتردد أصوات المجاذيف وهتاف النساء والرجال، العمل العمل، أي كسل أو ركون لراحة أكثر مما يجب ، يعني الجوع والموت. عصرا تتطلق أصوات الشبان بالغناء الجميل، الحزين دائما، نداءات عشق غير متحققة، أحسها كما لدي، كأنهم يغنون لي معهم أيضا، أنا الغريب بينهم لي حصة في غنائهم، للشيوخ نبرات غناء حزينة أسرة، وداع العمر وتشجيع الأمانى المقهورة، والاعتراف بالعجز بعد طول مكابرة، غناء شجي يجرح القلب يمتد مع جريان الماء من بداية الغروب حتى منتصف المساء؛ الهور كله يغني، الماء والقصب

والطير والظلام، غناء وأنغام لا حصر لنتوعها، القصب والضفادع وحتى البعوض، يغني مع أصوات هؤلاء الشبان العاشقين الحزانى، لم أسمع أصواتاً أجمل من أصوات هؤلاء الشبان المحلقين بين الماء والهواء، موسيقى تتصاعد من ماء الهور مع عطر العشب وتراقص ريش الطيور المتعاقبة في لحظات عشق أو فراق، كلما أصغيت لقلب الهور أجد إنني قد التقيت فاطمة في هذا الجسد الكوني النادر المنعزل بعيداً عن صخب العالم ولهائه، فلا أجد إن علي أن أندم أو أرى خطأ في قراري بالمجيء إلى هنا! في هكذا جو تنتعش الأسطورة وتنمو مع جذور القصب، المتجدد دائماً، تحدث معي ياسين، قائلاً: أنه و عمارة سمعا من كثيرين من أهل الهور، أن بنت المعيدي تعيش أسيرة في جزيرة غامضة غريبة في الهور تدعى الحفيظ، يقولون أنها مسكونة من أرواح منحدره من السومريين والبابليين جاءوها بعد انهيار مدنهم ومعبدهم وأبراجهم السماوية، وانخساف عالمهم السفلي وفرار أرواح الموتى منه! وهم يعيشون فيها الآن ومنذ آلاف السنين، يخاف الكثيرون أن يقتربوا منها إذ كثير ما تغور قواربهم بسورات الماء العنيفة حين تقترب منه وتختفي تماماً، وإذا أفلحت في الوصول إليها فإنها لا تستطيع مغادرتها إذا أن خشبها ومساميرها ستتغرس في أديم هذه الجزيرة ولا يمكن أن تنتزع منه حتى يجيء حرس ورجال الجان ويلقوا القبض على الوافدين المتطفلين، فيسلخون جلودهم ويشنونهم على نار هادئة ويأكلونهم! قال حين سمع شعب هذه الجزيرة بجمال بنت المعيدي أرادوها أن تكون زوجة لمليكم السومري الذي يدعونه الآن بملك الجان، فتصير ملكة عليهم، خاصة وإن الملك فقد زوجته قبل عامين حين استدعيتا إلى البرج السماوي، قامت جماعة من أشباحهم باختطاف بنت المعيدي وقدموها للملك الذي انبهر بها وبنى لها قصراً من نحاس يتوهج كل ليلة فيضئ أطراف الهور! أحد رجال الهور

الذي ائتمنته صديقا قال لي:

- أنت إنجليزي وتملك خبرة وسلاحا وربما سحرا يفل سحر القدماء، أقترح عليك أن تنزل في هذه الجزيرة وتدخل قصر الملك السومري القديم وتخلص بنت المعيدي من قبضته. بالتأكيد، هي ستكون شاكرة لك أنك خلصتها من ملك الجان السومري الوحش هذا وسترد لك الجميل بان تكون زوجتك وحبيبتك مخلصه لك مدى العمر!

سألني عمارة ما رأيك في ذلك ؟ أتريد أن نذهب إلى هناك؟ أنا مستعد للمغامرة من أجلك يا عم ولفريد. لكنني فكرت إذا كانت حبيبتي بنت المعيدي هي الآن في أحضان ملك الجان السومري، فإن ذلك يعني اليأس بعينه، وإن علي أن أنساها تماما، وكفاني أن هذا الحب قد وصل درجة المستحيل! قلت:

- لا يمكن أن أعرض نفس أو غيري لسوء، في رحلة محفوفة بالمخاطر ولا تؤدي إلى نتيجة!

ولم أشأ أن أقول لهما إنني مذقررت العيش في عالم الشرق المليء بالسحر والخيال والأوهام قررت أن لا أدخل على أرضة معركة أو صراعا يدخل فيه السحرة والشياطين والملائكة طرفا ، ولا يتورعون عن غرس سيوفهم في قلوبنا، وتطبيق ألاعيبهم علينا نحن البشر الضعفاء!

ولم أستغرب هكذا حكايات عنها، وكما قال لي سليم البكري، " بقدر ما هي حلم، هي في الوقت نفسه دلالة، ومنظومة إشارات على ماض وحاضر ومستقبل " الآن أكتشف أنها خارطة أعماقي، فمن خلالها عرفت نفسي أيضاً! تعالي يا عزيزتي أجاثا لجولة جديدة في الأهوار، لتري أعماقها، ما تحت الماء وما خلف أدغالها وأفقها البعيد، السحر الذي يحيل ورقة البردي إلى جناح طائرة، وأصوات الجواميس والكلاب إلى حوارات بين النجوم والأقمار!

كان ماكس يقرأ الرسالة وهو مستلق على ظهره، أطلق زفرة، أنظر كيف هذا اللعين يغازلها؟ وجد ماكس نفسه يتقبل أن تكون أجاثا رافقت ولفريد في رحلة إلى عرب الأهوار لدراسة حياتهم أو لكتابة رواية عنهم ، "أحبها إلى حد أتقبل زواجها من آخر وسعادتها معه ، فقط أن لا تموت أو تتعرض لأذى!" قال لنفسه كما الهذيان؛ "هكذا حب تعلمته من الموت، كنت أراه يطل عليَّ بعظامه وتكشيرته المروعة في آلاف القبور التي فتحتها! هل أصحابي وأصدقائي في أوربا وصلوا إلى هذه القناعة أم لا زالوا لا يحبون إلا لحظة وجودهم مع الشريك في الفراش؟" مضى يقرأ بل يلتهم كلماتها كأنه يقرأ كتاباً لا علاقة له بمؤلفه، لم يره ولم يسمع عنه شيئاً! الآن وهو في هذه المحنة يحتاج لحكاية تشده وتنقله لعالم آخر، ينسى تقلباته في مشاعره إزاء ثيسجر مثل طفل تماماً! امتدت يده بحركة لا شعورية إلى صورة ثيسجر، وسحبها كأنها وخزته!

جئت إلى بغداد، لأسافر منها إلى لندن، أريد أن ألتقي بعضاً من الأقارب والأصدقاء هناك، وأتزود بأدوية وأدوات أفضل للختان، ومستلزمات طبية أخرى فقد حولني سكان الهور إلى طبيب لهم، أحياناً الناس يصنعون الطبيب، ويهجرون طبيباً صنعته الجامعة، يجب أن أكون حذراً، خطأ بسيط مني قد يجعلني أموت مع المريض أو قبله، فهنا يعدون الطبيب ودواءه سبب الموت، لا المرض! كنت في لهفة للقاء سليم البكري، عليّ أجد لديه شيئاً جديداً عن محبوبتي التي صار يفرحني أن أسمع أن بعض المثقفين هنا يسمونها موناليزا العراق! تواعدنا للقاء في مقهى قرب سوق الصفاير، حين أخترقه أسمع الناس يتحدثون بالصراخ في وجوه بعضهم لكي يسمعو بعضهم بعضاً، وسط ضجيج، وأصوات الطرق المتصاعد من دكاكين النحاسين، وهم يدقون صفائحهم المعدنية لكي يخرجوا منها

مناسف الرز الكبيرة، ودلال القهوة، وصواني الشاي الجميلة! لكن المقهى الذي نجلس فيه رغم قربيه من هذا السوق هادئ بعض الشيء. خطر لي قبل لقائه أن أزور كولن في مقره في السفارة البريطانية، علني احصل منه على خبر أو معلومة يسر بها سليم، كنت أعرف إن كولن كعاداته سيضحك من تعلقي بفاطمة، وسيسألني مازحا: "هل ما زلت عاشقا لبائعة اللبن أيها الرحالة العظيم ثيسجر؟ صرت أستثقل مداعباته وممازحته السمجة هذه، لكن لي معه ذكريات في لندن مذ كنا في مدرسة واحدة وبين عائلتنا صلات قديمة، ثم إنني أحتاجه هنا، فأنا أعرف أنه يحبني ويرعاني من بعيد، مع ذلك كان يؤلمني إنه لم يفهم سر هذا الحب الذي اجتاح كياني، قال لي: حتى السفير عرف بقضية هذا الحب وضحك كثيرا، من يدري قد تصل أصداء هذه القصة إلى الملكة، وإلى مجلس اللوردات البريطاني! قلت له "ولم لا يضحكون على هواهم أو عشقهم لتقطيع أوصال البلدان التي يسوقها سوء حظها لتقع في قبضتهم؟" هل تقطيع الذبائح أرقى وأفضل من حبي لفتاة جميلة مجهولة؟" ويروح يضحك "لسانك طويل يا ثيسجر أتمنى أن تستطيع به إقناع أهل محبوبتك لتتزوجها " ومع ذلك كان يقبل علي مشفقا حنونا، هل ما زال صديقك يريد أخبار سياسية مقابل أخبار غرامية؟ قلت له باستخفاف متعمد:

- هو لا يريد أخباركم، يقول إنها مخلات تالفة! ويقول أنكم لا تكفون عن الخبث والتضليل، لماذا أنتم كذلك، العراقيون أناس طيبون لا يستحقون أن تقسوا عليهم!

ويكتفي بالضحك قائلا:

- أنت محق سيصIRON أهل زوجتك قريبا!

كنا في نهاية كانون الثاني وكانت بغداد قد استعادت لتوها هدونها ورونقها الجميل؛ رغم بعض المظاهر العسكرية، بعد

أيام مظاهرات صاخبة دامية سقط بها مئات القتلى والجرحى اندلعت احتجاجا على معاهدات كانت تجري مباحثات حولها في ميناء بورتسموث بين الحكومة البريطانية والحكومة العراقية بديلا للمعاهدة المعقودة مع بريطانيا عام 1930 والتي تنظم الوجود البريطاني في العراق، عندما تذكرها كولن انطفاة ضحكاته على وجهه الممتلئ الأشقر وصار عصيبا مستثارا:

— أنظر هؤلاء الشيوخ عيون دمی السوفیت، یسموننا بالإمبریالیین مصاصی دم الشعوب، ولكن عندما تحالف ستالین مع تشرشل وروزفلت ضد هتلر في الحرب، صاروا یسموننا "عالم الأحرار" "منقذو البشریة" ونوري السعيد الذین كانوا یدعونه عمیل الإنجلیز صاروا یلقبونه ب"القائد الوطنی"، و"أب الأحرار"، هؤلاء جروا الناس الیوم للتظاهر من اجل إطلاق سراح زعیهم المعتوه "فهد" متذرعین بضرورة إسقاط المعاهدة الجدیة، فكان أن أضاعوها، بغبائهم نسوا أنهم بذلك أبقوا على معاهدة 1930، التي هی بالطبع أقل نفعاً للعراقیین بكثير!

سكت برهة، ظل یدخن ویسرح بنظراته عبر النافذة إلى النهر:

— صدیقك سلیم انقطع عن زیارتي منذ فترة ، قال لی فی آخر مرة إنه یخشى أن یتهم بعلاقة له معنا بینما هو لیس سوى مخبر صحفی، نحلة تدور هنا وهناك لجمع الأخبار، هو إنسان طیب، بلغه سلامی ولا تنس أن تقول له أن معلوماتنا تقول أن الأمريكان قطعوا شوطا فی ترتیب أوضاعهم فی العراق، وهم بعد أن اخترقوا تنظیمات العسکر والأحزاب التي تدعی الثوریة لترتیب انقلاب عسکری، کونوا علاقات وطیة مع الأحزاب الدینیة ، لدیهم الآن علاقات متینة مع أحزاب دینیة سیاسیة فی أوساط السنة والشیعة ، وأقاموا مع المراجع العلیا صلات سریة

بمساعدة حكومات في المنطقة صديقة لهم خاصة عبر حكومة
الشاه في إيران! قل لصاحبك أن ثمة قوى كثيرة الآن مستعدة
لتحطيم العراق بحجة إبعاده عن بريطانيا، هنئاً لهم بالأمريكان،
غدا سيترحمون على الإنجليز!

وجدتني انزلق معه ومع البكري في هراء السياسة، قلت :
- ولماذا لا تعلمون الحكومة العراقية بذلك مباشرة؟
قال محتداً بعض الشيء:

- أخبرناهم، نوري السعيد لا يريد أن يصدق أن ضباطه
يتآمرون عليه، والوصي يعاني الآن من كآبة السلطة، لم يعد
يحتمل أعباءها، يتمنى أن يسلمها لمن يأتي ينشدها، ويلجأ مع
الملك الصغير والعائلة كلها في بلد بعيد. هو يقول أن العراقيين
لا يحبون من يريد لهم الخير، يعبدون من يريد بهم شراً، هكذا
سمعت نخشى في هذا المزاج أن يفرط بحياته وحياة الملك بل
بالبلاد كلها، أنها لحظة تاريخية حرجة جداً يا نيسجر!

حين حدثت سليم بذلك تصورت إنه سيشكك لكن ملامحه
جمدت واعتراه وجوم قال:

- هذا ما توصلت أنا إليه باستنتاجاتي، لأول مرة لا أريد أن
أبقى مخبراً، أفكر أن أكتب المقال أيضاً، لكنهم هنا في الجريدة
رفضوا أولى مقالاتي، سكرتير الجريدة قال لي لو حذرنا
ضباطنا من التسلل الأمريكي بينهم؛ اعتقدوا إننا نشكك
بوطنيتهم، قلت له أنا أيضاً لا أشكك بوطنية ضباطنا، لكنني
أشك بكفاءتهم وحصانتهم السياسية، فكثير منهم كما نعرف
منهمكون بالشراب وليالي الغواني، وأحلام السلطة، زعيم حزبنا
كامل الجادرجي له تجربة سيئة مع العسكر في انقلاب بكر
صديقي، لكنني لا أستبعد أنه سيتحالف معهم مرة أخرى رغم
قناعته أنهم أعداء الديمقراطية ويتسمون بالعنجهية، وكل منهم

مشروع دكتاتور، الجادرجي يخاف أن يتخلف عن ركبهم؛
فيضيع بين الأقدام، ها أنت ترى أن المصلحة الشخصية
تقتضي في أحيان كثيرة أن يضع الرجال مبادئهم وراء
ظهورهم!

سكت برهة، راح يطلق دخان سيجارته كأنما من أحشائه:

- رجال الدين بدأوا يتحركون وقد أو عزوا لأتباعهم برفع
صورهم ونشر خطبهم، الأمريكان يعملون بشكل
حديث، وخبيث، يهيئون الشيعة ضد السنة، والسنة ضد الشيعة،
ولهم مع زعماء الأكراد مراسلات ووعود، ولكن هل سيفلحون؟
لا أدري أعتقد أنهم لا يمتلكون دهاء أو ذكاء الإنجليز! لكنهم
بالتأكيد سيضعون العراق على طريق الهاوية!

- أعتقد أن الإنجليز أفضل ؟

ضحك بمرارة واضحة:

- وهل هناك فرق بين لص قاتل وآخر؟

ران علينا صمت ثقيل سألني فجأة:

- أين وصلت؟ هل وجدتها، أو أثرا يدل عليها، ربما لها
الفضل أنها جعلتني أتحدث بهمومنا الكبيرة معك؟

- لو كنت وجدتها أو أثرا يدل عليها لمشيت في الشوارع
أصبح كأرخمديس: وجدتها وجدتها!

- لا عليك! حتى إذا لم تجدها، يكفيك سعادة أنك بحثت عنها،
كما قلت أنا أشاركك همومك في هذا الحب، أنت هنا بريطاني
تبحث عن الحب عكس أولئك الذين يبحثون عندنا عن النفط أو
النفوذ أو سرقة الآثار، وأنا مستمتع معك في هذه الحكاية الغريبة
التي قلما يوجد زماننا القاحل بمثلها، في البداية حسبتك تعيش
أعجاباً، أو هوى عابراً لكنني وقد لمست ثباتك واستغراقك في
هذا الهوى الغريب أيقنت أنك تعيش حبا حقيقيا.

قلت بقلب واجف حقا:

- لست مخيرا، كأن ما حدث لي قدر أعمى، مصير أسطوري
لم أفتعله ، بل لا أعرف كنهه أبدا!

- أنت أحببت من الصورة، مثل كثيرين أحبوا ممثلات ونساء
مشهورات من صورهن، هناك من أحبوا من الصوت، لكل
المغنيات والمغنين عشاق وعاشقات يحلمون بهم، ويتابعون
حياتهم بنبضات قلوبهم، وقديما قال شاعر أعمى لدينا يدعى
بشار ابن برد عاش في البصرة وقتل فيها :

(يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين
أحيانا!) في حالتك نستطيع أن نصوغ الشعر هكذا: والعين تعشق
دون الأذن أحيانا

أضاف سليم بصوت اعتراه حزن مباغت:

- على ذكر اتصالات الأمريكيان برجال الدين، صرت أرى
في هذه الأيام أن صور بنت المعيدي، أخذت تختفي من بعض
المقاهي وتظهر مكانها صور رجال دين وأئمة؛ بينما التصوير
محرم في الإسلام! وتصوير النبي أو آل بيته أشد تحريما، وفيه
إثم كبير!

لا يطاوعني قلبي أن تختفي صورة فاطمة من المقاهي
والأماكن العامة ، رغم إنني لا أطيق أن ينافسني عليها أحد،
قلت !

- لقد لاحظت ذلك في الناصرية والعمارة أكثر مما في بغداد!
رأيتة يهز رأسه بأسى ويروح في سهوم عميق!

(36) وللکرد حكايتهم عنها، ألقوا على كاهلها مع طائر القبح، تحقيق حلمهم القومي!

تحدث سليم بهدوئه المفعم بنبرة حنان تطمئنني كثيرا:

- خلال فترة وجودك في الأهوار، واصلت بحثي عنها، سؤال لهذا وذاك، مراجعة لبعض المصادر في العربية، والإنجليزية مقدرا إنك في الهور لا تستطيع الحصول عليها، وجدت بعض الشيوخ والتراثيين لا يعرفون عنها أكثر مما يعرفه الناس العاديين، ليس لكسلهم، بل لأن حماس الشبان في البحث عنها كمعشوقة يزيد محاولاتهم المحمومة للوصول إليها، فهي حلم الملايين! يبدو أن ثمة تسابق محموم بين القوميات والطوائف كل يريد أن ينسبها لقوميته أو طائفته، وهذا طبيعي فالحس الوطني إذا لم يترسخ عميقا، فستظل كل قومية أو طائفة تبحث عما يميزها على الآخر، وتدخل في سباق منهك معه، وليت كل السباقات حول الجمال والحب! زرت رجلا كرديا مسنا في بيته ببغداد في أمر خاص، رأيت صورة بنت المعيدي في صالونه، سألتها عنها، فوجئت به يقول:

- ولم العجب؟ إنها كردية، أنظر إليها: شقراء ريانة ارتوت من ينابيع الجبال، وهوائها النقي، تغذت على لبن ماعزه وعسله وتينه، البيئة الجنوبية الحارة الرطبة لا يمكن أن تتجب هذا الجسد الأشقر الملفوف الجميل، هي من نسل عريق سبق لنسائه أن استلبن أفئدة وعقول ملوك ورجال الجنوب وأجبرنهم على الزواج منهن! لمن بنى نبوخذ نصر الجنائن المعلقة؟ أليس لابنة أحد ملوك الميديين التي تزوجها وجلبها إلى بابل ثم أصيبت

بمرض الحنين إلى وطنها الجبلي؟ والبنت معروفة، اسمها كجي كافروش وتعني ابنة التبان أيضاً، سرد لي نفس قصتها مع الضابط الإنجليزي، ولكن باختلاف قد يكون جوهرياً! رآها وصويحاتها في نزهة قرب شلالات أزمر في السليمانية، فسحر بجمالها وتقدم إلى والدها لخطبتها يرافقه بعض من رجال الحكومة ووجهاء وشيوخ الأكراد ولكن والدها رفض تزويجها للضابط الأجنبي غير المسلم والذي سيرحل بها إلى بلده حتماً، ولكي يدرأ عن نفسه وابنته سطوة الضابط الإنجليزي، استجار بالشيخ محمود الحفيد الذي كان قد ثار على الإنجليز مطالباً بأن يتوج ملكاً على السليمانية مثلما توج فيصل الأول ملكاً على العراق! حين عرف الحفيد أن الضابط هو ابن شقيق شرشل؛ راح يساومه أن يسعى أولاً لدى عمه شرشل بصفته وزير المستعمرات البريطانية ليقدم للأكراد تعهداً بأن تعود بريطانيا للالتزام بمعاهدة سيفر التي تملصت منها وخانتهم متراجعة عن وعدها بمنح الكرد وطنهم القومي، فوافق الضابط العاشق الولهان وسافر إلى لندن، وأخذت البرقيات والمكالمات تتوارد على دائرة البريد في السليمانية مؤكدة أنه استطاع إقناع عمه تشرشل الذي يحبه كثيراً جداً؛ أن يقدم هذا التعهد مع اعتذار للأكراد عن خذلانه لهم وحرمانهم من حقوقهم. شرع الأكراد يجمعون التبرعات ويستنفرون الصاغة ليصنعوا أكبر تاج من الذهب والجواهر لهذه الفتاة الجميلة التي ستحقق بالحب دولة كردستان الكبرى بعد أن عجزت عن إقامتها آلاف البنادق بكل ما أسالت من دماء وما أزهقت من أرواح من العرب والأكراد والتركمان والآشوريين! لكن العقيد بكر صدقي وهو من أصل كردي وسبق أن قاد حملة عسكرية لإخماد ثورتهم تقرباً للحكومة العربية في بغداد كان قد سمع كثيراً عن جمال هذه

الفتاة، فقرر أن ينتزعها من عائلتها لنفسه، ويحبط اتفاقية الحفيد مع ابن شقيق شرشل. كان في ذلك الوقت رئيساً لأركان الجيش وممسكاً بعصب الدولة، وعلى صلة وثيقة بهتلر ودائم التردد على برلين متناغماً مع الملك غازي الذي يكره الإنجليز، ويتعاطف خفية مع الألمان! فكر صدقي إنه بهذه الضربة المحكمة يسحب العراق من يد بريطانيا ويحتمي بألمانيا التي ستصير هي العظمى! ويسيطر على الكرد ويكون جيشاً منهم يزيح به الملك غازي ومعاونيه العرب ويعلن نفسه رئيساً على العراق متحالفاً مع هتلر! لم يجد صعوبة في خطف الفتاة في وضوح النهار والطيران بها إلى ألمانيا! تزوجها هناك قسراً، وأراد البقاء معها هناك لقضاء شهر العسل لكنها قلبت عليه كل شيء بمحاولاتها العديدة الانتحار، فينقذها أطباء هتلر، وهذا هو سر النظرة الحزينة الأسية في عينيها الجميلتين، وإن الذي رسم صورتها هو الفنان الذي رسم الكثير من بورتريهات هتلر وغوبلز وهملر، ويمضي الكرد بحكاياتهم فيقولون أن الموناليزا الكردية لم تكف عن محاولة الانتحار وكان آخرها في الطائرة العائدة بها من برلين إلى بغداد، عندما غافلت زوجها صدقي والمضيفين وفتحت باب الطائرة وألقت نفسها، لكنها لم تسقط على الأرض بل تلقفها سرب من طيور القبج كان متجهاً إلى أرض كردستان موطنه الرسمي، والذي وعدوه بوضع صورته على عملتهم عند الاستقلال فحملها بكل حنان وأمان وألقاها فوق بيت أهلها، وحين فطن بكر صدقي إلى غيابها مد رأسه من باب الطائرة يأمرها بالعودة إلى عصمته الزوجية لكنها لوحته له ساخرة منه، ثم باغتته الريح وصفعته بقوة وألقت به من الطائرة في البحر، فتلقفته كواسج وتماسيح ما أن التهمتته حتى تقيأته لأنها وجدت لحمه متعفنًا ومتفسخًا! هذه هي الحكاية الكردية وهي

رغم ما فيها من مبالغات وشطحات تشير إلى آلام الأكراد
الطويلة، وطموحاتهم المشروعة، وغير المشروعة!
قلت ضاحكا:

- بعد أن انتهى من تعلم السير على الماء، علي أن أتعلم تسلق
الجبال! ورحنا نضحك ونواصل أحاديث شتى!

(37) نتخذ قرارنا ثم ننقضه، كئيبان في الصحراء تلمها رياح، وتذروها رياح!

مرة أخرى أترك ابنتي في لندن وأسافر! أقنعت نفسي أنها قد كبرت، وأنها صارت تعي ما يحدث لها ولنا بوضوح، وأنها اعتادت فراقي وإنني سأتركها في رعاية بعض من عائلتنا وأصدقاء طبيين حنونين قدامى وجدد. أفراد من عائلة ماكس غمروها بحنانهم ورعايتهم وأبدوا استعدادهم لتفقدنا بين فترة وأخرى، واستقبالها في بيوتهم متى ما أردت! وجدت من الأفضل أن تبقى في لندن تترعرع وتواصل دراستها التي نشأت عليها، وإنها قد تتعرض لهزات ونكسات لو قطعت دراستها وجاءت معنا إلى الشرق. هكذا أقنعت نفسي بفراقها، تذكرت ما كنت قد اتخذته من قرار عند مرضها، يبدو إننا نجد لكل قرار أسبابه، كئيبان في الصحراء تلمها، رياح وتذروها رياح. عجلنا في السفر ربما لكي لا أراجع. عشنا شهر عسل جميل هائئ مختلف في سوريا بأحضان قرية عين العروس التي تقع على ضفاف نهير صغير في ريف حلب. لا فكاك لي من الإقامة في فندق البارون، قضينا فيه ليلتين، تمتعنا بأطعمته الشهية، وحدثت ماكس عن ذكرياتي فيه. في جو القرية الهادئ أكملت رواية "جريمة في قطار الشرق السريع"، كانت فرحة ماكس بها أكثر من فرحتي، فأنا ما أن أنتهي من رواية حتى تعتريني كآبة خاصة، يمكن أن أسميها كآبة الإنجاز، مزيج من قلق على نجاح العمل، وقلق على العمل الآتي، هل سيأتي؟

انتقلنا إلى العراق، وبقينا على تواصل مستمر مع روزلندا، كان ماكس يتابعها كأب، أتوقع بثقة أنه لم يأسى يوما إنه لم يكن له أبناء من صلبه، لم يفكر طيلة حياتنا معا بشيء له وحده، ولم

أفكر بشيء لي وحدي، دائما نفكر بكل شيء لنا جميعا نحن
الثلاثة دون أن تغيب الإنسانية والعمل من أجلها عن اهتمامنا،
هكذا مضى مركب حياتنا في بحر الدنيا الهائج بالحروب التي
أخذت ماكس مني لسنوات، كانت كابوسا طويلا كاد يحطمني أو
يصيبني بالجنون، كم هي الحروب قذرة! بعد عودته استعدت
طاقتي على التفاؤل والأمل، خبرتي تقول لاشيء يقتل الإنسان
والكاتب خاصة كما اليأس والقنوط، لذلك بقيت أكافح اليأس
كمريض وبيل فتاك! ودائما كنت أنصح الكتاب الشباب أن لا
ييأسوا مهما صادفهم من ظلم أو قسوة أو إنكار، في النهاية
سينجحون وينتصرون ويأتي من ناصبهم العداء والإعاقة يخطب
ودهم! كان ماكس يحثني على البقاء في البيت الجميل البسيط
المطل على الفرات في الناصرية وأنصرف للكتابة. لكنني ما
أن انتهي من الشوط الذي أضعه أمامي للكتابة حتى أجد أية
وسيلة نقل للالتحاق به بين حفر الأرض الأثرية؛ فيستقبلني
بابتساماته وسحابات من دخان غليونه! اخذ يعلمني كيف
اعتني ببعض اللقى والأثار التي يعثرون عليها ثم بعد أن ننتهي
كنا نجلس سوية ليونارد وزوجته الجميلة الطيبة كاترين وماكس
وأنا وأحيانا ينضم إلينا أعضاء من فريق التنقيب
إنجليز، وهولنديون مع بعض الموظفين أو العمال العراقيين.
حفلات شاي وحلوى وأحاديث شيقة تشدنا وتكون منا أسرة
عالمية واحدة تبحث عن تاريخها، فأنا حقا أرى أن تاريخ
الإنسان واحد، لكنه موزع في أماكن شتى من الأرض! عندما
تبين في العمق نتوءات لقي أو ألواح أثرية، ينزل ماكس
ومعاونوه الخبراء ليتولوا إخراجها من تحت طبقات تراب آلاف
السنين بكل رهافة وصبر وأناة، كنت أتلقفها من أيديهم المتلهفة
المرتجفة أحيانا، ألفها على الفور بقطع قماش حريرية مبللة
بالماء، كي امنع ملامستها الهواء الذي يجعلها تتهشم، أنتظر
حتى تتكيف مع جو هذا الزمن، أتخيلها تلهث كما الأطفال

الجدد، وقد وصلت من رحلة طويلة استغرقت آلاف السنين، ثم أنظفها، وأحفظها، لتفهرس. اشعر إن عملي يشبه مساعدة القابلة التي تتلقف المواليد الجدد من الأرحام، الفرق أن موليدنا من جوف صحراء تفتت عليها آلاف السنين، عاشت حياتها بجرأة وانقضت، وقد جاءت لحياة أخرى، رغما عنها على أي حال! كنت أحس بنشوة إنني أشاركهم عملهم في صنع حياة جديدة لما طواه الزمن وغادر الحياة منذ أمد بعيد! شعرت بأهمية أكبر لعملي معهم حين جاءني ماكس إلى خيمتي، كنت أكتب في روايتي "جريمة قتل في وادي الرافدين" كان شاحبا منفعلا، قال لدينا أمر هام، يا أجاثا، نريد رأيك! وتبعته، كانت ثمة سرقة للقى أثرية، وهذا أمر في غاية الخطورة! يعادل جريمة القتل، وربما أكثر لدى بعضهم! كان ماكس ومعاونوه يحفرون بموضع في المقبرة الملكية في أور حين لاحت لهم عصابة ذهبية على جبين جمجمة، لكنها توارت فجأة حين انهالت عليها كومة كبيرة من التراب، أو عزوا للعمال بإزالتها، ومضوا لاستراحة قصيرة، لكن حين عاد لومبارد وماكس ومن معهما، بعد إزالة التراب، لم يجدوا العصابة الذهبية، وما كان متوقعا وجوده معها من حلي ثمينة جدا. لقد حدثت سرقة! لم يكن بحثهم وتحقيقهم مع العمال والخبراء الآخرين مجديا، فاضطر لومبارد وماكس لاستدعاء الشرطة، أخذ مدير شرطة الناصرية وهو من أهل المنطقة، يحقق مع العمال العراقيين فقط، بكل فظاظلة وقسوة، ثم أتى بالقرآن، اقسما جميعهم ببراءتهم، كنت وأنا أسمع ما يدور، أقدح ذهني الروائي البوليسي بقوة وعجالة، وجدت ذهني يشير إلى جون توماس المنقب الإنجليزي المشرف المباشر على الحفر. الذي كان واقفا معنا ضاماً يديه إلى صدره، يرقب بصمت آلام عماله، وهم يواجهون المحقق الشرس. في اللحظة التي ملت بها على ماكس هامسة له بشكوكي بجون توماس، تقدم أحد العمال وقد اخترق خوفه من فقد عمله. ليقول إنه رأى جون

توماس ينتزع العصابة الذهبية من الجمجمة مع المجوهرات الأخرى ويخفيها في ثيابه! اتجهت الأنظار إلى جون؛ فتوارى داخل الخيمة، لكنهم لحقوا به؛ فانهار، وسلمهم المسروقات بصمت، كانت الجمجمة لأميرة سومرية، وكانت تحمل مع عصابتها الذهبية قلائد رائعة تمثل في تشكيلها وما تحوي من أحجار كريمة إحدى ذرى الفن العراقي القديم! وهكذا تحمل أكثر من 168 عاملاً عراقياً بريئاً، التحقيق القاسي والإهانات من مدير الشرطة، فقط لأن الشك لم يكن يقف على قبعة رجل إنجليزي! بعد ما حدث؛ شعرت أن عملي معهم سوف لن يتوقف عند حد لف مواليد القبور بالمناديل المبللة! كان لومبارد كثير الصمت والشرود كأنه يعيش مع موتى التاريخ البعيدين؛ يحاورهم يسألهم أين أودعوا أشياءهم الجميلة النفيسة، وعلى أية ألواح طينية أو صخور نقشوا أشعارهم وأناشيدهم وألحانهم. قال لي في لحظة تجل؛ كم أتمنى لو أصل إلى النوتات الموسيقية للسومريين والبابليين، مجتمع كانت لديه كل هذه الآلات الموسيقية والأناشيد والترتيل، لا بد أن لديه ألحانا عظيمة، ولا يمكن أنها عزفت ارتجالاً، كم أتمنى أن أصل إلى مدوناتهم الموسيقية، لو عثرنا عليها نكون قد وهبنا أسماعنا وقلوبنا نفس النشوة والسمو الذي كان يكتنفهم وهم في معابدهم وخلواتهم الروحية والعاطفية يستمعون لتلك الألحان والأغاني العظيمة، كان يشم من السكون والحجر، رائحة تلك العهود العظيمة التي كانت زاخرة بالإبداع والروعة، عليها تجود على عالمتنا المنهمك بالماديات بنفحات روحية منعشة، لم يكن لومبارد وماكس ينظران للعراق كأحدى مستعمرات بلدهما، كانا في المحصلة العامة ينظران إليه كند، هو امتلك حضارة البداية والتأسيس، وبريطانيا امتلكت حضارة القمة، والنهاية الضافرة، وكان هذا يشعرني بالطمأنينة على أن حضارة العالم هي ملك الجميع، ومسؤولية الجميع، عليهم بناءها معاً، والحفاظ عليها

معاً! لومبارد يقول: جلامش نبي الجسد، بحث عن الخلود المادي لأحشائه، ليبقي ملكا على الأبدية؛ فردته الأرض والسماء خائباً. فوضع الشاعر الذي نظم الملحمة على لسانه بضعة كلمات مفحمة من صاحبة الحانة! إبراهيم الخليل نبي الروح بحث عن خلود سماوي ولم يرده الله! فأدرك أن لا حياة دون توازن الروح والجسد! تلقى ما تلقى وانبعث بعده موكب من الأنبياء والقديسين يعوضون الإنسان عن فناء الجسد بخلود الروح! كان يعجبني في لومبارد إنه كان يعرف عما يبحث في التراب، الروح هذه التي كلما فقدناها صرنا مرض الجسد وفناؤه! صمت برهة راح ينظر إلى الأفق المتوج بغروب شمس حزينة على أور قال وهو يبتسم:

- جئت ابحث عن إبراهيم الخليل، لم أجده كان قد رحل قبلي إلى فلسطين، يهئ لي مستقبل من السماء: ثلاثة أديان! لكنني وكما التعويض الإلهي عثرت على القيثارة الذهبية، وأنت أيضاً جئت تبحثين عن إبراهيم الخليل فلم تجديه طبعاً، وكما التعويض الإلهي عثرت على ماكس، الآن كل منكما هو القيثارة الذهبية للآخر، وهكذا يبدو أن البحث عن الأنبياء مفيد جداً!

قلت له ضاحكة:

- أتمنى أن يعثر ماكس على قيثارة ذهبية تشبه قيثارتك كلما شاخت تكون أفضل، فأنا كلما شخت صرت أسوأ!

- لكن ماكس يقول إنك كلما تقدمت بالعمر، لا تتحولين إلى قطعة أثرية بل إلى قطعة من الخلود!

بين فترة وأخرى، لومبارد وكاترين، وماكس وأنا نتجول في أرض التنقيب، تلك الحفر المفتوحة على السماء؛ هي حدائقنا الترابية الجافة؛ نطل منها على أعماق التاريخ؛ أشجاره وزهوره الباقية أبداً، وأتذكر إننا كنا نتحدث عما ورد في الكتب السماوية وما صاروا يجدونه في الألواح من نصوص مطابقة أو مشابهة

لها، قال لومبارد :

— أستطيع أن أقول لك أن معظم القصص والحكايات، وتفسيرات الظواهر الكونية من قصة آدم وحواء، وخروجهما من الجنة، إلى سفينة نوح الواردة في الكتب المقدسة أخذت مما توارثه الأقدمون عن أساطير وحكايات ما بين النهرين وتراث الفراعنة، هذا ليس دليلا على صحة هذه الحكايات أو خطئها، فهي كانت لدى أولئك القدماء تصورات فطرية بدائية. نحن لا نثبت ولا ننفي، نقدم ما نجده لمن يبحث ويفكر!

كنت قلقة حقا، سألته بلهفة:

- قل لي صراحة هل ما وجدته من أصول الحكايات والأفكار جعل أيمانك بالإنجيل يهتز؟

تريث، سرح بنظراته، أعاد إشعال غليونه قال وهو ينفث الدخان:

— الإيمان كالحب هو أن لا تسألين لماذا؟ وكيف؟ التفلسف يربك خفقات القلب! أعرف أن ذاكرة الطين أقوى من ذاكرتنا ، تصدمنا تجرحنا، إنما في النهاية لدي روح تحتاج السكينة والرضا!

أعرف إنه وزوجته كانا مؤمنين حريصين على صلاتهما وسلامهما الداخلي، وأنا وماكس كذلك ، لكن بحثي في ذاكرة البشر سومريين أو فراعنة أو غيرهم جعلني أفكر أعمق، أو لأقل مزعزة الفكر:

- لكنك وماكس قلتما أنكما وجدتما الكثير من جذور السماء في الأرض، على حقيقتها!

— نعم ، المنقب كالطبيب، هذا يشرح الجسد، وذاك يشرح الحضارة القديمة، كلاهما غير مسئولين عما يجدان من حقائق مهما كانت قاسية.

مكثت أنا وماكس سنتين في العراق، أنتجنا فيهما الكثير، كانت فترة خصب روائي لي كتبت، رواية "جريمة في شارع الرشيد"، "جريمة في كركوك"، "جريمة قتل في وادي الرافدين"، وغيرها وأعددت خططا لروايات أخرى. كان ماکس يساعدني في مراسلاتي مع الناشرين ويبدل أقصى جهد للحد من جشعهم وألا عيبهم ليضمن حقوقنا المادية، وإخراج الكتاب بأفضل رونق، وتحقيق أوسع انتشار له. كان إقبال القراء على رواياتي في مختلف أنحاء العالم بعد ترجمتها قد منحنا أنا وماكس سعادة حقيقية غامرة! لكنه بنفس الوقت جعلني أكثر شعورا بالمسؤولية إزاء ما أكتب وأكثر اهتماما بتقنيتي الروائية، واختيار موضوعاتها وشخصياتها!

سألوني كثيرا لماذا كل شخص روايتي هم من الإنجليز والأجانب المقيمين في العراق أو في غيرها من البلدان، لماذا لا يكون ثمة أبطال لرواياتي من أهل البلد؟ الأمر لا يتعلق فقط بأنني أتحاشى التورط بمواقف قد تحرجني كأجنبية، بل لأنني أعرف أكثر دواخل وطبائع أبناء جلدتي الذين أعيش معهم في البلد الغريب، وجدت البعض من هؤلاء ما أن ابتعد عن سلطة بلده وقوانينها الصارمة ورقابة مجتمعه حتى تفجرت في أعماقه نزعات بدائية ومتوحشة، فتهاك على الملذات، واستغرق بحثا عن الثروة، وسيطرت عليه نزعة العدوان والجريمة، ذلك دعاني لتناولهم في رواياتي. لكن هذا لا يمنع إذا وجدت حبكة أو مواضيع وشخصيات محلية أن أغامر بالتعبير عنها في الرواية، على كل حال أنا أعول على الإلهام كثيرا، وذكريات الطفولة والصبا! حققت بعثتنا الكثير، استخرجت آلاف الألواح الطينية، كان يؤلمنا أن الحكومة العراقية ليس لديها المخازن الملائمة لاستيعابها، ولا محللين أو دارسين لها، كانوا يعرضون ما هو جاهز وهام ومؤثر في المتحف الوطني وهي بناية قديمة في

الرصافة ويلقون أطنانا من الألواح الهامة في ساحة واسعة في الكرخ مخصصة لبناء متحف وطني كبير، ولا ندري كم ستبقى هذه الألواح تحت هجير الشمس، والمطر فالكثير منها أخذ يتفسخ ويتفتت! ما يجعل استخراجنا لها من باطن الأرض جناية عليها! هذه الألواح مكتوبة بالخط المسماري، أو باللغة البابلية، نصوصها تحوي الكثير من المعلومات عن العهود القديمة، وبعضها مجرد عقود بين الأفراد، في ذلك الزمن البعيد كان استئجار خادمة أو فلاح يقتضي كتابة عقد بثلاث نسخ، اثنان للمتعاقدين والآخر يودع لدى المعبد، كانت درجة تنظيم الحياة واحترام حقوق الإنسان آنذاك، تدهشنا حقاً! أخذت الفرق الأجنبية حصتها من هذه الألواح واللقى الثمينة! وخننوا آثارا هامة في بيت الآثاريين الذي نسكنه وكثيرا ما يشدني وأجد فيه إلهامي وأتمنى لو أعيش عزلة طويلة فيه أختلي مع شخصيات الماضي أحاورها وأسبر غورها وأكتب عنها، حقا إن عمرا واحدا لا يكفي للروائي ليتعيش أضعاف عمره ليكتب فهو كلما تقدم في العمر ينضج أكثر، لكن من يحصد نضجه في النهاية هو دود القبور! علمنا أن الحكومة أرسلت عددا من الطلبة لدراسة طرق التنقيب ولغات أجدادهم السومريين والبابليين والآشوريين في أمريكا وبريطانيا وألمانيا، ألا تبدو هذه مفارقة طريفة، يأخذون لغة أجدادهم من الغير؟ لابد لجيل جديد من العراقيين أن يتولى البحث بنفسه عن ماضيه، ولا يصح أن يبقى بيد الأجانب فقط، هذا ما سمعته مرات عديدة من لومبارد وماكس!

**(38) هي حسناء آشورية، حفيدة ملكة،
زجت آلاف وآلاف الشباب في حروب
كثيرة، لم تكثرث لآلام بنات حنساها،
ملقية عليهن حزام العفة!**

والآن اسمع يا نيسجر حكاية الآشوريين عن محبوبتك، فهم يقولون أن اسمها شميرام، جمال وفتنة آشورية، وجه أشقر مستدير، صدر ناهد، قوام فارع، نظرة قوية جذابة، شعر كثيف ينسدل على الظهر عباءة من ذهب أبنوسي، هذه الفتاة تبادلت الحب مع الضابط الانجليزي ولبرت، ابن أخ تشرشل أيضا، برضاها بل بهيامها وانبهارها! كانت ابنة رئيس قبيلة آشورية كبيرة تعاون مع الإنجليز عند دخولهم البلاد، قائلا؛ "وقفنا معهم لا عن خوف ولا خنوع، بل لقناعتنا أن بلادنا خضعت أربعة قرون للعثمانيين الأجلاف؛ أذلوها وأكلوا لحمها، ولكي تلحق بركب العالم يجب أن تتحالف مع دولة قوية متحضرة مثل بريطانيا!" فشكل جيشا من الشباب الآثوري سمي بالليفي، وعمل تحت إمرة الإنجليز مختصا في إخماد أي تمرد يواجههم! التقى الضابط ولبرت قائد جيش الليفي شميرام في بيت أبيها الكبير، تقدمت له بصينية الشاي؛ فذهل لجمالها وغاب عن وعيه، لم يفق إلا حين رفع قس القوش كأس الشاي وقد برد أمامه، ووضع بدلا منه كأسا كبيرا من نبيذ الدير المعتق. كانت شميرام قد بهرت بالضابط ووقعت بحبه أيضا وأصيبت بدوار خفيف لذيق؛ جعلها تأوي إلى حجرتها وترقص لوحدها الليل كله تحرق رسائل الحب الكثيرة التي تلقتها من شبان القوش والقرى المجاورة وترقص على ضوئها! تخلصت تماما من حيرتها وترددها حيال أي منهم تختاره بعلا لها. وعكس ما لقيه حب فاطمة من عقبات لقي حب شميرام وزواجها كل ترحيب وحفاوة

من أهلها وعشيرتها، لم يطلب والدها شيئاً له أو لابنته سوى أن يأخذ الضابط من عمه شيرشل ورقة تتعهد بها بريطانيا بأن لا تسمح بتكرار المذابح الفظيعة التي طالت الآشوريين على مر القرون الأخيرة. وأن يسمح لهم بممارسة ديانتهم بكل حرية وأمان! تم حفل الزواج في قصر منيف في الموصل بكل مظاهر الأبهة والبهجة. بعد أن قضى الضابط مدة خدمته العسكرية في الموصل، رحل معها إلى إنجلترا، وهناك تطوع رسام العائلة المالكة البريطانية، فرسمها بشكل نصفي بوضعتين؛ مرة حاسرة الرأس، وفي الأخرى تحت غطاء الرأس الآشوري الشهير، وقد علقت صورتها الأصلية في متحف الفن البريطاني العظيم، وطبعت في لندن آلاف النسخ منها، أرسلت إلى العراق وبلاد الشام، كما اعتمدت كلوحات في كنائس لمريم العذراء، ومضى مؤرخون آشوريون يدبجون المقالات والمباحث حولها، مؤكدين أنها حفيذة زعيمهم الأعظم آشور بانيبال، وإن جدتها الأولى ملكتهم الشهيرة سمير أميس، والمؤتمنة على مكتبته الصخرية العظيمة، أول مكتبة في العالم، أصغر كتاب فيها وزنه نصف طن من الصخر المائل لصفرة الذهب، لكنه حين يدخل الذهن يصير أخف من ريشة عصفور، جدتها التهمت كل هذه الكتب، وأورثت روحها لحفيدتها شميرام، مع نبوءة تقول: " ثمة قدر غريب سيدخل على أهل هذه البلاد؛ كما يدخل الثعبان أكمة ورد ، فيفرقهم زمناً طويلاً يتطاحنون ويتشاحنون ويفني بعضهم بعضاً، حتى تولد لنا حفيذة اسمها شميرام فتجمعهم حول وجهها الجميل كما تجمع الشمس البشرية حولها" يقول البكري، لا ندري مدى صحة هذه النبوءة الرهيبة، لكنه وجد موجز حياة شميرام في كتاب قديم بمكتبة انستاس الكرملية وهو مؤرخ مسيحي كبير يعيش الآن في بغداد ويجله الكثيرون! فاستنسخها لي، سلمني إياها فشرعت بقراءتها؛ بينما هو ظل بجانبه تقرر نارجيلته مثل طير مخنوق في قفص

" يحكى أن سيولا عارمة اجتاحت نهر دجلة شمالا، وألقت بأسمائه وضفادعه على جانبيه، فجأة ظهرت وسط النهر سمكتان تدفعان أمامهما بيضة كبيرة، وتلقيها على الشاطئ، وعلى الفور هبطت من السماء حمامة بيضاء كبيرة، واحتضنت البيضة، حتى فقس، فخرجت منها طفلة فاتنة رائعة، فجاءتها أسراب من الحمام وأخذت ترف عليها بأجنحتها وتصد عنها حر النهار، وبرد الليل. وتأتي لها بغذائها مما لدى الرعاة من جبن وحليب، فعاشت الطفلة هائلة سعيدة! تنبه الراعي أميس إلى أن الجبن في مخزنه صارت فيه ثقوب كثيرة، وحليبه في الخابية يتناقص، فكمّن يرقب مخزنه الصغير؛ فشاهد الحمام تنقر الجبن، وتدس مناقيرها بالحليب، وتحمل منهما ما تستطيعه بمناقيرها، وتطير به، تبعها فوجدها تحط عند منحدر صخري معشوشب منزو، دخله فوجد طفلة لم تبلغ العام من عمرها، بهره جمالها، فأخذها إلى كوخه، أسماها سميرو أي الحمامة، وعندما ألحقها باسمه صار اسمها "سمير أميس" أي "حمامة الراعي أميس"، لكنه قرر بيعها ليسدد ما عليه من ديون! ذهب بها إلى ساحة نينوى حيث يجتمع كل عام شبان وشابات ورجال قادمون من نواحي المملكة لينتقي الشاب عروسته والرجل صبية ليربيها إلى أن تبلغ سن الزواج فيتزوجها أو يقدمها عروسا لأحد أبنائه، شاهد سيما المشرف على خيول الملك، سمير أميس وكان عقيما فحقق قلبه للصبية فاشتراها، أعجبت زوجته بالصبية وفرحت بها وأخذت ترعاها ابنة لهما، كبرت وبرزت أنوثتها، رآها أوانس مستشار الملك، دهش لجمالها فانتزعها من بيت المشرف غير مكترث لألمه وزوجته لفقداه! تزوجها وهي صبية صغيرة، كانت فائقة الذكاء، تقدم له النصيح والمشورة في الأمور الخطيرة فنجح في عمله مع الملك الآشوري الذي كعادته كان يعد لحرب جديدة فأمره أن يأتي معه لإدارة المعارك، وحيث أن أوانس لا يقوى على فراق

سمير أميس؛ فأخذها معه، فتفتحت مواهبها في ساحة الحرب، فأخذت تتابع المعارك وتقدم الرأي وانصح، صار الجيش يكسب المعارك ويمضي قدما، أعجب الملك كثيرا بجمالها وفطنتها، عرض على أونس أن يعطيه ابنته ويتنازل له عن سمير، رفض أونس ذلك؛ فهدده الملك باقتلاع عينيهِ، فاضطر للاستسلام ثم انتحر ندما وحزنا! وقعت أميس في هوس الحروب أيضا، غير مكترثة لموت آلاف الجنود أو غيابهم عن زوجتهم معتمدة على ما أسمته حزام العفة! قال المنجمون لها أنها ستقتل بيدها من أحبها وأحبته، لكنها لم تكثرث لذلك، لكن ذلك حدث فعلا فبعدما قتل زوجها الملك نينوس عدوه مضى في دهليز قصره ليبلغها بانتصاره، فلم تتبينه في الظلام، حسبته عدوا، فقتلته طعنا بالخنجر!

ضحك سليم قائلا:

- إذا كانت محبوبتك حفيدتها تحمل روحها التي مرت بكل هذه التقلبات المعقدة، فالويل لك منها!

(39) وجهها الجميل متاهة، ولا طريق لنا فيه إلا الحب ، فهل هو آمن؟

أخذ ماكس يتململ، ترك الفراش وذهب إلى الشرفة قلقا، قافزا ببصره النهر إلى المجهول البعيد، حاول من بعيد أن يرى برج القشلة، هل ما يزال اللقلق هناك؟ قال دعبول أجاتا لا يمكن أن تضيع ما دام اللقلق هناك، هل صرت يا ماكس تؤمن بالخرافات؟ يكاد لا يرى شيئا حوله. عاد خوفه يستعر، لماذا لم يطل المحقق خالد عليه؟ ها قد انقضى النهار، أنا التهمت الكثير من أوراق ثيسجر، ألم يفرغ هو من أوراق أجاتا؟ هي ليست كثيرة، أين هما الوصي ونوري السعيد الذين قيل لي أنهما يتابعان بنفسيهما قضية اختفاء أجاتا؟ أين هو بهجت العطية المعروف كما قيل ببطشه بالخصوم السياسيين؟ أين براعته أمام المجرمين العاديين ممن يخطفون ويقتلون؟ أين السفارة البريطانية؟ أين هو ريتشارد والمستر بينج بونج؟ لم أتلّق أي اتصال منهما حتى ولو فقط على سبيل التهذؤة وإراحة قلبي، وصرت أحس بوجيبه في رأسي! نزل إلى صالة الفندق؛ هل عاد جبرائيل وصاحبه أم ما زالا معتقلين رهن التحقيق والاتهام؟ ثمة صمت حولهما، كلما سأل العامل الجديد الذي جلس وراء طاولة الاستعلامات هز رأسه نافيا علمه بشيء، حاول أن يأكل شيئا وجد شهيته مقفلة، تناول قذح عصير فقط، دخن المزيد من التبغ المعطر من الغليون، ولم يجد مناصا من العودة إلى حجرته والغرق بأوراق ثيسجر!

- كلهم يا ثيسجر ادعوا أن بنت المعيدي ابنتهم، لم يبق سوى الدليم؛ لم أسمع حتى الآن إذا كانوا هم أيضا يقولون أن هذه الصورة لبنت منهم، أو من البدو جيرانهم، من يدري ربما

سأسمع قريباً أنها من الصحراء، متجاهلين أن الفتاة متوردة الخدين ناعمة الملامح؛ تشي بترف ورفاهية المدن أو الشواطئ، غير المتوفر في خيام البدو المتنقلة من هجير إلى زمهرير! ثمة من يقول أنه رأى صورتها في تركيا وبلغاريا وارمينا وبلاد السوفيت، ولكن حتى الآن لم يظهر رسام يقول: أنا رسمتها، ربما لو أعلنوا عن جائزة لظهر ألف رسام متشرد يدعي انه هو الذي رسمها، وباعها في حينها بقنينة نبيذ رديء! ولكن دعني أقول الآن لك شيئاً، قبل أن أنساه، فقد قصدت رسامين عراقيين بعضهم عاد من إيطاليا وأمريكا، بعد أن أنهوا بعثاتهم الدراسية، سألتهم عن الصورة وصاحبتهما، بعضهم هز كتفيه ضاحكاً، أحدهم قال أنها صورة شعبية بدائية لا قيمة لها، آخر قال هي من انجاز أحد الرسامين الأوربيين الذين جاءوا بلادنا مستطلعين مجذوبين للنور والدفء ، أحدهم قال أنها كما قال الملك غازي هي لعبد القادر رسام، الذي كان فناناً كبيراً، ولد في مدينة العمارة أواخر القرن التاسع عشر، وكان من رجيل الضباط الذين درسوا في الإستانة، وانفتحوا على أنوار النهضة الأوربية، واطلعوا على أفانين الرسم العالمي، وعندما دخل الإنجليز العراق، وانحل الجيش العثماني، عاش متخفياً من الإنجليز، وانصرف للرسم وعاش كالمتعبد في دكان فقير ببغداد يرسم لوحاته الرائعة. ربما بنت المعيدي إحدى لوحاته، ترى هل إن عبد القادر هو من عاش قصة الحب معها؟ أم إنه أراد أن يرسم ضحية جميلة تكون رمزاً لانتهاكات الإنجليز في العراق. هذه الصورة يا ثيسجر، تنير الذكريات والمواقع، معها تخوض رمالاً أخرى، ربما ممزوجة بالدماء والدموع، لا تستطيع أن تجزم هل هي بنت المعيدي، أم التركماني، أم الكردي، أم الأشوري، والأسهل أن تجاري من يقول أنها روح العراق الجميلة وقد انتهكت وضاعت تحت الأقدام! أو أن تقول أنها الجمال المطلق وقد تناهتته النزوات والشهوات عليها

وسافلها! البحث عنها يا صديقي يدخلك في متاهات كثيرة ربما أهونها لغز العراق الذي يبدو جميلا وبسيطا، لكنه في أعماقه شبكة احتمالات وعقد محيرة، بعضهم أرادته مزرعة له أو بئر بترول أو طريق إلى الهند فضاع فيه وغاص في أحواله! أنت لم تبحث فيه سوى عن وجه جميل، وقد أصبت يا ثيسجر لا طريق لنا إلى الإنسان أو البلدان إلا الحب!

سألته بقلق حقيقي :

- هل هو طريق آمن ؟

- من يحب لا يفكر بالعاقبة!

صمت سليم البكري قليلا ،حك صلته الوردية ،وعب الكثير من دخانه مستحفا ذاكرته:

- عرفت يا ثيسجر أن هذه الصورة موجودة لدى الفلسطينيين والسوريين وربما لدى اللبنانيين أيضا ولا أدري إذا كانت موجودة لدى المصريين! الفلسطينيون يدعونها "البنات الفلسطينية"، فهم قد وجدوا أن ملامحها وزيتها وملابسها وزركشتها كلها فلسطينية صرفة، حتى أن أهل غزة رغم سمرتهم الداكنة، ينسبون لها لهم أيضا، وهي الشقراء متوردة الخدين، فتصور ماذا تعني هذه الصورة لدى الناس في الشرق الأوسط، وقد وجدوا فيها روحاً هائمة أو معذبة، لكنهم أيضا اختلفوا في حكايتها، فبعضهم يقول أنها ابنة فلاح في حيفا، رآها الضابط الإنجليزي وهي تخطر في الحقل تجمع التفاح في سلة تحتضنها إلى صدرها؛ فرأى التفاح يغار من خديها ونهديها فيسقط على الأرض، فافتتن بها! وآخرون يقولون أنها ابنة صياد سمك في عكا وإن الضابط الإنجليزي رآها وهي تتمشى مع صويحاتها على شاطئ البحر فأغرم بها، (الحكاية والأغنية تقول أن البحر ينسى إنه بحر، وينحني لها ليغسل قدميها) بعد أن عجز عن إقناع والدها بالموافقة على زواجه منها، رغم

وساطات كثيرة قام بها وجهاء ورجال دين، ورغم الليرات الذهبية، والثياب الحريرية التي حاول إغراءهم بها، اختطفها وأخفاها في حي يهودي، ولم يفلح أهلها في الوصول إليها، لكنه باعها لثري يهودي، ثم احتفى بثكنة انجليزية، وإن كثيرين قتلوا من أجل استعادتها دون جدوى، وما تزال الحرب قائمة إلى الآن! آخرون يقولون باطلاً أو حقاً أن الثري اليهودي العجوز اشتراها من والدها بمال كثير خسره على موائد القمار والخمر وبيوت الغانيات! الصورة منتشرة في سوريا أيضاً، وهم قد اختلفوا كذلك في حكايتها! في حلب يقولون، أنها لفتاة سورية عربية جميلة من الإسكندرونة وإنها ترعرعت في قرية قرب حلب أواخر العهد العثماني وقد تداول الناس أخبار حسناتها وجمالها، فسعى ضابط عثماني كبير كان حاكماً للمنطقة للوصول إليها فاستدعى والدها الفلاح الفقير إلى مقره الرسمي وعرض عليه أن يعطيه قطعة أرض كبيرة إذا وافق على زواجه منها، لكنه رفض، فأوعز الضابط لرجاله باختطافها وإخفائها في بيته الكبير في أعلى قلعة له في الإسكندرونة، وإن والديها أصيبا بالعمى لكثرة ما بكيا عليها، ولم يريا الصورة التي أرسلها لهما الأغا، ولا وجه ابنتهما، حتى ماتا بعد سنوات قليلة. بينما يقول آخرون أنها لفتاة جميلة من دمشق كان والدها حلوانياً، وإن ضابطاً فرنسياً، رآها في محل والدها تباع صواني الحلوى، حيث وجودها إلى جانبه يجعله يبيع كل يوم الكثير من أطباق البقلاوة والزلاية، ولسوء حظه أن ضابطاً فرنسياً دخل محله خارجاً لتوه من الجامع الأموي بعد أن ردد أمام قبر صلاح الدين الأيوبي ما كان قد قاله قائده قبل سنوات "ها قد عدنا يا صلاح الدين" منتقماً لهزيمتهم في الحروب الصليبية، وما أن وقع بصر الضابط الفرنسي على الفتاة حتى قرر أن لا يغادر محل الحلواني ألا ويأخذها معه وكأنها علبة حلوى، لكن الوالد رفض تزويجه له، بل طلب من المترجم أن ينقل له قوله (قمر السماء

اقرب إليك من قمر بيتي ومدينتي) لكن الضابط ظل يسعى مستخدماً سطوته كمحتل حتى انتزعها منه، وهرب بها إلى باريس قبل أن تنتهي خدمته في الجيش، وفي باريس أتى برسام إيطالي فرسمها بدقة وإتقان ولم يكن هدفه أن يرسلها إلى والدها الذي أتعبه كثيراً برفضه له، بل أراد أن يتباهى ويفاخر بها حيث ما حل في بيوت أصدقائه أو حفلاته التي أخذ يقيمها في قصر كبير غير بعيد عن قصر فرساي قائلاً: أن لديه موناليزا حية فاتنة أجمل بكثير من موناليزا الإيطاليين! لكن الصورة انتقلت مع الكثيرين من المسافرين إلى سوريا، الحكايات تتفق أن الصورة هي لرسام مجهول من الفرنج وقد أراد بها مغتصب الفتاة التخفيف من تأنيب الضمير، وإن الصورة ظهرت واشتهرت وانتشرت، بينما اختفت الفتاة تماماً، فأصبحت الصورة بديلاً وتعويضاً عنها! سكوت البكري لحظة ثم قال وهو يحرك بيده ملعقة صغيرة في استكان الشاي :

– يخيل لي أن من يغتصبنا دائماً يهبنا كتعويض صورة الحياة، لا الحياة نفسها، ولا حتى جزءاً منها، أو هو يهبنا صورة أنفسنا، لا أنفسنا ذاتها، نعم هنا الخلل في علاقتنا مع الآخر، وهنا مصدر الحزن العميق! بما أنك ستذهب إلى لندن كما أخبرتني تستطيع هناك أن تتوثق من صحة كل ما قيل حولها ، قد لا يقربك ذلك منها لكنه، سيكون منعشاً لقلبك التواق للحقيقة والجمال!

ليتك يا أجاتا تدخلين حلبة البحث معنا، لتكشفي ولو برواية بوليسية سرها الغريب الغامض! تلاحق لهاث ماكس وهو يقرأ، لكنه واصل القراءة، معتقداً أنه صفحة أخيرة أو قريباً منها سيعثر على مفتاح باب قد يفضي إلى أجاتا! قال لي سليم البكري كأنما ليختبرني:

– لم لا تختار فتاة أخرى غير حبيبتك الخيالية هذه، لتكن من

المعدان، المهم أن تكون موجودة الآن، ومن الممكن الوصول إليها، فكما صرت تعرف بين المعدان جميلات كثيرات، ولا بد أن أهلها سيوافقون على زواجك منها ما دمت تنوي الاستقرار بينهم. فقط اعتنق الإسلام، ولو شكلياً!

أفقت من شرودي لأقول له:

- لا يهمني أن أكون في أي دين، أو حتى دون دين، لكنني أنا لا أبحث عن جسد فتاة أحلامي، بل عن روحها، يكفيني الآن أن قلبي يهيم معها أينما تكون، وكيفما تكون!

- كيف تحتمل الوحدة والوحشة؟ دعني أسألك بصراحة كيف تقضي حاجتك الجنسية؟ فأنا أكبر منك بسنوات، ولا أطيق أن لا أمارس الجنس مرة كل أسبوع!

أعتقد إن سليم يمارس الجنس مع مومسات، فهو أعزب مزمن كما عرفت، رحت أفكر بوضعي:

- مذ جئت العراق، لم اقرب امرأة، لا في الأهوار، ولا في غيرها!

- لا ألومك على ذلك، يجب أن تكون حذراً، فالذين يكرهونك هنا كثيرون، ولكن ينبغي أن تعرف أن ثمة فتيات من المعدان حين يذهبن إلى المدينة لبيع الروبه يخضن مغامرة عابرة مع رجل يعرف كيف يستدرجهن بالكلام المعسول أو بالنقود، أو هن منجذبات لرجال المدن وأناقتهن وعطورهم! هذا بالطبع لا يعني أن كل فتاة من المعدان تبيع الروبه يمكن أن تتألف بسهولة! ولكن لا تشل نفسك عن مغامرة مع امرأة حقيقية قائمة خارج أحلامك! لماذا هذا التبتل والرهبنة يا ثيسجر؟ حتى الرجل العراقي لا يتحفظ مثلك؟ الأوربي حسب ما أعرف يعد الجنس أمراً أساسياً في حياته!

بقيت صامتاً، ما يقوله صحيح. سمعت من عمارة وياسين

أحاديث كثيرة عن نساء يمكن نيلهن بقليل من النقود، وهما كما عرفت منهما لهما مغامراتهما، ومعرفتهما بالنساء ودرويهن، لكنني أبدا لم أسخرهما لهكذا أشياء، كنت صادقا بما قلته للبكري، لم أقرب امرأة لا في الأهوار ولا في غيرها من الأماكن، رغم حاجتي العميقة للجنس. أهو الخوف في هذا البلد الذي ينظر أهله إلى الأجنبي بريية وتوجس وينتظرون أية زلة منه لينهالوا عليه بسكاكينهم! فكيف إذا كان انجليزيا لهم معه ثارات وحسابات قديمة؟ أم إنني عقدت كل أحلام الحب ورغباتي على فاطمة، وجعلتها تملأ كياني، ولكن إلى متى؟ وحتى الآن ليس هناك أي بارقة أمل في العثور عليها، وإذا وجدتھا، قد تكون أضحت عجوزا، أو قبرا دارسا، وإذا مازالت حية وبعمر مناسب، لا ضمان إنني سأحصل عليها، قلت:

- لم أفقد الأمل بالعثور على فاطمة! قلبي يحوم حولها ويراه! أعرف إنني أشط بعيدا في الخيال أو الوهم، لكنني مطمئن، سعيد بأحلامي وأوهامي!

أطلق سليم ضحكته المعهودة:

- لا تتصورني وأنا أساعدك في البحث عنها، إنني مقتنع أنك ستجدها، أنت حتى لو وصلت إليها ستجدها عجوزا هرمة، هذا إذا لم تقف على قبرها، يا رجل عش حياتك هنا تمتع من النساء الشرقيات فهن بطعم آخر. غير ما خبرت في أوربا، وعاد يضحك!

- جئت يا سليم لأجد عندك الأمل لا الإحباط، حين سأعود إلى لندن يائسا من فاطمة سأتيه في حي سوهو، وأغرق في ملاهيه ومواخيره!

- وستجلس في الحانة تشرب كأسك، وتتدب حظك ندما أنك فارقت الأهوار، ولم تذوق طعم شفاه امرأة منها، اختنقت فقط بدخان روث البقر ولسع البعض.

أخذ صوته لهجة جادة:

- ومع ذلك يا ثيسجر سأبقى أجاريك في جنونك، وأبحث معك عن فاطمة، فأنا السكير الذي لا يضيع امرأة في أية ساحة، لدي توق لحب عظيم كحبك، أنا معجب بك يا ثيسجر، وسأبقى معك حتى تجدها، أو تجد طريقة للخلاص منها وأوأمها!

في جولاتي في الهور أرى ثمة شبان ممشوقي القوام بثياب رثة، وفتيات جميلات بثياب سود مهلهلة، تظهر على ما يبين من أجسادهن طبقات أوساخ من فضلات الجاموس ودهنه، وغبار القصب متقاربين في مشاحيفهم، أو يخوضون نصف عراة، وراء أكمام القصب يتبادلون كما الطيور نداءات الحب بالغناء، ثم بالنظرات والهمسات واللمسات حتى يغرقون في حمى شهواتهم الساخنة. عناقات حارة، ومضاجعات في الظلال الداكنة، ووراء قامات القصب، فورات شوق ولهفة قد تنتهي إلى زواج سريع أو إلى فشل بطيء ممض، ربما تكون نهايته قتل الفتاة غسلا للعار! ولكن بعد الحب أو قبله لهن جولات عمل وكدح شاق! مع إشراقة الشمس تنقسم النساء إلى فريقين أو أكثر، نساء ينهضن مع الشمس يعملن خبز الرز، يقدمنه مع الحليب، الفطور الصباحي للعائلة كبيرها وصغيرها، عرب الهور لا يجدون عادة أرغفة خبز الحنطة الساخنة الشقراء الفواحة المتطايرة كأجنحة النسور من التنور الطيني في بيوت العرب أبناء القبائل الساكنين حول الأهوار، هنا يشوون خبز الرز على جمر يخلفه روث الجاموس المجفف يسمونه المطال ثم يضعون على وجه الرغيف الأبيض جمر المطال أيضا ليستوي وينضج، كان هذا يجعلني أتقزز، لكنني شيئا فشيئا تعودت عليه، وصرت أستسيغ رائحته لتي هي مزيج من عطر القصب البردي، وعصائر بطن الجاموسة. تظل المرأة تعمل بدأب طيلة النهار، ترقب الجاموس كأنهم أفراد من العائلة،

تركب المشحوف لتجلب علفهم من غابات القصب والبردي،
ولتصطاد في طريقها سمكة أو طيرا، تطعم أفراد العائلة
المتزايدة والتي أفواها دائما مفتوحة جائعة، الأم أو الأخت
تشبعهم عادة وتنسى نفسها، تدور مع قرص الشمس من
بزوغها حتى غروبها؛ لتلقي جسدها المرهق على فراشها
المهترئ مع منتصف الليل، بينما الرجال يجلسون في
المضاييف أو على الشطآن مسترخين يثرثرون، يدخنون
ويتصاحكون ويهزجون، ثمة فريق آخر من الفتيات ينشغلن
بحلب الجواميس وتحضير الروبه والزبدة، ينزلن بها إلى المدن
ليبعها! بعضهن شقراوات بعيون خضر وشعر ذهبي، يجلسن
بثيابهن السود مقرصات في الأسواق، أو يدرن به بين البيوت
فلا يسلمن من تحرش رجل أعزب ملوحا لهن بنقوده، بعضهن
يستجبن لإغراء المال ورائحة الرجل، لكن الكثيرات يرفضن
ويثرن بقوة وشراسة، فهن عموما متمسكات بعفتن وسمعتن،
الفتاة تعرف لو أن أهلها وجدوا أنها حامل دون زواج فلا عقوبة
لديهم لها سوى أن يضعوها أمام أجمة من القصب ويرمونها
بالرصاص، تصوري يا أجاتا حتى الأم لا تلتفت وراءها لتحمل
ابنتها القليلة وتوارى بها التراب أو الماء، هي تتوافق مع الأب
والأخوة لترك جثتها طعاما للأسماك والطيور الجارحة! حين
تعود من بيع اللبن والقيمر لا تكف عن الحركة في الصريفة،
تنجز أشغال عيشهم اليومي ولا تخذل للنوم حتى توفر الخبز من
تنور قرب بيتها القصبي، أو ترفو أسمال أطفالها أو ترعى
المريض منهم، أو تناقش زوجها أو أخوتها أو أبيها في ما
تواجهه العائلة من مشكلات، وتقول رأيها بكل جرأة طالما لا
يخرج عن تقاليد وأصول العشيرة أو الدين. هنا المرأة
قوية، تشعر بالمسئولية اتجاه زوجها وأبنائها، لها الكلمة العليا في
العائلة، مسيطرة على الرجل والأبناء، جديرة بهذا العرش البسيط
والحقيقي، متمتعة بابتسامة مرحة، وضحكات مجلجلة أحيانا،

بثياب بسيطة سود عادة غير مهتمة بزينة أو تبرج؛ مسلحة بعقل واقعي، وعاطفة جياشة. بعد هذه الأعباء الكثيرة هل انتهى عمل وواجب المرأة نحو الرجال أو العائلة؟ لا، على المرأة أن تتقدم لنجدة وإنقاذ العائلة في شأنين خطيرين، فعندما يحين موعد زواج شقيقها تكون عادة هي الثمن أو المقابل الذي يدفعه لأهل العروس، أي تتحول فجأة إلى مهر، فيكون الزواج الواحد عادة زواجين، زواجها وزواج شقيقها معاً، والشاب الذي لا شقيقة له قد لا يتزوج أبداً، إما إذا تورط والدها أو شقيقها وقتل أحداً؛ فتكون هي نصف الثمن الذي ينبغي أن يدفع تعويضاً لأهل القتل. إذ الدية أو التعويض المقابل يكون امرأتين، لو أحصيت عدد الأحوال التي يتحتم على المرأة أن تتقدم لتكون الضحية والبطلة المنقذة لوجدتها هي وحدها صانعة الحياة في الهور، وأول من يواجه الموت، فهي لكثرة كدحها وعنائها تذوى وتموت عادة وهي في ريعان شبابها. كل ذلك يجعلني أنظر للمرأة هنا بإجلال ولا أفكر فيها متعة عابرة لي بغض النظر عن العقاب، فأنا لو أردت امرأة عابرة لحصلت عليها، فياسين وعمارة طيبان لا يتوانيان عن مساعدتي في لقاء امرأة بعد أن أحباني ووثقاني، وفي مساراتي الطويلة بين تجمعات الناس في الأهوار صادفت الكثير من نظرات النساء الراغبات أو المنجذبات واللواتي أرسلن لي عبر عيونهن الواسعات الشهوانيات نداءات لم تكن غامضة، أو عصية على الفهم! كنت أستطيع أن أقصد مواخير وبيوت اللذة الموجودة في البصرة، لكنني لم أفكر بالمتع الصغيرة العابرة، أحببت أهل الهور بعمق، واحترمتهم، وتمنيت لو أستطيع أن أقدم لهم شيئاً كبيراً يسعدهم، أو يغير حياتهم، لكن هذا فوق طاقتي. ظلت فاطمة حلمي وألمي، حزمة النور الذي يجذبني إلى الأعالي، لذا لا أريد لروحي أو جسدي أن يهبطا دونها إلى الأرض مهما ضجت الشهوات في جسدي! أنا فرح يا أجاثا أنني بعد أن نثرت شطرا

من عمري في الصحراء ، أنثر الآن الشطر الآخر من العمر فوق ماء الأهوار الذي ضم حبييتي يوما، روى جسدها وربما يضم روحها أو ذكرياتها وما سيتبقى منها في زمن قادم أو قد يكون زمن مضى ولا أدري! أحيانا أتصور نفسي ميتا ينثر بنفسه رماده ، نصف في البيداء، والنصف الآخر فوق الماء، ومشيعوه ينظرون إليه متضاحكين، فيقشعر بدني. لكنني أعود لصحوي موقنا إنني أبحث عن الجمال يحدوني أمل عظيم! أصدق في صورتها، يزداد سحرها وتأثيرها المسكر، تنهض بقوامها الفارع، عيان تلمن نور الأفق، صدر يزخر بالحنان، خصر أهيف ممتلئ، انخفاضة تحت البطن، قوس زهر، يدان لا تكفان عن صنع الفرح إذ أمنحها أو تمنحني طعاماً أو شراباً أو كتاباً! حين أكون معها أختفي عن كل شيء حتى عن نفسي، لا أجدي ولا أجدها، هل أكون قد ذبت فيها؟ أين هي؟ هل ذابت في؟ رحنا معا، موجة في البحر، أغنية شجية في الريح، وأقول في نفسي، الحب السعيد الوحيد هو حين لا تجد المحبوب، ولا يجدر، تظلال لعبة وهم وأحلام تتكرر، فلا نصدق حياة ولا موتاً، بداية وحسب، نهاية وحسب، أيتها الفاتنة مضى العمر خلفك، لا ندم ولا حساب، كل ما يتبقى في القلب في هذا المسار انتصار، صدق ذلك الشيخ من عرب الهور قال لي في مضيفه بعد أن سقاني آخر فنجان من القهوة لديه: الحب هو الحرب الوحيدة التي لا يخرج فيها أي طرف مهزوما أبداً، كلا الطرفين يكونان منتصرين، حتى لو هجر احدهما الآخر! ربما تسأليني: لو كنت وجدت فاطمة ؛بعد بحثك الطويل، هل حقا إنك ستزوجها وتعيش معها الحياة البدائية والفطرية التي حلمت بها؟ هل ستصرف معها بغير ما فعل الضابط الإنجليزي؟ تنتزعها من أهلها وأحببتها وتذهب بها إلى بلادك مستغلا فقرها وضعف أهلها وقوة الإنجليزي؟ قد يكون الفرق كله انك ستكون معها وأهلها لطيفا، أو اقل فظاظة من الضابط، بينما النتيجة واحدة!

ماذا أقول؟ لا أريد أن أمتدح نفسي، لكن من حقي أن أعبر عن نواياي، أنا كنت أريد أن أعيش معها على أرضها وبين أهلها وشعبها، لا يعني هذا تنازلي عن مدنية وعلم أو حضارة بل يعني إدراكي أن ما لدي منها أجعله في خدمة الناس، الحب الحقيقي سيصهرنا معاً، سأعيش معها في كوخ يطفو على الماء أو في بيت أبنيه على الضفاف، وسأضع خبراتي الطبية البسيطة في خدمة أهلها وقومها، أليس الأرض كلها بلاد الإنسان؟ حانت من ماكس دون إرادة منه نظرة إلى الصورة، كان سوادها وبياضها لامعا واضحا! فأنشاح عنها، أخذ يشعر بالراحة، تيسجر ما يزال يبحث عن حب له على هذه الأرض، لم يجده حتى الآن، وأنا أشك به، كم نحن ضعفاء أبناء البشر نخشى من أدنى منافسة، سأواصل قراءة رسالته، ثمة شعور لدي أنه سيضيء طريقي في بحثي عن أجاثا! لهنهية ظل ماكس يسمع أصوات متشابكة مختلطة تأتي من جهة النهر، علها أجاثا عادت يحف بها منقذوها، شرطة أو رجال من أهل هذه البلاد معروفين بإكرام الضيف وحمانيته. نهض إلى الشرفة، تطلع إلى الشاطئ، لا شيء سوى الصيادين والقوارب تتقل العابرين، عاد يقرأ: جعلني عمارة أرى في إحدى تجمعات المعدان غير بعيد عن الصحين، رجلا من المعدان قال إنه جن بينت المعيدي، كان شريدا وسخا رث الثياب شبه عار، ظهرت عورته، يقولون إنه كان قبل سنوات قد رأى صورتها في مقهى بالناصرية، عاد إلى أهله طالبا منهم أن يجدوها ويزوجونها له، ضحك منه أهله وجيرانه وعشيرته، ضحكوا كثيرا عليه وأهملوه، أصيب بلوثة، هام على وجهه بين ممرات الماء ينبش في عصاه في الوحل، لا يكلم أحدا، قلت في سري ماذا أختلف أنا عنه؟ كلانا مجنون، الفرق هو بسيط لا يعرف كيف يداري جنونه، وأنا لدي القدرة على إخفائه!

(40) أنا وماكس لم نعد نحدد عمرينا، فقد امتدنا سبعة آلاف عام في أرض العراق القديم!

رجعت أنا وماكس إلى لندن، أردت أن أكون إلى جانب روزلندا فترة كافية، كانت تحرز تقدما في دراستها؛ متفهمة غيابي عنها. أنا لا أطيق جو لندن ولا باريس أو روما، يمكن أن استمتع بهكذا أجواء لفترة، وسرعان ما يعتريني السأم والنفور. أحب الريف الإنجليزي، حيث ولدت ونشأت، أجد فيه سكينتي وهدوئي وتأملاتي المتأنية، وأواصل الكتابة، يقولون إنني غزيرة الإنتاج، في الواقع أنا فقط اكتب بانتظام، وأطوع مزاجي لكتابتي، لا كتابتي لمزاجي!

عدت مع ماكس إلى العراق عام 1947، في البداية كان ماكس مساعدا للآثاري الكبير كامبل تومبسون مؤلف معجم النبات لدى الآشوريين، ومنه عرفت أهمية زهرة البابونج التي كان يقدسها الآشوريون. حفروا صورتها على جدارياتهم الضخمة، كان يضع زهرة منها في عروة سترته كتعويذة، وكنت أنا أضع ملعقة من مسحوقها الجاف في قوري الشاي كل مساء؛ فهي مجربة في تطهير المعدة، وتهذهئة الأعصاب! ترأس ماكس بتمويل من إحدى الجامعات الأمريكية، بعثة تنقيب في شمال العراق، هذه الأرض هي بلاد الآشوريين وتحوي الكثير من تراثهم ممتزجا بتراث البابليين والأكديين رغم ما دارت بينهم من صراعات، تلاوبوا بها النصر والهزيمة! بين هذه الجبال، وفي هذه السهول الخضراء صنع هؤلاء العراقيون فصولا مشرقة من تاريخ البشرية، كان برج (أربيلو) يعني في اللغة البابلية، الآلهة الأربعة (يسمونها اليوم أربيل، وينزل إليها

اليوم الأكراد من عزلتهم الطويلة في أعالي الجبال) وقد نقلت إليه أيقونة عشتار من بابل ليحف بها الكهنة في المعبد المقدس العالي على قمة الهضبة، فكان بمثابة سفارة العراقيين لدى السماء! شمال العراق كان عاصمة نصف العالم، فقد امتدت إمبراطورية نينوى إلى آخر انهار الهند، ورمال الأهرامات في مصر! حكموه بمزاوجة بين السيف والكتاب! حين اعتمدوا الكتاب تقدموا ونشروا الخير والأمان والجمال، وحين أوغلوا بالسيف كبوا؛ فكانت عثرتهم القاتلة! رحنا ننقب في آثار نمرود ونينوى. استأجرنا قطعة ارض من عجوز تدعى "نائلة" بسبعة دنانير في الشهر. كان لنا حق الحفر في باطنها شرط عدم أحداث تغييرات أساسية، وجدنا تحت هذه الأرض تحفا لا تقدر بثمن، وكنا نضحك " هذه التحف لو بيعت تجلب ملايين الدنانير، حصلنا عليها لقاء سبعة دنانير فقط، حين نسلمها للعجوز نائلة تقبلها وتضعها على جبهتها شاكرة الله على نعمته، وتسالنا بقلق، هل ستبقون السنة القادمة؟ نعم يا نائلة كيف لا نبقى وتحت أرضك المهجورة والتي كان يرعى بها الماعز، وتبول عليها الحمير، ثروات الدنيا من الذهب والمجوهرات النادرة وما هو أهم منها؛ التاريخ والأساطير وملحمة جلجامش نفسها؟ كنا بعد الاستدلال على المكان الذي نتوقع أن تحته بقايا عهد ما، وهو غالبا ما يكون مرتفعا مقببا، تراكم فيه متهدم الأزمنة، نبدأ الحفر ببطء يبعث على الملل وبأدوات يدوية بسيطة تتطلب الصبر والدقة. كان من المفضل أن يقوم بذلك عمال من أهل الشرقاط فهم بالفطرة يمتلكون مهارة التققيب والبحث ويمتازون بالصبر والمرح والذكاء، وقد ظلوا يرافقوننا في عملنا محرزين معهم أفضل النتائج، وقد تعلمت التعامل معهم ومع آخرين من قرى قريبة، وشعرت نحوهم بالود والتفهم فحظيت بحبهم، وكنت افرح حين يناديني أحدهم بلهجته المحببة "يا عمتي" أو "يا أمي"

كنت أعيد تركيب حطام جرار الخمر والعسل والماء لتعود كما كانت، اعتني كثيرا بوجوه التماثيل الصغيرة والمتوسطة المصنوعة من العاج أو الرخام الصلب، وأقوم بتنظيفها بدقة وعناية، أعظم ما استخرج في نمرود تمثال لأمير آشوري من العاج، كان جميلا سميته موناليزا نمرود، كانت ابتسامته مرحلة ساخرة عكس ابتسامة الموناليزا الغامضة، يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، تحفة هائلة، كنت أنظف وجهه بنفس سائل التجميل الذي أنظف به وجهي، وأحذو عليه كأنه طفلي، أناغيه "أيها الطفل الأشوري المنحدر من أعماق الزمن، انطق! تكلم معي بلغتك! سافهمك على الفور! كان ماكس يضحك قائلاً:

- لم أرك تعنتين ببشرتك يوما، ولم تستعملي هذا المستحضر الذي جلبته من لندن، والآن تستعملينه لوجه الأمير الصغير!
وكننت أقول له ضاحكة:

- أنت أمير يا ماكس، ولا أثير غيرتك إلا مع أمير!

يقوم ماكس بتصنيف اللقى والآثار وتحديد زمانها ومكان العثور عليها والطبقة الترابية التي استخرجت منها. كان التاريخ يعود بين أيدينا نهرا من الغبار المعجون بنور كاشف باهر، كنا نرى أنفسنا في مرآته! ماكس يقول:

- أتعرفين يا أجاتا أنا لم أعد أعرف كم هو عمري، لقد دخلته أعمار حقبة التاريخ القديم كلها!

- عمرك سبعة آلاف سنة يا ماكس، يالي من تعيسة أنام مع رجل عمره آلاف السنين!

وأراه يسرح في الأفق وكأنه فعلا يحمل أحزان آلاف السنين فأقول له ضاحكة:

- وأنا يا ماكس عجوز عمرها سبعة آلاف سنة كلانا التهمنا التاريخ كله فضاقت أعمارنا القصيرة به ، هذا منتهى السعادة!.

- أنت أكثر شخص من خارج دائرة علماء الآثار معرفة بالآثار، صرت تتفوقين على بعض علماء الآثار في خبراتك في الآثار، لقد صار الاستغناء عنك في عملنا صعبا!

كلامه يفرحني، ويؤلمني بنفس الوقت، هذا يعني إنني لا أستطيع أن أكرس وقتا أطول للكتابة، بينما كانت موضوعات وحبات الروايات تتكاثر في ذهني مع كثرة سفراتي وجولاتي في أرض الشرق المفعمة بالإلهام والوحي!

كنت حين اخرج إلى الشوارع في المدينة، وأرى الناس لاهين أو مستغرقين، في هموم وانشغالات، أشعر بالأسى؛ أنهم يديرون ظهورهم لماضيهم، وتاريخهم، لا يعرفون عظمة حضارتهم الكبيرة، وكم أعطت للعالم! بل لا يعرفون قيمة أنفسهم، ولا ألومهم، فهم لديهم من الآلام وفقرهم وأعمالهم الشاقة ما يكفيهم! ويقول لي ماكس:

- نحن نرى الحياة هنا طيبة وسعيدة لان لدينا من المال ما يمكننا من معيشة مرفهة، هنا أهل البلد لا يملكون خبز يومهم، قد لا يرون ما فوق الأرض، كيف تريدنيهم يرون ما تحتها؟، حتى لو كان تاريخهم وذاكرتهم!

كنت سعيدة بألة سينما صغيرة بسيطة اشتريتها من لندن، صورت بها مشاهد قصيرة من الموصل، ونيوى القديمة، والريف الجبلي: فلاح كلداني يحرق أرضه ويمهداها لزراعة مقبلة، رجل آشوري كهل يقطف عناقيد العنب ويكدسها في معصرته لتغدو خمورا ذات نكهة فاخرة كما يقولون، فأنا لا أذوق الخمر، رجال ونساء آشوريون يغنون ويرقصون في حفلة زواج بساحة القرية، راعي كردي بشرواله الفضفاض، ولفة الرأس الكبيرة، يرتقي بماعزه منحدرات جبل إلى كوخه البعيد بين الصخور و أشجار الجوز، تركماني بزيه التقليدي يقف قرب منقلة شواء اللحم في مطعمه قريبا من جامع النبي

يونس، ويحيى الناس ضاحكا، تاجر عربي بغترته وعقاله يقف بجانب بضاعة ربما أتى بها من سوريا، بينما عماله يدخلونها إلى محله الكبير، دولاب هواء في مركز المدينة يمرح به أطفال فرحون في العيد، شيخ يزیدی يقف عند باب معبده يبتسم للرجال والنساء القادمين للصلاة، رجل عجوز منهك يبيع الحلاوة بأطباق خشبية صغيرة، شاب موصلي يسير متبخترا معجبا ببذلته الإفرنجية الجديدة، وربطة العنق، مع نظارة غامقة!

والآن ها هي رحلتنا الطويلة أنا وماكس في العراق قد قاربت النهاية ماذا استطيع القول عنها؟ لقد كانت على طولها سعيدة جدا، أضفنا بها إلى أعمارنا تاريخ الإنسانية وهي تسير في مضمار الحضارة، فماكس وأنا صرنا نستطيع تخيل الناس كيف عاشوا قبل آلاف السنين، ونتخيل أنفسنا أننا ولدنا معهم وما زلنا نتنفس هواءهم ونشرب ماءهم ونطرب لألحانهم، وكلما انقضت حضارة أو زال مجتمع نحن نبقى لنشهد حضارة أخرى ومجتمعاً وشعباً آخر، لذا أستطيع القول إننا عشنا آلاف السنين، ونستطيع أن نعيش آلاف أخرى بقوة مخيلتنا، وننعم مع الإنسانية في مستقبلها الذي نأمل أن يكون سعيداً، مدركا لدروس الماضي التي استخرجت له من تحت الأرض! وخلال عمرنا وعمر الإنسانية الذي عشناه معا، لم نسمح للتعاسة أو الشقاء أن يعكرانه أبداً، لكنني ما زلت حزينة للحظة سألته فيها:

- أتعرف ماذا أتمنى يا ماكس؟

وهز رأسه بصمت ووجل، ربما راعته رعشة في صوتي، قلت:

- كل ما أتمناه أن أموت بين يديك، وأن تطبق جفني حين تفارقني آخر ومضة من نور الدنيا! وأن تعرف حتى إذا لم استطع أن انطق بكلمة آنذاك إنني أحببتك حتى آخر نبضة في قلبي!

لأول مرة أراه غاضبا نهض دامع العينين ليقول بصوت
عائب متهدج:

- لم أكن أتصورك يا أجاثا تقسين على إلى هذا الحد!
قالها كطفل غافل عن الموت! كأنه لم يعمل عشرات السنين
في رماد عظام الموتى، كأنه لم من يصهر تراب الزمن الزائل
ويستخلص منه سبائك التحف الذهبية لزمن جديد!

(41) طرق كثيرة إلى لندن، ولكن لا طريق إلى محبوبتي من لندن!

ها أنا في لندن، ينبغي أن أتوثق من هذه الحكايات التي كلها تقول أن فاطمة خطفت من العراق، وجيء بها إلى هذه المدينة الكبيرة، تغوص في أعماقها كما تختفي سمكة صغيرة جميلة في أعماق البحر. لأعرف إذا كانت لا تزال هنا حية أو ميتة، كيف عاشت حياتها أو مماتها؟، هل هجرها زوجها بعد أن قضى وطره؟ هل ما زالوا يعيشان معا عجوزين أو قبرين متجاورين؟ هل فقدوا الذاكرة أم لا زالوا يتذكran كل الآلام والأفراح؟ هل لهما أبناء؟ أين هم؟ وكيف يشعرون؟ احتمالات كثيرة تبدو مثيرة ومشوقة لي حتى لو لم أكن قد جعلت نفسي طرفا في مأساتها! طبعاً لا أمل لي بها إلا إذا كان الزمن قد توقف معها بانتظاري، وهذا مستحيل! وجدت أن التحري عن حقيقة صورة فاطمة، يعني التحري عن فاطمة نفسها، والعكس صحيح تماماً، فهما في غموضهما وسرهما صاروا شيئاً واحداً! هكذا فكرت! في اليوم التالي لوصولي لندن رحت أسأل من ألقاهم وأعرف عنهم سعة اطلاعهم، إذا كان ثمة ضابط انجليزي قد اختطف فتاة عراقية وأتى بها إلى لندن أثناء احتلالهم لبلادها أوائل هذا القرن! كان جواب أكثرهم إنهم لم يسمعوا بشيء كهذا، بعضهم نصحني "أنت تزج نفسك هنا بأمر معقد وحساس قد يعرضك لمتاعب كبيرة، دعك من ديمقراطية بلدك؛ فهكذا قضايا هي من أسرار الحروب والعسكر، ووثائقها من مقدسات وزارتي الدفاع والخارجية، ولا تكشف إلا بعد نصف قرن على أقل تقدير، وأنداك، لا يكشف منها إلا ما لا يعرض سمعة بريطانيا العظمى للخزي أو العار" لم أستبعد أن يكون ثمة شيء عنها في دوائرنا

العليا، احتلال بلد لا بد أن يرافقه اغتصاب وانتهاك وخطف ودمار، والأشد هولاً هو اغتصاب إرادة الشعب نفسه، لذلك أنا وأنت وماكس كنا دائماً نشجبه! بقيت مقتنعا أن بحثي عن حقيقة الصورة ومن رسمها سيجعني قد وصلت إليها عن طريق الفن لا عن طريق السياسة أو أسرار الجيش! بقيت أخشى أن تكون محض خيال رسام كرع وهو يرسمها برميلاً من البيرة أو النبيذ، فتكون لي تلك صدمة، رغم أن هذه الحقيقة ستقيني من تعب وهموم البحث والمعاناة! وجدت في مخزن لبيع اللوحات القديمة لا يبعد كثيراً عن حي سوهو، نسخة من صورتها، بطباعة فاخرة وسعر زهيد، كان صاحب المخزن رجلاً مسناً أنحنى ظهره وهو مازال مكباً على أكداش الكتب واللوحات والبطاقات البريدية القديمة، فهي هوايته، لم يكن جشعاً فلم يغالي في سعرها رغم أنه لم يكن لديه سوى نسخ قليلة منها، كان لطيفاً بمزاج طيب للحديث فسألته عن حقيقة الصورة قال: أعتقد إنها لرسم مستشرق جوال، مبتدئ أو متدرب! بقيت انظر إليه وقد بدأت خيبة أمني فهو رجل لديه خبراته في مضمار الصور. قال: رأيت الكثير من لوحات رسامين زاروا بلدان الشرق، سوريا والعراق ومصر، ورسموا صور نساء كثيرات في شتى الأوضاع في البيوت، الصالونات، الأسواق، في الحمامات عاريات داخل غيوم من البخار، في أسرة النوم، بأحضان عشاقهن، أعتقد أن هذه اللوحة وهي جميلة دون شك هي من هذا النهر الجميل المتدفق! قد يكون هذا الرسام مفلساً فباع لوحته لإحدى شركات النشر التجاري فطبعته نسخاً كثيرة صدرتها إلى بلدان الشرق، فانتشرت هناك! وجدت أجابته منطقية، لكنها أمتني وحدثت من آمالي! ومع ذلك لم استسلم. أخذت منه اسم دار النشر التي أصدرتها في لندن ورحلت أبحث عنها! اهتديت إليها بعد جهد، كان الناشر الأول قد توفي. لكنني لم أعرف من أحد ورثته مدير الدار، اسم الفنان الذي رسمها أو أي شيء

عنه، اكتفى بالقول "لا يوجد في سجلاتنا أي شيء عنه" "أعتقد أنه رسام مجهول مر سائحا في لندن، وقد رسمها لتدبير نفقات رحلته إلى هنا أو هناك، ربما هو إيطالي، لو عرضت عليه الآن؛ لما عرفها، طلبت منه نصيحة في بحثي عن حقيقة الصورة، فأخذ ينظر إليّ بضجر واضح! ثمة صديق قديم التقيت به مصادفة في المقهى، حدثته عما يشغلني، لم أتوسع معه بشيء عن قصتي، فهو كإنجليزي بمنطق بارد سيسخر من هذا العشق الغريب ويعدّه لوثة عقلية! اقتادني إلى صديق له يدعى هنري، وهو رسام ومهتم بنقد وتاريخ اللوحات الشهيرة، كان يرسمه قبوا تحت الأرض، نزلنا إليه بدرج لولبي كاد يخنقني بروائح وعتمة الثقيلة، كان يرسم على المصاييح الكهربائية. قال كالمعتذر وهو يقف بقامته الطويلة النحيلة ووجهه البيضوي الأشقر كشبح:

- هذا قدرنا في أوربا، لا نستمتع بالنور الطبيعي!

فتح زجاجة نبيذ، عرض أن نشاركه، تناول صديقي كأسا، تقبل هنري اعتذاري بابتسامة لا تقل غموضا عن ابتسامته لإعجابي بصورة رآها بدائية، أخذ يشرب ويدخن، حدثته عن اهتمامي بمعرفة حقيقتها، تظاهرت أمامه بالهم الفني والتاريخي المجرد، حك رأسه قائلا:

- هي غير معروفة هنا، يصعب أن نجد هنا من يعتد بها!

- لكنها تمثل جرحا لدى العراقيين!

هز كتفه ضاحكا:

- كل اللوحات تمثل جروحا لدى هذا أو ذاك من البشر!

لم يبد اهتماما بها، شعرت إنه وجد انجذابي لها ضحالة فنية أو ذوقية لكنه أراد مجاملتي:

- أنظر! الرسام اختار أن لا يرسمها على خلفية مضيئة أو

صقيلة لماعة، اختار لها خلفية داكنة معتمة، هي لوحة مغلقة!
- هو أراد أن يزيد من غموضها ويدفعها أكثر نحو المجهول،
وتركها وحيدة مستوحشة لا شيء بجانبها أو حولها يدل
عليها. هذا براعة أسرة! في العراق يسمونها الموناليزا!
ضحك، كاد يقهقه:

- الموناليزا شيء آخر كل ماساتها تطل من عينيها بدءا من
أن زوجها التاجر الثري حاول ترضيتها بهذه اللوحة كي تحتمل
تعلقه بعشيقتين سريتين منافستين لها. إلى كونها ما تزال تحب
زوجها المتوفى نادمة أنها تزوجت هذا الثري الفاجر، ملتزمة
الصمت لا تريد أن تقر بفشلها، مرة بضربة من ملاك الموت،
ومرة بضربة من شيطان الخيانة، الألوان على يد رسام عبقرى
تحكى سيرتها بصمت!

- لكن ابتسامتها أيضا ظلت غامضة، محيرة!

- نعم، ولم يكن ذلك سهلا، لقد استأجر دافنشي طيلة الأربع أو
الخمس سنوات التي استغرقها في رسم اللوحة مهورا ليقوم
بأعمال وحركات بهلوانية أمامها لتظل محافظة على ابتسامتها
الغامضة، في لوحتك لا ابتسامة ولا مهرجين مختفين يمكن أن
أسمعهم أنا!

قلت في نفسي أنا المهرج الأكبر ولا تسمعني، خرجنا من
مرسمه وأنا أفكر، ترى أي ملاك أو أي بهلوان جاء من الجنة
أو الجحيم ليسلي موناليزا العراق لتحافظ على ابتسامتها
الغامضة وتنسى أهلها في جنوب أو شمال العراق، وقد انتزعت
منهم، بينما الرسام يحاول أن يسابق منفاها البارد الموحش قبل
أن يمتص كل جمالها كما يمتص الأفعوان دم الطائر الجميل!
زرتة بعد يومين، أعدت عليه حديثي عن قصة خطف الضابط
الإنجليزي لها، واهتمامي في تقصي ذلك هنا في لندن، ظل

صامتا، بعد أن احتسى زجاجة نبيذ ثانية أو ثالثة، أخذ يحدثني بأمر غريب:

- قرأت في صحيفة تهتم بالجرائم أن ضابطا متقاعدا عجوزا كان إبان الحرب العالمية الأولى في الجيش البريطاني في العراق، وجدوه مقتولا في بيته الكبير بضاحية في لندن، وقد انصرفت الشكوك إلى زوجته، حيث هي دائمة الشكوى منه ، مكررة القول إنها لا تنسى له إنه قبل خمسين عاما انتزعها من زوجها وأهلها في العراق وبيئتها الدافئة وأتى بها منفية سجينه في بيته البارد ،

ألا يمكن أن تكون هي فاطمة التي حدثتني عنها؟

رغم شكى في الكثير مما يتحدث به، فهو يفرط في الشراب، تختلط لديه الوقائع بالأخيلة وتأخذه الهلوسة، لكنني حاولت أن أعرف منه المزيد، وجدته لا يتذكر اسم الجريدة التي قرأ بها الخبر ، ثم أخذ يتراجع عن حكايته ، فقدرت إنه أسير مخيلته المكتظة بالأشباح والصور الغريبة! تذكرتك يا أجاتا، قلت حتى إذا كان ما تحدث به هنري مجرد هلوسة، أليس هو ممكن الحدوث؟ أو حدث فعلا، ألا يمكن أن يتحول عبر مخيلتك الخصبة إلى رواية بوليسية مثيرة؟ وربما لفلم يتحدث عن علاقة الشرق بالغرب؟ شعر هنري بغرقي في لجة أخرى بعيدا عنه:

- اذهب إلى باريس لترى لوحة الموناليزا الحقيقية في اللوفر فقد تتسلم من يديها مفاتيح صورة محبوبتك!

" أفكر بذلك" قلتها، ودعته وخرجت وقد خامرني شعور أن لا طرق لي إليها من لندن، رغم كل الطرق الكثيرة المفضية إلى لندن! بحجرتي في بيت أهلي القديم رحت أستعرض ما أعرفه عن موناليزا اللوفر، تذكرت أنها تنقلت بين قصور ملوك في أوروبا، وإن شابا فرنسيا يعمل صانع إطارات للوحات قام بسرقتها من المتحف الوطني الفرنسي، وعندما حاكموه قال إنه

وجد في اللوحة صورة حبيبته التي أحبها كثيرا لكنها ماتت بعد فترة قصيرة، فأراد أن يستعيدها من الموت محمولة على هذه اللوحة، كان الحاكم عاطفيا رومانسيا فاقنتع بعذره وحكمه بالسجن لمدة سنة واحدة فقط. أنا مثله فقد أحببت الصورة على أمل أن أجد صاحبته، وعساها أن تكون حية الآن! صرت وأنا أسير في شوارع لندن أتصور إنني سألقاها على رصيف، في مخزن، في مطعم ، مقهى أو حتى في بار، ألا يحتمل أنها وقد انتزعت من الأهوار الدافئة الزاخرة بالطيور المهاجرة والأبدة، وغابات القصب أو أية بقعة جميلة أخرى في العراق، وألقيت في لندن تحت الضباب، والدخان قد جعل منها مدمنة خمر أو مخدرات؟ أو قد أراها في قصر بكنكهام جنب الملكة كما قال لي بعض المعدان؟. قلت سأعرفها مهما تغيرت ملامحها واختلفت عن صورتها، سألمح بعينيها حزن امرأة فارقت وطنها وأهلها ومن تحب لتتزوج رغم أرادتها من لا تحب، أو أنها أحبته تحت تأثير الرهبة والمال والبزة العسكرية الخادعة. نظرة فاطمة أكثر حزنا وعمقا من نظرة الموناليزا، سألتقط هذه النظرة في عينيها وأدرك كنهها، فهي نظرة إنسانة خائبة مثقلة بأسى المنفي الإجباري التي لا تخطئها عين نابهة! من يفارق وطنه مرغما ستعرفه حتى وهو يسير منتصب القامة في شارع أو حديقة، ستفضحه رفة من عينيه، زمة من شفثيه، شحوب مبكر على وجهه، مسامات جلده ستطلق تلك الرائحة الشبيهة برائحة غصن تفسخ بعد أن جرفته السيول بعيدا عن شجرتة! كم جعلنا وجودنا صعبا في هذه الدنيا، حكاية فاطمة حتى إذا كانت مختلفة مصنوعة من الأوهام، فإن هناك في هذه العالم كل إمكانات وأسباب أن تكون واقعة وصحيحة! لست معتوها كما يقول بعض أصدقائي وقد ضيعت زما أركض فيه على ماء الأهوار أناجي جواميسها وطيورها وثعابينها باحثا عن وجه جميل لفتاة مجهولة! لم أكف عن البحث ، قلت في نفسي كيف أغفلت مكتبة

المتحف البريطاني، لأذهب هناك وأقرأ بعضاً من صحف
ووثائق حقبة احتلال الانجليز للعراق، رسائل المسز بيل،
بصراحة أحسست بوخزات قلبي، من سأجد شيئاً عنه في
المتحف سيكون قد شاخ أو مات منذ وقت طويل، ولا أريد أن
أحتسب فاطمة بين الأموات، سأعرف تاريخها ذات يوم أما هي
هي نفسها فعلي أن أبحث عنها في الحياة نفسها!

(42) رجال شركات النفط يكرهونها، يخافون أن نظرة عينيها ستشعل الآبار كلها!

صعدت الطائرة المتجهة من لندن إلى بغداد، احمل صورة فاطمة بطبعتها اللندنية الفاخرة، وقد وضعت لها إطاراً ذهبياً جميلاً، بينما حقيبتني الكبيرة المشحونة مليئة بأدوية وأدوات طبية كثيرة لأهل الأهوار. كان يجلس بجانبني رجل أنجليزي أنيق، بدأ الحديث معي، قال إنه يعمل مستشاراً في شركة النفط الإنجليزية العاملة في العراق، راح ينظر إلى اللوحة وينفث دخان غليونه، كان بديناً، قيافته مبهرجة، فتحت المضيئة الإنجليزية الجميلة مائدة مقعده ووضعت له عليها زجاجة ويسكي مع ثلج وزجاجة صودا، ملأ الكأس وكرعه دفعة واحدة، قال:

- أينما أذهب في كركوك تواجهني هذه اللوحة، سمعت عنها الكثير، سئمت منها، وكرهتها، بعض عمال شركة النفط في كركوك يعلقونها في مطعم الشركة، هي لا تستحق هذه الهالة المثيرة التي أضفاها العراقيون عليها، هم مكبوتون وجائعون جنسياً ولا أستغرب أن يجدوها مفرغة لشهواتهم!

لم استغرب تعريضه بعمال شركته، كنت أسمع عن إضراباتهم، وثوراتهم ضد شركات النفط، وغمطها لحقوقهم، ورفضها زيادة أجورهم أو تحسين ظروف عملهم. كان كثير الكلام كأنه يدرأ به مع كؤوس الويسكي التي احتسى الكثير منها، خوفه من الطيران شعرت إنه يحط من ذوقي ويهينني في استخفافه باللوحة، اكتفيت بالنظر إليه جانبياً بين فترة

وأخرى، أطلق لسانه ساخرا من كل ما رآه من مظاهر حياة العراقيين:

- أنا لا أختلط بأي عراقي حتى لو كان مثقفا أو يجيد الإنجليزية، لدينا ناد جميل، مطعم وبار ومرقص، كلها على أحدث طراز انجليزي، حي الشركة قطعة من لندن.

جرني لمناقشته، حاولت تسفيه آراءه، كنت أعرف أكثر منه مظاهر تخلف سكان البلاد، لكنني أعرف أيضا أسباب تخلفهم، وإمكانات تطورهم، وجدت أن من العبث أقناعه بشيء، فلذت بالصمت وتركته وحده كأنه يهذي. لم يبق كلمة سيئة إلا وقالها فيهم:

- هم صراصر؛ لا يطيب لها العيش إلا في الأماكن القذرة، ستري أي مستقبل تعيش ينتظرهم!

لم أعد أعيره انتباهها، رجال شركات النفط يكرهون الشعوب، ينظرون لحكامهم كالدمى، ويدللونهم كما يدلل الأطفال الدمى، يتمنون لو أن هذه الشعوب تصاب بالعمى والصمم، لو تموت كلها دفعة واحدة، لينهبوا ما في أرضهم من ثروات، فهم يعرفون أنهم يضمررون الكره، نظرت لوجه فاطمة في اللوحة، لي غريبا أن هذا الرجال يكرهها حين يرى أن هذين العينين الجميلتين يمكن أن تشعل آبار البترول فوق خزائهم من الذهب! كان أكثر من إشعال غليونه، المضيفة تنظر إليه مستغربة سحابة الدخان الكبيرة المتصاعدة من مقعده، أزعجني أنهم حجزوا مقعدي في صف يسمح فيه بالتدخين، فالتقيت هذا الرجل الثرثار، عاد صوته يجرح اللوحة:

- عرفت إنها مجرد إعلان تجاري، صورة رسمها فنان انجليزي يعيش في الهند، بورترية لفتاة جميلة مشتتة من النيبال، ربما كانت عاهرة أو موديل مؤجر لا أكثر، ليست قديسة كما يتحدثون عنها، ليست فتاة مظلومة مغتصبة من

انجليزي كما يريدون أن يصموا ضباطنا البواسل الذين بنوا لهم دولة وجيشا ودستورا ومنظومة مدارس ومستشفيات، ولولاهم لظل العراق إسطنبول لخيال العثمانيين، لا غير!

قلت محاولا إغاضته:

— هي لدى العراقيين رمز لانتهاك جمال بلادهم من المحتلين!

أطلق ضحكة حائقة ، راح يربت على كرشه ، منقلا ربطة العنق العريضة على جانبيه:

- كيف وأنت رجل إنجليزي متحضر، يعرف أخلاق شعبه، وحضارتهم تصدق كلامهم؟ قلت لك ، إنها إعلان تجاري كان يلصق على جوانب صناديق الشاي، مع نسخة أخرى صقيلة توضع كهدية داخلها، عندما بدأت الشركات الإنجليزية تعرف العراقيين بالشاي الهندي والسيلائي!

- ليكن، أعلننا أو غير ذلك، حولها العراقيون إلى شعار لمقاومتهم محتلي بلادهم ، شعب يحارب ويقاوم بالجمال، وبوجه فتاة حسناء، له مستقبل عظيم وليس تعيسا كما تقول!

ظل يزمجر ، أدرت له كتفي ، وتجاهلت محاولاته جري لمواصلة الحديث معه، وجدتني مصرا أن لا أجعل حلمي الذي تمثله هذه اللوحة يتلاشى من قلبي! أو قلوب الناس هنا، لست ضد الحقيقة ولا أريد تجاهلها، ولكن دائما ثمة وجه آخر لها يحاول هذا الرجل سحقه.

(43) إذا لم تجد حبيبتك في المكان الذي هفا إليه قلبك، لن تجدها في المكان الذي أشار إليه غيرك!

توقف ماكس عن القراءة، وضع الأوراق على المنضدة؛
قربا من الآلة الكاتبة، خرج إلى الشرفة، راح يتطلع إلى النهر،
كأنه يحترق ويذهب ليبترد بالنهر، يرنو إليه يجري وقد غمره
نور باهر، وقوارب العابرين والصيادين تتقاطر هادئة متمهلة
تبعث منها صيحات ونداءات وأغنية تعلو مثقلة بحزن صار
يقبض صدره، ماذا جرى لأجاثا؟ ماذا جرى لي؟ وماذا جرى
للسلطة في هذه البلاد، حتى الآن وقد مرت كل هذه الساعات
الطويلة لم تأتني بشيء عن مساعيها في التحري والتحقيق، قالوا
إنهم سيفعلون المستحيل للوصول إليها، وحتى الآن لا شيء
سوى الصمت، صمت مطبق أكثر وحشة من صمت المقابر
القديمة! أين خالد؟ أحيا أملاً في قلبي ثم غاب، أخشى أن أكون
قد خدعت به، ماذا يجري لنا في هذه البلاد؟

عاد مرتعش اليدين، جذب الكرسي الذي تجلس عليه أجاثا،
أشعل المصباح المنضدي المتوج بمظلة حريرية وردية مطرزة
بزهور زرقاء، جانباً، وعاد للقراءة:

بعد عودتي من لندن، قررت البقاء في بغداد أياما قبل أن
أواصل رحلتي إلى الأهوار، سارعت للاتصال بسليم البكري
لأحدثه بما توصلت إليه عن فاطمة في لندن، خاصة حكاية
الإعلان التجاري، واعدني في بار "البلابل الخمسة" بار صغير
معتم في زقاق يتفرع من شارع الرشيد، صار سليم يكثر من
الشراب وينفث دخانه من أعماقه كأنه يستعجل موته، كان مرهقا
وحزيناً لكنه قام لي باشا وعانقني فرحا بعودتي قال مازحا :

- من الواضح إنك لم تجد بنت المعيدي، أو وجدتها أصبحت انجليزية كباقي الإنجليزيات فطار غرامك الغريب من قلبك!
- ليتني وجدتها على أية هيئة المهم أن تكون حية معافاة!

حدثته بما لدي عن رحلتي، فاطمة غير موجودة في لندن، صار واجما، يكتفي بهز رأسه أو النظر إلي مستغربا قال:

- لا أبرئ الإنجليز، ولا أي محتل من أية جريمة يتحدث بها الناس عنه، ولكن حكاية بنت المعيدي أكبر من كل تفاصيلها، عدم استطاعتك العثور عليها حتى في لندن يعني أنها حلم ، حلم جميل وكبير، يكفي ليس لشخص بل لأناس كثيرين، وإنها بؤرة قد تؤشر لنا على ما سيحدث للعراق غدا أيضا.

صمت برهة ثم قال، وثمة رعشة في صوته:

- في هذه الأيام وجدت أن صورة بنت المعيدي، قد اختفت من بعض المقاهي، بدأت تظهر مكانها صور كبيرة ملونة لطفل يبكي تسيل على خده دموع وعلى وجهه تقطبية خوف وفزع إلى جانبه صور رجال دين، سكت وسرح ببصره بعيدا.

عرجت على ما سمعته من الإنجليزي مستشار شركة النفط، فقد ظل يحز في نفسي، فوجئت أنه لا يستبعد أن تكون الصورة أعلانا تجاريا:

- خلال بحثي في غيابك سمعت شيئا من هذا القبيل، صاحب دار النشر الإنجليزي الذي طبع صورة بنت المعيدي ، جاء مع تاجر عراقي إلى بغداد يحمل كميات كبيرة منها، بيعت كلها خلال أسابيع، ذلك شجعه على طباعة أعداد كبيرة أخرى مسربا حكاية الضابط الإنجليزي، فالوطنية سوق أيضا، ثم لم تلبث الحكايات أن توالى وتكاثرت، تركمانية وكردية آشورية وغيرها، لم يكف التاجر الإنجليزي ذلك، راح يضرب على أوتار قلوب الرجال العراقيين الضامئين للحب والجنس فاستعان

بعراقيين تحدثوا عن شبق بنت المعيدي ومفاتن جسدها تحت ثيابها، مخترقين المحذور، قائلين أنها المرأة النموذجية للفراش وإنها هي نفسها الأنثى الملتهبة التي قصدها كتاب "رجوع الشيخ إلى صباه"، وهو كتاب قديم مشهور في الشرق مثل كتاب ألف ليلة وليلة، ويبحث في أسرار الجنس، وطرائق الجماع، وخصائص النساء، فباع عشرات آلاف النسخ الأخرى، مكوناً ثروة كبيرة، فافتتح مكتبا تجاريا له مستعينا بإدارة شركة لنج للملاحة وأخذ يشتري الحنطة والرز الفاخر والتمر والجلود بأبخس الأثمان ويصدرها إلى إنجلترا ويستورد الجوخ الإنجليزي والويسكي الاسكتلندي! فتصور أية صفقات و ثروات هائلة تحققت بفضل جدائل بنت المعيدي!

شعرت إني حزين ومحبط حقا، لا ريب هو قد لحظ ذلك، قال:

- لا ينبغي أن ينال هذا من حلمك، فأنت في قلبك وخيالك فتاة جميلة على هذه الأرض، مطابقة لفتاة الصورة، استمر في حلمك لا تدع أحد يحطم حلمك، ولا حلمي معك!

كان يحتسي شرابه بهدوء ويدخن، وكنت أكتفي باحتساء عصير الليمون محتملا جو البار الخانق، الصاحب، مستمتعا بكلامه وجلوسي معه، قال:

- كنت أريد أن أقول لك ما دمت لم تجدها في لندن ولا الأهوار، اذهب وابحث عنها في كركوك أو السليمانية فقد تجدها هناك، لكن قناعتي أن بنت المعيدي هي حلم، مهما قيل في أصلها أو فصلها أو ما جرى له، أنصحك أن تكثفي بانتظارها وتواصل الحلم بها، بل لا أتورع قولي لك عش حياتك العادية، تزوج أو عاشر نساء فهذا لن يتعارض مع حلمك بها، لا تحرم نفسك من المتع ولا تحرم نفسك من حاجاتها الطبيعية فهذا لن يطفى حلمك بها، على العكس سيزيده اشتعالا!

أحسست بضحكة مريرة تعبر فمي قلت:

- أنا أتغذى من حلمي ، ذلك يكفيني ! ضحك هو أيضا.

عدت أقول له: كلمة كنت قد سمعتها من رجل في الخليج
لمتصوف عربي قديم " إذا لم تجد محبوبك في المكان الذي
هنا إليه قلبك، لن تجدها في المكان الذي أشار إليه غيرك"
راح سليم يضحك قائلاً:

- سنضمك إلى رتل المتصوفة الذين ملئوا بغداد دموعا
وحسرات على أحببهم الذين لا وجود لهم على الإطلاق!

- أعرف يا سليم إنني أسير حلم مجهول كالسحر، سأعود إلى
الأهوار، أركض فوق الماء وراء السراب ، هل رأيت إنسانا بيده
كأس الماء لكنه يصر على البقاء ظمآن بانتظار كأس من
السراب؟ هو أنا، أحيانا يا سليم أجلس وحدي مرتعشا من حمى
مفاجئة تعتريني ولا تتركني حتى استحم بعريقي. رفع سليم كأسه
قائلاً:

- سأشرب نخبك! أستغرب يا ثيسجر وأنت في هذه الروح
الهائمة ولا تقرب الخمر!

قلت ضاحكا :

- أنا أصنع خمرتي في أعماقي!

- وأنت تحلم من أعماقك الحلم هو العشيقة العظيمة التي لا
تكلفنا سوى بضعة دموع، وبضعة ليالي سهاد وخوف!

وجدت أن بحثي عن فاطمة قد أخذ منى كل طاقتي ،دون أن
أصل إلى نتيجة مفرحة أو حسنة، لم يحدث أن استنزفت بهذا
القدر، لكن توقى لهذا الجمال والإيحاء كما قال سليم سوف لن
ينتهي، عدت إلى الفندق، وضعت صورتها أمامي ورحلت
أحدثها:

- أتعبتني يا فاطمة ، بحثت عنك كثيرا، أين أنت؟ رأيت شفتيها تتحركان وجهها يغيم خلف سحابة حزن، لا أدري!سمعت فقط تقول أحبك أحبك .. تعال .. تعال، شعرت إنني غفوت في حضنها بعمق ولوقت طويل، استيقظت صباحا وأنا أحس ببهجة وتوق عظيم لصباح بغداد الجميل.، لكنني لمحت على المنضدة مغلفا فيه قميص وربطة عنق حريرية كنت قد جلبتها هدية لسليم، ونسيت أن أحملها إليه في لقائنا أمس!

كلما حلت في بغداد أرتاد مقاه في علاوي الحلة، المنطقة الشعبية، التي يتجمع فيها عادة الكثير من الرجال القادمين من الجنوب، ومقاه في شارع الرشيد وباب المعظم،أشرب الشاي المعمول على الطريقة البغدادية حيث يغلى مع الهال ويكون أسود مركزا وثقيلا، وأستمع لأحاديث الناس أو أتطلع إلى وجوههم، وأستمع لأغانهم وموسيقاهم المنبعثة من الراديو. أرى فاطمة في عيونهم الواسعة كثيرة الحركة فأحس قربها مني ومنهم، وإنها كائن موجود وهؤلاء الناس شهود على ذلك، منحت نفسي إجازة من الركض وراء هذا الحب المستحيل في الأهوار،ومن ختان وتطبيب قروح جلدية عضالية، وأمراض مزمنة،لدى عرب الأهوار، قررت أن أستمع بالتسكع في بغداد، وجدت صورتها تختفي من مقاه كثيرة، لتحل مكانها صورة كبيرة ملونة لطفل جميل حزين تسيل على خده دموع صافية كاللؤلؤ، ذلك كان قد حدثني عنه سليم البكري أيضاً تساءلت في نفسي أما كان بالإمكان الإبقاء على صورة بنت المعيدي مع صورة الطفل ظننت الأمر عابرا، ويتعلق بالحيز الضيق في صدر المقهى، بدا لي وربما لرواد المقاهي أيضاً، أن الطفل يبكي أشياء لا ترى ولا تحس، لأول وهلة عندما رأيت صورته لم أجد تناقضا بينه وبنت المعيدي، بدا لي كأنه شقيقها أو ابن شقيقها الصغير، وهو يبكي لفراقها،(لم أجراً على تصويره ابنها)

فكرت إنه يمثل البراءة، الحزن الطفولي إلى جانب الحزن الأنثوي في وجهها الجميل، كنت أرى كثيرا من الرجال يتأملون صورته بوجوم ودهشة، لم أتوقف كثيرا أن بعض الرجال كانوا ينظرون إليه باشتاء (بحكم الكبت الشديد هنا ثمة رجال كثيرون شاذون جنسيا)! بدأ الناس كعادتهم ينسجون حوله الحكايات، وصاروا يسمونه (اليتيم)، أحدهم يقول إنه طفل فقد والده شهيدا في المظاهرات الأخيرة ضد حكومة عملاء الإنجليز. آخر يقول إنه طفل فلسطيني شريد يبكي باحنا عن أهله الذين بدأ تشريدهم من بلادهم. آخر يقول هو ملاك يتجلى على هيئة طفل يبكي لكثرة شرور ورذائل البشر، وابتعادهم عن طريق الله، لا بد من ظهور المنقذ، المهدي المنتظر قريبا، حكايات كثيرة أهالوها على رأس هذا الطفل، تذكرت ما قاله لي سليم، مخيلة العراقيين خصة جدا في نسج الحكايات، مستعينين عليها بالصور، صور أخرى، أحزان أخرى، هموم وتاريخ آخر، ولا أحد يسبقهم في تمزيقها وتحطيم أسطورتها! لا بد من عودتي للأهوار، فإذا كان أُملي في العثور عليها قد تضاعف فإن الناس الذين أحببتهم وأحبوني في الأهوار كثيرون وينتظرون قدومي، هم يحتاجونني، وما جلبته من ذخائر ومستلزمات طبية بسيطة تناديني للذهاب بها إليهم، فهم بأمس الحاجة لها. بعضهم يقصد المدن القريبة بحثا عن دواء، أكثريتهم لا يستطيعون، يسكتون على المرض ويتعايشون معه يتحدثون عنه كأليف أو صديق لهم، حتى يفاجئهم بالموت!

(44) المحقق خالد، يعاكس التيار في بلد يراد فيه حتى للنهر أن يمتلئ بماء السياسة الأحمر والأصفر!

كلما توغل خالد في قراءة أوراق أجاثا يحس بالأمل أنه يقترب من أولى خطوات الطريق إليها، إنها هنا في بغداد لم تبرحها، كيف تغادرها، وهي المحبة المتعلقة بها كثيرا؟ ثمّة صوت يناديه، يا خالد ألا يمكن أن تكون بغداد قتلتها كما قتلت الكثيرين من محبيها؟ لسع قلبه، ولكن بغداد لم تقتل محبيها، هم من قتلها! هي رحمتهم في النهاية، ثمّة من غفلت عنهم، ثمّة من نجوا بأعجوبة، لا تظلم بغداد فهي ليست قاسية إلى هذا الحد، ومهما قست فهي لا تقتل ضيوفها، لا بغداد قاتلة، تمزق عشاقها إربا وتمسح بهم الأرض، أنت لا تعرفها مصاصة دماء! ورغم ما تناهبت رأسه من أصوات، فرغ من قراءة أوراق أجاثا في المقهى، أزمع أن يقرأها ثانية وثالثة فهو قد شعر أن فيها سر اختفائها بل خيل إليه وهو يسرح بنظراته مع أمواج النهر أن أجاثا تومئ إليه من خلال الكلمات المتدفقة مع النهر، لكنه قرر أن يعود لدائرته ليرى ماذا تحقق هناك، أمتعض وأحس بشيء من الإحباط، حين تذكر أن بهجت العطية مهما أعطى لمرووسيه من حرية الحركة في التحقيق أو المتابعة فهو في النهاية سرعان ما يجرهم إليه كما يجر الفارس لجام حصانه، هو يرى نفسه ليس مديرا للأمن العام بقدر ما هو مديرا ل(الشعبة الخاصة) المعنية بملاحقة المعارضين السياسيين خاصة الشيوعيين، العطية مهما قال عن قضية أجاثا، هو ما يزال يعتقد أنها مؤامرة شيوعية وربما سوفيتية لتمرغ أنف

بريطانيا وحكومته الموالية لها في التراب، عاد خالد إلى الحجرة التي خصصت له في دائرة التحريات الجنائية في شارع الرشيد، ثمة أربعة رجال بثياب رسمية ومدنية، استقبلوه بترحيب، لكنهم عادوا لصمتهم يقلبون أوراقهم يكتبون أو يتبادلون الكلام ، سأل دون أن يقصد أحدا بعينه:

- هل من جديد في قضية أجاثا!

رد أحدهم على الطريقة العراقية:

- صاموط، لا موط !

تذكر إن معنى هذه الكلمات صمت وموت، ولا يقولها محقق جنائي إلا حين يكون على حافة اليأس نافضا يده من القضية. وهذا بالنسبة له أقطع ما يمكن أن يسمعه في قضية أجاثا، وهذا ما أصر في نفسه أن لا تصل إليه قضية أجاثا! قلب بضعة أوراق وضعت على منضدته، كانت كلها تدعو إلى اليأس، كل التحريات لم تفض إلى شيء، ربما هذه المرأة قد انتحرت، يقال أنها كانت لها سوابق ذهول ومحاولات انتحار في لندن، لنتنظر، أوصينا فلاحين وصيادين ونوتيين في مناطق جنوب بغداد من النهر بمراقبة الشواطئ وأخبارنا على الفور عند عثورهم على جثة ما! لم يجد خالد ملاذا له سوى أوراقها فتحها وعاد يقرأ:

كان لدى ماكس ما يفخر به من الإكتشافات، ألواح من ملحة جلجامش تكمل الألواح التي عثر عليها المنقب العراقي هرمز رسام، والإنجليزي وليم ليفتوس منتصف القرن التاسع عشر، ثم الرأس البرونزي للملك الأكدي سرجون (بعضهم يقال إنه لحفيده، وهو آية في التشكيل والنقش وإبراز الملامح الخفية للشخصية، حتى ليخال أننا نراها ليس من مسافة ثلاثة آلاف سنة بل من مسافة لمحة عين حادة البصر) وقد عثر عليه في

حفرياتة في نينوى غير بعيد عن بقايا معبد عشتار الإلهة الفاتنة
المتربعة على عرش سماء العراق بسلطة مطلقة هي مزيج من
السياسة والجنس والحكمة! لم أحمل من كل ما مر على يدي من
لقى وكنوز بحفرياتنا في نينوى سوى ملئى ملعقة طعام من
التراب الذي كان يضم أحد الألواح الإثني عشر التي دونت
عليها ملحمة جلجامش، بنسختها الآشورية في المكتبة الشخصية
للملك آشور بانيبال، حفظت قبضة التراب كما ذرور الأزهار
في قارورة عطر صغيرة فارغة، كنت أضعها بجانب آلتى
الكاتبه وأترك نكهة وعطر هذه الملحمة يهيني إلهامه العميق. ما
أن ترجمت مقاطع من هذه الملحمة الشعرية العظيمة إلى
الإنجليزية، حتى أوقعنتي في سحرها دون حراك، هي من
ذروة الأدب البابلي والإنساني، دونت قبل أكثر من ستة آلاف
سنة لكنها ما تزال تحتفظ بحرارتها إلى اليوم. تحكي فجيرة
الإنسان بحقيقة الوجود، أنه ضعيف هش سريع الزوال أقرب
للغبار منه إلى الماء، لا مفر له من الموت مهما طغى وتكابر!
وأية محاولة للتمرد والبحث عن الخلود مصيرها الفشل وهل
يستطيع الفش داخل النار أن لا يكون رمادا؟ نحن قش داخل هذه
النار الأزلية التي تسمى الحياة، وعلينا أن تذوق رمادنا قبل
القبر، علنا نجد عيش العمر القصير!

استوقفني مقطع يلامس العقل والقلب كما يلامس كف عجوز
رحيمة رأس طفل، السيدة سدوري صاحبة حانة على الطريق
وراء جبال الأرز إذا كانت في لبنان، وأمام قوارب صيادين و
أكواخ جامعي اللؤلؤ إذا كانت في البحرين، تحدث جلجامش
قائلة:

إلى أين تسعى يا جلجامش؟

إن الحياة التي تبغي لن تجد!

لما خلقت الآلهة البشر؛ قدرت الموت عليهم! واستأثرت هي بالحياة!

أما أنت يا جلجامش فاجعل كرشك مملوء!

وكن مرحا مبتهجا ليل نهار

وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك!

وارقص والعب ليل نهار

واجعل ثيابك نظيفة زاهية

واغسل رأسك، واستحم في الماء!

ودلل الطفل الذي يمسك بيدك.

وافرح الزوجة التي بين أحضانك

وهذا هو نصيب البشر!

ماذا تريد حضارتنا الصاخبة؟ ماذا يرد الإنسان اللاهث
خلف المال والسلطة، أو المناصب الرفيعة، أكثر من هذه
النصيحة البسيطة والصحيحة المرسلّة إليه منذ ستة آلاف سنة
لكنها لم تصل إليه حتى اليوم! أين الخلل؟ هل هو في البريد؟
الذي يجلبه لنا الموتى الطيبون قاطعين إلينا آلاف السنين؟ أم هو
في المرسل إليه الذي أينما يكون، يخاف أن يعطي عنوانه لأحد!
أو يخاف أن يفتح الرسالة إذا وصلته! كم مرت على الناس في
هذه البلدان من ويلات وكوارث، شتتتهم وفرقتهم أيضا. غاب
كثير من العقل والإلهام تحت التراب، أحد أهداف أو آمال
رحلتنا إلى سوريا أن نجد نص ملحمة جلجامش كاملة، لي كل
الثقة أن ماكس سيجد الطريق لمجرفته المرفهة البارعة لتصل
إلى ذلك الكنز الشعري العظيم الذي لا يعادله كل ما وجدنا من
ذهب وجواهر وأحجار كريمة! كان ماكس يقول: الذهب يظل

بريقه البليد مختبئاً وراء زجاج المتاحف، بينما النص الشعر
والأدبي حين يصل عقول وأرواح الناس يشع بجمال الحياة
وعدالتها وقوتها!

ربما سأواصل كتابة ما سيتحقق من تجربتنا، لكنني آمل أن
أجد بعض إجابات أو حتى تساؤلات جديدة عما فاتني الوقوف
عنده أو ظل عصيا على مداركي في محاولتي الكتابة عنه!

(45) هل ذهبت أجاثا كريستي إلى مصر لتحقق في جريمة حدثت في زمن الفرعنة؟

خلال انهماكي بأعمال التنقيب، كانت رواياتي نصب عيني، سواء تلك التي أعكف على كتابتها أو تلك التي أخطط لها، وأفكر بها، كثيرون في لقاءاتي معهم، أو في رسائل الإعجاب التي تصلني مع كل بريد من قراء في شتى أنحاء العالم بينهم منقبون ومؤرخون في مصر وسوريا وفلسطين لهم رأي خلاصته: أن رواياتي تجمع بين سحر الشرق، وكنوزه التي ما زال كثير منها هاجعا تحت تراب الزمن، وبين طلاس الرواية البوليسية، وذلك انطباع أعجبنى حقا وصرت أحرص عليه، وربما على أساسه كتب لي منقب الآثار السيد كيزر رئيس المعهد السويسري، تلميذ المنقب البريطاني الشهير هاورد كارتر مكتشف مقبرة توت عنخ آمون، يقول: يسرني أن أنبئك (هل يمكن أن نعدّها بشرى سارة، بينما هي حزينة ومثيرة للمتاعب؟) ، لقد توصلنا إلى اكتشاف هام: وهو أن توت عنخ آمون، الفرعون الشاب البالغ من العمر حوالي (18) سنة، لم يمت بشكل طبيعي كما كنا نعتقد، لسنوات عديدة، لقد تسلل إليه قاتل وهو نائم في مخدعه، وضربه على رأسه بهراوة ثقيلة! هذا الكشف الباهر سيهز محافل التاريخ الفرعوني، لكنه يلقي علينا مسؤولية كبيرة، أن نعرف القاتل ودوافع جريمته ومدى ارتباطه بصراع الكهنة الديني والسياسي، وربما علاقته بمسألة التوحيد الإلهي ومفترق الطرق بين نظرية تريد وحدة الإله، وبالتالي وحدة السلطة، واليد التي تتصرف بثروات مصر الهائلة، وبين نظرية تريد تعدد الآلهة وبالتالي توزيع السلطة والصراع

الدموي والحروب بين أقطابها على العرش والثروات والجاه ،
بينما الناس مبعدون مغيبون مخدرون بجرعات من الدخان
المنبعث من مجامر المعابد.ومن رذاذ أفواه رجال الدين
المتمرسين بالكذب والخداع! لا أحد من المؤرخين حتى الآن
يريد الخوض في هذه المسألة المعقدة الشائكة التي لا تكفي
للوصول إلى نتيجة حاسمة فيها النصوص المكتوبة على البردي
أو الجدران وهي قليلة ناقصة غامضة نقشت في ظل سلطة
فرعونية تلوي عنق الحقائق لصالحها. لذلك أنا ومنقبون جادون
معني نعول على المخيلة والإلهام الروحي للوصول إلى حقيقة ما
حدث فعلا في هذه الجريمة الكبيرة، والتي ما تزال حتى اليوم
جريمة، وإن أضحي المجرم أو المجرمون فيها تراباً ذرته
الرياح إلى النيل العظيم الذي جرى كثيرا منذ لك الزمن
السحيق! نحن نتطلع إلى ذكائك وخيالك وخبرتك في كشف
الجرائم الغامضة، وننتظر أن تأتي إلى القاهرة لتحلي مع
أصدقائك المحققين هيركيول بواروا بشاربه المعقوف كجناحي
عصفور، أو المس ماربل لتكشفوا ملابسات هذه الجريمة، بذلك
تجودين على الأدب البوليسي بجوهرة روائية أخرى، وتقديمين
للمصريين إضاءة عميقة تكشف لهم الدسائس والمؤامرات التي
لعبت بقوة وقسوة لتحرف تاريخهم، وهذا سيفيدهم كثيرا اليوم
وهم في حقبة صعبة قاسية من تاريخهم، يسعدنا أن ينضم إلينا
معك أيضا الأثاري المرموق ماكس مالوان، فأنت وهو
متكاملان في البحث عما هو جوهرى وأساسى في التاريخ
والفكر الإنساني، فالكتابة البوليسية نوع من التنقيب عن
الأثار، والتنقيب عن الأثار نوع من الكتابة البوليسية، هل أنا
مصيب يا عزيزتي أجاتا؟ انتظر رسالة منك تحمل لي بشرى
قبولك وماكس العمل معنا!

لك فائق مودتي وتقديري!

ملاحظة: الأمانة، ونزاهة العمل العلمي تقتضي مني أن الفت انتباهك أو أذكرك أن ثمة أخبارا تناقلها مختصون وآثاريون عما يسمى بلعنة الفراعنة! أنا لا أميل لتصديقها وأراها محض تهيوّات أو تهويشات مغرضة ، وإن كل من مرض أو مات ممن اكتشفوا كنوز قبر الفرعون توت عنخ آمون، تعرض لتلوث يعود للبيئة الحالية ولا علاقة له بالماضي. لكنني لا أخفي عليك أرى بنفس الوقت أن ما حدث لأستاذنا كارتر، والممول كارنافون وعشرات من الرجال المنقبين المكتشفين من مصائب وكوارث يدعوني للتوقف والتأمل في هذه الظاهرة الغريبة المحيرة، ودراستها لا كلعنة فراعنة بل في احتمالات قوى غيبية وربانية أخرى، وعدم استبعاد خطرها نهائياً! الأمر متروك لتقديرك، وأي كان قراركما أنت وماكس فإنه سيكون موضع تفهمي وتقديري. لك وماكس مرة أخرى أطيب تمنياتي!

بقدر ما فاجأتني رسالته وجدتها منطقية بشكل ما، ثمة مؤرخون أعوزتهم الأدلة المادية للكشف عن حقيقة فalcجئوا إلي خيال الروائي، هذا يؤكد مرة أخرى أن الروائي محقق جنائي وتاريخي، رغم إنه ليس قاضياً! عرضت الرسالة على ماكس واكتفى بابتسامته الهادئة المطمئنة! توقف المحقق خالد عند هذه الرسالة؟ أأكون أجاثا قد غادرت بغداد؟ هل من المعقول أن تذهب إلى مصر اليوم ، لتكشف من قتل الفرعون وهو نائم في فراشه قبل آلاف السنين؟ ولكن من قال أن لكل شيء جدوى؟ مع أجاثا يمكن أن تكون الجريمة بلا عقاب، ولكن لا يمكن أن تكون دون رواية! لماذا لم يرافقها ماكس؟ قد يكون هو غير موافق على هذه الرحلة فاضطرت للذهاب لوحدها، ولكن لماذا لم تعلمه؟ هل أرادت أن تعاقبه لعدم مطاوعته لها في قرارها، لكنني كما لمست، ومنذ عهد بعيد انه يلاحقها ويصغي لها كطفل مع أمه! رحلتها إلى زمن الفراعنة احتمال ضعيف ، ولكن لا

ينبغي إسقاطه فكم يكون في التحقيق الجنائي مالا نعيه اهتماما هو البلية كلها!

ما أن قلب خالد الأوراق حتى وجد رسالة صغير مكتوبة على نصف ورقة ، كيف لم يلحظها سابقا، كانت حائلة اللون رطبة، راح يلتهم سطورها عزيزي الدكتور كيزر

تحية طيبة.. اسمح لي أن أبدأ رسالتي بما انتهت به رسالتك، أنا يا عزيزي لا أؤمن بما يسمونها لعنة الفراعنة، ولناخذ مثلا بما حدث للباخرة العظيمة تيتانيك (Titanic) التي غرقت في الأطلسي قبل فتح قبر الفرعون بحوالي عشر سنوات. ذكروا أن ربانها قال عنها: (حتى الله نفسه لا يستطيع إغراقها) لكن ثمة من رد عليه إنه لم يكن يعلم أن على متن سفينته مومياء لكاهنة فرعونية عظيمة أرسلها أحد اللوردات الإنجليز من لندن إلى متحف في نيويورك، وهي التي ستدفع بذراعيها السحريتين السفينة لتصطدم بجبل الجليد، وتغرق! هكذا تحدثوا عن لعنة الفراعنة، ترى، لو كان هناك كهنة يرقبون من قبورهم في مصر تيتانيك وهي تغرق وفق مكيدتهم ولعناتهم، كيف يرتضي هؤلاء السحرة الأذكى أن تغرق كاهنتهم في أعماق المحيط بدلاً من أن تكمل رحلتها إلى أمريكا لتتجول بين متاحفها وشوارعها وحدائقها وتستمتع بالوجوه الجميلة التي تطل عليها؟ ثم لو كانت هناك لعنات فرعونية تنزل على من يقلق راحة ملوك الفراعنة أو كهنتهم وحاشيتهم في قبورهم فإنها ينبغي أن تنزل على لصوص الآثار أيضاً! أنا لا أتحدث عن أولئك الفقراء الذين دخلوا قبور الفراعنة لينتزعوا منها أكفانها ويجعلوا منها ملابس لهم ولأطفالهم العراة، أو أنهم أكلوا من خوابي العسل القديم ليجدوا في داخلها مومياءات صغيرة محفوظة كالمخللات! بل عن أولئك اللصوص الأثرياء الذين سطوا على هذه القبور بكل وقاحة وشراسة، فنبشوها وعاثوا في مومياءاتها وانتزعوا ما

معها من ذهب ومجوهرات، ثم اقتلعوا أحجارها وشيدوا بها قصورا لهم، لو كانت اللعنات قد نزلت عليهم لماذا هم وسرقاتهم في تكاثر؟ لصوص الآثار صاروا أثرياء من عظام القبور، لا ينفكون يفرغون الأهرامات والمدافن الخفية من كل محتوياتها الثمينة التي هي ملك المصريين جميعهم. لو كانت ثمة لعنات لاختمى هؤلاء اللصوص! ثمة دليل آخر يا عزيزي كيزر يطمئنك، لو كانت ثمة لعنات يطلقها الكهنة القدماء، لماذا لا يكون للكهنة العراقيين سومريين بابليين أكديين آشوريين لعناتهم وهم كانوا دائما يتبادلون الخبرات والأخبار مع الفراعنة؟ لقد عشت وماكس هنا سنوات طويلة، رأينا وسمعنا عن لصوص آثار ، وعن منقبين شرفاء، ولكن لم نسمع حتى الآن عن لعنات نزلت بمن يستحقها فعلا، بعيدا عن العلماء المجددين سواء كانوا أجانب أو من أهل البلد! وجدت أن العراقيين كانوا يثقون بالجسد الإنساني ويعتقدون إنه يستطيع أن ينهض من ترابه في الوقت المناسب حتى لو صار ترابا ، لذلك هم لم يهتموا بالتحنيط كما اهتم به المصريون القدماء وأتقنوه بشكل مدهش حقا، وما تركه العراقيون القدماء بجانب موتاهم من خوابي طعام أو شراب، أو حلي ومجوهرات وقيثارات يؤكد أنهم يؤمنون أنهم سينهضون حتما، لقد تعرضت قبور ملوكهم للنهب والسرقة في القرن الماضي ، لكننا لم نسمع يوما أن لعنة سومرية أو بابلية أو آشورية قد حلت بمن انتهك آثارهم ، ألا يقودنا المنطق للتساؤل لماذا لا ينزل الآباء والكهنة المصريون والعراقيون، إذا شاءوا، لعناتهم على من يمس أحفادهم من الأحياء وممتلكاتهم وثرواتهم وهم كما نرى ونسمع تعرضوا على مر التاريخ للكثير من الغزوات والانتهاكات من خارج حدودهم؟ وهذه أفطع من نهب القبور، عن أية لعنة يتحدثون؟ لا أريد أن أتحدث أكثر وقد قررت أن لا أقارب السياسة! قد تسألني: كيف تعدين الخوض في قضايا حفريات الفراعنة تدخلا في السياسة؟ رسالتك تجيب

على ذلك، ماذا لو شخصت قاتل الفرعون الصغير، كم ستتغير من أحكام ومواضيع؟ نحن اليوم في عالم حتى لو تحدثت فيه عن الذئب أو الثعلب في الغابة فإن اللصوص والمذنبين من السياسيين يعتقدون إنك تقصدهم؟ أي حصار ثقافي نعيشه؟ لكي أكتب روايات مقنعة وعميقة قررت أن أبتعد عن الفراعنة الملوك والرؤساء قديمهم وحديثهم، وأكتب عن الناس العاديين لذلك فأنا لا أستطيع الخوض في ما حدث للفرعون الشاب سواء كتليل تاريخي مباشر، أو كعمل روائي، أرجو قبول اعتذارنا أنا وماكس عن عدم استطاعتنا اللحاق بكم في عملكم الراقى والنبيل. متمنين لكم النجاح في مهمتكم الصعبة والهامة.

الآن تأكد أنها لم تستجب لدعوة البروفسور كيزر، هذا طبعاً لا يعني أنها لم تغادر بغداد، لكن خالد ردد مع نفسه، لا إنها ما تزال في بغداد، حية معافاة وبخير، أكاد أشم عطرها من مكانها الحالي كما كنت أشم على مدى السنوات الماضية عطرها القديم ممزوجاً بأريج القداح حين كانت تجوب وماكس دروب بساتين أيس، ونحن الصبيان نتقافز أمامهما كالعصافير!

(46) الحب هو أن لا نمتلك المحبوب،
بل أن يملكنا حد أن نبتعد عنه بسلام
إذا وجد سعادته مع آخر!

رجعت إلى الهور بلهفتي الأولى، كنت أستقل زورقا بخاريا يقوده رجل قارب الأربعين، نعبز الطريق المائي الطويل بين بلدة المجر وناحية الفهود مرورا بالجبايش على مشارف الهور، يغمرنا رذاذ الماء المعطر بعبير النباتات المتنوعة فيه، ينعش الجسد مهما كان منهكا في خلاياه أو روحه، أنا الذي بدأت الحديث مع السائق وكعادتي في إدارة دفة الحديث نحوها قلت متصنعا العفوية، هل حقا بنت المعيدي هي من سكان الهور؟ وانطلق يتحدث بحماسة، يبدو إنه أيضا عاشق لها، هي المعشوقة العظيمة الوحيدة التي لا يغار عشاقها من بعضهم البعض، يحسون أنهم كلهم فانون في حبها المستحيل، يتسلون ويفرحون في تبادل حكاياتها المختلفة عنها! قال: "هي معيدية أصيلة من منطقة الجبايش، لها اسم آخر غير فاطمة، لو جرى على لساني لأذابني على الفور، وأعادني ماء إلى الماء! جمالها الفتان جعل شابا يعمل حارسا لدى الإنجليز يعطي كل ما جمع من مال في عمله لوالدها مهرا لها. حيث اشترى به ثلاث جواميس! تصور هذا الأب الأبله يبادل ابنته الفاتنة الساحرة بثلاث جواميس! لو كنت حاضرا يومها الصفقة لقتلته! ذهبت هذه البنت لتعيش مع زوجها في الكويت. بهر جمالها طيارا إنجليزيا في الثكنة التي يعمل فيها زوجها منظفا فرح يتقرب إليها، كانت تسأله عن طائرته: هل الطائرة طير كبير؟ أم هي حديد؟ وخشب كما يقولون؟ فيجيبها بلغته العربية المكسرة تعالي لترىها بنفسك! ويضيف سائق الزورق وهو يفرز بعمق: صعد

بها إلى الطائرة، وطار بها إلى لندن، خاف قائد الثكنة الإنجليزي من الفضيحة، وثورة الأهالي فأقنع زوجها أن الملائكة هي التي جاءت من السماء وخطفتها؛ لأنهم تذكروا أنها ملاك هبط إلى الأرض دون علمهم فجاءوا يستردونها. فصعق زوجها وندت عنه صرخة واحدة فقط لا غير وسقط ميتا! وابتقت السائق نحوي ليقول: هل رأيت يا صاحب من هم بمثل خبث أصحابكم الإنجليزي؟ ويضيف كالمعتذر عن تقصيره: كنت آنذاك لم أزل صبيا غرا في ريف الكوت، عندما حدثت هذه المصيبة، كان ذلك قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى بسنة، العراقيون والعثمانيون يساعدهم الألمان يصارعون الإنجليز لمنعهم من احتلال العراق، ولم يكن أحد يستطيع أن ينقذ بنت المعيدي! أفلح الطيار الإنجليزي في جعل هذه الحساء التي لو نطقت اسمها لانقلب الزورق، تنبهر بأجواء لندن، بما أغدق عليها من ملابس وأطعمة شهية وحلوى لذيذة. أدخلها مسابقة ملكة جمال انجلترا ففازت بالتاج الذهبي، بعد فترة قصيرة طار بها إلى البندقية لتشارك في مسابقة جمال العالم؛ فأدهشت أعضاء لجنة التحكيم، وشلّت نظراتهم وألسنتهم؛ فانتخبوها ملكة جمال العالم! ولمزيد من التحدي أرسل الطيار نداءً من لاسلكي طائرته إلى سكان الكواكب الدائرة حول الشمس وفي الكواكب الأخرى ليرسلوا فتياتهم الجميلات إلى لندن للدخول مع محبوبته في مسابقة على تاج ملكة جمال الكون وفي حالة عدم مجيء فتياتهم الجميلات فستكون الفاتنة المحبوبة هي ملكة جمال الكون! لم يصل من هناك أي كلام، فتوجه المحكمون في البندقية ملكة جمال الكون! ذات مساء كان يسير وإياها على جسر التهديدات في البندقية، فوجئ بها تصعد حاجز الجسر وتلقي نفسها في البحر! ظل مشدوها، تذكر أنها كانت منذ أيام تتحدث عن الموت وأنها تريد أن تنتحر، وحين يسألها لماذا؟ تقول له أنها حزينة يائسة، وتتعذب كلما قارنت بين أهوار أهلها في الجبايش وأهوار

البندقية وتعبت من التساؤل مع نفسها، لماذا بيوت أهل الأهوار من القصب والبردي، وليست كبيوت أهوار البندقية مبنية من الصخر والحجارة الملونة؟ لماذا لا تكون لدى الناس في الأهوار مثل ما لدى الناس هنا أسواق ومدارس ومستشفيات؟ مياه البندقية مالحة ومتعفنة، بينما مياه هور الجبايش نقية عذبة صالحة للشرب، لماذا هي مهملة منبوذة؟ وتأخذ بالبكاء، وتقول أنها حسمت أمرها وستنتحر قريباً للخلاص من هذه الدنيا الظالمة! يقول الطيار إنه كان يضحك في سره ويظنها تثرثر ببعض سخافات النساء الجميلات، ولم يكن يصدق أنها ستنتحر لهذا السبب التافه وغير المعقول. لكنها انتحرت على كل حال، واختفت من الوجود، كأن هذه الدنيا لم تستطع أن تحتل شدة جمالها! أشعل سيارته وأخذ ينفث الدخان من أعماقه. قلت: ولكن هذا كله يصعب تصديقه، إنه أشبه بالخيال. نظر إلي بغضب واضح:

- ولكنك تعرف أننا هنا لا نتعاطى الحشيشة! ثم سألني:

- أنت زرت العالم كله، أليس في البندقية جسر يسمى جسر التنهدات؟

قلت نعم موجود! قال بلهجة المنتصر، وقد وجد الدليل القاطع: خلص! هذا يعني أن الحكاية صحيحة، فهي قد ألفت بنفسها من جسر التنهدات إلى البحر وغرقت!

تعالى يا أجاتا واختلطي بهؤلاء الناس، وستجدين الكثير من حكاياتهم الغريبة، ربما تبدو مضحكة ولكن كم فيها من الحزن لو تأملناها بهدوء! أخرجني من حفر وقبور التنقيب يا عزيزتي أجاتا فهي لم تعطك سوى أشباح القتلة والسفاحين، فصرت مرة تكتبين "جريمة في قطار الشرق السريع" ومرة "جريمة في وادي الرافدين" وأخرى "جريمة في شارع الرشيد" "جريمة في كركوك" جريمة لا أدري أين، رغم إعجابي برواياتك. وتقديري

الكبير لهم، لكنني أرى أن من الضروري لك أن تنتهي من أجوائها وتدخلني عالماً جديداً، لماذا اختصرت الحياة كلها بالجريمة والمجرمين؟ أطلني على هؤلاء المعذبين المعزولين والمنبوذين، سجلي حكاياتهم المثيرة، وإذا ضجرت منهم أو لم تفهمي همومهم وما يشغلهم، اكتبني عن المساحات المائية الشاسعة، وما فيها من حيوان ونبات وطيور أبدة أو وافدة! صدقيني يا عزيزتي أنا لم أر طيور أوربا، في أوربا، رأيتها هنا في الأهوار، لم أرى السماء والنجوم والقمر والشمس في أوربا، رأيتها في الربع الخالي، والخليج العربي! أخرجني يا أجاثا من اهابك الأوربي البارد وتعالني حيث الشمس والدفع والنور والناس البسطاء وحكاياتهم التي مع سذاجتها تحمل هموم النفس البشرية كاملة. وإذا قلت أنك لا تستطيعين أن تكتبي سوى عن الجريمة والقتلة؛ فدعي جرائم هؤلاء الذين يقدمون عليها لا اضطرارا، وإنما زيادة في الترف والجشع والأبهة!

هل أستطيع أن أمازحك فأقول لك أنا الصعلوك والمتسكع الأبدى في الصحاري والمستنقعات وأرصفت الشوارع الفقيرة، إذا لم أجد فندقاً راقياً أو لائفاً نزلت فندقاً حقيراً مزرباً، كله سواء عندي، فقط أن تتوفر حشية ألقى جسدي عليها، وفي أرض أخرى دائماً، وأنت المسافرة المترفة لا تركبين إلا قطار الشرق السريع، ولا تنزلين إلا فنادق الدرجة الأولى، أريد أن أتجراً وأقول لك ولو مزاحاً، فقط لا تغضبي مني، انزلي إلينا من برجك السماوي وتعالني نطوف قاع الدنيا، فهي كالبحر لؤلؤها وجوهرها بين الصخور العميقة والأشنات، لا على ذرى الموج، تعالي يا أجاثا نركب معا مشحوفاً بسيطاً، صدقيني ستجدين في قاعه الجوهرة الروائية التي تبحثين عنها، أو تتطوع سمكة تقفز إليه من الموج لتلقيها في أحضانك، وعلى أوراقك، فتعزين بها العالم!

هز مالون رأسه غضبا، بماذا يهذي مستر ثيسجر؟ أليست هذه وقاحة؟ كيف يتدخل في عملها وطريقة كتابتها؟ كيف يتوقع أن أجاثا ستسمح له بالتطاول على إبداعها؟ أيريد أن يستفزها لتكتب روايته؟ أم لكي تلتفت له وتقع في غرامه، لم يعد يطيق الانتظار، والصبر على نفسه التي تمنعه من تأمل الصورة ، راح يتأملها ،يظهر فيها ثيسجر وبيده بندقية جاثا على أسد قتيل ،وثمة كتابة: : قتل الأسد بهذه البندقية في منطقة نيور العربية في السودان عام 1938 ، لماذا يرسل هذه الصورة إلى أجاثا؟ هل أراد أن يظهر قوته الخارقة لها؟ أم لتبرزها في روايته؟ هل أراد شعوريا أولا شعوريا أن يقول إنني مستعد لأن أقتل الأسد الذي معك لتكوني لي ؟ أم تراني صرت شكاكاً على غير ما عهدت بنفسي وغير ما عهدت بي أجاثا، كم تغيرنا المحن حتى لننكر أنفسنا!

يا للمجنون كلما رق قلبي له وتفهمت همومه، أجده يشط ويخرج عن أصول التعامل بين المتقنين، والناس، لولا قلقي في هذه الساعة العصبية وتشبثي بأية قشة قد تقودني لأجاثا؛ لألقيت أوراقه كلها في سلة المهملات وأرحت نفسي وأجاثا منها!

هل استمتعت أجاثا حين قرأت هذه الرسالة بأجوائه ودعواته ووعوده،بماذا أوحى لها الصورة؟ لماذا لم تحدثيني عن ذلك؟ كان ماكس يقرأ الرسالة وهو مستلق على ظهره، مديده بالرسالة جانبا وتلمل ،أطلق زفرة ، هذا اللعين يحايلها لتقع في حباله؟ فجأة راح مع نفسه يتساءل، أيهما أفضل أن تكون قد خطفت وقتلت، أم أن تكون قد تركته وذهبت مع ثيسجر؟ وجد نفسه أنه يحبها إلى حد أن يتقبل زواجها من آخر وسعادتها معه، فقط أن لا تموت أو تتعرض لأذى! الحب هو أن لا نتملك المحبوب، بل أن يملكنا حد أن نبتعد عنه إذا وجد سعادته مع آخر! هذا درس تعلمته من الموت، كنت أراه كل يوم يطل عليّ

بعظامه وتكشירתه المروعة من القبور التي فتحت منها المئات بل الآلاف حتى الآن! هل أصحابي وأصدقائي في أوروبا وصلوا إلى هذه القناعة أم لا زالوا لا يحبون ألا من ينام معهم في الفراش؟ مضى يقرأ ويلتهم كلماتها كأنه يقرأ كتاباً لا علاقة له بمؤلفه، لم يره ولم يسمع عنه شيئاً! خاصة الآن وهو في هذه المحنة يحتاج لما يشده وينقله لعالم آخر! مادام الصمت لا يزال يكتنف كل شيء، فلا الشرطة، ولا السفارة يصدر منهما شيء عن مجرى التحقيق والتحري، ولا أجاناً أطلت أو اتصلت أو جاء عنها نبأ ما، وخالد ربما ما يزال يقرأ الأوراق؛ يحلل ويفكر كما قال، رغم كل شيء انجذب لما يتحدث به ثيسجر، و تحاشى أن ينظر صورته الملقاة بجانبه!

(47) وأنا في لندن تصالح معي أهل الأهوار، ولقو لقيت فاطمة في لندن لتصالحت مع الموت والأقدار كلها!

صحت من نومي مبكرا، وجدت الفجر رائقا، يفتح لي
حضنه، قررت أن انزل للقارب وحدي وأندفع به لأطوف بين
أكمات القصب وأسراب البط والطيور الوافدة، في هذه الأيام
بلغت ذروة تجمعها. تقافز السمك يزداد ربما لشعوره بخطر
المناشير القادمة جائعة من سفر طويل عبر القارات، الشمس
الصيفية الناعسة تنهض لتوها من الماء فلا تكون حارقة لاهبة.

قبل أن أحل حبل القارب أقبل عمارة بمشحوفه يجذف مندفعاً
نحوي بسرعة أقلقنتي، أعرف عمارة من بعيد حين يكون وراءه
شيء ما، قد لا يكون خطيرا لكنه يكفي لانشغالي وإعادتي لهموم
أتمنى أن لا تكون معي وسط هذا الجو الصافي الساحر، نزل
ليقول:

- لنسرع ياعم نيسجر هناك رجل ملقى على الشاطئ، ينزف
بغزارة وعلى وشك الموت!

علي أن أغير وجهتي، وأتخلى عن حلمي اللذيذ في أن أكون
في أعماق هذا الفجر، والنهار المتألق الخلاب. ودون أن أسأله
شيئا هرعت إلى حقيبة أدواتي، وهي جلدية بنية مستطيلة
بجوانب صلبة، وضعت فيها الكثير من القطن الطبي والمعقمات
وبعض خيوط وإبر استعملها مضطرا في خياطة بعض الجروح
العميقة، وجدت عمارة قد أعد القارب وأمسك بالمجذافين، ما أن
جلست في القارب حتى راح يسرع في التجديف. وأنا صامت
مذهول، كل ظني أن الرجل أصيب بطلق ناري، الناس هنا

عموما مسالمون لكن الخطر يأتيهم من سكان اليايسة وشواطئها، العرب الأقحاح ، فهم يسرعون إلى بنادقهم كلما تفجر بغة عراك بينهم، يكون وراءه عادة نزاع على امرأة أو بقرة أو قطعة أرض! ومع ذلك هممت أن أسأله ماذا جرى للرجل، وبماذا أصيب؟ فجأة ، انطلقت ضحكة عمارة وهو يردد بلهجته :

- شاجاك يامناشد ما تميز بين عيرك والحية؟ شنوا ما تعرف عيرك؟ ما شايفه ولا مرة؟

تطلعت إليه مستفهما، وأخذ أ يحدثني بما جرى لمناشد:

- خرج مناشد مع الفجر مع ابنته، كل في مشحوفه؛ ليجلبا البردي للجواميس، كان مناشد عاريا تماما غائضا في ماء الهور حتى خاصرته، وبيده منجله الطويل يقطع البردي بهمة وعجالة، فجأة برز أمامه طرف قضيبه في الماء من بين سيقان البردي يتلوى مسترخيا مع الموج، ظنه أفعى فهوى عليه بمنجله الحاد فقطعه، انطلقت صرخته، وجاءت ابنته إليه، وسارعت لوضعه في المشحوف، وهرعت به إلى شاطئ صريفتهم! تصور يا عم ثيسجر إنه لم يغم عليه، بل ظل ممسكا بالقطعة الثانية من قضيبه، بينما أنا حين سمعت بما حدث له؛ كاد يغمى علي. جاءوا إلي يطلبون مني أن أحضرك لعلاجه!

كدت لا اصدق ما حدث، وجددتي أقول :

- لا بد أن قضيبه كان بطول غير اعتيادي!

- نعم هم يضربون به المثل، "مناشد قضيبه كبير، وعقله صغير"، لذلك وقع له ما وقع! زوجته الآن تولولان وتصيحان: هذه عين أصابته، وعين الحسود عساها بالعمى!

- لكن النساء هن اللواتي عادة يخرجن لحش البردي!

- مناشد من الرجال المعروفين بمساعدته لزوجتيه في كل شيء، هو فقير وطيب حتى ليسمونه بالأبله، ولا يستحق ما جرى له!

وصلنا الرجل، وشرعت بعلاجه، لا علاج لدي أكثر من تنظيف العضو المبتور وتطهيره، وكبح النزف بلفه بالقطن والشاش. طلبت منهم أن يجعلوا نومته معكوسة، يرفع رجله من تحت ظهره على محمل خشبي. الغريب إنه ما زال ممسكا بالجزء المقطوع من قضيبه لا يتخلى عنه رغم آلامه الفظيعة، وهو يقول لي متوسلا:

- مروتك خيطه، خيطه،رده لمكانه!

أفهمته إن هذا غير ممكن الآن، ربما عليه أن ينتظر خمسين عاما آخر، ليصل الطب إلى طريقة تعيد له أيره كما كان! علق عمارة " بذاك الوقت يركبوك اصطناعي ملون، مو مثل هذا الأجر ب" هنا فقط أجهد الرجل بالبكاء وأخذ ينوح متمتما بكلام لا أفهمه! أحدهم قال له ضاحكا:

- ما تبقى منه يكفي لرجلين، لماذا تبكي؟

آخر قال :

- هو فقط صار بلا عمامة، هذا أحسن، شسو بينا أهل العمائم؟!

لم تخلوا عملية علاجه من ضحكات وتعليقات،وممازحات من الناس الذين تجمعوا حولنا من الصرائف المجاورة. للناس هنا قدرة عجيبة على تحويل المأساة إلى ملهاة واصطياد النكتة،والتعليق النابت، بالسرعة التي يصطادون بها سمكة أو طيرا!

بقيت بين فترة وأخرى أتردد عليه،اطهر جرحه الذي كان

عميقا وخطيرا فعلا ، وما كنت أتصور إنني بإمكاناتي البسيطة
سأشفيه وأدرا مضاعفات جرحه في هذا الجزء الحساس! لكن
قضيه طبعاً صار ناقص الصلاحية، ولا أدري كيف سيعالج
أمره مع زوجته، وإحداهما كانت شابة حسنة! ظل عمارة
يوافيني بأخباره ، يحدثني أن مناشد فقد الكثير من هيئته بين
رجال السلف، الذين يرون الرجولة في هذا العضو الذي أصبح
مبتورا، رغم أنه هو الذي بتره وليس غيره، لكن مناشد لم يكف
عن إلقاء الذنب علي :

- ليش الحجي الإنجليزي ما خيطه؟ اشجان يضره؟ كان
كسب ثواب كبير، بس ذوله الانجليز ما يطلع منهم خير!

ولا أدري إن كان عمارة جادا أو إنه يمزح، أو يتهمك عليه،
كالآخرين، قال لي أن مناشد دفن القطعة الثانية من قضيه عند
الجهة اليابسة من الشاطئ، في قبر صغير، وإنه يتردد عليه
كثيرا ويكي عنده، بل إنه والعهد على عمارة، يصطحب
زوجتيه لتبكيان معه عند هذا القبر الغريب، وقد أوصى أهله :

- لما أموت وتدفنوني بوادي السلام؛ خلوه ويا لشتي، أريد من
يشفعلي الإمام، وأدخل الجنة، أكون مستعد، مو تنسون!

حدثني عمارة وياسين أن الناس في الأهوار في فترة غيابي
التي طالت لشهرين تقريبا صاروا يسألون عني ويذكرونني
بالخير، قال بعضهم قال "لقد أخطأنا بحقه كان يساعدنا كثيرا،
ولم نعرف قيمته إلا بعد أن فقدناه" كانوا يتصورون إنني
هجرت الهور نهائيا وإنني لن أعود! كانوا يفرحون حين نقول
لهم إنك ستعود بل ستجلب معك أدوية جديدة لهم، قلت في نفسي
أنهم تصالحوا معي وأنا في لندن، ولو لقيت فاطمة في لندن
لتصالححت مع الموت والأقدار كلها!

فعلا وجدتهم بعد عودتي يرحبون بي بطلاقة وعمق، شعرت
إنهم صاروا يفهمونني ويثقون بي أكثر، وجدت في هذا عزائي
وسعادتي حقا، كنت أفرح حين أجد دواء بسيطاً يعيد العافية
والبسمة لطفل أو عجوز، أحس أن هذا جزء من الحلم الذي
حدثني عنه سليم. بنفس الوقت وكما سمعت، ولمست فعلا، أن
المشعوذين والحلاقين الذين يعتبرون أنفسهم أطباء أيضا لم
يتوقفوا عن معاداتي وتحين الفرص للانقضاض عليّ.

(48) كلمات الراهب من قلب مثقل بالأحزان وليست نذير قصاص وشؤم!

استوقفت خالد ورقة منفصلة تحمل تاريخ 20_3_1948 ، معنونة "كلمات عن اللقاء بالراهب الآشوري بهنام" خارجة عن سياق مذكراتها أو يومياتها، كأنها فصل من رواية أو بعض من أوليات لها، وبخطها، وجد أنها تضع مصير أجاثا على طريق المجهول القاسي الأليم حيث تتصارع حساسية الكرامة الوطنية مع الأطماع الأجنبية، مضى يقرأها مرة ثانية: وكيف ننسى تلك الليلة في باحة دير "البتول الرحيمة" الكبير في قرية قريبة القوش، في ضيافة صديقنا الراهب الآشوري بهنام، تعرفنا عليه خلال تنقيبنا في سهل نينوى، حيث يعتكف مع كتبه وكرومه ورعيته من الرهبان المنقطعين عن الحياة الدنيا على هذه السفوح الخضراء المتموجة. يتكلم العديد من اللغات بينها الإنجليزية بل قال لنا إنه كتب نصوصا دينية وشعرية بها، كان طويلاً، أشقر بجسد تضافت على نسجه التقوى والنسك والعمل الشاق في الأرض مع النبيذ والعسل لجعله متينا مفتولا كأنه من خيوط الفولاذ، قارب الثمانين وما يزال يمشي بخيلاء شاب! يلتهم كأس النبيذ كما الماء. عند اقتراب موعد مغادرتنا مواقعنا، وتهيئنا للسفر إلى بغداد، دعانا لحفلة وداع خاصة بنا نحن المنقبين من الأجانب. أقام لنا مائدة شواء كبيرة، جلب الكثير من لحم الضأن وطيور القطا والقبيج رغم إنه لم يكن يتناول اللحم، ويقتات على الخبز والجبن والنبيذ، وقد طلب من الآخرين ممن لا يشربون الخمر أن يسمحوا له بوضع خابية خمر معتقة منذ ربع قرن تقريبا على المائدة، قائلا أن فيها شيئا من نكهة دم المسيح، وهل تنسى نكهة دم إنسان صعد الصليب

من أجل الناس؟ هي هناك في أعماق سراديب الأديرة ، روح هائمة تبارك العنب والقمح واللبن وكل ما يمنح الحياة للإنسان مقترنة بالصدق والجمال، قالها كأنه يلقي علينا موعظته الأخيرة ، وما حدث فيما بعد جعلني أدرك لماذا قال ذلك! تأسفت إنني لا أشرب ولا أحبذ لماكس أن يشرب، لكنني سمحت لماكس أن يشرب دون إفراط! نقاوة نبيذ هذا الدير، وطعمه ونكهته على ما لاحظت جعل ماكس ينظر إلي بتوسل لكي أسمح له بشرب كأسا آخر! في مسألة الخمر من الضروري أن نعد أزواجنا أطفالا ونرضعهم بالقطارة! لكن ماكس تلك الليلة شرب كأسين تقريبا، فاعتبرته قد أفرط ووبخته ولولا وجود آخرين لضربته على قفاه! كانت أمسية لطيفة، شعرنا بالنسمات الباردة لأواخر الشتاء تلسعنا؛ فانسحبنا من تحت القمر المتألق حيث اصطفت مقاعدنا الخشبية في مرج من العشب والزهر المبكر، وركنا إلى شرفة محاطة بالجدران الصخرية تطل على السفوح الواسعة المزدانة بالكروم وأشجار التفاح والمشمش، حيث عاد الدفء يدب في عروقنا. وقد مضت الحفلة ممتعة سعيدة لولا أن بهنام وقرينا من نهايتها أضحى فجأة حادا وعصيبا، أخذ يتحدث عن التنقيب وأهدافه. لا أدري هل لعبت الخمر القديمة القوية برأسه، أم أنه تفجر بما قد عاناه طويلاً من مشاعر الحيف والظلم، العام الذي عاناه المسيحيون في هذه البلاد ولم يجدوا منا نحن الإنجليز نجدة أو مساندة. كان في صدره الكثير من الغضب، فراح يتحدث، موجه الكلام إلينا أنا وماكس دون غيرنا من المنقبين الحاضرين قال :

- سرق المنقبون الأوروبيون قبلكم الكثير من أثارنا، أستطيع القول إنهم سرقوا ذاكرتنا وقطعا من أرواحنا، كيف سمحت لهم التعاليم المسيحية وقيمهم الحضارية الجديدة بذلك؟
هنا تذكرت موعظته وهو يضع خابية الخمر الكبيرة على

المائدة، انبرى ماكس محاولاً إيضاح الأمر وتهدئته لنعود لجو
الحفل الجميل:

- لا أنكر إن المنقبين الأوروبيين الذين توافدوا على العراق
منذ بداية القرن التاسع عشر، استغلوا فساد السلطات العثمانية
وإهمالها وجهلها بقيمة كنوز الماضي فقاموا وبشكل وحشي في
النبش في مواقع الآثار العراقية المهمة بدءاً من أور إلى بابل
وحتى نينوى، فهربوا إلى بلدانهم الكثير من آثار العراق،
العظيمة والنادرة، عبر سفرائهم وقناصلهم وضباط في
المخابرات والنشاط العسكري، يمكن القول أن هؤلاء قطفوا من
البيرد ثماره الناضجة الأولى، لكن بعثتنا جاءت، وهي تحمل
في أعماقها ما يشبه الشعور بالذنب، ونزعة التكفير عن الخطيئة
كما أن الحكم الوطني الذي شاده الملك فيصل الأول، حريص
على حماية آثار البلاد، ساطع الحصري مدير الآثار الذي أحكم
قبضته على المواقع الأثرية وما يستخرج منها، كان يقول لنا
كلما قابلناه، أو جاء ليتفقد عملنا:

- مهما أحكمنا الرقابة عليكم لا نستطيع أن نضبط كل لقية
ثمينة تستخرجونها، من العراق لذا أنا أستصرخ ضمائركم أن لا
تفرطوا بحق العراقيين، اللقية الحضارية هي ملك الإنسانية
جميعاً ولكن من الضروري أن تحددوا كم ساهم العراقيون في
حضارة الإنسان! وإذا لم تبخسوا حقه فهو أيضاً سوف لن يبخس
حقكم، ويعطي لمتاحفكم ما تستحق! أستطيع القول أيها الراهب
الطيب أن بعثتنا في القرن العشرين؛ غيرها في القرن التاسع
عشر، كما قلت كثير ممن جاء في ذلك العهد كانوا لصوصاً
ومهربين كما كان بينهم جادون ومخلصون لمهنتهم وثقافتهم،
ومع ذلك أقول لك بضمير نقي عمليات التنقيب اليوم تقوم على
أسس علمية ومهنية وبأقل نسبة ممكنة من الخلل والفساد!

استمع بهنام لماكس متحفزاً كالذئب قال:

- ها قد انتهيتما أنت وأجاثا والآخرين من الخبراء المرموقين من عملكم الطويل، وصارت في أيديكما أدلة كثيرة عن الماضي، ماذا ستقولان؟ هل لديكما الجرأة لتقولاً إن أرض أجدادنا هذه قد استولت عليها أقوام غريبة تعمل الآن على إجلائنا أو إبادتنا، كما حصل في مذبحة الآشوريين فاضطر الكثيرون منا إلى الهجرة بعيدا عن ديارهم وجذورهم إلى بلدان بعيدة في أمريكا وكندا وإنجلترا.

- يا صديقي، هذه قضية أخرى وليست مهمتنا، نحن لا نعمل في السياسة، ولا نتدخل في شئون بلدانكم، عملنا ينحصر في استخراج مخلفات التاريخ، نسلّمها لحكومتكم وينتهي واجبنا. وقف بهنام كأيقونة ضخمة تطل من الماضي البعيد، كأسه الكبيرة بيده:

- بل هنا يبدأ واجبكم، أن تقولوا الحقيقة! ماذا وجدتم، وما هو معناه ودلالته!

- لا أريد مناقشة كل ما قلته يا سيدي بهنام، لكنني أرى أن ليس من العدل أن تلقي مهمتك على كاهلنا، تفسير التاريخ هو واجبكم ونحن ساعدناكم بوضع محتوياته تحت أيديكم! فجأة نهض رجل عرفتم من كلامه وهيئته ولهجته أنه موظف في ديوان الحكومة في المنطقة ليقول بهدوء ولهجة مسالمة:

- أيها الأب الجليل حكومتنا تعرف هذه الحقائق وهي تحتضنكم كمواطنين أصليين ليس بسببها فقط بل امتثالاً لدستور، وتوصيات راسخة للملك المؤسس فيصل الأول الذي نظر لكافة المواطنين سواسية دون تمييز عرقي أو ديني، وكل ما نأمله أن نحافظ على قيمنا هذه خشية أن تأتي في قادم الأيام كوارث ومصائب كبرى تجعلنا نتحسر على ما نحن فيه اليوم! بدت عينا الراهب ذابلتين قال :

- نعم التوجهات الحالية للحكومة عقلانية ولكن ما حصل لنا لم يقيم ولم ينزل العقاب بمن أوقع بنا شرا كبيرا ، ولم نعرف حجم مكانتنا الآن أو في المستقبل، وعلى كل حال نأمل خيرا ،ونسأل الله أن لا يضيع ما بنيناه سوية ويكون الآتي أفضل!

شعرنا أن الراهب قد شرب كثيرا، وصار صوته متعثرا،بان اثر العمر الذي قاومه طويلا متفوقا عليه دائما، قال خبير من بنسلفانيا ضاحكا ومحاو لا تغيير الموضوع:

- سيدي أشكركم على هذا النبيذ المعق طويلا، إنه قوي جدا، وأنت تشربه دون أن تأكل اللحم، هذا خطر يؤثر على صحتك. كان يريد أن يقول له أنت قد سكرت، لكن الراهب الثائر كان أذكى منه، وكان متألماً حقا:

- على العكس، هذا النبيذ العتيق يضيف لذهني ذاكرة الماضي كلها.

أضاف المنقب الهولندي:

- الناس هنا أهملوا تاريخهم ، ونحن أخرجناه لهم ،لماذا يغضبون علينا؟

أخذت يد بهنام ترتجف وهو يمسك بالكأس فتقدم مساعده الشاب وتناول الكأس منه، بدا متعبا حزينا، أخلد الصمت، وجفونه ترتعش. لذا بالصمت، كنت حقا متأسية ومعذبة، ولم يسبق لي أن كنت هنا كذلك، حاول رهبان شبان ترطيب الجو بإنشاد بعض الأغاني الكنسية العذبة،لكن الجو ظل فاترا، شعرنا أن الوقت قد حان لانصرافنا، فشكرنا الراهب بهنام وعانقناه، وغادرنا الدير إلى بيوتنا الصغيرة في القرية، ففي اليوم التالي علينا السفر قبل انتصاف النهار . ونحن في القطار متجهين إلى بغداد ، أخذت أستعيد كلام الراهب بهنام ، قلت لماكس، أنه محق، كثير من حملات التنقيب التي حصلت بإجازة من

السلطات العثمانية الجاهلة والفاصلة كانت أشبه بعمليات تفويض بسرقة ونهب آثار هذه البلاد. لقد بدأت اشعر بتأنيب الضمير، إنه رجل دين مسيحي مستقيم لا يتحامل علينا بل ينتقد السياسية الاستعمارية، رغم أن رجالها مسيحيون، ويأخذني صمت وشرو طويلين ثم أعود أتمنى أن أعود لأحاوره، أنا مثله أريد أن أصل إلى الحقيقة.

حديث الراهب ترك جرحاً في قلبي، وشرخاً في ضميري، أحقا نحن ضالعون في نهب آثار هذا البلد العريق؟ وفي حرف اتجاهات التاريخ عندهم؟ لماذا بقيت ساكنة لماذا لم أقل له كلاماً يطمئنه ويساعده في تكوين رؤية صحيحة عن التنقيب في آثار بلاده؟ وعن نتائج مهمة لذلك في المستقبل؟ هل خرجت عن مهمتي من كاتبة روائية إنسانية إلى باحثة عن كنوز الشعوب للاستيلاء عليها، أو لتفسيرها وفق مصالحنا، هذا أمر رهيب؟ هدأت ماكس، كان ما يزال قلقل متأثراً من كلمات الراهب بهنام : كلمات الراهب من قلب مثقل بالأحزان وليست نذير قصاص وشؤم! هز رأسه موافقاً قائلاً: ولكن هذا لا يعني أن ليس في هذه البلاد من يكرهنا يعدنا لصوصاً، وقد يتهور فيؤذينا! وافقته مقللة بنفس الوقت من قدرة هؤلاء على إيذاءنا! الراهب مسالم ويبحث عن السلام والطمأنينة لرعيته ولا يضر الشر لأحد.

هل يمكن لي أن أمزج بين مهمتي الروائية، والبحث في أعماق التاريخ؟ روايتي عن القيثارة الذهبية، ستوضح لي خفايا نفسي كما يوضح لي التنقيب خفايا التاريخ الذي صار تراباً، كلام الراهب يحثني لخوض مغامرة هذه الرواية سريعاً ودون تأخير، سأجلس كالتلميذة الصغيرة أمام القيثارة الذهبية، وأدعها تنقلني بنغماتها السرية إلى أقصى البقاع في نفسي وفي الأزمان الغابرة على هذه الأرض وأكتب روايتي. لا ينبغي لي أن أغفل شخصية المس بيل المثيرة في الرواية، لقد بنت للعراقيين متحفاً

وطنيا رائعا، هل هي صانعة ملوك أم لصة آثار كما عمل بعضهم على تشويه صورتها؟ ما أعرفه، أنها حاولت أن تبني دولة عصرية للعراقيين، على ركام من ماضٍ سحيقٍ مثقلٍ بالجور والخراب، وإنها لم تحصل من كنوز العراقيين ولو على محبس ذهبي صغير، هي لم تسلم حتى على عظامها لتعود بها إلى الجزر البريطانية، لقد دفنت في هذه الأرض التي أحببتها، ومع ذلك من يدري؟ كل شيء قابل للبحث والتحري في الرواية، الرواية تصنع نفسها، وليس الكاتب!

(49) يريدونهم أن يبتلعوا السماء على معدة خاوية، وعلى الطفل الباكي أن يزيح صورتها من الجدران!

في الناصرية والعمارة لم أجد صورة بنت المعيدي في بعض المقاهي والمطاعم التي كنت أراها فيها، لكنها ما تزال في مقاه أخرى، وجدت أن صورة الطفل الباكي تحل مكانها أو تعلق إلى جانبها وتغدو الأكثر بروزا وانتشارا. بدأت هواجسي، ثمة شيء ما يعتمل في الأجواء، قلبي ينقبض، يبدو أن هناك سرا وراء ظهور صورة الطفل الباكي! هل أرادوا أن يستعملوه مكنسة يزichون بها صورة بنت المعيدي؟ ويبشرون بمستقبل سيحل به اليتيم والحزن والبكاء؟ بنت المعيدي جمعت حولها رؤوس الرجال كما تجمع قطعة المغناطيس برادة الحديد؛ كيف يستطيعون محوها من ذاكرة كل هؤلاء الرجال؟ ولكن من هم الذين يريدون إخفاءها، وطردها من حياة الناس وذاقتهم؟ كلما قضيت شهورا في الأهوار وزرت بغداد وعدت إلى الناصرية وجلست في مقهى يطل على مرسى القوارب، أو في البصرة بمقهى على شط العرب، أو في وسط المدينة، أجدهم قد وضعوا إلى جانب صور الطفل الباكي صوراً متنوعة لرجال دين بمختلف السحنات والهيئات! هل هم يريدون القول أن رجال الدين يمثلون البراءة والعدالة وإنهم يرعون اليتيم والمسكين، وهم أب لمن فقد أباه! في صدارة مقهى كبير واسع في الناصرية يطل على النهر، كان ثمة حشد كبير من الصور، يطل منها أشخاص كثيرون بوجوه سمراء ممتلئة، وعيون واسعة تبرق، تحفها لحى بارزة مشذبة تعلوها عمام سود وخضر، يتقدمهم

رجل بملابس خضر قشبية، على رأسه عمامة سوداء، جالسا على بساط وثير، بجسد ضخم قوي، ووسامة، وقد ربض أمامه أسد كبير رشيق قوي ينظر منتبها مثله، لكنه كان مستكينا خاضعا له تماما، ذلك يزيد من قوة الرجل وجبروته، كان يضع يده على سيف ضخم طويل، نصل السيف يلمع وينتهي بشفرتين مهيئاً للانقضاض، وجوه أخرى بنفس ملامحه ومهابتة، وسطوته، على خيول مطهمة يحملون سيوفاً، ورماحاً، تخيلتهم قادمين لتوهم من صحراء زمان بعيد بعد أن خاضوا حروباً طويلة، وقد حف بهم رجال من العصر الحالي كأنهم يستقبلونهم وقد دعوهم لحروب جديدة، لا أدري مع من، ولا لماذا، كانت الأجواء عموماً غامضة معتمة! ورواد المقهى جالسين على التخوت الخشبية المتهرئة، يتأملونهم بوجوم ودهشة خشوع، معظم الصور متخيلة مرسومة بالفرشاة والزيت وبألوان زاهية، بينما صور رجال الدين الحاليين فوتوغرافية مكبرة ومطبوعة بالأسود والأبيض، على ورق صقيل وبأحجام كبيرة وبشكل متقن، أبقي صاحب المقهى صورة بنت المعيدي على مسافة متر تقريبا من الصور الدينية، انقل بصري بين وجهها ووجوه رجال الدين، لم تكن المسافة بينها وبينهم مترا كما توهم صاحب المقهى، كانت دهرا طويلا، تاريخا عسيرا، رأيت وجه بنت المعيدي حزينا مذعورا، وقد أضحت بعيدة عني وعن بلادها أكثر مما كانت، وإن هؤلاء الرجال والشبان المتطلعين إليها من بين اللحى والعمائم قد فقدوها إلى الأبد، كما فقدوا أماكنهم الأولى أيضا، وقد أضحوا الآن في مكان آخر، وزمن آخر! صدر المقهى كأنه مقدمة جيش كبير قادم باتجاهنا، تساءلت في نفسي، ترى إلى أين يمضي كل شيء هنا؟ أفقت على صوت صاحب المقهى يصيح بي كأنه ينتهرني: ألا تريد شيئا؟ وهذه إشارة إلى

أن جلوسي قد طال، وعلي أن أجدد شرابي وأدفع له ثانية! وقبل أن أقول شيئاً نهض فجأة رجل بعباءة سوداء وعمامة بيضاء، ووجه أسمر داكن ولحية وخطها الشيب، وهو يصرخ بوجه صاحب المقهى:

- كيف تضع صورة هذه الفاسقة الفاجرة بنت المعيدي إلى جانب صور أئمتنا، ومراجعنا العظام؟

توقف صاحب المقهى مشدوها متلعثما لا يعرف ماذا يقول وهو يتطلع ممتع الوجه إلى رجل الدين هادرا بصوت خطابي ملقيا كلماته الحادة وإشاراته العصبية باتجاه الجدران المغطاة كلها تقريبا بالصور، تلعثم صاحب المقهى مرددا:

- سيدنا.. سيدنا سامحني.. سامحني والله .. والله،

ثم يتحشرج صوته وينقطع، ويأخذ بالسعال. زاد صوت رجل الدين علوا وتحول إلى موعظة دينية عنيفة (كانت لهجته إيرانية واضحة، جولاتي يا أجاثا في المنطقة جعلتني أعرف لهجات سكانها) انبرى صاحب المقهى يأمر عماله، سحبوا مقعدا طويلا، صعدوا عليه، وأنزلوا صورة بنت المعيدي وألقوها جنب صفيحة كبيرة للزباله! استمر صاحب المقهى ينظر إلى الرجل الغاضب بتوسل معتذرا طالبا السماح والمغفرة:

- يلعن أبو بنت المعيدي، وأبو الجابها، هاي منو ورطني بيها؟!

سيطر الوجوم والترقب على أكثر الجالسين في المقهى، نهض آخرون ممن كانوا قبل قليل يحلقون بصورة بنت المعيدي بتلذذ واضح، وراحوا يقرعون صاحب المقهى:

- هذي الفاجرة، الكلبة بنت الكلب شلون تخليها ويه صور الأئمة والمراجع، هاي شاجاك، تخبلت؟

آخر يصيح به:

- ما تستحي! ظالم! ما بقيتنا شفاعة عدهم!

أغلب جلاس المقهى أصابتهم سكتة جماعية وفسوا رؤوسهم في لعب النرد والدومينو لكنني سمعت همهمات خافتة، ولم يجرأ أحد منهم على الكلام مع رجل الدين! طبعاً أنا يا أجانا لا أستطيع أن أقول شيئاً، أية كلمة مني ستضع الاستعمار البريطاني كله بصف من سادافع عنه. انتهى رجل الدين من هجمته، دفع المنضدة الصغيرة المرتفعة وأسقط استكان الشاي الفارغ على الأرض وسمع صوت تكسره، وخرج مبرزاً صدره أمامه، دون أن يدفع ثمن شايه. ولا ثمن طعام كان قد طلبه من مطعم مجاور! عم صمت ثقيل، أحسست أن المقهى فقدت ما كان يشدني إليها فنهضت مغادراً، قام أحدهم معي وقال هامساً:

- راح اتصير حياتنا سودة مصخمة!

كنت في فندق بالبصرة في فندق قريب من سوق الهنود. صورة بنت المعيدي تتصدر الردهة، وجدت صاحبه قد أنزل صورة بنت المعيدي! أحرزني ذلك، ملكة تخلع عن عرشها، قلت للرجل وكانت بيننا معرفة بسيطة وأحاديث متباعدة:

- ماذا فعلت بنت المعيدي فأنزلتها عن عرشها؟

قال بكل بساطة وهدوء وهو ينفث نفساً عميقاً من سيجارته:

- أكتشفوا أنها جاسوسة خائنة.

ندت عني ضحكة مرة:

- هذه الجميلة الوديدة، جاسوسة، كيف؟

أحتد صوته:

- قحبة يهودية كانت تعمل مع الإنجليز في الهند، وهي..

وراح يشرح لي بجمل متقطعة متناثرة كيف إن التجار اليهود يستوردون صناديق الشاي من الهند، يبيعون الشاي للأفراد بسعر الجملة؛ فلا يربحون شيئاً منه، لكنهم ينتزعون عن الصندوق الفارغ صورة بنت المعيدي، يبيعونها لأصحاب المقاهي والفنادق بثمن مرتفع، فالناس تدفع من أجلها أي ثمن، ثم يبيعون الصندوق خشباً، قلت هذا ذكاء اقتصادي اشتهر به اليهود. رد بنزق كأنه ينتهرني:

- انتظر! لم أكمل كلامي، اليهود يأخذون الفلوس التي يحصلون عليها بواسطة هذه القحبة بنت المعيدي، يشترون بها أسلحة وعتاد، ويرسلونها لأصحابهم اليهود في فلسطين!

يصعب مناقشة مثل هؤلاء، فهم قد يضربون من يجادلهم إذا أعوزتهم الحجة بأحذيتهم وربما بخناجرهم، ومع ذلك لم أسفه كلامه، بقيت بين مكذب ومصّدق. خرجت إلى شاطئ شط العرب لأتّنفّس الهواء النقي بعد أن كادت رثتي تختنق بأحاديث ودخان هذا الرجل الوطني أكثر من اللازم. جلست في مقهى أرقب القوارب الكبيرة وزوارق الصيادين تمخر عباب النهر العريض، على الشاطئ كنت أفكر بكلام الرجل، كنت قد شربت الشاي والبسكويت مع الإنجليز في شرفات حامياتهم وقنصلياتهم والقصور التي نزلوها في العراق، بينما صار قدح الشاي مع رغيف الخبز لدى الفقراء كل غذائهم، رأيت بمقهى في البصرة عمالاً بأسمال مهلهلة يأكلون خبزاً مع الشاي، سيكدحون طيلة اليوم بهذه الوجبة، وينقلون تلالاً من أكياس الرز والحنطة وصناديق الفاكهة المجففة إلى الباخرة التي ستبحر بها إلى إنجلترا! أن تكون بنت المعيدي فتاة دعاية تروج شاي شركة الهند الشرقية، لا يغير من الأمر شيئاً، فكما استقر في نفسي وما

قاله سليم أن هذه الفتاة الجميلة هي حلم وكفى! اختفت فاطمة شيئاً فشيئاً، وما بقي من صورها ملصقا على الجدران تناوشها الإهمال والعناكب ودخان الأراجيل، والرطوبة فتشقق وجهها، وتمزق صدرها الناهد. وتساقط بقاياها فتاتا مع طلاء الجدران. زرت صديقي صاحب فندق الأمل في الناصرية، وجدته ما يزال يضع صورة بنت المعيدي في صدر صالة الاستقبال في الفندق، ضحكت بأسى، قلت له:

- كثيرون بدأوا يتخلون عنها، لماذا أنت ما زلت متمسكا بها؟
- لن أنصاع لفتوى رجال الدين وأضع صورهم. بدلا عن صورتها!

بقيت أطلع إليه، أدرك ما توصلت إليه أنا أيضا، مضى يقول:

- في البداية قالوا لا يجوز عرض صورتها إلى جانب صور الأئمة ورجال الدين، ثم أفتوا بتحريم النظر إلى صورتها، جلبوا من إيران أكدا من صور الأئمة ورجال دين إيرانيين أذربيجانيين وباكستانيين أخذوا يوزعونها على المقاهي والمطاعم والمحلات، بينما التصوير في الإسلام حرام وغير مسموح به للناس العاديين فكيف بالرجال الذين يقدسونهم؟ لكن هؤلاء في أطماعهم المبرقة بالدين أباحوا لأنفسهم كل شيء!

صمت برهة، أشعل سيجارة راح يجذب دخانها بعمق، بقيت أطلع مندهشا: أطلق آهة: صور تصعد الجدران، رجال يصعدون المشانق، بشر ينحدرون إلى الشقاء، سمعت أنهم سيصدرون فتاوى تحرم الغناء والموسيقى و السينما والمسرح لكنهم لا يجرؤون على ذلك الآن، فكثير من الناس هنا متعلقون بالفنون وبالشراب والغناء وأصواتهم جميلة جدا، الصراع هنا

يشتد يا ثيسجر ولا ندري إلى أين سيفضي بنا. أتعرف ماذا يعني اختفاء صورة بنت المعيدي؟ أنه يعني اختفاء الجمال والحب والوئام، وبذا تصير حياتنا جحيم في جحيم! اللحي الكثة الآن تزحف الآن طاردة كل نسمة عذبة، وبتنسيق ودعم من قوى خارجية!

يا عزيزتي أجاثا رغم ما شهدته من سطوة رجال الدين، وجدت لدى العراقيين ميلا للعلم والحضارة، في القطار المتجه إلى الناصرية، كان يجلس بجانبني شاب بدأ معي حديثا، وحين عرف بانجذابي لأجواء الشرق وللحياة الفطرية في الأهوار، بعيدا عن حضارة أوربا، نددت عنه ضحكة هازئة قال ما لم أتوقعه:

- كيف تأتي من أوربا أرض العلم، والسعادة، لتدخل في غيبياتنا وخرافاتنا وتعاستنا؟

رحت أحدثه عن قرفي من مادية أوربا وقسوتها وعجرفتها قال:

- مع كل ذلك، يكفي أن أساطيرهم وخرافاتهم هي "الكهرباء" "البنسلين" "التلفون" "الراديو" "السينما" "الطائرات" بينما أعظم أساطيرنا وخرافاتنا هي تحريم الخمر والموسيقى والشطرنج والبكاء والطم والخلاف على أناس ماتوا قبل أكثر من ألف عام!

حمل كتبه ونزل من القطار قرب الناصرية ذلك المكان الذي يقولون أن إبراهيم الخليل خرج منه، كيف يا عزيزتي أجاثا يمكن إقناع هؤلاء بأن يبتلعوا السماء على معدة خاوية؟ هؤلاء كما أتوقع سيسيرون في طريق العلم لا الخرافات، لكنهم بالطبع سيعانون ويتألمون كثيرا! والقادم أفضع! توقف ماكس عن

القراءة، أحس بالتعب، لكنه وجد إنه ينسى ولو لساعة أو
هنيهات موضوع اختفاء أجاتا!

نزل إلى باحة الفندق، سأل عامل الاستعلامات :

- هل سأل احد عني!

- سيدي لو سأل أحد عنك لأتيناك على الفور!

ألقى نفسه في المقعد الجلدي وراح يدخن شارد الذهن لساعة
تقريبا ، لم يجد مناصا من الصعود إلى حجرته، تناول أوراق
ثيسجر، صار يحس إنه يحترق ثم يبترد مع ثيسجر بماء
الأهوار!

(50) مرة أراها حلما أركن إليه فأستريح، ومرة يلج بي طمع أن تكون حقيقة؛ فأندفع في مغامرة بين الوجوه الجميلة!

وأعود للسفر إلى بغداد، صرت أشتاق لسليم حتى لو لم يحدثني بجديد عنها، ألوذ به وأجد شيئا من الحماية والأمان، فرغم أنني من دولة تستعمر هذا البلد لكنني أبدا لا أجد نفسي مرتبطا بها أو بأجهزتها أو فكرها الاستعماري، وما ترددي على سفارتها إلا لصداقة شخصية تربطني بكولن! شدني سليم بطيبته وخبرته وصدقه، لم يكن يتذمر من لقاءاتي معه حتى وهو منهك محبط من العمل أو هموم السياسة، ما زال يهتم بها كثيرا رغم إنها أفقرته وجلبت له نقمة الكثيرين كما حدثني، جلسنا في البار البسيط المفضل لديه، بداية كورنيش النهر، فجأة راح يضحك:

- اسمع آخر أخبار محبوبتك، قصة طريفة، من الواضح أنها مختلفة لكن من الممتع سماعها!

- لا أخفي عليك، صرت أحيانا أركن إلى أنها مجرد حلم جميل، علي أن أعيشه سعيدا في قلبي، لكنني في أحيان أخرى أعود لأقول لنفسي بل هي حقيقة ويجب أن أواصل البحث عنها، بل ثمة حالة غريبة أخذت تعتريني هذه الأيام، صرت أطلع في وجوه نساء المعدان أبحث عنها، وأقول لنفسي، إنها هنا بينهن، لماذا أبحث عنها بعيدا؟!

- لا فرق بين الحلم والواقع سوى كأس عرق واحد، شرط أن يكون من التمر العراقي!

طلب لي أطباق مزة وعصير فاكهة، تجرع كأس العرق دفعة واحدة، أخذ يحدثني ضاحكا:

- قبل شهر تقريبا، جاءني رجل يعمل معي مخبرا في الجريدة، ويعد نفسه خبيراً ملماً بالنشاط الفني في بغداد، كان يعرف إنني مهتم بأخبار بنت المعيدي؛ أتقصى أية معلومات عنها، كنت أعرف أن هؤلاء المخبرين، وأنا واحد منهم، يكتبون أغلب أخبارهم في الحانات حين يبلغ بهم السكر حد التمتع، وحتى أخبار صحوهم تأتي عادة مختلقة مبالغ بها، صاحبي هذا يقضي ليلاليه وأوقاته متنقلاً بين السينمات والبارات والملاهي الليلية، لكنني رحت أصغي له بلهفة آملاً خيراً! قال: تأكد لي أخيراً أن بنت المعيدي قد اختطفت من ضابط انجليزي واتخذها زوجة له رغم إرادتها، لكنه لم يطر بها إلى لندن كما يشيعون، جلبها لتعيش معه في بيت بني على الطريقة الأوروبية في الحي الإنجليزي في مدينة الحبانية، القاعدة الجوية العسكرية في الأنبار غربي بغداد. ظلت تكرهه مزمنة الهرب منه في أقرب فرصة، متظاهرة أنها صارت تحبه ليأمن جانبها. كانت تعشق المغني الريفى الشهير حصيري أبو عزيز، أغرمت بصوته الجميل عندما سمعته من كرامفونات المقاهي التي كانت تمر بجانبها وهي تبيع اللبن في الناصرية، وفي البصرة، ثم من الراديو حين صار في بيتها الإنجليزي راديو كبير أنيق، وجدت أن صوته يعيدها إلى شواطئ الأهوار، استطاعت التسلل من بوابة القاعدة العسكرية. وصلت الطريق العام، حملتها إحدى السيارات العابرة. في بغداد راحت تسأل من هذا وذاك، حتى وصلت إلى دار الإذاعة، لازمت مدخلها طويلاً، حتى التقت عنده بحصيري أبي عزيز، وقد بهر بجمالها، قرر أن يودع حياة الأعزب اللاهي ومتاعب التنقل بين أحضان عشيقاته الكثيرات اللواتي هن عادة من راقصات الملاهي وغواني بغداد المتهتكات ويركن إليها فهي في جمالها تفوق كل من رأى من فتيات أتبن من الشام أو مصر! ازدددت قناعة أن ما يتحدث به هو من خياله الخصب، في تلفيق الأخبار والتي كانت جريدتنا تنشرها

له لقاء دريهمات قليلة لأنها متقنة السبك وعلى قاعدة "الكذب المسقط، أحسن من الصدق المخربط" وهذا حالنا نحن الكتاب والمخبرين، فلماذا أحاسبه بصرامة؟ مضيت أصغي له، وأوجه له العديد من الأسئلة بكل جدية واهتمام فحتى إذا لم تكن بنت المعيدي حقيقة وقد صارت قريبة منا إلى هذه الدرجة فالقصة كانت جذابة مغرية. طلبت منه أن يرتب لي لقاء مع حضيري. قال أن حضيري لا وقت لديه للقاء الصحفيين، ولقاؤه صعب جدا، أعرف أن المخبر يهول الأمر ليفوز بمكافأة مجزية، نفحته بعض المال كمقدمة أتعاب! رتب لي وبسرعة موعدا مع حضيري. كنت والمخبر نعرف أن ما نريد الوصول إليه ليس هينا، فهو موضوع حتى إذا لم يكن صحيحا إلا أنه بالنسبة لحضيري سيكون حساسا، وتدخلنا في حياته الخاصة، اتفقنا أن نقول له أننا نريد أن يدور اللقاء حول أغانيه العجيبة المثيرة التي يجلس الناس أمام الراديوها كل يوم جمعه ينتظرونها، ما سرها؟ وما هي هذه المعجزة التي اسمها صوت حضيري؟ ثم ندس بين الأسئلة سوآلا يوصلنا إلى حقيقة هذه القضية الغريبة! قابلناه في مقهى صغير مقابل دار الإذاعة، طرحنا عليه الكثير من الأسئلة الفنية، ثم أخيرا طرح المخبر السؤال المهم أو السؤال المفتاح الذي جئنا من أجله :

- هناك رسائل تصلنا إلى الجريدة من معجبات تسأل إن كنت متزوجا، بينها رسالة من سيدة حسناء ثرية جدا معجبة بك، لذا نريد أن نعرف متى يا فناننا الكبير تودع فترة عزوبيتك الطويلة وتدخل القفص الذهبي؟

أبدى حضيري تعاليا وعجرفة:

- ألا تعرفان أن الوصي عبد الإله يغار مني لكثرة ما لدي من معجبات؟ اسألا الوصي عن أخباري الغرامية، فهو سيجيب نيابة عني؟

- ومن يستطيع الوصول للوصي غيرك؟ ثم نحن نسأل عن زوجة، لا عن معجبات!

- أنا لا أتزوج! سأبقى محاطا بالمعجبات الكثيرات، بدونهن لا أستطيع أن أغني وأنظم أغاني واطع إلحاني، منهن أستمد إلهامي، وإليه فقط أوجه أغنياتي، ولا أتصور الناس حول الراديوات سوى أنهم جاءوا لرفافي إلى محبوباتي ؟
توقف قليلا ثم قال :

- ولكن من هي هذه المعجبة الغنية الحسنة؟

تشجع المخبر اللعوب وقال:

- إنها بنت المعيدي، هذه التي صورها في كل المقاهي والفنادق فهي كانت زوجة تاجر كبير مسن في بغداد توفي وترك لها كل ثروته، أطلق حضيري ضحكة :

- هذه زوجني الناس منها زورا وبهتانا عدة مرات، بل كانت حالات طلاقي منها أكثر من حالات زواجي، لو حصلت على بنت المعيدي زوجة لتوقفت عن الغناء وجلست أمامها أعبدها، وأغني لها فقط!

عاد يلح على المخبر :

- هات لي عنوانها، لا أريد لمعجبة تحلم بي ولا تستطيع أن تصل إلي، هذه قسوة وأنا معروف عني حناني وعطفي على حبيباتي!

تأكد لنا أن حضيري هو كأي شخص آخر أنهم بهذا الحلم الجذاب، ولا علاقة له ببنت المعيدي! نعم بنت المعيدي ما زالت حلما مفتوحا لكل رجل، أو إنها حلم وشعاع نوراني يستطيع أن يدخل رأس أي رجل!

شكرته على اهتمامه وما يتكبد من متاعب لأجلي، قلت له

إنني كنت أسمع من بعض أهل الأهوار أن بنت المعيدي هي الآن زوجة حضيري، وقد بحث عمارة في ذلك كثيرا، سأل من أشخاص على صلة حميمة بحضيري من أهل الناصرية، وسأل عن ذلك في العمارة والبصرة، وقد تأكد لنا أن لا صحة لذلك، وإن حضيري يتنقل بين عشيقات كثيرات. وإن ما جعلهم يعتقدون باقترانه بها؛ هو أنهم وجدوا أن لا شيء يليق بجمال وجهها سوى جمال أغاني هذا المطرب الريفى، فهو من الجنوب وصوته يحمل رائحة أهوارها وزهورها ونسائها، ذلك جعلني أستمع له ومثلهم صرت أحب صوته وأغانيه، شرح لي عمارة بعض مقاطعها، فوجدتها ممتعة زاهرة بالصور الساحرة، بل وجدت أن محبوبتي تحدثني من داخلها!

ظل سليم يعب العرق، وتغيم عيناه وراء أفق سماء بغداد فوق دجلة صامتا وأنا أحدثه بما رأيت وسمعت في مقاهي ومطاعم الجنوب، واختفاء صورة بنت المعيدي وتوارىها تقريبا من مقاهي ومطاعم كثيرة، وظهور صور كثيرة لرجال دين يتقدمهم الطفل الباكي قال :

- نعم هذا يحدث أيضا في بغداد، سمعت أن رجال الدين الذين كانوا يكرهون صورة بنت المعيدي وكل صورة إلا صورهم ، أخذوا الآن يتآمرون على صورتها، كأنها امرأة حقيقية قوية عدوة لهم ويسعون لسحقها، بعضهم قال يجب علينا أن ننشر صورتها، هذا سيؤدي لكثرة الفسق والفجور ويعجل بظهور المهدي المنتظر، آخرون خالفوهم قالوا لنظهر كل مكان منها تمهيدا لظهوره، وهذا الاتجاه الآن هو الغالب، يبدو إن الأمريكان بدأوا منذ الآن يتواصلون وينسقون مع رجال الدين وجماعاتهم سنة وشيعة، أنت تعرف أن المتدينين ضد الشيوعية، والأمريكان يرون فيهم جيشهم الاحتياطي لمحاربة الشيوعية!

- لكن كولن قال أنهم الآن يتواصلون وينسقون مع ضباط في الجيش؟

أحسست بمرارة ضحكته:

- أعتقد أن الأمريكان يخلصون لأحد؟ هم يهيئون منذ الآن الحصان وبديله، يخيفون هذا بذاك، وذاك بهذا، حتى تتم لعبتهم! في النهاية سيحطمون الدولة المدنية في بلادنا! سترى يا ثيسجر بدلا من صور رجال الدين صور ضباط بيزاتهم العسكرية والنياشين على أكتافهم، العسكر خلال السنوات القليلة الماضية قاموا بانقلابين فاشلين الحقوا بهما أفدح الضرر ببلادنا، لكنهم لا يكثرثون، ولا يكفون عن محاولاتهم لأخذ السلطة، هم يكرهون الدستور والعقل، فارغون من الثقافة والوعي، محشون بالغرور، هم كتلك الصعادات المحشوة ببارود قشري، التي يطلقونها في احتفالاتهم، تعطى وهجا مبهرا ثم تتساقط رمادا! يا ثيسجر الصراع على النفط يشتد في بلادنا وسيظل رجال الدين والضباط يتهاشون كالديكة مرة هذا ينتصر، ومرة ذاك، ليقف على السطح ويطلق صيحة الفجر، الذي سيكون داميا دون شك، فهم مجرد دمي بيد الأمريكان والبريطانيين وغيرهم!

سألت مندهشا:

- والمعارضة المدنية، ألا تحرص على الديمقراطية؟

ضحك، بينما وجهه منقبض متألم:

- هي أكثر طيشا منهم، يتصدرها في الظاهر سياسيون مترهلون متهاكون على المناصب، وفي الشارع وصول ويجول الشيوخ بكل غبائهم وطيشهم وهوسهم بستالين ودكتاتوريته وتفانيهم في تحقيق نفوذ للسوفيت في العراق، فتصور أي مستقبل للديمقراطية عندنا!

لسليم قدرة على التحليل السياسي لا أمتلكها طبعاً، هو من

أقنعني باستدراكاته وإيضاحاته لما أواجه هنا ومن معاناة في وجودي في الأهوار أننا نحن الكارهين للسياسة، العازفين عنها، سنصحو ذات يوم لنجد أننا دون أن ندري كنا نمارس السياسة بشكلها السلبي أو الصامت، أي أننا مارسنا أسوأ أنواع السياسة، حيث لا مهرب منها لمن يعيش في عالم اليوم. واصل سليم حديثه في السياسة بنما أنا صامت أفكر مترددا هل أحدثه بواقعة غريبة حدثت لي، لا أدري هل كنت خجلا أم خائفا، ليس منه بل من نفسي وأخيرا قررت أن أفضي له بما حدث:

- قبل أن تتصحني صرت مقتنعا، أن من الأفضل لي أن أعيش على أن فاطمة هي حلم جميل كبير وبعيد، وأن لا أمني نفسي بما هو أكثر من ذلك، لكن لا أدري يا سليم كيف حدثت لي تلك الواقعة الخطيرة والمرعبة. ربما لأن ثمة مشاعر يأس وإحباط كانت تكتنفني وترهقني كثيرا، كنت قد ركبت توأ القطار المتجه من الناصرية إلى البصرة، كنت قد صرفت ياسين وعمارة في إجازة، قررت أن أتسكع في البصرة وحدي، لا أدري من أين جاءت الفتاة الجميلة واقتربت من نافذة القطار تحمل على رأسها طوابق الروبة، كانت دون العشرين بوجه جميل ساحر، فتاة ناضجة، أحسست على البعد ما يضح في عروقها من شبق وعطش لرجل، سمعت هاتفا من أعماقي "ها هي فاطمة نفسها جاءتك من أقصى أعماق الوجود يا ثيسجر، كيف يقول سليم إنها مجرد حلم؟ هي واقع، وهو ماثل الآن، الضابط الإنجليزي لم يفر بها إلى إنجلترا، وضعها أسيرة في بيت تحيطه السلاك الشائكة، والآن استطاعت الإفلات من سجنه، عرفت إنك تبحث عنها فجاءتك! الآن سأمسك بيدها، تكون معي أنا وإلى الأبد، سأفصح هذا الضابط الشرير، وأعمل على أن ينال القصاص الذي يستحقه. ما خطر لي لم يكن حلما، كان واقعا على أرض تعكس لي حرارتها تحت الشمس عبر

النافذة. لا أدري هل أومأت لها أن تصعد إلى القطار، أم هي التي صعدت لوحدها وقد تلاقت نظراتنا، رأيت كل سحب اليأس السوداء تتلاشى من سمائي دفعة واحدة، وجدتها تجلس بجانبني، وقد وضعت أطباق الروبه في الممر بين المقاعد. مالت قليلا إليّ، لم تكن تقصد عناقي طبعاً في قطار بدأ يتقاطر عليه الركاب، أرادت الاقتراب بطبق الروبه، تريني كيف هو رائب ودسم ومعطر، بالتأكيد أنا الذي ملت إليها أكثر، وقد ضجت كل عروقي لها فهي معشوقتي، لا فتاة أخرى لدي غيرها، لقد تأخرت يا فاطمة، وطال بحثي عنك، استجابت ومالت علي أكثر من المعتاد، اندفعت نحوها أريد أن أضمها إلى صدري، وأدخلها قلبي وإلى الأبد! نسيت إنني في قطار وبين الناس لا أدري هل هي نست العالم مثلي في تلك اللحظة أم لم تكن مبالية، لا بد أن أصوات ندت عنا تحمل نبرة غريبة، شهوة متفجرة، أو شوق ولهفة حب، ماذا دهاني؟ أحسبت نفسي في أوربا؟ أم حسبت حياة الفطرة والبدائية يمكن أن أعيشها في القطار كما في زاوية من الهور؟ لا يمكن يا سليم شرح ما حدث سوى إنه غيبوبة عن الوعي وانفصام عن الواقع، ذهول مطلق، لم يحدث لي من قبل! لم أعد إلى صوابي إلا بعد أن انقضت بغتة علينا عاصفة صراخ وأيدي قوية انهالت علي بالضرب، رجال ريفيون في القطار هبوا عصبة واحدة؛ وراحوا يتجادبونني، هذا يصفعني، وذاك يركلني؛ حتى جاء شرطيان انتزعاني منهم، أنزلاني من القطار واقتاداني إلى مركز الشرطة قريباً من الناصرية، البنّت لم تسلم من ضربهم لكنني لم أعد أراها، حرروا لي محضر تحرش بفتاة معيذية، كيف حدث ذلك؟ لم أصدق هل كان حلماً كابوساً أم حقيقة؟ لم أدرك أن ما حدث كان حقيقة؛ إلا بعد أن بت ليلتي في مركز الشرطة، تأخذني كوابيس أن فاطمة قد ظهرت وأبعدوها عني، كنت قد طلبت الاتصال بكون في السفارة ووزارة الداخلية، لم يسعني سوى أن أدعي

إنني لم أتحرش بها وإنني دعوتها لأشتري منها اللبن . أطلقوا سراحي، لكن ما حدث افقدني الثقة بنفسي وحطم آمالي وبإمكانية عيشي بين الناس هناك! صرت أحس إنني أمر بلحظات ذهان وتهيؤات مرضية، وصرت أخشى أن يتكرر ما حدث، وإذا كنت في هذه المرة قد نجوت ولم تسجل الواقعة كاغتصاب أو شروع فيه، أو أن ينبري لي رجل يقتلني على الفور، فإنني في المرة الثانية لن أنجو، ولن أخرج سالماً! أنا لست خائفاً من أهل الهور، بل أنا خائف من نفسي، بدأت لا أسيطر عليها!

ظل سليم صامتا ينفث دخانه، ويتطلع في وجهي بين فينة وأخرى، فجأة اعتراه غضب وحدة:

- اسمع يا نيسجر، أنت كما تقول درست سكان الأهوار وسميتهم عرب الأهوار، هنا كثيرون لا يقرنونك على هذه التسمية، أو على تقييمك لهم، هؤلاء يسمونهم المعدان، أنا شخصياً لا أقرهم على نظرتهم المتعالية المطلقة إليهم، فالمعدان عموماً بسطاء طيبون لطيفون، ولكن فيهم متخلفون أجلاف سمعتهم سيئة جداً، رجالهم كسالى فاسدون يعتمدون في عيشهم على نسائهم اللواتي لا يبعن اللبن بقدر ما يبعن أجسادهن، أبناءهم يتصفون بالوقاحة والاستهتار، ثمة أناس يقولون لا ندري ماذا سيفعلون بنا غداً، فلو تولى أحدهم وظيفة حتى لو صار شرطياً مثلاً فإنه سيعيث في الناس فساد وقسوة، كثيرون يخافون على مستقبل البلاد منهم، ولكن كما قلت لك ليس كل المعدان كذلك غالبيتهم منتجون نشيطون وكرماء، ومع هذا لا أريد أن تورط نفسك مع أي منهم فقد تقع بأيدي السيئين لا الطيبين منهم، ويحدث لك ما حدث في القطار، أخشى أن يقتلوك، بل يمزقونك إرباً!

صار أحدنا يتطلع في وجه الآخر، خيم علينا صمت خلته

سيطول، صرت قلقا حقا، بدا وجهه منطويا على حزن قديم، لا أدري هل إن ما حدثته به، أم الخمرة قد جعلت وجهه يتفتح كزهرة تحت المطر، انبعث صوته حزينا هادئا:

- أنس ما حدث! لا تقلق، وتفقد ثقتك بنفسك، هذه تهيؤات طبيعية، كنت أتوقع أن يحدث لك مثل هذا في أنحاء الهور مع الكثير من الفتيات، ولكن وجود ياسين وعمارة معك كان يجعلك تفكر وفق ما هو معتاد بين الناس ولا تنقاد لمخيلتك! حين نعجز عن جعل أي شيء حلما كبيرا بعيد المنال، نبدأ نقع في اليأس، لتتعلم تدريجيا أن نكتفي بالحلم، وهذا لا يتأتى بسهولة، كثير ما تحدث نكسات! لا تقل يا ثيسجر أنك خائف من نفسك! أنت يا ثيسجر لم تفشل، ما زلت تعيش حلما جميلا، وطيبا!

- أشكرك، أنت تعيد لي شعوري بالأمان كلما تبدد!

- أنا الذي أشكرك، عرفتني على بنت المعيدي، حلمك بها أنعشني أيضا! لا شك أن بحثنا صار أكثر صعوبة، ولكن ينبغي أن نحذر التصديق أنها مجرد إعلان تجاري! شعرت بالراحة لكلامه، قلت:

- أزمعت ما أن انتهى من علاج مرضي وعدتهم بدواء جلبته معي من لندن حتى أخرج من الأهوار والعراق كله، أريد أن أبدأ رحلة في صحارى أفريقيا! قال ضاحكا:

- ستخترع لنفسك هناك بنت معيدي أفريقية، هذه المرة ستكون سوداء، لكن أحذر فقد تهشم عظامك في أول عناق! سكت برهة، شرب ما تبقى في كأسه، أشعل سيجارته هو يتأملني كأنه يراني لأول مرة، لكن ذهنه يبقى متوقدا قال كأنه يفجر قنبلته الأخيرة:

- أعرف يا ثيسجر، إنني أراك طفلا، بجسد ضخم، طفلا

فقد دميته وما زال يبحث عنها مهما مرت عليه السنين، بنت المعيدي هي دميته، لا تجزع، ابق على روح الطفل فيك! روح الحالم الجوال، قد لا تجد بنت المعيدي ولا شقيقتها الإفريقية، لكنك ستجد طفولتك، وتعيش أحلامك آه يا صديقي كم تستحق طفولتنا وأحلامنا أن نبحت عنها حتى لو أنفقنا عليها العمر كله ولم نجدها، هذا هو الرد الأعظم على الموت!

تكون لدي هاجس إنه سيموت قريباً، هو لا يكف عن الشراب والتدخين، والحزن العميق، لم أره يفقد صحوه، على العكس أجده مع الشراب؛ يتألق، ممسكا بروحه، واصل حديثه:

- بنت المعيدي هي الحلم، والأمل وهم يريدوننا أن نفقدهما ولكن لا، لن نتخلى عنها، حذار يا ثيسجر حتى إذا غادرت بلادنا ونسيتها، ونسيتني، أن تنسى هذا الحلم الجميل!

رفع كأسه كأنه يرفع نخبا، شعرت به قريباً جداً مني؛ صديقا وأخا، قال:

- حتى إذا كانت إعلانا تجاريا فنحن سنظل نقول إنها حقيقة وهي الجمال والحب الذي نسعى إليهما، نعم يا ثيسجر الجمال والحب هما ما نحتاج في هذه الأرض الطيبة، وفي علاقاتنا نحن البشر! هي تمثل حقيقة كبرى غائبة، أو في الأقل إشارة إلى الحقيقة، الجمال الذي صرنا نفقده دون أن نحس بقلبه، وهنا الخطر، ان تنتزع منا الأشياء الجميلة ونحن غافلون!!

- الآن أدرك حقا إنني كنت أبحث عما تمثله، لا عنها هي نفسها!

- لا أريد أن أنقل عليك يا ثيسجر بحديث عما يكتنف مستقبلنا من مخاطر، يكفي أن أقول لك الآن، إنك ستكون آخر من يسأل أو يبحث عن بنت المعيدي، من يسأل الآن عن شهرزاد في ألف ليلة وليلة؟ أو عن ليلي المريضة في العراق؟ أو عن عشتار ربة

الأنوثة في وادي الرافدين؟ كل هذه أصبحت من المضحكات،
إلا في القلوب الحزينة كقلوبنا! قلبي يقول أن هذه الصورة
وذكرى صاحبها ستختفي، الآن ترحف على الجدران كما
الزواحف الوحشية البدائية صور أخرى؟ كثيرون الآن يعدون
صورهم وشعاراتهم وأنيابهم، الضباط منذ الآن أعدوا صورهم
بأقصى بريق النرجسية، القوميون من العرب والكرد والتركمان
والاشوريين هياوا صورهم، الشيوعيون لديهم صورهم
وشعاراتهم، الإسلاميون شيعة وسنة رأيت صورهم وسترى
أكثر، صور، صور وشعارات تملأ الجدران، لغة الصور يا
ئيسجر أقطع اللغات وأكثرها تدميرا، لدينا اليوم صور رهبة
مرعبة تصرخ من الجدران، هيا أيها الناس اقفوا من المركب،
ليبتلعمكم البحر، السفينة والرحلة لنا وحدنا! لا أحد منهم يريد
غيره أن يشاركه السكنى في هذا الوطن، الآن صور، صور،
صور، وغدا عواصف وزلازل وأنهار من الدماء، استكثروا
عليك وعلينا صورة فتاة جميلة وحيدة، وأخذوا كل شيء ليختفي
وراء صورهم! أتعرف يا ئيسجر، كم أنا حزين؟ في اليوم الذي
تختفي فيه صورة هذه البنت من مقاهينا وبيوتنا سيختفي معها
الكثير من الجمال والسلام. رأيت أول مرة بيكي! أفرط
بالشراب، كأنه كان يريد أن يطفئ حريقا في أعماقه. اعتذرت له
"أسف سببت لك ازعاجا" هز رأسه، ربت على كتفي، وعاد
بسرعة لابتسامته!

(51) كنت في الصحراء أركض على الرمال وراء السراب، الآن أركض فوق الماء وراء السراب!

توقف ماكس عن القراءة، شعر بألم لمعانة ثيسجر، ولما وصل إليه من تداع نفسي، وسلوك لا يليق به، فهو رحالة جاد، وإنسان طيب ومسالم، لماذا يعرض نفسه لهكذا مواقف؟ بدأ يقلق عليه. صار يحب سليم البكري لطيبته وحنوه على ثيسجر، تمنى لو كان قد تعرف عليه، كان سيذهب إليه ويجد لديه عزاء وتفهما وربما شاركه البحث عن أجاثا، هكذا رجل طيب مؤنس يشعر صديقه معه بالأمان والطمأنينة، تعاطف معه في حبه لوطنه تاركا آراءه السياسية له وللحياة، عاد يقرأ منجذبا لأسلوب ثيسجر في الحديث عن آلامه ومعاناته في بحثه عن هذه البنت الجميلة الغامضة، متأملا شغف العراقيين بها، فهي لها سطوتها الواضحة عليهم سواء أحبوا أو شكوا بها، بدأ يتفهم انبهار ثيسجر بوجهها لكنه لا يقر اندفاعاته المجنونة نحوها، فقد تودي بحياته، استمتع بما كتب، لم يستثقل استطراداته وتشعباته الكثيرة، بها دخل غيبوبة عن مأساته باختفاء أجاثا، وجد الرسالة أشبه بجرعة مخدر له، بدا له إنه أيضا كان صادقا ودقيقا في سرد كل ما يعن على باله، كأنه بهذه التفاصيل يحقق لقاء بهذه الفتاة الجميلة، ويقضي أطول فترة ممكنة معها قبل أن يصحو على خيبة فاجعة! طوى الأوراق، لاح له ظل من الحقيقة، بل جانب مر منها، وهي أن أجاثا ليست مع ثيسجر، ولا علاقة لثيسجر باختفائها! بذلك ازداد تشوشا وارتباكا، فمصير أجاثا أوغل أكثر في المجهول والمحير! لم يذهب إلى الشرفة ليبتعد منها بالنهر، ولو من بعيد؛ نزل إلى الإستعلامات يريد أن يتناول

التلفون، لماذا شبكة تلفونات الفندق قد تعطلت هذه الأيام؟ ألهذا علاقة باختفاء أجاتا؟ هل هناك مؤامرة كبيرة محلية أو دولية تريد أن تطبق علينا؟ تناول السماعة وطلب ريتشارد ، قال له إنه الآن في بيته وإن يكلمه من خط ملحق ببدالة تلفون السفارة، رحب به لكنه صدمه بسؤاله:

- ها يا ماكس، هل عادت أجاتا؟

- لا ، أنا أنتظر جهودكم، ماذا فعلتم؟

- اطمئن، أبلغتنا الحكومة العراقية على أعلى مستوى أنهم يتابعون القضية بكل اهتمام، وقد استقدموا موظفين جدد للبحث والتحري. الدولة هنا كلها في استنفار، ثمة بوادر طيبة مطمئنة، لا مجال الآن للحديث بها!

- لكنك لم تتصل بي، في الأقل لتطمئنني ، أنا قلق جدا يا ريتشارد، رأسي يكاد ينفجر، أنت تعرف أنا أعاني من ارتفاع في ضغط الدم وسكر ووساوس!

- معذرة يا ماكس، أنت في بالي دائما لكنني شغلت هذا اليوم كله بمتابعة قضية ولفريد ثيسجر!

- ماذا به؟

- هو للمرة الثانية يتحرش بفتاة من المعدان فيهاجمه أشخاص، فيضربونه ثم يعتقل ، أطلقنا سراحه في المرة الأولى بسهولة في الناصرية، هذه المرة أعقل في البصرة، كاد يقتله شبان غاضبون، وأنقذ في اللحظة الأخيرة!

- هذا مؤسف، لكن أرجو أن لا تشغلكم قضيته عن قضية أجاتا فهي قضية حياة أو موت!

- نعم، بالتأكيد يا ماكس امهلنا يوما، يومين، وستكون النتيجة مفرحة حتما!

عاد ماكس لحجرتة، كم ظلمت ثيسجر، حسبته يتخذ من حبه للمعيدية قناعا، هو متدله بها حقا، حتى لو كان حبا مضحكا سخيفا لكنه يملأ جوانحه، ها هو يتعرض للموت من اجلها مرتين، المسكين فقد عقله، ظلمت أجاتا أيضا، ماذا صنعت بي هذه المحنة؟ كيف لا يطير هذا القلق بعقلي؟

صعد ماكس إلى حجرتة، سأنتظر يوما يومين، أسبوعا، لا يهم فقط أن تكون هناك نتيجة طيبة، تناول ما تبقى من أوراق ثيسجر: عدت إلى الأهوار محاولا أن أنسى ما حدث لي في القطار وأعده كابوسا عابرا، لكن لا تلبث الحقيقة أن تواجهني في ظلام الليل، فأشعر إنني لم أسترح داخل حلمي الكبير بل ما زلت أبحث عنها حقيقة، وإنني بذلك أقوم بلعبة غريبة، كنت في الصحراء أركض على الرمال وراء السراب، الآن أركض فوق الماء وراء السراب، أو وراء بقعة أرض ثابتة يقف ليها حلمي بها. أشعر إنها بعد كل هذا العناء من الدوران والانتظار، صارت أبعد من ذي قبل، لم أكن أعرف في البدء أن بيني وبينها كل هذه المسافات الطويلة العمياء، صار لقاءها مستحيلا إلا إذا وقعت معجزة، وأين أنا من المعجزات؟ أحيانا أجلس وحدي وأشعر بقلبي يبكي، أنا الذي لم أكن أعرف البكاء، أو حتى الحزن العميق، كنت دائما أتطلى بالشجاعة والإقدام، الآن صرت مترددا خائفا، أهكذا يفعل العشاق بالإنسان؟

(52) خالد يجازف ويشير إلى خاطف أجاثا: عرفته؛ أجاثا انقادت له بإرادتها وما علي سوى أن أعرف مكانه!

من تلك الصفحات الهامسة بالذكريات والأحلام معا، استوقفته حكاية القيثارة ، ما سر ولعها حد العبادة والتقديس؟ تبدو مستسلمة لها، بل مستلبة منها ضعيفة حيالها، أيمن لأنغام وهمية من قيثارة محطمة أن تجتذب قلب إنسان بهذا الشكل العجيب؟ ومن؟ قلب هذه الكاتبة المتمرسه بالأعيب البشر؟ كانت طيور السنونو تحلق فوق رأسه تحت سقف المقهى حيث بنت أعشاشها في جذوعه الخشبية النائئة، أخذت أفكاره تختلط بزقزقاتها، وأمواج دجلة ونوارسها. بدأ هو أيضا يسمع صوت القيثارة الذهبية! تكمل لحن الوجود حوله، أو تصنعه من جديد! ثمة موسيقى شجية تنهض حوله وكأنها تقوده إلى أجاثا، أين تكون الآن؟ أحقا بدأ كما الكشف النوراني يعرف أين تكون أجاثا؟ الآن سيعرف، وإذا لم يعرف هذه الساعة بالضبط، فإنه سيعرف بعد قليل، عليه أن يقرأ أوراقها، هواجسها وتهويماتها ونزعاتها العميقة الغامضة، ويستمتع لأصوات سنونو سقف المقهى القديم العالي، ونوارس الفضاء المنير أمامه فوق النهر تلاعب الأسماك بخبث، ومناورة عجيبة للانقضاض والافتراس! كان حسن الرجل المسن عامل المقهى يغدق عليه بالكثير من استكانات الشاي الذي يجيد تخديره ممزوجا بزهور عطرة لا يعرف من أين يأتي بها. عندما كان خالد طالبا يأتي ليذاكر هنا كان يناديه "وليدي" و "عزيزي" ، الآن صار يناديه "أستاذ" أستاذنا" ضحك خالد في سره، هل صار أستاذًا يستطيع فك أغاز الجرائم والقضايا المعقدة الواقعة في هذه المدينة الكبيرة،

التي عرفت في تاريخها الطويل أرتالاً من الجرائم والقتول والاغتيالات والدسائس والمؤامرات؟ أجاثا تعرف ذلك جيداً، فهي إذا لم تقرأ تاريخ بغداد المليء بصراعات الخلفاء والملوك والسلاطين، والاغتيالات التي تبادلوها بينهم بلهفة طقوس واجبة الأداء، لا بد إنها قرأت ألف ليلة وليلة، وعرفت كيف كانت تقطع الرؤوس في بغداد على مر العصور وتغيب المصائر، وتتدخل الأقدار لتطيح بأجمل ما يسهر الإنسان على تكوينه من نفسه وأبنائه وصحبه فيهوي إلى التراب مخلفا وراءه بحراً من الغموض والنسيان. وكم من أفكار جميلة سحقته بشهوات الأجساد، وأحلام عظيمة دمرت بفضاظة السلطة! وكم من جرائم غامضة حدثت، وقيل سيكشف فاعلها بعد حين وينال جزاءه وها قد مرت قرون، ولم يكشف سرها أو فاعلها حتى الآن! هل ستطوى قضية أجاثا كريستي معها أيضاً؟ من حق ماكس وأجاثا أن يشعرا بالخوف من الحياة في جوف هذه المدينة التي يختلط فيها الفرح بالحزن، اليأس بالأمل، الجوع بالثراء، الطمأنينة بالرعب، وعليّ أن أقف إلى جانبهما، بحكم واجبي أولاً، وكصديق قديم لهما أيضاً!

وعاد يقرأ ما كتبه أجاثا: أقدم آلة موسيقية في العالم، تلاحقني. عمرها أكثر من خمسة آلاف سنة، ولا تزال فتية يافعة، بجناحين سحريين تحوم حولي، حمامة رشيقة أبدية تصدح بنغماتها العذبة في أذني، تغني نشيد الوجود كله من الميلاد العسير المفرح، المحزن، إلى الموت القاسي الحزين، المفرح. ما تزال أنامل العازفات الجميلات على أوتارها لم تفقد حرارتها رغم الزمن الطويل وترابه البارد الثقيل. هي ملكة خالدة تنكرت بإهاب حمامة جميلة ودیعة، تحط تارة على كتفي، تارة تدخل صدري، تخربش في قلبي، تعبت بروحي! قبل ما يقرب من عشرين عاماً اكتشفها صديقنا الأثاري ليونارد وولي

مع قيثاريتين أقل حجما منها، في المقبرة الملكية السومرية المقدسة في أور. على عمق أكثر من عشرة أمتار تحت الأرض. بعد جهد طويل مضن، أفلح أخيرا في الوصول إلى القبر الخاص بالملكة السومرية بو أبي شبعاد، والقبر الخاص بزوجها الملك أبار كي، والذي هو بمنزلة إله. عرفت الملكة شبعاد بذوقها الرفيع في اختيار تاجها، وإكليلها، وأبهة عرشها، وحليها وزينتها. وموسيقاها ومغنيها، اليوم المرأة التي ترى إكليلها الذهبي المكون من أوراق وزنايق الذهب واللازورد، لا يسعها سوى أن تتلمس شعرها على الفور، متمنية أن تضع عليه مثل هذا الإكليل! كيف اجتمعت هذه القيثارات الثلاث والكؤوس وخوابي الخمور مع الهدايا الجنائزية في هذا المدفن الملكي الكبير؟ وكيف اجتمع في القبرين الكبيرين 74 هيكلًا عظيمًا أيضًا؟ أنهم حاشية الملكة وزوجها الملك، هم المقربون إليهما من الوزراء والأعوان والمستشارين والأصدقاء الذين اختاروا أن يموتوا معهما. جاءوا بكامل ملابسهم الرسمية وزينتهم، تتقدمهم الفتيات العذراوات يعزفن على القيثارات إلى ردة المدفن، وسط انحناءات الجنود، ودموع الفرع الشعبي، وصلوات الكهنة. ولكن لا بد من حفلة أخيرة، داخل المدفن المقدس. يجلس مرافقو الملكين في رحلتها الأخيرة حول جثمانها المعطرين المثقلين بالثياب الملكية. هم سيكونون لهما أنيسين مهذبين مرحين في طريق الأبدية الطويل. وسيخدمونهما في جنات العالم الآخر بكل تفان، مثلما خدموهما في الدنيا، وسيكونون خلصائهما ومعاونيهما الأشداء هناك، مثلما كانوا معاونيهما الأشداء هنا، الآن سيحولون سرداب الأموات إلى حانة رقص وغناء وفرح سماوي، هذا هو نشيج الوداع الرسمي الأخير! توقد الشموع والمباخر، وتستلم الهدايا للعالم البعيد، وتبدأ العذارى المنذورات في عزف الألحان الجنائزية والعاطفية التي كانت تحبها الملكة والملك في لحظات صفوهما وتأملهما، يغلق

عليهم باب المدفن الكبير عبر تلويحات المودعين، ويأخذون جميعهم بشرب النبيذ الممزوج بالسّم الخفيف اللذيذ لينقلهم ببطء وهدوء إلى عالم الموت الاختياري الجميل. فيغادرون جميعاً جثامينهم، ويلتقون في العالم الآخر أرواحاً وأطياناً فقط، هناك الخلود، والفرح الأبدي، هناك الكأس معتقة طافحة دائماً، لا تنفد ولا تنكسر، هناك الجسد يتفجر بأشواقه وشهواته وعنفوانه دون نهاية. سيلتقون ملوكاً وأمراء، شعراء ومغنيين ومغنيات وقيثارات صادحة، ثمة جع يطير على الضفاف، والأشجار تنثر عطرها من السفوح، والمطر يهمني فيغسل الأرواح كلما أثقل عليها الأسى. وجد المنقبون هياكل ثلاث عازفات حتى اليوم كانت عظام أيديهن ملتصقة بأوتار القيثارات الثلاث، فهن بقين يعزفن حتى اللحظة الأخيرة التي دب فيها السم بأجسامهن الجميلة فأوقف قلوبهن، كم كان الموت العراقي القديم عجباً حقاً! يا لأجوائهم كم هي مثيرة وحزينة ومحيرة. القيثارة الذهبية الكبيرة يبلغ ارتفاعها 172 سم تكاد تصل إلى هامتي، أنا الطويلة كما يقولون عني. تتكون من صندوق صوتي مصنوع من خشب الأرز ولها ساقان خشبيان ممتدان إلى الأعلى مغلفان بشرائط ذهبية ومطعمان بقطع مثلثة من أصداق وأحجار مختلفة ملونة، بنهاية قمتيهما يستقبلان حامل الأوتار وهو أنبوب خشبي مدور نصفه الأمامي مكسو بالفضة، تحتوي على أحد عشر وتراً مثبتة إلى الأعلى بمسامير ذات رؤوس ذهبية، وهي بالكامل مطعمة بالذهب والصدف، يزين مقدمتها رأس عجل من الذهب ملتج. لماذا الثور بالذات؟ بعضهم قال هو رمز للثور السماوي المقدس الحامل ألحان السماء لشعب ما بين النهرين. كانوا يزينون به، وبقرنيه الحادين تيجان الملوك، آخر قال: هم يريدون به تهدئة الثيران التي تقاد قرابين للذبح حيث يوزع لحمها على الفقراء. زينت واجهة القيثارة بنسر له رأس أسد يقبض بمخالبه على عنزتين. شجرة يشب عن يمينها ويسارها

ثوران، بطل هو مزيج من إنسان وثور يقهران نمرين، في
المشهد الأخير صراع بين أسد وثور، مشاهد هي بحث عن سر
الموت القاهر، ونشدان للخلود أو للبعث بعد الموت، وتجسيدا
لأسرار تموز وأنا، وهما يحكمان من السماء، وبمزاجيهما
المتقابين، أهل الأرض المساكين. ثلاث قيثارات فيها سر النغم
الشرقي كله تفرقن كما تفرق الشقيقات والصديقات الحبيبات أثر
نكبة خاصة أو عامة، كل تحت نجم في هذا العالم. الكبيرة
معروضة بشموخ وفخار، في متحف بلادها في قلب بغداد،
الأخرى في لندن، ما أن أحل في لندن، حتى أذهب لأقضي
ساعات معها، الثالثة والتي لا تقدر بثمن هي الآن في متحف
جامعة بنسلفانيا في أمريكا لقاء الدولارات القليلة التي أنفقتها
على بعثة التنقيب. لو أمتد بي العمر لطرت خصبًا إليها.
لأبلغها تحيات شقيقتيها وأكمل معها الرواية التي في ذهني.
ستكون هذه القيثارات بطلات فيها، لا بوليس، ولا محاكم
محامين ولا ضباط، ولا أحذية ثقيلة. سأجعل أحداثها تدور في
ذلك الزمن البعيد ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد! أخرج فيها من
قطار الشرق السريع، وشوارع لندن وباريس المغرقة بالضجيج.
وهذه الزمن الذي أنهكته الحروب الكونية الساحقة، لا أريد أن
أستحضر أرواحهم إلى حاضرننا أريد أن أكون أنا من استيقظت
في الحاضر، (كان مستقبلهم البعيد) وذهبت لتعيش بينهم، امرأة
غير مرئية، ترى ولا يراها أحد، سأكون في الرواية أنا الضحية
الهائمة، روح آتية من زماننا أو المستقبل إلى ذلك الماضي
المدهش، يشعر الملك والرعية معًا، أن ثمة جريمة ارتكبت
وأذى وقع على روح لا يعرفون من هي وأين تكون، بالطبع أنا
القتيلة والجريحة المعذبة التي لم يسعفها العالم القائم فذهبت
تستجير بهم، يريدون أن يمسكوا بي وأنا ما أزال خائفة مترددة.
لا ، لا ، القضية هي أن أذى يقع علي لأنني أرفض الاستجابة
للصوص الذين يريدون انتزع القيثارة من قلب بلادها، رغم

الإغراءات الكثيرة والضغط الفظيعة، لأول مره هناك بحث عن الضحية لا عن الجلاد، عن المجني عليه، لا عن الجاني، هم بالطبع يريدون أن يبرئوا ضمائرهم. يجند كل شخص في أور نفسه من الملك والكهنة وحتى الناس العاديين، للبحث عني وروحي تنتقل أمامهم وخلفهم كأنني أمازحهم أو أعذبهم، من القيثارة إلى قنديل الكاهن، إلى أكليل شبعاد إلى صولجان الملك. في النهاية أظهر لهم، ويحدث ما يحدث، ستتخلل الرواية الكثير من المشاهد الحادة المثيرة، رواية بوليسية يمتزج فيها خيال جامح مع واقع صلب لكونه قد انتهى وطواه النسيان. لكن الحكمة ستجري على نحو معاصر مثير ومفيد، هل أستطيع ذلك؟ أنها تستليني، وتعيقني عن أية كتابة، حتى إذا لم تكن هذه رواية ناجحة فإنني يجب أن أزيحها عن ذهني لأستطيع العودة إلى كتابتي العادية المألوفة، نعم لا بد من أداء ديني واجبي للقيثارة!

صار خالد يرى أجاثا تلوح له وتدعوه لأن يوافيها في مكنها الغريب، يراها تسير نحوه كما كانت تسير حذرة بين سواقي النواير والبساتين وعيون القار المشتعلة، اجتاحه فرح غامر، لقد اقترب كثيراً من المكان الذي فيه أجاثا كريستي، ولكن هل هي حية أم ميتة؟ ما هذا السؤال الكئيب؟ كيف أسأل ذلك، وهاهي ترفع يدها عاليا مؤشرة لي؟ صرت أرى ملامح وجهها الأشقر وقد لوحته الشمس الصاعدة هنا تغدق عليها شلالات من حنون دافئ! لا أستطيع أن أتصور هذه المرأة الجميلة القوام والعقل ميتة!

ربما في اللحظة نفسها، التي فكر خالد فيها أنه قد اقترب من أجاثا، كان ماكس يفكر، هل أن خالد يفكر مثلي أنه قد يعثر على شيء يهديه إلى أجاثا من كلمة أو حتى حرف كتب بطريقة ما، بالتأكيد، فهو خريج كلية الحقوق، درس التحقيق الجنائي، بطريقة أكاديمية حرفية وهو يقرأ أوراقها الآن ببرود وهدوء

ليس على طريقتي وقد قرأتها منفعلا، والآن علي أن لا أقرا
أوراق ثيسجر منفعلا أو متحاملا عليه مفترضا إنه وراء اختفاء
أجاثا، قد يكون هو الشاهد أو المراقب والكاشف، مضى يقرأ
رسالة ثيسجر.

(53) وهل أعلامنا أكثر من إعلانات لصناديق مغلقة تتهاذى على أمواج بحر بعيد؟ سأقول وداعاً!

قلت زياراتي للمدن، صرت أخاف على نفسي من اعتداء غوغائي. فقد كثرت في هذه الأيام المظاهرات والإضرابات والاضطرابات، في كل مكان تقريبا كنت أسمعهم يهتفون "يسقط الاستعمار" "تسقط الحكومة العميلة" "اغلقوا سفارتهم، أطردهم" وهم يقصدوننا نحن الإنجليز، قال لي عمارة، إنهم في الأهوار عادوا يقولون إنني جاسوس، والحلاقون الذين أوقفت تقريبا عملهم في ختان الأطفال؛ صاروا يحرضون علي لكي أطردهم من الأهوار، ورجال الدين الذين يقولون أنهم أحفاد الرسول ويمنعون الأطفال من الذهاب إلى المدارس، ويأتون للأهوار ينتزعون البط والأسماك والفتيات الجميلات ويتركون الناس جوعى حزانى، تكاثروا الآن وسيطروا على الناس المساكين، وقد التقى معهم الشيوعيون وراحوا ييثون أنني جئت لأنجس على أنشطتهم الثورية، ويحثون على قتلي! هذه الرحلة ستكون رحلتي الأخيرة، وهي الوداع. ، قال لي عمارة أنهم قد هددوه وأمره أن يتركني وإلا فسيقتلونه لعمله مع رجل كافر جاسوس فاسق، قلت له وياسين أنا لا أقبل أن تدفعا ثمنا باهظا من أجلي، رجوتهما أن يبحثا عن عمل آخر، وكنت أعرف إنهما لن يجدها، فهنا البطالة شاملة مطبقة. لا أستطيع البقاء طويلا في الأهوار، كثيرون صاروا يترصدونني، سأودعهم قريبا (لا أستطيع ترك بضعة أطفال وعجائز مرضى بدأت معهم علاجا وأحضرت لهم أدوية ينبغي أن أعطيها لهم بيدي، سأراهم حتى لو قتلت خلال هذه الأسابيع القليلة) بدأت مراسلات لكي أنتقل

إلى أفريقيا! كثيرون ممن سيسمعون بحكايتي سيقولون أنني ذلك الإنجليزي الأبله الذي ركض سنوات طويلة فوق الماء وراء امرأة حسناء، ليكتشف في النهاية أنها مجرد صورة على صناديق الشاي الهندي، ربما خطتها ريشة رسام مخبول سكير أو مأجور! لا يهمني ما سيقولون، فأنا أعرف رغم أنني جديد على العشق، كم على العاشق من ضرائب يجب أن يدفعها حتى عن غيره من العاشقين، فهو يدفع ثمن تجربته من روحه ودمه، ليقدم الخبرة والعبرة لغيره من العاشقين، ثم ماذا في صورة على صناديق الشاي أتذكر كلمة جميلة قالها صديقي سليم البكري، " وهل أحلامنا أكثر من إعلانات لصناديق مغلقة تتهدى على أمواج بحر بعيد!" لم أجد فاطمة، وربما لن أجد لها إلى الأبد، لكنني لن أخرج من رحلتي الطويلة فاشلا، لقد أحببت عرب الأهوار رغم متاعبي معهم! كانت بيننا عشرة طويلة وذكريات عميقة. فهم أهل فتاة أحببتها على أي حال، لا أندم أنني أنفقت سنوات من عمري بينهم، أحببتهم شعبا حزيننا متواريا عن الأنظار! سواء كان أصلهم سومريا، عربيا، نيباليا، هنديا غجريا، لا يعني الأمر عندي شيئا فهم بشر مثلنا، تبعثروا فوق الماء كما أضواء النجوم الصغيرة إذ تذوب فيه معهم ليلا، كما الأسماك المتلامعة فيه عند الفجر، كما غبار سكر القصب، وحليب الجواميس تدر فيه عند الغطس بعد فرط اكتناز، أداروا ظهورهم لليابسة وما عليها من ناس يتقاتلون على الثروة والسلطة والأعيب المتدينين، لم ينتسبوا لقبيلة، ولم يكثرثوا أن شيوخ القبائل لم يبسطوا عليهم أنسابهم، استعاضوا بشجرة الخلود المروية من مائهم عن أشجار الذهب والألقاب والأحزاب، نعم ربما صورة بنت المعيدي مجرد إعلان شاي ولا وجود لصاحبها أبدا، ربما هي وهم أو حلم كأي خفقة لذيدة منعشة تستلب قلوبنا لحظة ثم تتوارى، لكن ما عشته بين المعدان جعل لها وجود في قلبي، كأنها ولدت في روحي، وستكبر في

أعماقي لقد عشت بين أهلها البسطاء، ن اقتسمت معهم الخبز
والحكايات، ورجفة القمر تحت خبطة مجذاف المشحوف!
، أعطيت لياسين وعمارة ما استطعت من مال قليل ، قالاً أنهما
لن يتركاني لوحدي ، سيظلان معي ولن يفارقاني إلا في محطة
قطار الناصرية أو البصرة مودعين حين أترك المنطقة
نهائياً، وسيظلان يرقبانني ويرعيانني، حتى لو سيقطلا!

بعد أن أنتهي من رحلتي إلى غابات وأدغال أفريقيا سأعود
إلى لندن لأقضي شيخوختي ومعني تلك الذكريات الغاليات. كلما
صار الجمر في موقد بيتي اللندني رماداً وضعت فيه من حطب
ذكرياتي في الهور ليتأجج بالنار، فتدفا عروقي ويجري بها دم
شبابي الأول، ستكون في حجرة نومي وصالة بيتي وصدر
مدخل البيت صور لفاطمة، تلك الصور التي رافقتني في رحلة
البحث عنها، تطل عيناها ترمقاني بحنو وأسى، معذرة أنها لم
تظهر لي، متفهمة عجزني عن الوصول إليها، طالبة مني أن
أعذرها أنها لم تستطع أن تصل إلي، كم سيكون وجهها حانياً
جميلاً وهو يحتضن شيخوختي وأحزاني ووحدتي بعيداً عن
الناس في لندن التي لن تعرفني ولن تتذكرني طبعاً، سأحدث
معها كل يوم وسيكون العراق ، وأصدقائي فيه معنا ، أنظر من
نافذتي: أه يا أهل لندن، لي هنا في بيتي أصدقاء طيبون جاءوا
معني من أرض بعيدة في هذا العالم، إذا أحب أحد منهم أن
يجلس معكم في مقهى أو حانة لا تنظروا في وجهه شزراً،
اسمعوا حكايته وأغانيه الحزينة، ستشعرون بالفرح وتذكرون كم
يغدوا العمر غنياً ومديداً إذا أضفنا له شطراً من عمر الآخرين
والإنسانية كلها، وكم تكون الحياة مستقرة هائلة إذا شددت لجذور
عميقة في التاريخ، ذلك درس استقيته من عيشي مع الناس في
العالم كل هذه السنين الطويلة! (كم سيكون عمري آنذاك؟
سبعين؟ مئة؟ كما قالت العرافة؟!) تلك ثمرة تنتظرني لسنين

قادمة في بيتي الأخير الذي سيكون في لندن، هذا هو زادي العظيم عند عودتي لوطني المشبع بالضباب إذا امتد بي العمر يا عزيزتي أجاثا، ليتنا نلتقي معا في لندن عند تقاعدنا، لنحدث عن حصاد رحلاتنا الطويلة، والكثيرة ماذا حققنا في بلدان الشرق وفي العراق الذي جمعنا وفتح لنا أرضه وقلبه، هل للمغامرين من أمثالنا سن للتقاعد؟ ولكن لابد للعمر من نهاية!

لو كتبت روائي قد لا تجد رواجا كرواياتك البوليسية، لكنها ستكون تذكارات لحياتنا معا نحن المثقفين الإنجليز في هذه الأرض الجميلة. ما جنناها نحمل أسلحة؛ بل الحب والمعرفة؛ فواجهتنا الأسلحة، أنا شخصا لا أتهم أهل البلاد المعذنين، ولا أنسى أن جيشا هائلا من الإنجليز والهنود دخلوا قبلنا يحملون الكثير من الأسلحة، وقد بنوا لهم الكثير، لكنهم تركوا في أعماقهم جراحا كثيرة أيضا، أنا من سوء حظي إنني سقطت في هذه الجراح!

وضعت أمامك يا عزيزتي أجاثا خلاصة تجربتي ومشاهداتي، وما سمعت أو عرفت في الأهوار، بالطبع أنا لا أطمح حتى بالاقتراب من أسلوبك القصصي البارع، (أرجو أن تسامحيني عن دعاياتي السابقة لأسلوبك الإبداعي الذي لا يعلى عليه) اترك هذه المادة الخام لتصوغها رواية أو مسرحية، وأنت حرة في ما تحذفين أو تضيفين، المهم أن تحافظي على جوهر ما أردته من رحلاتي أو مغامرتي كلها وهو محاولتي اكتشاف الجمال والدهشة والفرح في الأماكن النائية والمهجورة، والتعرف على أمزجة الناس هناك وثقافتهم، وتقريبها للعالم البعيد، فإذا وفقت في ذلك أو في بعضه، فذلك مبعث سعادتي، وإذا كنت قد فشلت، فليضف هذا الحزن إلى أحزاني الأخرى، والمهم إنني لم أؤذ أحدا، ولم أتسبب في ضرر أو إزعاج لغيري، لك الفضل في دفعي لجمعها من هنا وهنا، ولك الشكر لو فقط تجشمت عناء قراءتها!

انتهى ماكس من أوراق ثيسجر رغم إنه لم يجد ما يهديه إلى أجاثا لكنه أحس بالراحة ،وقف في الشرفة يتأمل النهر، وجد نفسه يائسا من مجيء خالد، وحتى لو جاء فإنه لن يخرج من الأوراق التي قراها بأكثر مما خرجت من أوراق ثيسجر ،لاشي يهدينا إلى أجاثا سوى الصمت ربما يتفرقع واسمع صوتها من تحته كعادتها لنقول:

- ماكس أنا هنا، مالك شاردا متحيرا ماذا جرى؟

- ألا تعرفين ماذا جرى؟ تخففين أياما ولا تعرفين ماذا جرى؟ أن أظنن أنك في رحلة وراء الآلة الكاتبة لارحلة على ظهر القدر؟

ولكن ها قد مرت أيام طويلة ثقيلة دون أن تظهر أية إشارة ملموسة تجعلني أعرف ماذا حل بأجاثا،هل ستعود؟ أم ستكون قد اختفت إلى الأبد، هذه الليلة لن أستطيع النوم أيضا!

(54) خالد يرى أن أجاثا وقعت تحت تأثير اغواء ما، وماكس يرى أنها ضحية لصوص الآثار، وبينهما الريح تلعب بستاير بيت الآثار!

توقف ماكس عن القراءة، وضع الأوراق جانبا، خرج إلى الشرفة يتطلع إلى النهر ، وقد ظلله الغروب بشفق أحمر، وجد شلالات دم تسيل من السماء. "لم أر الأفق يوما هكذا، هل تغيرت عدسة عيني؟ قد يكون الأمر عكس ما تقول أجاثا، ربما هناك لعنة للفراعنة، وأخرى للعراقيين القدماء؟ سومريين بابليين آشوريين آراميين، وإن ما حل بأجاثا وبي هي لعنة منهم، لأننا مسسنا أشياء غالية عزيزة عندهم، ألا يحتمل أن القيثارة المولعة بها أجاثا تحمل في جوفها الكثير من اللعنات، وفي كل نغمة تطلق لعنة علينا؟ كم من لعنات العراقيين القدماء يجب أن تنزل علينا جراء ما فعلته حكوماتنا بهم؟ قال لي الراهب بهنام في الدير، بصوت حزين كما الحشرجة الأخيرة: "حكوماتكم بضعت شعبنا، مزقته، حكمته بقاعدة فرق تسد! جعلت بلادنا مجرد محطة نفط على الطريق، أين تفر حكومتكم من عقاب الله؟" أليس كلام الراهب نذير بلعنات أسلافه الكهنة القدماء؟ ولكن غيرنا من الأجانب سرق تماثيلهم وألواح قوانينهم وحتى جدران قلاعهم، ولم يقع عليهم أذى! ترى إذ كان ما أقوله محض أوهام وأخيلة تعيسة سيئة سببها ما أنا فيه من قلق وحزن ترى أين تكون أجاثا الآن؟ ماذا حل بها؟ اختفاؤها المفاجئ والطويل أليس لعنة؟ إذا كانوا غاضبين على دولتنا التي غزتهم، وفرقتهم كما يقول الراهب، ما ذنبنا نحن الذين أحببناهم وعملنا في الصحراء تحت الحر الشديد والبرد القارص لنجلو ذاكرتهم وننتزع لهم تاريخهم من يد الفناء؟ يخيل إلي أن أطيف

وشخصيات الماضي يفرقون بين من يريد سرقتهم ومن يريد أن يصل إليهم بنزاهة ليعرفهم للعالم، أو يطلق سراهم من سجن الموت، لا، أجاتا بخير وستعود!

عاد خالد إلى المقهى مكانه المفضل للقراءة والتفكير، يسرح نظراته مع النهر الذي بدأ يغدو عكرا وعاليا، أولى علامات ذوبان ثلوج الشتاء في أعالي جبال المنابع، لكي أعرف أكثر، وأقترب من أجاتا بالقدر الكافي، وربما أصل إليها؛ أحتاج لمعلومات أخرى. مع ما حصلت عليه من هذه الأوراق المهمة، يجب أن أوجه لماكس بعض الأسئلة، وعلى ضوء أجابته سأرى طريقي جيدا. عاد يتأمل كل شيء بهدوء وارتياح، الأوراق والفضاء الرحيب، السنونو بين الشاطئ وسقف المقهى، برج القشلة على الضفة الأخرى، الشاي المطيب بالهال أو الزهور، ونكهة المدينة، ضجيجها الأليف، لم يجد ضرورة لتدوين أسئلته فهي قليلة، مضيئا "لا يسقط من ذهني أو ذاكرتي أي شيء يتعلق بأجاتا وزوجها ماكس!" دخل الفندق هادئا مطمئنا، كانت الشمس تقارب الضحى، إنه اليوم السابع لاختفائها، وإذا لم يمسك خطوة صحيحة على الطريق، فإن حل لغز اختفائها سيكون أكثر تعقيدا مما يظن، الحل والوصول إليها لا يتم بالتمنيات ولا بالثقة بالنفس وحسب، الشمس التي يراها ماكس الآن من شرفة حجرته دامية مخيفة غير الشمس التي لمس خالد سطوعها الصافي وهو يدخل الفندق، هي أشرقت على بغداد تريد أن تجد كل شيء في مكانه الصحيح، فلا تجاوز ولا اعتداء، كل شيء ينبغي أن يكون تحتها أمنا مطمئنا، هكذا تقول وجوه المارة في شارع الرشيد! استقبله ماكس بلهفة صامتة، صافحه محاولا أن يبتسم، كان قد يئس كثيرا، لكن ظهور خالد في هذه القضية هو يد الأمل تمتد إليه وهو في لجة عميقة، شعر خالد أنه يقول له، لقد لوحث لي بنهاية سعيدة ثم ذهبت و تأخرت، وأبطأت! قال:

- معذرة قرأت الأوراق أكثر من مرة ، فكرت كثيرا وقلبت الأمور وأعتقد أننا نقرب من أجاثا!

ذلك جعل أسارير ماكس تنفرج ومزاجه يفتح ،سأل خالد إن كان يرغب في شراب بارد، عصائر أو بييرة مثلجة، أو شاي ، مع إشارة ناعمة من يده قال خالد:

- دع ذلك إلى الساعة التي تكون فيها أجاثا معنا.

ابتسم ماكس بتردد :

- حين تكون أجاثا معنا ستمنعنا من الشراب!

قال خالد ضاحكا:

- آنذاك سنخالف أوامرها!

أخذ ماكس ينظر في وجهه مستفهما، ماذا استجد لديه فجعله متفائلا؟ لا بد إنه توصل لشيء جدي، لم يسمع به من المحققين الذين استجوبوه من قبل، يتذكر احدهم كان جلفا عابس الوجه ينظر إليه شزرا، كأنه يتهمه بقتلها والخلاص منها لأمر ما ، ربما لأنها تكبره كثيرا!

جلس قبالة، على المقعد الجلدي الأسود الفخم في البهو، سأله بهدوء:

- أريد أن أعرف، أليس القيثارة الذهبية في المتحف الآن؟

قال ماكس وكأنه يستفيق الآن فقط:

- لا هي في البيت الذي كنا فيه، جاءوا بها لترميمها وصيانتها!

- وأين يكون هذا البيت؟

- إنه في الكرخ قبالة فندقنا تقريبا؟

- هل تستطيع أن تصفه لي؟

- إنه قصر كبير، يقولون إنه كان لتاجر يهودي، فيه حجرات عديدة أغلبها مهجورة استعملت كخازن لتحف وألواح كثيرة، هو أشبه ببيت الأشباح، ولكن فيه حجرات مؤتثة بشكل جيد سكناها طويلا ، لها شبابيك وشرفات تطل على النهر، كنا نجلس فيها عصرا أو مساء نشرب الشاي، ونسمر مستمتعين بنسائم النهر!
- من يسكن فيه الآن؟

- لا أحد، لقد انهينا عملنا فيه، من المحتمل أن يسكنه فريق العمل الهولندي الذي سيقوم بترميم القيثارة وغيرها من التحف، لكنه لم يصل بغداد بعد، لقد ذهبت إلى هذا البيت بعد ان طال غياب أجاتا عن الفندق معتقدا أنها ربما ذهبت إليه لغرض ما، وجدت أن الحارس قد قفله بحزام حديدي خارجي، وغادر بغداد إلى أهله في مدينة أخرى!

- هل تعرف شيئا عن الحارس، ولمن سلم مفاتيحه؟
قال ماكس كمن يفاجأ:

- نعم ، إنه شاب طيب، أمين ، عرفناه مذ كان يعمل معنا عند تنقيتنا في نينوى، يسكن الشرقاط، أبقى مفاتيح البيت عنده. وذهب في إجازة إلى أهله!

أحس ماكس كأنه استيقظ من نومة طويلة لتوه، هل الحارس أحمد، أمين طيب حقا؟ ألا يمكن أن يكون هو قد استدرج أجاتا إلى هذا البيت، لغاية دنيئة، وإنه بعد أن حاول الوصول إلى هدفه، ولم يفلح، قام بقتلها في بيت الأشباح هذا المليء بالنصب، ووجوه وأفئدة الموتى المنحدرين من أعماق زمن هذه البلاد؟ ألا يمكن ان أحداً ما قد استأجره ، أغراه بالمال ودفعه إلى جريمته؟ من قال أننا آمنون هنا غير مستهدفين من جهات عديدة سياسية أو متاجرة بالآثار؟ لماذا لم يخطر لي ذلك إلا الآن؟ نظرات أحمد إلى أجاتا كان فيها ما هو أكثر من

الإعجاب، اشتهاه واضح، رغبة طائشة، ولكن هذا أيضاً يصعب تصوره، كان ينظر إليها كأم له، فهي بعمر أمه، كان يرافقهما وفريق العمل منذ سنوات، جاءهم يافعا، دون الثامنة عشرة، هم في فريق التنقيب دربوه، كأنهم قاموا بتربيته بينهم كابن لهم، أجاثا اقترحت أن يأتي معهما إلى بغداد، فهي أيضاً تعامله كابن لها، هو نظيف، وذكي ومطيع وتعلم الحديث اليومي بالإنجليزية بسرعة، كان منهمكا بعمله معنا لا يتركنا إلا عند ساعات الراحة، ولم أجد لديه اهتمامات غير عادية. لا أستطيع أن أجزم إنه مغرم بها حد الوله الجنوني بحيث يغتصبها أو يقتلها، أو يستدرجها لاختطافها لحساب أحد، ولكن لماذا اختفى بنفس الوقت الذي اختفت فيها أجاثا؟ أنسيت؟ ذلك مجرد مصادفة، فسفره كان مقررا منذ يومين بعد انتهاء عملنا، خلا البيت من نزلائه المنقبين والدارسين، الذين سافروا كل إلى وجهته، فتقرر أن يغلق البيت، ويسافر إلى أهله في الشرقاط، في إجازة، حتى روايته يأخذها من المدير الإداري لبعثتنا هناك، هذا كل شيء، لم الظنون؟ أخرج من مفكرته اسمه الكامل وعنوانه في الشرقاط وقد شحب وجهه، هل أحمد هو القاتل؟ أهذا معقول؟ راح يكرر في ذهنه المشهد المؤلم، وتنهال الأفكار وتتداعى في رأسه كأحجار جدار ينهار، إذاً هو استدرجها إلى البيت، وهناك حاول اغتصابها، وحين قاومته قتلها، أيمن أن يحدث ذلك؟ لماذا لم يفعلها في موقع التنقيب حين كانت تبقى في خيمتها ساعات طويلة، تكتب أو تقرأ، أليس هناك أسهل له أن يقوم بفعلته الفظيعة، فيكون بحماية قبيلته المعروفة بالقوة والشراسة؟ ولكن ربما فقط الآن اجتمعت أسباب الجريمة، لماذا لم يخطر ذلك على بالي؟ لماذا لم أخبر المحققين عنه، وأخبرتهم فقط عن المسكين جبرائيل والذي لا يزال معتقلا؟ لقد ركننت إلى المجرى الطبيعي للأمور، انتهاء عمله في البيت، إقفاله من الخارج وكلام الجار الرجل الوقور الذي يعرفه ويطمنن له أيضا! لم يكن في حديث

الجار الهادئ العادي أي شيء مريب! لو كان الجار قد شك به، ربما نوه عن ذلك، وهو يراني أبحث عن أجاثا، هذا كل شيء! ويعود خاطر التعيس يلح عليه، أحمد قد استدرجها من الفندق، كأن أعلمها بوصول الخبراء وأنهم يريدون مقابلتها، وهي المولعة بالقيثارة فتبعته إلى البيت لتراهم وتحدث معهم عنها، وكيف القيثارة تلاحقها وتحوم حول رأسها، كطير أسطوري، ثم تعود إلى الفندق قبل أن أستيقظ، لكنه هناك ارتكب فعلته الشنيعة، وترك جثتها داخل البيت وهرب إلى أهله، وقبيلته؟ ما هذا؟ لماذا تركت كل هذا يحدث؟ أية غفلة رهيبة أخذتني إلى الجحيم، لماذا استبعدت هذا الاحتمال كليا من ذهني طيلة هذه الأيام التعيسة؟

راح في سهوم مريـر صامتا وخالد يرقب ذهوله بعين محقق مدقق ينتظر منه أن يتحدث بكل شيء يعن على باله! أفاق من ذهوله ليسمع خالد يسأله:

- متى جاءوا بالقيثارة الذهبية إلى البيت؟

شعر ماكس بشيء من الحق، أين يذهب خالد بالتحقيق؟ يتراءى قاتل أجاثا بوضوح وهو ما يزال يسأل عن وضع القيثارة؟ ومع ذلك أجابه:

- قبيل تركنا البيت بساعات!

- كيف نظرت أجاثا إلى القيثارة أو تعاملت معها وقد حلت ضيفة في البيت؟

ضجر وامتعض من أسئلته، وجدها تشط بعيدا عن القاتل، لكنه وبشكل ما لم يشأ أن يفرط بأية معلومة مهما كانت صغيرة قد تكشف عن شيء لا يتوقعه، فهو قد منحه ثقته على أي حال:

- لم تفارقها لحظة واحدة قالت يا لسوء حظنا، أنها حلت هنا في البيت بينما سنغادره ، ليتني أستطيع أن أتعلم العزف عليها،

ليتني أستطيع أن أكتب بها كآلة كاتبة، وأغرق بأنغامها السرية
الخفية الملهمة!

فجأة نهض خالد ممسكا يد ماكس ، وقد أنهضه معه برفق
وهو يقول:

- هيا معي!

- إلى أين ؟

- إلى القيثارة طبعاً، أريد أن أراها!

كاد ماكس ينفجر غضباً، بماذا يفكر هذا المحقق الشاب؟ عاد
في ذهنه صبياً كما كان قبل سنوات طويلة يتقافز أمامه في أيس،
هو استغرق يفكر في القيثارة بعيداً عن القاتل الذي أسفر عن
وجهه المتوحش واضحا! كان خالد متأنياً بطبعه، لا يريد أن
ييدي تفاؤله وما يراوده من أمل، خشية أن يكون ثمة شيء غاب
عن باله هو رغم صغره، تكمن فيه الكارثة كلها! فثمة أشياء ما
تزال غامضة، ولا يستبعد احتمال تعرض أجاثا لأذى، أو
موت، لا يستطيع أن يؤمل ماكس جدياً بشيء طيب محدد، قد
يتحقق عكسه فيصدم ماكس أكثر، كان يكتفي بقوله له "نأمل أن
تكون بخير"، دون أن يفصح عما فكر به، وما الذي قاده إلى
هذا الاستنتاج! هو الآن يريد أن يذهب لرؤية بيت الأشباح هذا،
ويرى القيثارة بهيئتها الحقيقية قبل أن تزوقها أو تشد أوتارها
وتزوقها أصابع المرممين المختصين. فأن يكون البيت مقفلاً من
الخارج فهذا يعني أن أشباحه الآن تلعب في قيثارة الزمن بألحان
غريبة مذهلة، هو يريد أن يسمعها ويعرف منها خطى أجاثا في
أية أرض موحشة الآن تجوس، يجب فتح هذا البيت، فأن يكون
مقفلاً من الخارج ليس دليل براءة، فظلامه وعتمته الآن
مكتظتان بمردة وسحرة وغيلان وشياطين والقيثارة دون أنامل
ساحرة لا تستطيع أن تطرد الشر! من يمكن أن يكون داخل
البيت من الأحياء، ليس بوضع عادي، وثمة شيء غريب قد

حدث له! يصعب التكهّن بأمره دون فتح باب هذا البيت ومعرفة ما في داخله، هو مخزن آثار، يضم ألواحاً ولقى أثرية شتى سيوف محاربيين وأواني خمر وكؤوس عشاق وموتى ومردة وشياطين وكثير مما تكون صنعت المصير الأخير لأجاثا القادمة من ضباب بلادها إلى هذه الشمس المغرية، الخبيثة المراوغة؟ ماذا لاقت وماذا عانت هناك؟ أهي حقا حية أم ميتة؟ لم يشأ أن يفصح لماكس أين يميل تفكيره بالضبط. هناك في ذلك البيت الكبير على الضفة الثانية من النهر وقرىبا من القيثارة سيجدان معا السر! ظل ماكس جامدا في جلسته، مثل صبي وضع بيد معلم يقوده كيف يشاء، سأله خالد:

- أين يمكن أن نجد مفاتيح البيت؟

- بالطبع هناك نسخ منها لدى مديرية الآثار!

- لنذهب معا، نعاين البيت نرى مخرجه ومداخله ثم إذا وجدنا من الضروري أن ندخله؛ نجلب المفاتيح من دائرة الآثار! راح يتأمل وجه ماكس، كان شاحبا شارد النظرات، قال بهدوء:

- أفضل أن نذهب معا، ولكن إذا كان ذلك يرهقك تستطيع أن تبقى هنا لترتاح وأستطيع أن أذهب وحدي إلى البيت؛ فقط أعلمني أين يكون، ولدي صلاحية بفتحه بإشراف دائرة الآثار!

- سأرافقك، فقط اسمح لي أن أغير ملابسني!

صعد ماكس الدرج يجر جسده الثقيل إلى حجرته وجلا مرتبكاً، ما هذا الذي يحدث؟ أية ورطة وقعت بها؟ ما الذي أتى بنا إلى هذه البلاد؟ أية ساعة رهيبة لا تريد أن تمضي، سيرتدي ملابس ويذهب مع خالد إلى بيت الأشباح، سيفتحونه على أي حال، ليجد أجاثا جثة هامدة ممددة بين الألواح الطينية المنقوشة بالكتابة المسمارية والبابلية كأنها تحمل نص مصيرها المنحدر

من أقدم الأزمنة. والقيثارة على المنضدة تطل عليها مثل لبوة
اكتفت بمص دمها، وراحت تتأملها مستمتعة تمهيدا
لالتها مها. ماذا فعلت بنا هذه القيثارة الماكرة؟ أغوت كاتبة
عظيمة، وطاوعت مختطفها القتلة وجعلتها تلهث عند قدميها
مستحمة بأنغامها، مم تريد أن تتطهر؟ الحكاية الدموية اضحت
واضحة ثمة لصوص آثار تواطأ معهم الحارس أحمد استقدموا
أجاثا إلى البيت سرقوا القيثارة وتحف أخرى ثمينة وقتلوا أجاثا؟
ترى ولكن ماذا يستفيد اللصوص من قتلها؟ إنه شرط الحارس
أحمد لكي يقول عند التحقيق أنها صفقة تمت بين اللصوص
وأجاثا بغيا به ولا علاقة له! هكذا أدارها ماكس في عقله الذي
ازداد اضطرابا وهذيانا حتى صار صوت تفكيره مسموعا،
أهكذا كانت نهايتك ابنتها الكاتبة العظيمة؟ كيف خذلتك براعتك؟
تلعبين بمصائر أبطال رواياتك ولا تعرفين كيف تتعاملين مع
مصيرك؟ ولكن أي مصير مرعب قدتها أنا إليه؟ لقد تهربت من
رؤية الجثة التي دعاني ريتشارد لمعاينتها، ماذا قال عني
ريتشارد في حينها؟ ربما تفهم موقعي، كيف أتخلص الآن من
الآلام الفظيعة التي ستسحقني حتما عند معاينتي لجثة أجاثا؟ هل
أدع خالد يذهب لوحده ويرى كل شيء، هل سينفهم وضعي؟ أم
يعدني جباناً رعيديا يخاف من مواجهة الحقيقة أو الفاجعة!
ولكن وجه خالد وابتسامته لا يوحي أنه يتوقع أن نجدها جثة، بل
لا يوحي أنها هناك أصلا، كيف تكون في البيت وهو مقفل من
الخارج وبالحرز الحديدي المتين؟ قرر أخيرا أن ينتهي من
هذا الأمر سريعا ولا يدع الأمر لوقت آخر، كل دقيقة تمر
تخترق قلبه وتوجعه كثيرا، الوقت يزيده وحشة ورعباً.

(55) ماذا فعلت أيتها القيثارة ، قبل آلاف السنين قدت موكب العذراوات إلى الموت الإجباري، واليوم أجتذبت أجاثا كريستي إلى موكب آخر!

نزل ماكس وخالد إلى ضفة النهر، اتجها حيث تقف القوارب عادة، كان كثير من البلامة يتقدمون بقواربهم إليهما، لم يكن دعبول بينهم ، يبدو هو اليوم قد أثقل في الشرب وعاد إلى بيته، كانت الشمس تتوسط السماء ناعمة ذهبية والماء يرسل لمعانا من توهج الشجر والنخيل والجسر البعيد. استقلا القارب، كان النوتي صامتا، واجما، وماكس يرمق خالد بتوجس، بينما خالد يحاول طمأنته بابتسامة مترددة واهنة. رسا القارب كما أشر ماكس للنوتي، منح خالد للنوتي قطعة نقدية، وقفز من القارب يتبعه ماكس بخطوات سريعة، وبصره مركز على البيت الذي تعرف عليه وهو في عرض النهر. عند الباب قال ماكس:

- انظر إنه مقفل من الخارج.

تفحصه خالد ، ابتعد عن الباب ووقف أمام البيت على مسافة وراح ينظر إليه من جوانبه وزوايا التقائه مع البيوت المجاورة، استرعى انتباهه أن النوافذ كلها مقفلة بإحكام وإن ستائرهما مسدلة بشكل بدا له مبالغ به، كان ماكس واقفا عند الباب محبطا منكمس الرأس، راح خالد يتجول في الشارع المبلط الذي يفصل البيت عن النهر، ينظر إلى الشاطئ والنهر ويعاود النظر إلى البيت كأنه يقيس المسافات الخاصة بمداخل ومخارج مسرح هذه الجريمة أو الحدث المفترض، كان ينظر جهة النهر حين سمع ماكس يتحدث بصوت مرتفع مندهش مرتاع التفت فوجده يتحدث مع شاب، اقترب منهما قال ماكس وقد بدا موزعا بين

شتى المشاعر:

- أقدم لك الحارس أحمد !

تطلع خالد إليه، كان بقامة متوسطة ممثلة ووجه أسمر مستدير تطل منه عينان كبيرتان نابهتان، أضاف ماكس متأرجحا بين قلق وخوف وغضب وفرح غامض:

- لا بد إنك سمعت بما حدث لأجاثا، هل لديك شيء عنها؟

أقلقه صمته، تجاهله لسؤاله، أضاف بنبرة وجلة:

- حضورك الآن مصادفة طيبة يا أحمد، نحن نريد أن ندخل

البيت، هل معك المفاتيح؟

لم يحر أحمد بشيء، كان يبتسم بهدوء، ورغم إن ابتسامته مطمئنة لكن ماكس راح يفكر، المجرم يحوم دائما حول مكان جريمته هذا ما كانت تردده أجاثا في روايتها، لم يشأ ماكس أن يقدم خالد لأحمد، ويفصح عن وظيفته ومهمته، لا بد من الحذر معه فقد يكون هو القاتل رغم أن تأمله لوجهه وابتسامته الواهنة الحزينة منحته شيئا من الطمأنينة!

ساد صمت ثقيل مضطرب، قال احمد فجأة بصوت مرتبك:

- سأفتح لكم البيت!

وراح يدير مفاتيحه في عدة أقفال بعضها لم يكن ظاهرا! دفع الباب الكبير ليجد ماكس وأحمد أمامهما ما لم يكن يتصوراه يحدث بهذه السرعة وهذا الشكل، أجاثا كريستي نفسها واقفة على مسافة قليلة عن الباب الخشبي الكبير، كانت تبتسم مثل طفلة كسرت ورق الحليب واختفت مشاكسة والدتها وراء دولااب الملابس، ظل ماكس في مكانه متجمدا، مبهوتا غير مصدق، ينظر إليها مدققاً كأنه يتعرف عليها لأول مرة، وببطء انفتحت يداه واندفع نحوها يحتضنها متمتا بكلمات غير مفهومة لخالد، أطال عناقه لها، راحت أجاثا تضربه بخفة على كتفه

قائلة:

- كفى! كفى أتريد أن تخنقني وتلحقني بالأموال حيث لا يطيب لك إلا لقاء الهياكل العظمية!

انهى عناقه، وفجأة تذكر إنه غاضب عليها أيضا، ولم يعرف تماما سر، وجودها هنا:

- لماذا أنت هنا يا أجاثا ؟ أتعرفين ماذا فعلت بي؟

قالها كالمزاح، وجدها لأول مرة منذ زواجهما متلججة مرتبكة، لا تعرف ماذا تقول، قالت بتردد

- مع القيثارة ! لقد أنهكتني وأنا أركض أمامها وهي تلاحقني! قررت أن أكتب روايتي على أنغامها وأنتهي منها!

ابتسم خالد، أحس بنشوة كما توقع تماما، لن نجدها إلا جنب القيثارة التي كتبت عنها بخشوع وابتهاال! لمح ماكس في وجهها شحوبا، وفي صوتها رجة، ما حدث لها ليس عملا إراديا، إنه نفس الشرود الذي أخذها، وغيبها عن نفسها، في لندن قبل سنوات طويلة حين ضاعت وتاهت في انجلترا، ظنوها انتحرت أو قتلت أيضا، ولم يجدوها إلا مصادفة، حالة ذهول عميقة يصعب إدراك كنهها، أهو انسراح مرضي أو انصياع لحلم عميق بعيد الغور في روحها وقلبها، لم يكثرث لقولها حين سمعها تقول مع ضحكة أقرب لضحكة مجنونة:

- انشغلت بكتابة رواية ثيسجر! ألا ترى أن علي الخلاص منها وقد شغلنا بها طويلا ،أتعينا برسائله وملاحقاته، عكفت عليها في هذه الأيام القليلة ، كتابة متواصلة هدتني تماما، لم أكن أنام الليل واصلت الكتابة ليل نهار ، لكنها كتابة ممتعة على أنغام القيثارة السومرية مزجت بهذا العمل القصير السريع قصته مع بنت المعيدى، برواية أخرى شغلنتي كثيرا، هي روايتي الأولى التي ليست فيها جريمة ولا قتلة!

قال مندهشا:

- ولكن أوراق ثيسجر وجدتها في حقيبتك واعذريني إنني قرأتها بحثا عن أي شيء يوضح لي سر اختفائك، فلم أجده!

- أنت تعرف يا ماكس أنا بعد أن أقرأ الوثائق أو الرسائل ألقيا جانيا وأدع الحدث والشخصيات وصراعاتها كلها لتنمو وحدها في ذهني دون تدخل لا مني ولا من الأوراق ، بذلك تأتي مختلفة تماما مع أصولها متفقة في أشياء كثيرة متفقة معها في روح الإبداع بأشياء كثيرة!

يبدو كلامهما معقولا فهو ذو طبيعة مهنية بحتة لكن لا ، أجاثا وقعت وكما حكم القدر تحت تأثير نوبة ذهول عميق مزلزل ، لا يمكن من أجل كتابة روائية أن تجعلها تنعزل في هذا البيت ما يقارب من سبعة أيام، دون أن تعلمني وتثير حولها مصائب مع السلطات والسفارة وتقلب الدنيا على رؤوس الناس، هذا أمر فظيع لا يحتمل، لا بد أن يكون وراءه دافع مرضي لا إرادي، هي الآن فقط صحت وأخذت تفلسفه! ربما ستقول لي بعد قليل أنها فعلتها من أجل كسر رتابة الحياة الزوجية حيث لها كلمة اشتهرت بين أصدقائنا " الحياة الزوجية تحتاج لصدمة بين فترة وأخرى تشحنها بحرارة اللفة والشوق " ويبدو لا يهمها أن يكون ثمن هذه الصدمة هزة في أجهزة الشرطة ومشاعر الناس! ولكن الآن اتضح كل شيء، جعلت أحمد ينصاع لرغبتها في هذه العزلة الغربية القريبة من الجنون! وقف خالد يرقبهما وهما يتحدثان، وأحمد وقف على مسافة كأنه يشعر بالذنب إنه شارك أجاثا في ما فعلت وفي أذى ماكس، كان يعرف أن ماكس لا يعلم أن أجاثا ستبقى وحدها في البيت، هو يعرف برغبتها في الاختلاء بنفسها لتكتب مثلما كانت تفعل وهي في الخيمة، ورغم إنه رسميا مرتبط بماكس لكنه لطالما تقى الأوامر من أجاثا أمام ماكس ولا يعترض! لكنه لم يكن يعلم أن ماكس يتعذب إلى هذا

الحد، وما سيطرتب على اختفائها! ومع ذلك غمرت ماكس طمأنينته المعهودة مع أجاثا، كل السعادة القديمة التي كانت في خطر عادت لأعماقه، وضع يده على كتفها وسارا باتجاه حجرة الاستقبال . التفت إلى خالد ثم إليها قائلاً:

- أتعرفين هذا الشاب الجميل؟

التفتت إليه مدققة النظر في وجهه، مرت هنيهة حتى عرفتة، صاحت:

- كيف شغلني ماكس بعواطفه الأثرية عنك؟ أنت خالد وكيف لا أعرفك مهما كبرت.

أقبلت إليه، ضمته إلى صدرها:

- كم مضى على آخر رسالة بيننا يا خالد؟

- أنا لم أنسكما، كنتما دائماً في قلبي!

مضى ماكس يعرف بوظيفته ومهمته وسبب وجوده معه. وأجاثا تهز رأسها مستبشرة، ربما تفكر أنه كمحقق سيسهل مهمتها في مواصلة التحري بموضوع روايتها. قال أحمد كأنما ليخفف الذنب عنه:

- معذرة سيدتي لقد تأخر القطار قليلاً، لقد جئت من المحطة مهرولاً لكي لا أبقيك محبوسة أكثر مما أردت.

- أنت لم تتأخر، جئت في موعدك، حتى لو لم تأت كنت، سأستعمل التلفون، أو أقف على السطح، وأصيح فيهرع كل الجيران لنجدتي!

جلس أحمد على الأريكة المجاور للأريكة التي تجلس عليها أجاثا وماكس، كان قد ألف أن يجلس معهما وضيوفهما، ما كانا يعاملانه كخادم أو شغيل مساعد، بل كأنه ابنهما، كان خالد يجلس على أريكة مقابلة، كانت الأرائك من ألوان وطرز مختلفة

لكنها متينة وما تزال تحافظ على بقايا فخامة كأنها جمعت من سوق الأثاث القديم! رأت أجاناً أن وجه ماكس ما يزل ممتقعا، وأصابعه ترتجف، ولا يستطيع السيطرة على نبرات صوته، فغمزته بطرف عينها، كأنها تعدّه بليلة ساخنة لترضيه، ثم مضت تتحدث، الطفلة المشاكسة نفسها عادت لتوها من تيه في الغابة وهي تلاحق غزالة شاردة، تتحدث بنشوة وبساطة ولا مبالاة عن مغامرتها بين الأدغال والوعول والثعابين وظلام الليل متجاهلة دموع وعذاب الأهل، منقلة نظرها بينهم:

- هكذا بدأ الأمر، حكني أنفي قليلاً، عطست، قلت كما تقول العجائز في ريفنا القديم: "هذا بشير خير"، لكن قطرات دم انبثقت، قلت هذا نذير ما، قد لا يكون شؤماً، قلت حتى أنفي يعمل معي في كتابة الروايات، قلت "لقد أزف موعد الرواية" تركت قطرات الدم تتناثر على الأرض، قلت من هنا سيبدأ البحث عني وخيط القص والحكي المثير، لا بد أن أختفي، وأجعلكم تبحثون عني، ستبدؤون من قطرات الدم حتماً، إنها الرواية التي كنت أنتظرها، سأكون مع القيثارة الذهبية في بيت الآثار هذا، كنت على الشرفة أطلع في أفق بغداد وقد أشرقت منه شمس كقوافل جمال ذهبية تحلق في السماء، هرعت نازلة درج الفندق، والقيثارة تلاحقني كأنها قبعتي، غيمتي، أو نجمتي في السماء، لم يكن موظف استعلامات الفندق في مكانه، ولا أي شخص في البهو، الكل نيام، ذلك سهل خروجي دون أن يعلم أحد، حتى لو كان أحد موجودا كنت سأغافله، وأخرج دون أن يراني، لم أعبر مع دعبول كعادتنا، أخذت سيارة تكسي بسرعة، كان أحمد لم يغادر البيت بعد. فوجئ بمجيئي، اتفقت معه أن يتركني وحدي ولا يخبر أحداً، حتى أنت يا ماكس. اشترى لي كل حاجياتي من الطعام لأيام وأكثر، حزمة شموع، وأشياء صغيرة أخرى، طلبت منه أن يأتيني هذا اليوم، قطعت حرارة

التلفون، طلبت منه أن يفتح الباب من الخارج ليبدو البيت خالياً، كما لو كان البيت مهجوراً تماماً! حين كنت أكتب على ضوء الشموع مستعيدة جو المعابد كنت أسدل الستائر بإحكام لكي لا ينتبه الجيران الذين يعرفون أن البيت قد خلا من ساكنيه الأجانب. هذه الأيام القليلة كانت كافية لوضع كل شيء على الورق بعد أن كان الكثير من فصول الرواية يدور في عقلي واضحا منذ سنوات قلت سأكتبها وأنا أسمع موسيقى الماضي كله، وأتأمل القيثارة عن قرب، سأكتب عن خطفني، ومضي بي في تلك المغامرة المجنونة. فكرت أن البوليس في بغداد سيفترض، أشياء كثيرة إلا أمرا يتعلق بالقيثارة. عقدة الرواية باختصار شديد تدور حول عصابة دولية، أثرياء يطمعون بالمزيد، أرادوا الوصول إلى هذه القيثارة من أجل السطوة الروحية على هذه البلدان ومن ثم العالم بأسره العالم، ثمة نظرية لديهم أن من الممكن تنويم العالم مغناطيسيا بموسيقى تصدر من أقدم آلة موسيقية والسيطرة عليه والاستحواذ على ثرواته! اختطفوا زوجة منقبة آثار لمساومتها في الحصول على القيثارة بطريقة تبررها بشكل ما وتجعلها شرعية، زوجة رجل الآثار ترفض رغم الضغوط والإغراء الهائل الذي قدموه لها، تحبط مشروعاتهم مؤمنة أن سرقة هذه القيثارة يعني سرقة روح هذه البلاد التي أحببتها وصارت لها فيها ذكريات تشبه جذور الشجرة الكبيرة. تستمد قوة روحية تقاوم بها الخاطفين من صلاتها الخفية مع كهنة وشعراء وملوك وجنود العالم القديم. هنا يظهر ثيسجر وقد تعب من رحلاته بين صحارى الرمل وصحارى الماء في الأهوار، ومن رحلاته الخائبة في حب بنت المعيدي ليقود حملة البحث عن زوجة عالم الآثار، حتى يصل إليها هكذا أكون قد ضفرت بحثه عن روح هذه الأرض في الرمال والماء ببحثي أنا عنها في الموسيقى المنبعثة من باطن الأرض، لا تستغرب إذا قلت أن وثيسجر وبنت المعيدي قد ظهرا في

روايتي شخصيتين واضحتين ساطعتين كما لم أتوقع ذلك حين شرعت في الكتابة! كتبت روايتي بسرعة وممتعة، تدفقت الفصول والوقائع بيسر كما خططت لها، أخذتني القيثارة على نغماتها السرية الحاملة إلى أماكنها وقصورها القديمة، سأقارن ما كتبتة أنا في روايتي مع ما سجله الشرطة هنا في محاضر التحقيق، وسأمزج بينهما في كتابتي الثانية لها. ربما ستكون ممتعة، ربما صعبة أو معقدة بعض الشيء فتورث السأم، لكنها أرضت خيالي وروحي وأزاحت عني هذا الهم الذي لاحقتني وأرقني طويلاً، لم افترق عن روح القيثارة مهما شط بي التجوال مع شخوص روايتي في أوروبا أو أمريكا. معذرة يا ماكس لقد أفلقتك وأتعبتك كثير، ولكنك ستجد رواية تهزك وتستمتع بها. كان ماكس يتأملها، رغم إنها تتحدث بكل وعي عن روايتها وتفصيلها، لكن أن تحبس نفسها هنا هذه المدة دون تقدير لنتائج ما تفعله يؤكد أنها وقعت تحت تأثير حالتها النفسية المرضية القديمة، ربما ضرب من الجنون الإبداعي، الحلم الطويل العميق الذي يعترى عبقرية أجاثا كريستي، نظر إلى خالد الذي كان يكتفي بالابتسام وهو يرقبهما سعيداً، فتحليله لاختفائها كان صحيحاً وقاده إلى المكان المطلوب، كان ماكس يفكر، بالتأكيد هكذا فكر خالد واقتاده إلى هنا، بالطبع هي كانت ستأتي هذا اليوم إلى الفندق، ولكن وصولهما إليها الآن سعادة هائلة! ترى أيفكر خالد مثله أنها وقعت تحت تأثير شرودها القديم الذي هو أيضاً يعرفه، وهل هناك متابع لسيرة أجاثا لا يعرف إنها دخلت غيبوبة عن نفسها في مطلع شبابها كادت تؤدي بحياتها؟ لكن خالد كان يردد مع نفسه، "شطحة عبقرية منها أصابتنا بعدواها، وجعلتنا نفكر مثلها أيضاً." امتعض ثانية من تحقيقات الأمن والشعبة الخاصة، التي تلقي كل شيء على أكتاف المعارضين، تمنى لو يستطيع ان يجد الكثيرين من رجال التحقيق يتبعون منهجه.

فجأة أطلق ماكس ضحكة قصيرة قائلاً:

- نعم لقد هزنتي روايتك منذ الآن، هزنتي أكثر من اللازم يا عزيزتي!

ابتسمت هي أيضاً لسخريته المرححة، قائلة:

- يصعب عليّ الآن أن أتحدث عن حبكةها بدقة، فهي تتضمن تداخلات معقدة وبسيطة في آن، يتمازج فيها عالم التاريخ الزاخر بكل ما هو مدهش، بعالم اليوم الحافل بالدسائس الدولية، والمكائد البوليسية المثيرة.

- لم يخطر ببالي أن اختفائك مرتبط بالكتابة، بينما ألتك الكاتبة وهي لا غنى لك عنها، مركونة في حجرة الفندق!

- تعمدت ذلك، كيف أجعلكم تمضون في توقع احتمالات اختفائي لو أخذت معي الآلة الكاتبة؟ خاصة وإن الآلة الكاتبة الخاصة هنا، أحدث من ألتى، وكانت أصابعي قد اعتادت عليها عبر عملنا عليها! ثم قد لا تصدق، كنت أتصور نفسي إنني أكتب بالقيثارة الذهبية نفسها، تصور كتابة بالموسيقى وأوتارها الرقيقة المرففة، كيف تكون؟

- رائعة دون شك، بالطبع لا يصح العكس، لا موسيقى من الآلة الكاتبة!

- أنسيت يا ماكس حين كنت تقول تكتكات ألتك الكاتبة أجمل موسيقى صباحية، هل لم تعد تحبني؟ أنسيت قولك كل هذه الروايات كتبتها باستعمال ثلاثة أصابع فقط ترى ماذا لو استعملت العشرة؟ أنسيت؟ هل أغضبتك إلى هذا الحد؟

- حين وجدت فصولا من روايتك وصفحات من يومياتك عن القيثارة وبهنام الراهب، ورسالة تيسجر الطويلة، لم يخطر ببالي مطلقاً أنك جالسة في مكان آخر تكتبين روايتك عن كل ذلك!

وهو يقول في نفسه وبماذا يختلف الأمر إذا كان اختباؤها

بهذا البيت هو شرود وغيوبة لا أرادية تقارب الحلم العميق الطويل، وبنفس الوقت تخطيط إرادي لكتابة رواية في عزلة مطلقة بينما الناس والسلطة تبحث عنها تماماً كما تبحث هي نفسها عن شخوص روايتها! أجاثا الطيبة البسيطة مولعة في أعماقها في تركيب التعقيد وحله في النهاية!

- لا تنس يا ماكس إنني أطبع دائماً أكثر من نسخة من رواياتي ومذكراتي وخططي للكتابة، هل نسيت إنني أحيانا أدرس نصوص رواياتي بين ملابسنا الداخلية في الدولاب، وأخرى في مكان سري لا تعرفه؟ ثم أنت تعرف أكثر من غيرك إنني لا أعتمد على ما أضعه من مخطط للرواية، عقل الكاتب لا يحدده أي مخطط أو خريطة.

ابتسم وهز رأسه، كان ما يزال غاضباً، أو هكذا خيل إليه، ولكن هل يستطيع الغضب أو الزعل على حبيبته أجاثا؟ التفت أحمد إليه معتذراً وهو يبتسم مرتبكاً:

- لم يسعني يا سيدي إلا أن أمتثل لطلب سيدتي أجاثا، في أن تبقى وحدها في البيت ودون علم أي كان، اشتريت لها كل الحاجيات التي طلبتها، وأغلقت عليها الباب من الخارج، لآتيها بمثل هذه الساعة من اليوم، أعطتني نقودا تكفي لرحلتي إلى الموصل، ولم تنس أن تعطيني حلويات وملابس لأطفالي، معذرة سيدي إذا كنت قد ساهمت في إزعاجك وإيلامك لم يكن الأمر بيدي كنت قلقاً عليها جداً، حمداً لله مر كل شيء بسلام!

علق ماكس في سره، بسلام؟ كيف مر كل شيء بسلام؟ والكثيرون الذين اعتقلوا وحققوا معهم بفضاظة، وليالي أرقى وعذابي؟ ومع ذلك مر كل شيء بسلام؟ ظل صامتا ينظر إلى أحمد بين فينة وأخرى، لائماً نفسه أنه صب عليه في سره اللعنات والكره، وهو يتصوره وحشاً أجهز على أجاثا.

(56) أجاثا كريستي لكي أبدع علي أن
أعيش جو روايتي تماما، حتى لو اقتضى
الأمر ان أهبط إلى قاع قبري، ويحدث
العالم كله عني ولا يجدني!

كان خالد يصغي فرحا، أنه التقى بأجاثا وماكس بعد فراق طويل معتقدا أن علاقته بهما قد انتهت إلى الأبد، لم يكن يتصور إنه سيلقاها في هكذا موقف، غريب ومدesh، لكنه لا يخلو من متعة وجمال، خاصة وأنه جاء بعد أن انقضت نذر الشر والعذاب. كان فخورا بنفسه، لقد توقع أنها في المكان الذي فيه القيثارة، كانت ممغطة مسحورة بها حد الجنون، هذا ما استشفه من مذكراتها ومعرفته بطبيعتها الحاملة عبر مشاهدته لها وقراءته لرواياتها. كان يعرف بحادثة شرودها وتيهها القديمة ، لم يتصور إنها قد حدثت لها مرة ثانية لكنه قال في نفسه من يحدث له شيء كهذا يمكن أن يكون مهيئا لشرود إرادي أو لا إرادي، وأقرب مكان يمكن ان يكون فيه هو المكان الذي فيه شيء مولع به : والقيثارة الذهبية صارت الطير الذي يلاحقها ولا يحط إلا على رأسها! ومع ذلك، لم يكن متأكدا تماما إنه سيجدها حية. خشي أن تكون استدرجت من قبل مجرمين محترفين يتبعونها وزوجها ويعرفون ميولهما واهتمامتهما، ذلك تناولته أجاثا في روايتها الجديدة على ما يبدو من حديثها، تذكر إن عليه الآن أن يعلم مدير التحريات الجنائية بظهور أجاثا، لكي يوقف إجراءاته في الاعتقالات والتحقيق، وما يرافقها عادة من تعذيب وضغوط على المتهمين وذويهم، نهض موجه حديثه إلى أجاثا:

- هل أستطيع أن استعمل التلفون لدقائق؟ أريد أن أزف للمسؤولين بشرى سلامتك. الكل يتابع قضيتك من الوصي حتى اصغر شرطي!

ضحكت، وقد شعرت بمزيج من الذنب والعظمة:

- نعم لقد أعدت له حرارته في اللحظة التي انتهت فيها من كتابة الرواية، أعني أسرع مخطط كامل لرواية كتبته حتى الآن.

التفت إليها ماكس متجهما، أحس أنه لم يصف كل حساباته معها، على فعلتها الطائشة هذه، فهو قد تلقى منها أذى قاسياً، دون قصد منها، شعر أن لهجته قد تغيرت معها، وصارت بنبرة ممتعة، لم يعتد الحديث بها معها من قبل :

- ماذا فعلت يا أجاثا؟ لقد قلبت الدنيا في بغداد؟ كثيرون دفعوا ثمن روايتك من دمهم ودموع أهلهم! أهكذا تكتب الروايات؟ كأنها أحست فجأة بالذنب كله:

- أنا آسفة، ليتني أستطيع أن أعذر لهم واحدا واحدا.

- وماذا يجدي الاعتذار؟ أما كان بإمكانك كتابة الرواية دون هذه المغامرة الباهظة الثمن؟

- حاولت لكنني لم أستطع، أنا لم أعلمك إلا بالقليل مما كنت أعانيه!

- ربما خطر لك أيضا أن تختبري حبي لك أو تجديده، في إحدى رواياتك قلت: "حين يقع حبيبنا في محنة أو مرض، ونحس أننا نوشك أن نفقده، يتجدد حبا له"، لكنك أعطيتني جرعة ثقيلة من هذه الوصفة!

- لا أنا واثقة من حبك يا عزيزي ماكس.

ضحكت:

- ألم أكن أقول للناس دائماً، من حسن حظي إنني تزوجت عالم آثار، كلما تقدمت بالعمر، صرت لديه غالبية أكثر، وربما شهية أكثر!

عادت تضحك، ثم صمتت فجأة، بدت هي أيضاً مرهقة، كأنها عانت فعلاً من خطف واعتقال وسجن وتعذيب، حقيقة لا خيالاً، أكانت رهينة نفسها؟ مختطفة من قبل أشباحها الداخلية؟ أبشع اختطاف أن يكون من قبل مرده وشياطين في داخلنا، وفق هذا القانون كثيرون منا مختطفون من قبل أنفسهم دون أن يعلموا! كانت مذعورة معذبة منهكة في هذا البيت؟ أم هي خاضعة لطقس الكتابة الطويلة المتواصلة؟ وما الفرق؟ بدا على وجهها شحوب وحزن، كأنها رحلت إلى الأزمان كلها، تذود عن القيثارة الذهبية القديمة فتذود عن الموسيقى الحبيبة للبشر كلهم، عادت إلى منزلتها السابقة في نفس ماكس: كاتبة عظيمة! وجد نفسه مستعداً أن يغفر لها شطحاتها، وزلاتها، خاصة هي بريئة نظيفة راقية جميلة، أخذ ينظر إليها بحنان وهي تتحدث بهدوء:

- أردت يا عزيزي ماكس أن أنقب في أعماق روحي وأنا في أعلى درجات التوتر، والعزلة وتصور فقدان، أن أفقدك أو تفقدني ذلك هو ذروة حزننا الخاص! تحملت هذه التجربة من أجل الكتابة، كما تخلص أنت لعملك وتنزل إلى أعماق القبور، وسرايب العالم السفلي، أنا نزلت إلى أعماق الألم الإنساني، مشيت في أعماق قبوري وقد تصورت نفسي بيد مختطفين يساوونني على مبادئتي التي تجسدت بقيثارة جميلة. لكي أبداع علي أن أعيش جو روايتي تماماً، حتى لو اقتضى الأمر أن أهبط إلى قاع قبوري، ويبحث العالم كله عني ولا يجدني!

أردت من ناحية أخرى أن أعرف ماذا يحدث في هذه المدينة
لو اختفت سيدة بريطانية كيف سيتصرف الزوج، الصديق،
السفارة البريطانية، المسؤولون والشرطة، قد تبدو للبعض مزحة
ثقيلة بئس! لكنها كانت لي اكتشافاً روحياً عميقاً!

كانت تتحدث بهدوء وماكس ينظر إليها وكأنه قد تصالح
معها في أعماقه، ومع ذلك يعاوده شعوره أنه كأنما أهين منها أو
أنها استخفت به، خائفاً أن تكرر مغامرتها بطريقة أخرى أكثر
إيلاماً، لقد حل عليه جهد وسهر الأيام الماضية دفعة واحدة قال
في نفسه " متعب أن يكون الشريك مبدعاً، ومتعب أكثر أن يكون
الشريكين مبدعين!" جاء صوتها متقطعاً فتطلع إليها:

- سجلت في الرواية توقعاتي عن تصرفات شخصها من
أهل الحاضر، وأهل الماضي البعيد، وسأرى ماذا حدث في
الواقع عندكم، طبعاً سأقارن بين كل شيء، هل سبقت مخيلة
الشرطة هنا مخيلتي، هل سبقت مخيلة الشرطة الدولية مخيلة
كهنة وحرس العالم القديم في سومر وأكد؟

كانت تتكلم ببطء وقد ازدادت إرهاقاً وماكس ينظر إليها
بقلق، قال:

- كانت أياماً مرعبة لي، هل سيرد وصفها في روايتك؟

- لا تنس هي سبعة أيام فقط!

- لكنها كانت أطول من دهر، نسيت ما كنت تردديه عن كاتب
فرنسي: "ليست السنين هي الطويلة، إنما الدقائق!"

- نعم ستجد مكانتك في الرواية عظيمة وأنت تستحقها فعلاً!
لا بد لي يا ماكس من مراجعة الرواية، هي أشبه بسكيتش طويل
كثيف تفصيلي ودقيق، لا بد من كتابتها ثانية، لكن المهم حرارة
الخطوط الأولى!

تململ ماكس قال مبتسما:

- وهل ستخفين ثانية لكتابتها؟

نظرتة شزرا:

- كفاك استخفافا، وهج العزلة العميقة لا يحدث إلا مرة واحدة، هكذا عزفت القيثارة! سنكون معا دائما، كل يوم، وكل لحظة معك لا تفسد العزلة! ولا تقلل من صفائها وضرورتها للإبداع!

ارتعش صوتها وخالطه أسى :

- قدر الكاتب أن يتعذب، ويعذب أهله وأصدقائه معه.

قال ماكس بنبرة لا تخلو من تأنيب:

- لكنك عذبت الكثيرين من الناس هنا!

- حقا هذا مؤلم جدا لي، ربما سيغفرون لي إذا قرأوا روايتي!

احتد صوته:

- أجاثا ألا ترين أحيانا أن المبدع يبالغ في قيمة إبداعه حتى ليستخف بعذابات الناس من أجله ويبالغ في وقعه عليهم؟

- نعم هذا صحيح، لكن ما حدث هنا ليس سببه أنا فقط، بل سببه طريقة عمل المسؤولين هنا، لماذا وسعوا دائرة الضحايا إلى هذا الحد ، لماذا خرجوا عن مهنتهم؟ هذا أحد اكتشافات الرواية.

قال ضاحكا:

- يبدو إنك في روايتك اكتشفت عالم الشرق من جديد!

- فعلا يا ماكس!

كانت تسمع أصوات الصيادين والنوتية يصدحون بأغانهم

وأحاديثهم الصاخبة، كان ثمة مهرجان فرح غامض يجري كل ليلة على شاطئ المدينة. اعتادت حين كانت تكتب الرواية أن تسمعها ممتزجة بموسيقى القيثارة الخفية، الآن تسمعها لوحدها، هل يعني هذا إن القيثارة لم تعد تلاحقها، صارت لحنا حزينا كذكرى حزينة منعشة، نغم عميق كبير جرح وجدانها، ومنحها رواية ومضى وعليها أن تهيب نفسها لرواية جديدة، وستكون القيثارة منذ الآن صديقتها غير اللجوجة، لا تتعب قلبها بهواجس صعبة! أنهى خالد مكالماته التلفونية وعاد ليقول:

- أخبرت مدير التحريات وبعضا من زملائي، كانت فرحتهم عظيمة، كادت أزمة كبرى تحدث بين بريطانيا والعراق، كادت بريطانيا تحتل العراق من جديد، الآن سيعلمون الوصي ورئيس الوزراء والسفير البريطاني، والأهم إنهم سيطلقون سراح الموقوفين الذين اعتقلوا بتهمة الخطف أو القتل، مدير التحريات ومعاونوه يريدون أن يلتقوا بكما هنا أو في الفندق، متى تستطيعان ذلك؟

هزت رأسها بوهن وضعف واضحين، لم تحر شيئا فهي بطبعها تكره لقاء المسؤولين الحكوميين وتفضل الاختلاط بالناس البسطاء، وارتياحها لخالد لا كمحقق رسمي وحسب، بل كصديق قديم. التفتت إلى ماكس :

- من فوائد هذه المغامرة أننا استعدنا صداقتنا الجميلة بخالد، أريد يا خالد أن نذهب أنا وماكس إلى أيس، ليتك تكون معنا!
- بكل سرور، سأحصل على إجازة خاصة لذلك، أنا أيضا أريد أن أستعيد أيام صباي ومرحي على شواطئ مدينتي بعد أن أخذني عنها عملي الشاق في بغداد!

أضافت وهي تمسك صدغها، وقد أحست ببعض الصداع:

- ولكن ليس قبل أن تطلعي على محاضر إجراءاتكم في الشرطة وأنتم تبحثون عني، فهي مهمة جدا لي في استكمال فصول وعناصر الرواية!

قال ماكس:

- لقد أسدى خالد علينا فضلا، وكان دوره رائعا في ما حدث!

قال خالد بهدوء وهو لا يزال واقفا متهيئا للخروج:

- لا فضل لي في ذلك، فأجاثا كانت ستخرج، سواء أتيت بك إلى هنا أو لم أت!

- فعلا، إنه موعد خروجي لقد اتفقت مع أحمد أن يأتي في هذه الساعة ليفتح الباب وأخرج حين سمعت أصوات المفاتيح تدور، وقفت عند الباب بانتظاره، فوجئت بمجيئكم! لكن وجود خالد بيننا أسعدني كثيرا وزادني ثقة بصواب مغامرتي، وأقنعني بالكثير من الأفكار والمواقف التي جاءت فيها!

قال ماكس وكأنه يشعر بالتقصير:

- تصور يا خالد أنا الذي عشت مع أجاثا كل هذه السنين، وعرفت عاداتها في الكتابة والتفكير، وجو العمل، لم يخطر ببالي أنها جاءت إلى هنا، بينما أنت عرفت ذلك بسرعة!

قال خالد مبتسما، مطيبا من خاطره:

- لا تستغرب ذلك، الحزن يشل الذهن، هذا دليل حبك العظيم لأجاثا!

ضحكت أجاثا وهي تقول:

- حين مت في نظره، أو قاربت الموت صرت قطعة أثرية وتحت الأرض، بذلك صار يحبني أكثر!

قال خالد بهدوء مسرورا:

- معذرة الجلسة معكم رائعة ، لكنني أريد أن أعود إلى مقر عملي، لأتابع إطلاق سراح العشرات الذين اعتقلوا بتهمة خطف أو قتل أجانا كريستي!

مضيفا وهو ما يزال يبتسم:

- لم يحدث لرواية أن دفع الناس من أجلها هذا الثمن الباهظ!

هم خالد بالخروج فنهض ماكس ليودعه قائلا:

- أرجو أن تطلقوا سراح جبرائيل، لقد تسببت بظنوني المجنونة باعتقاله، وكذلك موظف الاستعلامات الذي دفع ثمن غفوة قصيرة أياما في الحبس!

- بالتأكيد سأعتذر لهما بنفسي.

نهضت أجانا مودعه، لكنها استوقفته قليلا، كان من عادتها أخذ رأي ماكس بعنوانين رواياتها هذه المرة أرادت إشراك خالد في ذلك:

- أنا لم أضع عنوانا للرواية، ماذا تقترحان؟!

كان ماكس في لحظة يسامحها على فعلتها مقدرا طموحها وصعوبة عملها وتارة ينقم عليها لما سببت له آلام، قال بلهجة غاضبة:

- ليكن العنوان " نزوة كاتبة مجنونة"

نظرت إليه غير مصدقة لكنها كانت تقدر صدمته بفقدائها أو اختفائها، ومعاناته في البحث عنها، قالت كالمنتقمة:

- إنه عنوان سمج، تقرير مفضوح!

تطلعت إلى خالد منتظرة فابتسم قائلا:

- إذا سمحت لي كقارئ معجب برواياتك لا كمحقق عدلي أن أقترح عليك عنواناً " قيثارة أجانا كريستي الذهبية"

قالت متلهلة:

- مدهش يا خالد ما تزال أيس، تمنحنا مع رذاذ نواعيرها
وشدوها كلمات جميلة. صافحته مودعة: ولكن لو جعلتها
السومرية ما رأيك؟ فالذهب موجود في كل مكان لكن سومر في
مكان واحد فقط؟

ضحك خالد قال:

- اختصارا، لتكن "قيثارة أجاثا كريستي" فقط في العالم
أجاثا كريستي واحدة، ضحكت شكرته، وقبلته مودعة:
سنتواصل لنرتب سفرتنا إلى أيس!

(57) وجدت بعض أوراقى، هل سأجد بقايا الروح تحت الأنقاض؟

عندما كنت مستغرقا في كتابة روايتى هذه، انتابني قلق وخوف أن يداهمني الموت قبل إكمالها، كانت أشهرا طويلة من الأرق والإجهد وارتفاع السكر، وضغط دم يهدر في رأسي كشلالات تتحدر من جبال شاهقة، كانت شقيقتي ليلى في حالة إنذار دائم تمدني بأكواب القهوة، تفتح باب الحجرة قليلا وتسترق النظر لتطمئن علي، ولا تكف عن نصحي بالتوقف عن التدخين! بعد أن انتهيت منها اعتقدت أنني سأنال شيئا من الراحة والاسترخاء، لكنني على العكس صرت أكثر توترا وقلقا، ومجافاة للنوم! ثمة أشياء غامضة لا أعرف عنها ملامتي توجسا، متلفة في نفسي متعة الانجاز، عدت أقرأ الرواية علني أعرف سر آلامي، ثمة سؤال بسيط واجهني، ما جدوى رواية تتحدث عن أجاثا كريستي وولفريد ثيسجر والآثار القديمة في هذه الأيام الطافحة بالدماء والدخان والحروب بين الأشقاء والأصدقاء والأعداء؟ لقد مضى زمن أجاثا، وزمن الجرائم الصغيرة، لقد دخلنا الآن عصر الجرائم الكبرى، تفجير عمارات شاهقة بالطائرات، ليحترق الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، انقلابات دموية، مؤامرات خسيصة، حروب أهلية، ومذابح عنصرية وطائفية تهرس ملايين البشر، من هو الفاعل الحقيقي، إنه ليس هذا الذي نتحدث به التلفزيونات والجرائد والبورصات؟ لا أحد يقول من هو، كل الجرائم سجلت ضد مجهول؟ كم كانت أجاثا تستهلك من الصفحات ومن قلوب القراء بحثا عن مجرم صغير مختبئ كالجرذ داخل بذلة أنيقة، أو قاتلة تخطر في فستان أبيض مثقل بالجواهر واللآلئ؟ لو اجتمع كل

هؤلاء المجرمين الصغار التافهين لما استطاعوا تغيير مجرى
ساقية أسنة، بينما المجرمون الكبار المتخفون خلف ألقابهم
العظيمة، السائرون على السجاد الأحمر، يغيرون مجرى
التاريخ نحو بحار الدماء والشقاء ولا أحد يضعهم في قفص
الاتهام، أو يشير إليهم ولو بأصبع خجول مرتبك! أين روايتك
عن أجاتا من هذه الساحات الملتهبة والمدن المقلعة بأشربة
ممزقة في غياهب الموت؟ ما دمت لم اقترب من جرائم
العصر الكبرى فالأفضل لي أن اصمت، وأن لا أنشر رواية
تدعي البحث عن الحقيقة، بينما هي تبعد القراء عن طريق
الحقيقة! شعرت بالذنب، وندمت على وقت بددته في كتابة لا
جدوى منها، بل ربما هي ضارة سيئة، لكنني تذكرت أن أجاتا
كريستي في رواياتها تجوس أرجاء النفس البشرية تتقصى الشر
فيها وتحاول أن تضع يد الإنسان على مكن نوازعه
السيئة، وانحرافاته عن المثل والقيم التي تلقاها في مطلع حياته، ثم
نسيها أو أجبر على نسيانها! وإنها تحاول أن تصل به إلى بقعة
النور في أعماقه وقد غفل عنها! قلت إن ما نحتاجه اليوم هو ما
كانت تفعله أجاتا، بعفوية وبساطة ودون صخب أو ضجيج! كم
نقترب من الخلاص والانفراج لو وقفنا عند جذور الحقد والظلم
والطمع، أليست هذه كلها مصدر الترهيب والكرهية هنا
وهناك؟ أليس المجرمون الكبار هم مجرمون صغار لا يزيدون
حجما عن القنافذ ومن نفخهم هو ضلالنا، ومن وضعهم في
مناصبهم هي أوهامنا، وأكاذيبنا على أنفسنا، وماذا كانت تريد
أجاتا غير مواجهتنا لأوهامنا وضلالنا؟ أجاتا حاولت أن تقترب
من المجرمين الكبار في أعماق التاريخ سومريين، فراعنة أو
كهنة أو ملوك هيمنوا على وادي الرافدين بسيوفهم، وخذعهم
الدينية، ربما ظروفا لم تسعفها جيدا لذلك، ربما شعرت أن
قراءها لا يجارونها بهكذا هموم كبيرة ومعقدة، فواصلت فضح
الأشرار الصغار، فالكبار مختبئون في داخلهم أيضا! أجاتا لم

تكن تطرح حلولاً ولا علاجات وهذا ليس واجبها، لا الرواية ولا الآداب جميعاً تستطيع أن تمد يداً، وعلى الفور، فتمنع شاباً فقد عقله والأمل بالدنيا من تفجير نفسه وقتل أناس أبرياء! لكنها لو وصلتته في الوقت المناسب ربما ستجعله يفكر كثيراً قبل أن يشد الحزام الناسف حول خصره! عندما شرعت بكتابة روايتي لم أكن أقصد أية مهمة إصلاحية، منذ زمن بعيد رفعت الراية البيضاء، وأعلنت ياسي من أي إدعاء ثوري وتوبتي عن تصور أية قدرات خارقة لنفسي، ونأيت بنفسي عن الأحزاب الهائجة المملوءة كصهاريج البترول ثقة بنفسها وبأفكارها أنها ستغير العالم! لا بلدانها وحسب! بينما هي تعجز عن تغيير نفسها، كتبت الرواية ربما دون وعي واضح أو لأقل بدافع لاشعوري مذكراً بأن الشر يكمن فينا، وفي داخلنا وليس في أي مكان آخر! وإن الكاتب لا يستطيع أن يقترب بنا كثيراً من فم الأسد؛ لكنه يستطيع أن يجعلنا نشم رائحته! ورائحة الدم الكثير المسفوح حول عرينه، من مسافة بعيدة! هذه الرواية هي محاولة على هذا الطريق أو عليها تقاربه بهذا القدر أو ذاك! فلم الفلق؟ لم الشعور بالذنب أو الخطيئة؟ ثم قد أحسبها بعضاً من شحنات الحنين في نفسي وكان علي أن أزيحها عن قلبي المتعب، ربما أعتبرها أنا احتفاءً بذكرى أصدقاء وأحباء أضاعوا حياتي بكل طيبة ولطف، بعضهم رحل عن الدنيا، وبعض أجهل حاله، فقط مدينتي بغداد ما تزال حية تعاني عذاباً هائلاً، ربما تتناول الرواية تفسيرات شتى بعضها عادل وبعضها ظالم، المهم كتبتها وأن لي أن أستريح، عندما قلت لشقيقتي "الآن انتهيت من هذا العبء الثقيل" طفقت تعاود إلحاحها أن أتزوج، سأجد لك فتاة جميلة وطيبة تناسب عمرك، تسعدك، العازبات الآن كثيرات، فتيات يافعات حولتهن الحروب إلى أرامل يبحثن عن يسترهن ويرعى أطفالهن، تزوج ليس فقط من أجل نفسك بل لترعى امرأة مكومة معوزة وأطفالاً يتامي، وأنا سأساعدك،

وأتقبل كلامها صامتا غير مقتنع طبعاً، بأي عمر أنا الآن
لأتحمل أعباء زواج سريع قد يكون وبالاً لا هناء كما تتصور
شقيقتي؟ ثم هل نسيت ذكرياتي مع عواطف؟ كم ستلاحقني لو
تزوجت؟ فكرت، أما أن لي أن أعود للسويد؟ لا، لا، لم أعد
احتمل البرد والعزلة والجدران السمكة التي بيني وبين أهل
البلاد! سأبقى هنا، هذا وطني، إذا عاش عشت، وإذا مات مت،
وإذا تمزق تمزقت، وكفى، شقيقتي لا ينبغي أن أتركها بعد أن
اعتادت حياة جديدة سعيدة معي! تركتها هي والأم في سنوات
القهر والعذاب فتحملها الكثير بسببي، ولا ينبغي أن أكرر
جريرتي ومأساتي! سأبقى هنا في بغداد حتى لو لم أجد لي
مكاناً فيها وبقيت منعزلاً في حجرتي لا يسأل أحد عني ولا أسأل
عن أحد، اقرأ وأأمل وأتذكر وأتنسم هواء المدينة الذي فقد
عبيره القديم وصار اليوم مشبعاً بالبارود ورائحة اللحم البشري
المحترق، هل انتهت مهمتي هنا، هل لم يعد لي مكان في بغداد
التي أحببتها وتشردت من أجلها؟ لا أدري هل انتهيت من
رحلات البحث الطويلة : ماكس والشرطة والسفارة البريطانية
يبحثون عن أجاثا، أجاثا تبحث عن مكان يلهمها كتابة رواية
تريد أن تكافح بها الشر بفضح الأشرار، ولفريد يبحث عن بنت
المعيدي، الإنجليز يبحثون عن ضباط في الجيش ارتبطت بهم
المخابرات الأمريكية يرومون القيام بانقلاب في بغداد، سليم
البكري يبحث عن أخبار لحزبه وجريدته، وأنا بحثت عن نفسي
وروحى وذكرياتي، فوجدت أوراقاً قد حرقت، وأخرى محفوظة
بعناية في بيت صديقي، وكم علي أن بحث لأجد بقايا روحي
ونفسي الضائعة على هذه الأرض وقد انهالت فوقها ركام
حروب وأنقاض كثيرة؟ الآن هدأت النفس ولو الآن فقط، لكنني
لم أكن أعلم أن شخصين عزيزين يبحثان عني في هذه المدينة،
وقد حسبتها نسيتني تماماً!

(58) جلست في شتاء السويد أدون ذكرياتي قبل أن تتحول في رأسي إلى عروق ثلج وتموت!

استعدت النت وعدت أطل منه على العالم، كانت باكورته رسالة طويلة من صديقي ساهر الذي عاد إلى السويد ملمحا إنه سوف لن يعود إلى العراق، وإنه سيموت ويدفن هناك في السويد، "إنها ارحم بنا من وطننا الأصلي" قالها بلهجة غاضبة متحفزة، رغم إنه في لحظة أخرى يقول لا مهرب لنا من العراق سوى إلى العراق! استهل رسالته "جلست في شتاء السويد أدون ذكرياتي قبل أن تتحول في رأسي إلى عروق ثلج وتموت! أرسل لك منها الجانب المتعلق بلقاءاتنا في بغداد وما حدث لنا، قد تستفيد منها أنت أيضا، ولكي لا ننسى ما حدث لنا في زيارتنا لبلدنا بعد غيبة طويلة: عندما عدت مثلك من منفاه في السويد إلى بغداد، سكنت مشتملا صغيرا أجره لي "بديع"، ابن شقيقي، كان ملاصقا لبيته في الحارثية، بعد أكثر من شهر لسكني هناك، جاءتني زوجة بديع تقول:

- هناك جارة لنا؛ عندما عرفت مني إنك قادم من السويد؛ سألتني إن كانت تستطيع مقابلتك لبعض الاستفسارات!

عرفت أنها تسكن وحيدة مع خادمتها في البيت الفخم المقابل الشبيه بقصر والمحاط بحديقة كثيفة واسعة، التقيت بها في بيت بديع بحضوره وزوجته، كانت قد تجاوزت الستين، لكنها ما زالت جميلة، بل فاتنة، أنيقة ومحتشمة. سألتني إذا كنت أعرف كاتباً أو صحفياً، ويعيش في السويد منذ زمن طويل، وأعطتني اسمك، قلت لها:

- نعم أعرفه، وقد عشنا معا في مدينة واحدة في السويد

لسنوات عديدة، لكننا افترقنا عندما انتقلت للعمل في مدينة أخرى!

- كيف هي صحته وأحواله؟

- عموما جيدة، هو يعاني كأي منفي مثلنا أمراضا مزمنة؛ ضغط وسكري وكآبة، تعايشنا معها وصادقناها!

ظلت تتأملني وتدير نظراتها شعرت أن شيئا يشغلها، بعد دقائق سألتني بلهفة مكتومة:

- هل هو متزوج؟

- حتى افترقي عنه قبل خمس سنوات لم يكن متزوجا، ولا أظنه قد تزوج، فهو متمسك بعزوبيته، عاش وحيدا متبتلا طيلة حياته في السويد!

كنت على وشك أن أضيف "أعتقد ثمة مأساة أو عقدة في حياته" لكن شيئا غامضاً جعلني أتوقف. انفجرت أساريرها الحزينة، لكنني شعرت كأن وجهها ازداد جمالا، وبدأت أكثر اندفاعا في الحديث، كانت صريحة، طليقة بعد أن انفتح بيننا الحديث، ولم تخف إنها كانت تربطها بك علاقة حب، مضيفة:

- لقد عاكست حبنا الظروف، سوء فهم كثير، أرجو أن تساعدني للقاءه!

عرفت أن اسمها عواطف، فقدت زوجها الضابط بعد سنة ونصف من زواجهما، لم يقتل في أي من الحروب الكثيرة التي طحنت العراق، وإنما في حادث سيارة على الطريق السريع قرب بغداد، كان ذلك منذ ما يقرب من ربع قرن، كنت أنت في الخارج، ليس لديها أبناء، ولم تتزوج ثانية، وبعد سنوات من ترملها بدأت البحث عنك هنا وهناك:

- بحثت عنه كثيرا، لم أهتد لعائلته، الناس هنا كما ترى، تحذر، وتخاف الحديث عن المختلفين أو الغائبين، وهو كما

كنت أعرف كانت له أنشطة سياسية معارضة، ومع ذلك ذهبت إلى صديق له يعمل حارسا في بيت الأثاريين في كراة مريم، لم أجده، أخبروني إنه ترك بغداد وعاد إلى أهله في الشرقاط . كل ما عرفته عنه أنه غادر العراق، وبعد سقوط الحكم السابق، ومجيء أناس من الخارج، علمت من بعضهم إنه في السويد، لكن لا أحد منهم يعرف عنوانه بالضبط!

فرحت كثيرا حين قلت لها:

- سمعت إنه عاد إلى بغداد، ولكنني لم ألتق به هنا حتى الآن، ولا أدري إن كان ما يزال في العراق، سأبذل ما أستطيع للبحث عنه!

كان أحد معارفنا قال لي إنك كنت معه في الطائرة القادمة إلى بغداد، وقد تحدثتما بشكل عابر ولم يعرف منك أين ستقيم، وكم ستبقى في بغداد. أحزنتني حكايتها، وأفرحتني أيضا، صرت أقول في نفسي ربما لا يوجد نبأ مفرح في الدنيا أعظم من أن تأتي إلى شخص وتقول له "هناك من يحبك، أو كان يحبك"، ويبحث عنك" فكيف إذا كان امرأة على هذا القدر العظيم من الوفاء والجمال، رغم تقدمها في العمر، خمنت عمرها، لا استنادا لملاحها التي ما تزال حيوية، جذابة، بل من علاقتها بك أنت وقد غادرت العراق قبل أكثر من ثلاثين عاما، ورثت لحالها أو حالك حين ستلتاك فأنت حسب آخر لقاء بيننا بدوت لي به شيئا متهدما، أبيض شعرك، وتساقط معظمه، وامتأ وجهك بالتجاعيد، وبدوت نحيلًا حزينا لكنك كعهدي بك دائما مشرق الوجه خفيف الظل أقرب لروح هائمة، بثياب جميلة أنيقة. قررت أن أتأكد أولا إذا كنت قد عدت إلى السويد، لكن من اتصلت بهم في السويد قالوا إنهم لا يعرفون شيئا عنك، ولا يعرفون أين تذهب أو تجيء، وكما تعودت أنت منهم، انتقدوك على عزلتك، واتهموك بالتعالي على الآخرين، فلم

أقرهم على رأيهم ، وكما تعرف ؛ كنت دائما متوجسا من أغلب علاقاتنا كعراقيين في الخارج المخربة بصراعات تافهة، وسوء الفهم والنوايا.زادتها تفاقما في الآونة الأخيرة الشروخ الطائفية والقومية. فانا رغم الجفوة التي حصلت بيننا وانتقالي إلى مدينة يتبوري، لم أنس يوما أنني عاشرتك سنوات طويلة، وكنت الأقرب إلي، كما أنا أعتقد إنني كنت الأقرب إليك، فقد التقينا على حب الثقافة والإبداع وهموم اليسار المنكسر، وأحلام الوطن الضائعة، وكنت أتفق معك أن ما حصل من كوارث لشعبنا وما نعيشه اليوم من مآسي تقع جريرتها على الحاكمين والمعارضين معا! وكنت أحس بعمق أحزانك، رغم أنك لم تحدثني عن حبك القديم الكبير وها أنا أعرفه الآن فقط من عواطف، لكنني كنت أقدر أن صمتك وشروذك وعزوفك عن الزواج أو حتى عن علاقة عاطفية عابرة مع نساء جميلات اعترضن طريقك كان وراءه جرح حب نازف مهما عبر الزمن! واليوم وقد رأيت حبيبتك عواطف هذه المرأة الجميلة الطيبة، أقول أن قلبك لم يكن مخطئا حيث توقف عندها لا يريد تجاوزها، وإنك محق حين كنت تحجم عن النطق باسمها، وترتبك كلما تحدثنا عن حبيبات الماضي، ومواقع الحب؟ على كل حال، حكاية عواطف معك اليوم زادتني قناعة أن الحب الأول للإنسان هو الحب الأخير حقاً . اتصلت تلفونيا بالرجل المدعو أبو رافدين كنت أعرف كما أنت تعرف إنه متحجر المشاعر بليد لا يطاق،والأدهى إنه رفع اليوم راية الطائفية بعد أن كان يلوح براية الأممية، من أجل صفقاته المالية في بغداد، وإنه لا يرتاح لك كما أنت لا ترتاح له لكنني مضطر للاستفسار منه عنك فهو كما أعلم يعيش معك في نفس المدينة أودفالا، بل وفي نفس العمارة، وهو متتبع لأخبار العراقيين، قال:

- لقد تركت أودفالا وانتقلت إلى ترولهاتان، هذه مدينة تجارية نشيطة..! وراح يحدثني عن صفقاته التجارية مكتفيا بالقول عنك "لا أعرف عنه شيئا، تعرف إنه انعزالي" ثم عاد يتحدث عن تجارته وأخيرا سألني كم سعر الرز البسمنتي الآن في العراق؟

صمت لحظة، كعادته حين يلوي الأمور:

- أنا الذي أريد أن أسألك، هل صحيح ما سمعته، إنه قتل في العراق في انفجار شارع المتنبى؟! دهشت، وغاص قلبي :

- لأول مرة أسمع بما تقول، أرجو منك أن تكلف نفسك السفر إلى أودفالا، وتتأكد إذا اقتضى الأمر من استعلامات البلدية عن مصيره!

وعدني أن يقوم بذلك، لكنني وكما توقعت كلما اتصلت به أجده يتعلل بمشاغله التجارية:

- إذا كان قد مات في العراق؛ من يتطوع لإخبار السويديين بموته؟ وإذا كان قد أعطى لأحد وكالة على حسابه المصرفي حيث يتجمع راتبه التقاعدي فقد يجد أن من مصلحته التكتم على خبر وفاته، فلا يبلغ السلطات عنها رغم إنهم يستطيعون استعادة المبلغ المصروف لا حقا، أحاديث سخيفة يستطرد بها دائما، دون أن ينسى سؤاله، لو تمر على وزارة التجارة وتساءلهم ماذا نستطيع أن نصدر لهم من السويد للحصة التموينية؟ هو لا يشبع من صفقاته، فتركته!

سمعت أنت طبعاً بالانفجار الإرهابي في شارع المتنبى ببغداد، وتعرف أن أكثر من مائة شخص، قتل أو جرح فيه، ه صاحب مقهى الشابندر الكائن في مدخل الشارع فقد أبناءه الأربعة، وحفيده الصبي الصغير. تهدمت أغلب بنايات الشارع واحترقت مكتباته ومخازنه، ومطابعه التي خرجت منها أقدم

وأهم الصحف، وقع الانفجار يوم 5 آذار 2007؛ بينما أقدر أنك عدت إلى العراق أواخر سنة 2007 أو ربما أوائل ، 2008 ؛ فكيف يقولون إنك مت فيه؟ لا بد أن ثمة خطأ لديهم ، أو تحامل مقصود، ومع ذلك تألمت، وظل يساورني قلق عليك! ظلت عواطف تتردد علينا مستفسرة، ولم أقل لها بما سمعت. لم أفقد أمني أنك حي، و ما تزال في العراق.وكما تعرف يصعب التجوال في بغداد، فالانفجارات والاغتيالات الطائفية، والانتقام الشخصي ومن أجل المال تتوالى وتتزايد، ولكن لا بد لي من الذهاب إلى شارع الرشيد، والمتنبي، وسط بغداد ،لا مكان أهم منهما لبدء رحلتي في البحث عنك، أكثر من سألتهم عنك في مقاهي شارع الرشيد، والمتنبي قالوا إنهم لم يروك مذ رحيلك قبل أكثر من ربع قرن، ، ولا يعرفون إن كنت قد عدت إلى بغداد، وصاروا هم يسألونني عنك، أين تعيش؟ ولماذا لم يقرءوا لك شيئاً منذ وقت طويل؟ وجدت شارع المتنبي لا يزال مهتماً، تكسو جدرانه المهذمة وأعمدته المائلة المشروخة اثر الانفجار طبقات سود من الدخان والأوساخ، دهشت إذا وجدت أن الحاج محمد الخشالي الذي طال الانفجار مقهاه ونكب بفقد أبنائه ثم زوجته أثر صدمتها الأليمة، قد أعاد إصلاح مقهاه وفتحها لروادها من الكتاب والصحفيين والمتقنين، والمتقاعدين، ووضع لافتة لها (مقهى الشهداء)، كان يبتسم بحزن، وجهه الأسمر الأشيب ما يزال مفعماً بالقوة والإصرار على مواصلة الحياة ، بالطبع يصعب عليه أن يتذكرنا نحن رواد مقهاه الذين هاجروا دون عودة قبل سنين طويلة، كانت لي وأصحابي ذكريات غالية في مقهاه، فقد شهد أحلامنا وآمالنا ولحظات تحطمها وتلاشيها، أتذكر؟ ، كنا قد التقينا لأول مرة في هذا المقهى؟ وبنينا أساس صداقتنا التي تواصلت لسنوات عديدة في السويد ثم تسلل إليها ثلج وظلام المكان وتسمم أمزجتنا رغماً عنا. اليوم ألتقي في المقهى بأصدقاء قدامى تذكرتهم وهم قد نسوني، وبآخرين

تذكروني، وكنت قد نسيتهم، كلا الحالتين جرحت قلبي، بعضهم قال لي إنه كان يعتقد إنني قتلت خلال حملات الاعتقالات والإعدامات السريعة والملاحقات التي شنها النظام السابق على الشيوعيين واليساريين وأنصارهم قبل ثلاثين عاما. في هذا المقهى أحسست إنني في محراب كبير تتلى فيه الصلوات على شكل ذكريات جارحة، وحسرات ولحظات صمت ووجوم، أسئلة وتعليقات وعتاب وأحكام تتراوح بين الجائرة والحائرة. كان الحاج الخشالي قد وضع صور أبنائه الأربعة وحفيده، الشهداء، بجانبه حيث يجلس وراء طاولته الخاصة قريبا من باب المقهى، لكنني لم أراه في صورهم وراء الزجاج، بل رحت أراه من وراء ضباب أماننا ونحن في أيام شبابنا، نتناول من أيديهم؛ وهم صبيان أقذاح الشاي، لم نكن آنذاك تحت أظف الكوابيس يمكن أن نتصور ما جرى لهم اليوم، بماذا كنا نفكر ونخطط ونعمل ونحن في هوس عملنا الحزبي والسياسي في تلك الأيام؟ وماذا يغير من الأمر أن أجذك، وأجعلك تلتقي بحبيبتك؟ عن أي حب نتحدث في هذا الجو الرهيب من الأحقاد والدماء المتفجرة؟ بعض رواد المقهى تعرفت عليهم، وتعرفوا علي بصعوبة وبعد توهم كما يقال، كان الجدل حد اللغط يتواصل بين من أعرفهم ومن لا أعرفهم، أحد الذين قال إنه يعرفني من أوائل السبعينات وكان يساريا آنذاك سمعته يتحدث، بصوت حاد:

— أي قلوب متوحشة يحملها هؤلاء الإرهابيون ليفجروا شارعاً مزدحماً بالناس المسالمين، ولا وجود فيه للأمريكان أو رجال الحكومة، حقنهم بهرمون الشبق لحوريات جنة صنعوها على مقاساتهم، حولوا جنتهم إلى حي للدعارة، هؤلاء لا مكان لهم في جنة الله!

يسكت برهة ينفث دخان سيجارته ويسحق عقبها بيد ترتجف

غضبنا:

- لا يمكن لذي ضمير أن يبرئهم، لكنني بنفس الوقت لا أبرئ الذين حولوا هذا الشارع أيضا إلى وكالة للإيرانيين يطلقون منها الكتب التي تطبع في طهران وقم، تستفز أتباع المذهب الآخر، تحرف دينهم، وتشتت أصحاب الرسول، وتوزع مئات آلاف الصور الملونة التي صارت تغطي شوارع بغداد ومدن العراق بوجوه رجال دين قدامى وجدد لأغراض طائفية، بلغت الصلف بهم أنهم صاروا يوزعون مجانا صوراً ملونة كبيرة للخميني وخامنائي، كيف يحتمل من قتل ابنه في الحرب التي بدأها صدام، وأطالها الخميني لثمانى سنوات أن يرى صور قتلة ابنه تطالعه حيثما أدار وجهه؟ كيف لا يتحول إلى حاضن أو مساعد للإرهابيين؟

ثمة رجل كان يجلس على يمينه، يفصله عنه رجلان جلسا صامتين يصغيان بسهوم، رد عليه بحدة ونزق:
- أنت تبرر للقتلة!

رد وهو يكاد يخنق من جفاف ريقه وسحب الدخان:
- أنا لا أبرر للإرهابيين خستهم ونذالتهم، لكنني بنفس الوقت لا أغفل عن خسة ونذالة من يستفزهم ويهيجهم لقتل الأبرياء ولمصلحة إيران؟

صاح آخر من بعيد:
- أنت تتستر على السعودية وتركيا هما يدفعان الإرهابيين إلينا!

وجدت إن الحديث قد جر أجواء جلستنا لمتاهة، وربما لعراك وشيك؛ ملت على رجل آخر كان قد قال لي أنه كان صديقي في السبعينات ولم أتذكره، وقال إنه رآك في هذا المقهى قبل أشهر:

- متى رأيتَه ؟ قبل التفجير أم بعده؟ وإذا به ينفجر أيضا في وجهي منفعلا:

- والله انت بطران. شمدريني، ليش أنا أدري بنفسي هسه إذا كنت أني ميت بالتفجير بس دأمشي من الضيم، لو بعدني حي؟ صدك لو كالوا أوربا خربت عقولكم، عمي احنا دايعين، خلينا بحالنا!

بقيت أنظر إليه مندهشا، ماذا أقول له؟ سمعت كثيرا كيف إن الظروف العصبية أنهكت عقول الكثيرين هنا، وأفقدت البعض توازنهم، لم يسعني سوى أن ألقى عليه نظرة بين الأسى لحاله، والرتاء له إنه لم يستطيع أن يتماسك مثل الكثيرين الذين وجدتهم على طبيبتهم وبساطتهم القديمة، أشاح عني واشتبك بالنقاش الحامي الدائر حول الإرهابيين ومن يدفعهم ويمولهم. ثمة شاب كان يرقبنا وكان يجلس قدامي على تخت تراص فيه الجالسون، وجه كلامه لي قائلا:

- بعد أن تبدد دخان وغبار التفجير، وماء إطفاء الحرائق، ظهرت عشرات الجثث محروقة مشوهة ولا يمكن التعرف على أصحابها، وكثير منها بقيت في الثلجات أياما دون أن يراجع عليها أحد، قد يكون صاحبك بينهم، من يدري؟ الجثث التي لم يأت ذووها، دفنت من قبل أمانة العاصمة! ما هذا؟ لا يسعني سوى التسليم أنك قتلت في هذا التفجير، أو في أفضل الأحوال صرت بين المفقودين مجهول المصير. بدا أن الجدل حول الإرهابيين ومن يصنع ظروف وأسباب الإرهاب قد تحول إلى عراك، وشتائم، وتعاليت أصوات كثيرة من شتى التخوت، هذا يقول "إيران هي التي تنظمهم وتمولهم لمزيد من الانتقام ولحرق الطائفة الأخرى، ومد نفوذها على المنطقة"، الرجل يصيح بوجه مجادله: "بل هي قطر والسعودية وتركيا ومن يرتبطون بهما، المال والفكر منها لماذا تكرر؟". فنهضت

بصعوبة، كأن أعضائي مبعثرة، وقفت أذفع حسابي، وأتأمل وجه هذا الشيخ الجليل الذي فقد أولاده ولم يتخل عن همته في العمل وفي المكان الذي استشهدوا فيه. خرجت وأصوات المتجادلين تلعلع في رأسي، وأنا أهمس في نفسي، يا لنا من مغفلين أو مغالطين، بعد كل هذه السنوات، وكل هذه السيول الجارفة من الدماء حتى الآن، لم نعرف من هم أعداؤنا! كم نحتاج من وقت لنعد أنفسنا، ونتصدى لهم؟ وماذا تبقى من أعمارنا؟ قطعت شارع المتنبي حتى نهايته المفضية لشارع الرشيد، تأخذني تأملات هي الأخرى كانت مشتتة غامضة، قريبا من كومة أحجار توقف لي تكسي مضى بي إلى الحارثية. لم أستطع أن أتصور أنك جئت من السويد فقط لكي تموت هنا، وبهذا الشكل المريع، عدت أبعث الأمل في نفسي، أن خبر موتك غير صحيح قد لا يكون مختلفا فأنت كما أعرف ليس لك أعداء يكادونك، بل ربما اشتباه أو خلط في الأسماء أو نقل غير دقيق، كلما رأيت نظرات عواطف الصامته والمتسائلة أشعر بالعميق، وبالذنب أيضا، بدأت أفكر: هل إن العراقيين ممن مارسوا السياسة طويلا وانتهوا لهذه الخيبة، يعترتهم نفس الشعور، أن كل واحد مسئول عن دمار الآخر عذابه وآلامه كله، أم تراه شعوري أنا وحدي، لا أدري! بقيت لفترة اصبر عواطف بقولي ثمة صديق كان قد التقى بك قبل فترة قصيرة ووعدني بعنوانك، ولكن بمضي الأيام كفت عواطف عن السؤال وحتى عن التطلع في وجهي، ربما كي لا تحرجني، والتزمنا الصمت. أحيانا يعترني يأس فأقول أنك فعلا قد رحلت عن دنيانا، فالموتى وحدهم يستطيعون أن يفرضوا صمتهم على الأحياء! لكن عواطف لم تتوقف عن زيارة عائلة بديع وزيارتهم لها، وصرت أنا قدر الإمكان أتحاشى جلساتهم رغم إن المرأة كانت قد كفت عن أي حديث يتعلق بك لكن مجرد وجودها صار يثير في نفسي ذكرى تحزنني كثيرا.

(59) وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

كل ما جئت لتحقيقه في العراق لم استطع أن أنجز منه شيئاً،
طلبي في الحصول على تقاعد بعد عمل لسنوات طويلة في
مؤسسة الكهرباء عرقلوه طويلاً فاضطرت لتركه. قضايا
عائلية تتعلق بميراث وحقوق أخرى لم تحل ولم يتحقق منها
سوى المزيد من النفور والشقاق العائلي، خيبة أمل في كل
شيء. حسنا فعلت، إنني لم أتزوج ولم أورط أبناء معي في هذا
الوجود الملغوم بالظلم والانحراف والخطأ والتفاهات. صار
السأم والفراغ ينخر أيامي في بلدي الذي تحملت الغربة حالما
بلقائه سعيداً متطوراً، بدأت أتهيأ للعودة إلى السويد، كنت قد
حدثت بديع عن رغبتني في الحصول على بعض الكمأ، أحمله
معي لأعد منه طبخة نادرة ستسر بعض أصدقائي العراقيين
والسويديين ممن كنت حدثتهم عنه. وكيف إنه يتكون في
صحارينا بكثرة، ويباع بأسعار معقولة بينما هو في أوروبا يعادل
وزنه ذهباً. أخذني بديع بسيارته إلى الشارع العريض الذي
يدخل بغداد ممّداً من بادية الشام، قال هناك سنجد الكثير ممن
يبيعون الكمأ في بسطات على الطريق، وجدنا الكثير من الباعة
يعرضونه في أكوام مصنفة مرة حسب جنسه الأبيض ذكور،
والأسود إناث، هكذا قالوا، ثم حسب حجمها. مررنا بهم لنختار
أفضلهم بضاعة، وقفت عند شاب بدين بكرش بارز، كان الكمأ
عنده جيداً، طازج ومكتمز، ونظيف، لكنه كان نزقاً، لهجته
منفرة، كنت على وشك تجاوزه عندما سمعت صوتاً من خلفي
يناديه:

- ضع لي كيلو من هذا ..

اجتذبني الصوت، فلم يكن غريبا عليّ، وتلفت، وإذا بي أمامك أنت كاملا صحيحا معافى، كم كانت فرحتي عظيمة، ورحت تنظر إلي حزينا متعبا، احتضنتك، لم تقابلني بنفس الحرارة، لا يعود ذلك لجفوتنا الأخيرة ، بل هذا هو مزاجك الحزين الهادئ ، والإحباط هنا كثير، وقد زادك عزوفا عن الناس والأشياء، ثم أنت لم تكن تتصورني كما تصورتك ميتا وقد عاد إلى الحياة، كيف لا أستقبلك بلهفة وفرح؟ ورحت أردد دون وعي: أين أنت؟ الدنيا كلها تنتظرك! راحت تتلفت غير مدرك طبعاً ما أقصد! قلت أنت "أنا هنا يا صديقي منذ أشهر " ورحنا نتحدث ضاحكين مدخرا مفاجأتي لك، شعرت بسعادة لم أجدها طيلة مكوثي هذه الأيام في بغداد، ربما هي لحظة الفرح الوحيدة التي عشتها في خضم الآلام هنا، أن أستعيدك، صديقا طيبا، من يد الموت، فكنت أنت على طريقتك الصامتة ودودا فرحا باللقاء، اشترينا الكمأ، احتملنا نزق البائع بمرح، قلت لك ضاحكا: - لو كنت أعلم إننا سنلتقي عند الكمأ؛ لقطعت الصحراء كلها أجمع الكمأ!

ضحكنا أكثر مما ضحكنا في السويد طيلة منفانا، عرفتك على بديع. لم تكن معك سيارة، كما كنت في حياتك في السويد ، أصر بديع على أن يوصلك إلى بيتك بسيارته قائلا: "سعدت بمعرفتك وعمي بحث عنك طويلا، كنا قلقين عليك". بقيت أتحين اللحظة المناسبة لأزف له الخبر السعيد، ونحن نتجه إلى السيارة في منعطف هادئ من الشارع، سألتك: - هل أنت مثلي تزمع العودة إلى السويد، لذلك جئت تشتري الكمأ؟

جاءني صوتك هامسا حزينا:
- ليس الآن، تعرف بوضعنا، لا أريد أن أترك أختي العجوز لوحدها.

ملت علي وهمست كطفل:

- عدت للكتابة، أنجزت رواية ، وأتمنى أن تقرأها وأعرف
رأيك بها!

- وأنا لذي لك مفاجأة سارة أخرى وعظيمة!

توقفت عن السير، بقيت تحقق في وجهي،

- ماذا؟

- امرأة اسمها عواطف تبحث عنك!

أشرق وجهك كما لو سلط عليه ضوء، بقيت تنتظر في
وجهي غير مصدق، الخبر أشعلك، صنعك من جديد، أقبلت
عليّ تحتضنني وتقبلني، أنت الذي أعرفك في السويد ساكننا
متحفزا باردا كلوح من الثلج صرت هذه اللحظة في غروب
الشمس ساخنا ملتهبا كالجمر، رحت تسألني:

- هل حقا هي عواطف؟ عواطف نفسها؟

وصرت أداعبك:

- لا أدري! عليك أن تراها بنفسك، وعليك أن تسرع؟ ثم قل
لي كم عواطف كانت لديك؟

في السيارة اشترك معي بديع في حديث عن عواطف، وكنت
تطرح السؤال تلو الآخر، قبل أن نكمل الإجابة، اغتنمت لحظة
صمت منك قلت:

- أستغل الوقت ، لا تضيعه كما ضيعناه سابقا، ستعرف كل
شيء، أريد أن أسألك أين كنت حين وقع تفجير شارع المتنبى؟

- لماذا تسأل عن ذلك؟

- لو تدري كم عشت من كوابيس حين أعلموني أنك مت في
هذا الانفجار!

ندت منك آهة قصيرة:

- قد لا تصدق لو قلت لك كان بيني وبينه مسار دقيقة واحدة،
كنت عند باب الجامعة المستنصرية القديمة حين دوى
الانفجار، فأحسست بالأرض تهتز تحتي، وكدت اسقط!

- يبدو أن من قال أنك مت في الانفجار لم يتحدث عن وهم
أو اختلاق، ربما رآك أحدهم متجها إلى هناك فظنك وصلت مع
الانفجار!

ران علينا صمت، وظلت السيارة تتلوى بين الطرق
المحفورة والمليئة بالماء والأوحال، أوصلناك إلى بيتك،
أصررت أن ندخل معك البيت، لكن بديع اعتذر منك:
- لا يخفى عليك الأوضاع لا تحتمل أن نتأخر!

تبادلنا أرقام التلفونات وأكدنا إن لقاءنا سيكون قريبة
وسيتواصل، قلت ضاحكا :

- لن أدعك تعود إلى السويد!

- الآن بدأت زيارتي لبغداد!

عندما تحركت السيارة، رأيتك تبكي، وأنت عند الباب تلوح
لنا، ومع ذلك؛ صرت بمزاج طيب لم أعده بك من قبل! بينما
كانت السيارة منطلقة، وهواء الربيع في الشارع الفسيح يتغلغل
في صدري، وجددني أردد أبياتا من شعر قيس ابن الملوح
مجنون ليلي، وعيناوي تغرورقان بالدموع:

قضاها لغيري وابتلاني بحبها

فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

هذي شهور الصيف عنا قد انقضت

فما للنوى ترمي بليلي المراميا!

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما

يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

الآن لدي خبر سار جدا لعواطف، تولت سامية زوجة بديع إيصاله إليها، مع رقم تلفونك . التقيتما لوجدكما، لا أستطيع تصور لقاء حبيبين بعد فراق دام حوالي ثلاثين عاما ولا أريد أن أجازف في توقع تفاصيله، حتى لو كنت أنا من يلتقي حبيبته بعد هذا الزمن الطويل، لما استطعت الحديث عنه، ولو بكلمة واحدة! دعكما بديع إلى بيته على الغداء حيث اجتمعنا معا ، ما زلت أتذكر ذلك اليوم كان في 2009/4/13 كانت جلسة سعيدة هائلة، ظلال الحزن الطويل لم تنسحب عن وجهيكما رغم فرحكما العميق، سلمتني قرص روايتك التي حدثتني عنها. تركتكما لالحكما أيقنت أن دوري قد انتهى ولا ينبغي أن أتطفل عليكم رغم أنني غيرت موعد عودتي! بعد أيام قليلة خابرتني وطلبت لقائي، خشيت أن يكون قد وقع شيء بينك وعواطف! لكنني فكرت ربما إنك قلق تريد أن تعرف رأيي بروايتك، كنت قد قرأتها، استمتعت بها حقاً، وسجلت ملاحظاتي عنها، أعرف أنك لا تتحسس من النقد بل تحبذه وتعهده حاجة وضرورة وتشاركني الرأي أن أحد مصاعب ومشكلات الإبداع في بلادنا هو عدم وجود نقاد جادين، مثابرين يرافقونه! التقينا كما تذكر في مقهى بالمنصور، على أقذاح الشاي المر فكلانا نعاني من السكر: سررت إذ وجدتك فرحاً طليقاً، على وجهك رواء الشباب كأنك عدت ثلاثين عاماً نحو الصبا والتصابي! تغيرت ملابسك، وغدت زاهية مبهرجة بعد أن كانت غامقة رصينة، وجهك حليق يلمع، وكأنما اختفت تجاعيده وليس كما كان نابتا أبيض دائماً! ذلك أفرحني وأضحكني. أعلمتني إنكما ستتزوجان، وتريديني أن احضر شاهداً على عقد الزواج، وحدثتني عن مكان وموعد حفل الزواج البسيط وتحاشينا أن نسقيه عرساً أو فرحاً والأحزان حولنا في كل مكان! شكرتني وقلت لي " لك الفضل في سعادتنا" قلت لك الفضل أولاً وأخير للقلب الإنساني إذا امتلأ بالوفاء والصدق أنت

وعواطف خلقتما لتعيشا معا، هذا كل شيء" حدثتني أنك قلت لعواطف لا شرط لديك سوى أن تعيشا من راتبك التقاعدي السويدي وأن تبقى ترعى شقيقتك كذي قبل. فوافقت، لكنها اشترطت أن لا تتركا بيتها الكبير، ففيه حديقة زرعها بما تحب من زهور وشجر، وكلب وقطة ودواجن فاحترمت رغبتها! قلت لك لقد أجلت موعد سفري لأسمع هذا النبأ المفرج. قلت لي رتبناه ليكون قبل سفرك! أعلمتك إنني قرأت الرواية واستمتعت بها، أنت برأيي لم تخطئ حين شغلت نفسك بذكريات أربعينيات بغداد، هربت من بغداد اليوم، إلى بغداد التي كانت! لا هرب لنا من العراق، إلا إلى العراق، لم تعد تريد الهرب إلى بلد آخر، تحدثت أنت بصوت ما زال حزينا رغم الحدث السعيد الجديد: - بعد أن ذقت المنفى، لا أريد أن أموت فيه، كثيرون يعتقدون أن السويد جنة، الناس يأخذون فيه النقود من جدار على الطريق، نعم هي بلد طيب أهلا وأرضا، لكنها على كل حال منفى، والمنفى أقسى من الموت. كنت أنت تعمل في شركة تقطع الأخشاب من الغابات لمعمل ينتج التوابيت، كنت تقول لي لا أدري أية شجرة أقطعها سيصنع منها تابوتي! أنسيت؟ كم تابوتا صنعت لنفسك من هذه الأخشاب طيلة هذه السنين؟ قلت لك، هنا كدت تموت في انفجار المتنبى، وإذا نجوت مرة قد لا تنجو في الأخرى، وكثيرون هنا خاصة بين المثقفين يكرهوننا، يسموننا أهل الخارج، كان هنا ثمة خنوع وتدليس كثير، نحن تفهمنا ظروفهم، ولم نشأ محاسبتهم، وهم لم يفهموا ظروفنا، ومصرون على محاسبتنا، هم يريدون تغطية ذنوبهم بذنوبنا، ربما ذنوبنا جميعا أو هام، ربما ذنوبهم أكثر، ربما ذنوبنا أكثر، لنذع الحساب، وننظر للمستقبل؟

- أنا أزمعت العزلة، ليكرهني كل هؤلاء، أنا لن أكره أحدا! هنا حياتي كلها ستكون لحبيبتي ولشقيقتي، فكرنا أنا وعواطف

أن نتبنى طفلا أو طفلين من يتامى الحروب!

صمت برهة اتخذ وجهك، هيئة جادة بل صارمة:

- قرأت عواطف روايتي، وقد أعجبت بها، وتمنت أن أوصل كتابة الرواية لكنني أبلغتها إنني سأتوقف عن الكتابة هذا آخر عمل لي!

سألتك مندهشا لماذا؟ ورحت تتحدث بصوت فيه رعشة غريبة لم ألفها فيك من قبل:

- أتعرف ما الذي جعلني أفقد عواطف في مطلع شبابي؟ إنها هموم المعرفة والبحث والتأمل والكتابة، أريد أن أنصرف الآن لعواطف وحدها بعد الآن، لا قراءة ولا كتابة ولا نشر، لا شيء التأمل والموسيقى والتطلع إلى وجه محبوبتي، وتقبيل يديها ووجهها وقدميها أيضا!

أخذت أطلع إليك، بصراحة داخلني شعور أن ثمة لوثة قد داخلتك، لكنك مضيت تقول:

- لقد فقدت هذه المرأة الرائعة بسبب ثرثرتي بالأفكار والسياسة والآثار وغيرها من الخزعات، والآن لا أريد أن أفقدها مرة أخرى! هنا بعد عودتي لوطن فارقت أكثر من ربع قرن، حجرت نفسي أشهرا، أكتب رواية عن أجاثا كريستي وماكس مالوان وئيسجر، وبنيت المعيدي، بينما عواطف تبحث عني، ولا أعلم، وقد غمرني اليأس من لقائها تماما!

صفت لحظة، جف ريفك فحملت قنينة الماء ورحت تشرب من فمها، رغم وجود قدح أمامك:

- كنت أعاني واجمع تجاربي وخبراتي منذ شبابي، فضيحت حبيبتي حياتي كلها، ما هذا؟ أليس الكتابة ضرب من الجنون، نعاني ونشقى ونفني أعمارنا ونفسد حياة عوائلنا وأحببتنا، ثم يأتي من يحرض علينا لقتلنا، أو لسجننا أو إزاحتنا للمنافي، وفي

أفضل الأحوال يضحك علينا ويسفه ما نكتب ويتخذة دليلا على جنونا؟

- ولكن هناك من يقدر الإبداع والمبدعين، ويصغي لكلمتهم، لا تيأس! ثم ستكون الحياة قاسية عليك دون قراءة أو كتابة؛ فأنا مذ عرفتكَ؛ لا شيء في حياتك سوى الكتب والقلم والأوراق!

- الآن قررت أن أكف عن كل هذا، قلت لعواطف؛ لقد كنت على حق قبل أكثر من ثلاثين عاما حين هربت مني وأنا أدور بين التماثيل ومحتويات القبور، لكنني قررت أن لا اغفل عنك لحظة واحدة، أريد أن أعوضك عن كل ما فاتتنا في زمن خرب نفسه وخربنا! قالت لي، أنا لن أزعل منك بعد الآن لو قضيت الوقت كله تقف أمام التماثيل ورفوف الكتب! عودة عواطف لي شيء عظيم لا تعادله كل شهرة أو مجد، ولا حتى الخلود نفسه! لم يتبق في العمر سوى القليل، ، أريد أن أكرسه لمشاعري! بقيت متحيرا انظر في وجهك، سألتني فجأة كأنك لم تتحدث قبل هنيهة عن هجر الكتابة كأنك لتوك انتهيت من كتابة الرواية ، وفي شك من جدواها:

- ألا ترى أن هذه الرواية بعيدة عن همومنا الراهنة؟ لا ، لا، قلت لك على الفور، على العكس إنها في صميم الهم التاريخي الذي نعيشه، فمن يحرك الأحداث في عالمنا اليوم هم العدوانيون لا المسالمون، الهدامون لا البناءون، القتل لا الضحايا، وقد لجأت إلى أجاثا كأفضل قاضية في عصرنا، حيث غاب القضاة، أرجو أن لا تتردد في نشرها! وحبذا لو جعلت عنوانها "ظلال قبة أجاثا كريستي!" قلت منتفضا: لا ، لا، أنغام القيثارة هي لحن ماضي الحزين، هي النشيد الجنائزي الذي نشيع عليه أحلامنا القديمة إلى ماثواها الأخير! ورحت اضحك قائلا:

- صرت أكثر تشاؤما، بينما بعد لقائك بعواطف ينبغي أن تكون متفائلا، أجبتي بهدوء، أنا فرح لما هو شخصي، حزين

لما هو عام، لا ينبغي تجاهل الحقيقة مهما كانت قاسية! ناولتك ورقة بملاحظاتى، قائلاً، أنا كما تعرف عامل كهرباء اشتغلت في الصحافة مساء وكنت أحرر صفحة الوفيات، وأحياناً أكتب قصائد قلما انشرها، من الغريب إنني في السويد عملت في إنتاج خشب التوابيت، ثمة حزن عميق يشدني للكتابة! قلت لي إنك تقدر ذائقتي وخبرتي، وإنك، تعتز بملاحظاتى وستأخذ بما سنتقنع به منها! لاحظت إنك أقللت من التدخين، طيلة جلستنا لم تدخن سوى سيجارتين كنت أرقبك، قلت لك وجود عواطف إلى جانبك سيكون محفزاً لتستعيد قدراتك التي جمدها ثلوج السويد وتقدم ما كنا ننتظره منك، رواية ومقالات، فأنت لديك الكثير مما يجب عليك قوله، لكنك لذت بالصمت، ونظراتك تعبر نافذة المقهى الكبير باتجاه فضاء حديقة عامة كبيرة في جوارنا، حدثتك أن روايتك ازدهمت بقصص الحب الكثيرة، حب أجاثا، وماكس، حب ثيسجر ألبنت المعيدي، حب الكثيرين لها مع وحشية الضابط الإنجليزي، حب ذلك الطباخ للراهبة في حلب وانتحاره، ربما في كل هذه كنت تحاول لم حطام كأس الماضي الذي كان مترعاً بالحب وهوت به يد غليظة! قلت أنت، وأنا أكتب الرواية كنت أشعر إنني ألاعب الموت وأشغله عني، فقد كان يخيفني كثيراً، كيف أموت دون أن أراها؟ بعد أن عادت لي عواطف، أشك إنني أستطيع أن أكتب شيئاً جديداً، فالموت لم يعد يخيفني، لماذا أشغله عني؟ لأترك قاربي يمضي في هذا النهر المكون من موجة حب، وموجة موت. قلت لك ونحن نهم بالنهوض لمغادرة المقهى،

- كنت في الرواية تلعب مع الحب لا مع الموت، كان الموت غافلاً عنك يلعب مع نفسه، كل أبداع هو مراوغة للموت، لذلك فإن عواطف بذكائها وفطنتها لن تدعك تتوقف عن الكتابة لأنها تريدك أن تعيش طويلاً، وهي أيضاً ترفض أن تكون أيقونة

للعبادة، لا تنس هي لديها كتب وصديقات وأهل وقلب وقطة
ودواجن وأزهار وشجر في الحديقة، وربما طفل أو طفلان!
رحت تبتسم فرحا كطفل وأنت تردد، كيف عرفت؟ هي فعلا
كذلك، أتذكر ذلك؟

إبراهيم أحمد



قاص وروائي وكاتب عراقي - مواليد هيت - محافظة الأنبار - العراق
1942. خريج كلية الحقوق العام 1967.

بدأ النشر في الصحف عام 1965 وكتب الكثير من المقالات
والتحقيقات الصحفية . وقصائد النثر ، وكتب برنامجاً إذاعياً يومياً
لإذاعة بغداد منذ عام 1968 واستمر حتى عام 1973، حيث أوقف من
قبل السلطة آنذاك.

يُعد من أبرز رواد القصة القصيرة جداً في العراق. شكلت مجموعته
(عشرون قصة قصيرة جداً) الصادرة عام 1976 عن دار الرواد
انعطافاً واضحة في هذا تيار القصة القصيرة جداً، التي أضحت فيما بعد
تياراً واسعاً في العراق.

نشر له رجاء النقاش القصة القصيرة (صفارات الإنذار في مدينة
قابيش) في مجلة الطليعة. عام 1973. في القاهرة منوهاً بها.

اضطر تحت الملاحقة لمغادرة العراق سرّاً عام 1979. تنقل في المنافي بين سوريا والجزائر وهنغاريا، يسكن السويد منذ عام 1989. ويقيم في القاهرة لفترات.

مارس العمل السياسي والثقافي المباشر لعقود طويلة، وانخرط في نشاط المعارضة العراقية في الخارج ، وساهم بعملها التنظيمي والإعلامي.

اضطهد حكام بغداد عائلته. وصادروا بيته أوائل عام 1986 ومنعوا تداول كتبه.

أدرجت له قصص ضمن كتاب مدرسي مقرر على طلاب المدارس الثانوية في السويد عن أدب الشرق الأوسط. وتُرجمت له العديد من القصص إلى لغات مختلفة كالإنجليزية والألمانية والسويدية والنرويجية والروسية وغيرها..

على مدى سنوات المنفى الطويلة نشر قصصه و الكثير من المقالات والتحقيقات الصحفية في العديد من الصحف والمجلات العربية والأجنبية.

تم تحويل بعض من قصصه إلى أفلام سينمائية ونالت جوائز عالمية. لديه روايات ومجموعات قصصية، وثلاث مجاميع شعرية من قصائد النثر ومقالات ثقافية وسياسية مُعدة للطبع.

- عضو اتحاد الأدباء العراقيين منذ عام 1970.
- عضو اتحاد الكتاب السويديين منذ عام 1991.
- عضو نادي القلم العالمي. منذ عام 1995.
-

صدر له في العراق قبل المنفى:

1. عشرون قصة قصيرة جداً - قصص - 1976 - دار الرواد - بغداد.
2. زهور في يد المومياء - قصص - 1981 - وزارة الإعلام العراقية - بغداد. وقد حُذفت منها عدداً من القصص والفقرات.

صدر له في المنفى:

3. صفارات الإنذار - قصص - دار صحارى بيروت 1991.
4. بعد مجيء الطير - قصص - دار صحارى بيروت 1994.
5. المرأة ، - قصص - دار الكنوز الأدبية بيروت ودار المنفى السويد 1995.
6. طفل السي إن إن رواية - دار الكنوز الأدبية بيروت ودار المنفى السويد عام 1996.
7. النتيه في أيس - قصص - دار الكنوز الأدبية بيروت ودار المنفى السويد عام 1999. (جزء أول من سيرة مدينة قديمة في أعالي الفرات، والجزء الثاني "العين السحرية" معد للطبع).
8. لارا زهرة البراري - قصص - دار الكنوز الأدبية بيروت ودار المنفى في السويد 2001.
9. أنت تشبه السيد المسيح - قصص - دار الشئون الثقافية العامة، بغداد 2004.
10. الاتحاد أو العقيد ومعجزته الأخيرة - رواية - دار المنفى في السويد 2005.
11. محاولة في تحليل المسألة الطائفية في العراق - مقالات - منشورات تموز ، مالمو ، السويد 2006.
12. قصة حب لزهرة الأوركيديا - قصص - الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2008 ، طبعة ثانية دار فيشون السويدية .
13. قطرة بلا شعر - قصص - دار فيشون ميديا 2010 السويد.
14. ليلة الهدد - رواية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2013 طبعة ثانية دار فيشون السويدية.
15. 66 قصة قصيرة جدا - قصص - دار العرب والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت 2015 .

16. **قيثارة أجاثا كريستي** - رواية - دار العرب والدار العربية للعلوم
ناشرون بيروت 2016
17. **مناهة الأذكىاء " شاعران ودكتاتور "** - رواية - دار المتوسط -
إيطاليا 2019
18. **أوتار العكاز (عثمان الموصلي)** - رواية - دائرة الشؤون الثقافية
وزارة الثقافة بغداد
19. **لماذا تبكي كلما رأيت زهرة الأقحوان** - قصص اتحاد الأدباء في
العراق 2022
20. **ذكرياتي مع الجواهري: الوطن والمنفى** نُشرت في مجلة الأقلام
العراقية على حلقات وقيد الطبع بكتاب - دائرة الشؤون الثقافية
وزارة الثقافة.
21. صدرت له مجموعة قصص مترجمة إلى السويدية بعنوان (أنت
تشبه السيد المسيح)، عام 2010 عن دار فيشون في السويد- وبثت
منها قصته "حالة خاصة جدا" عبر الإذاعة المحلية السويدية.

تحت الطبع

22. **"مقالات في ما فات وما مات"** منشورة في صحف مختلفة وتتناول
وضع العراق الراهن.